

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري - قسنطينة  
كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية  
قسم الفلسفة  
رقم التسجيل: .....  
الرقم التسلسلي: .....

عنوان البحث:

الأخر في جدلية التاريخ  
عند هيجل

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الفلسفة

إشراف الأستاذة الدكتور:  
إسماعيل زروخي

إعداد الطالب:  
عبد الله بوقرن

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. عبد	الرزاق	أستاذ	التعليم	رئيس	جامعة الجزائر
قسوم		العالي			
أ.د. إسماعيل		أستاذ	التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة منتوري
زروخي					قسنطينة
أ.د. فريدة		أستاذ	التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة منتوري
غـيـوة					قسنطينة
أ.د. عليوان		أستاذ	التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة منتوري
السعيد					قسنطينة
د. عبد	القادر	أستاذ	التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة السانوية وهران
بوعرفة					
تاريخ المناقشة:					.....

السنة الجامعية 1427-1428هـ/2006-2007م.

# شكر وتقدير

أشكر الله تعالى جزيل الشكر الذي أعانني رغم المشاكل والعراقيل على إنجاز هذا العمل المتواضع، كمنا أوجه شكري الخالص إلى كافة أساتذتي في جامعة الجزائر، وأخص بالذكر منهم الأستاذ عبد الله شريط، ، الشيخ أبو عمران، عمار طالبي، والأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم، كما أوجه شكري الخاص إلى الأستاذ المشرف د/إسماعيل زروقي الذي لم يبخل علي بجهده ووقته وإلى كافة الزملاء في جامعات قسنطينة، والجزائر، وباتنة، ووهران، وبعض الجامعات خارج الوطن على إعانتهم لي بكل ما تيسر لديهم لإتمام هذا العمل المتواضع والله الحمد.

عبد الله بوقرن

إن عملية البحث في الفلسفة بوصفها شكلا من أشكال التعبير الإنساني تعد مسألة هامة لأنها تشبع فضول الإنسان في موضوع معين تعجز بقية العلوم عن الخوض فيه .

وحيوية من حيث دلالتها على مواصلة البحث والدعوة إلى البحث المستمر في فلسفة التاريخ، حيث يحاول الفيلسوف استشراف المستقبل بالعودة إلى الماضي ناقدا وفاحصا، وبالتالي مستدلا ومستنتجا خاصة إذا تعلق الأمر بتفسير حركية التاريخ من طرف الفيلسوف الألماني " هيغل " وهو الذي أسال حبر الكثير من النقاد والدارسين خاصة بصياغته النوعية في تناول الآخر وإعادة قراءة التاريخ العالمي وهو الأمر الذي يفتح شهية أي باحث لمعرفة وجهة نظره حول الآخر الشرقي .

تمثل أهمية فلسفة التاريخ في التفكير الفلسفي عموما من حيث أنها تؤكد على أهمية التاريخ في حياة الشعوب والأمم، وبالتالي على قيمة الوعي التاريخي، الذي يعبر عن وعي الذات لكيونتتها وصبورتها في التاريخ وصناعتها له، وفي موقف هيغل من جدلية الحضارات وتفاعلها وتواصلها في الزمان من حيث ما هو "ماضي وحاضر ومستقبل".

إذن فما هي صورة الآخر في مرآة فلسفة التاريخ الهيجلية خصوصا، وانسحابها على الرؤى الفلسفية الغربية عموما؟، تلك الرؤى التي طالما أسست لثقافة المهيمنة والإحتقار و نظرت للإستعمار مدعية تفوق الإنسان الأوروبي الأبيض محولة له الحق في تحضير الآخر الذي اعتبرته بربريا همجيا متخلفا ومكبلا بالأغلال وقد كانت جدلية السيد والعبد من بين الفرضيات التي أعطت الإستعمار الضوء الأخضر لغزو الآخر والإنتشار في بقاع خارج مجاله، تحت غطاء نشر الحضارة والقيم الإنسانية.

هذه الإشكالية تتركز على اختبار مجموعة من التساؤلات أهمها:

ما علاقة فلسفة التاريخ بالفلسفة الإنسانية؟ ما مذهب هيغل التاريخي؟ من أين استقى

هيغل طروحاته؟ ثم ما هي نظرتة لإنجازات الآخر؟:

هل جاءت فلسفة التاريخ الهيجلية لتنير الطريق أمام شعوب العالم الشرقي وتأخذ بيدها لالتحاق بالركب الحضاري، أم أنها جاءت لكي تكرر النظرية العرقية من خلال تمجيدها للإنسان الأوروبي الأبيض؟ وبالتالي ماذا يمثل الإنسان الجرمني في حركية التاريخ الهيجلية؟.

لو حاولنا قياس الموضوعية في فكر هيغل يا ترى هل أنصفت فلسفة التاريخ الهيجلية الإنسان الشرقي عموما والعربي الإسلامي خصوصا و اعترفت بدوره ومكانته قديما وحديثا في بناء وتفعيل الحضارة اليونانية قديما والنهضة الأوروبية حديثا؟.

و هل عملت هذه الفلسفة على ربط أواصر الإنسانية أو أنها سعت إلى إحداث القطيعة مع الآخر؟.

وكيف نظر هيغل إلى الحضارات الإنسانية عموما والشرقية خصوصا؟ وماذا كان موقفه من الحضارة الإسلامية؟. ثم ما موقف الؤرخ المسلم من الآخر عموما والغربي على الخصوص.

هل أضافت فلسفة هيغل شيئا ذا أهمية للرصيد الفلسفي الإنساني؟

إن البحث عن إجابة لهذه التساؤلات قد كان من بين أهم الدوافع التي جعلتني أختار هذا الموضوع، إضافة إلى طموحي في إبراز دور و مكانة فلسفة التاريخ في الحياة البشرية من حيث أنها تساعدنا على التطلع إلى الأثر أو الفعل البشري عندما يعبر الإنسان ولو بصورة بسيطة عن كينونته وتطوره ودرجة وعيه بذاته وبما يحيط به ويدرك ضرورة التكتل ليس لأننا فحسب بل وللآخر أيضا من أجل الوصول إلى وعي البشرية بالأخطار التي تتهددها وتوحد مصيرها وتدعوها إلى التقليل من الإضرار بالبيئة وبالإنسان الآخر و بذلك نعمل جاهدين إلى وضع خطط للسلام والتواصل العالميين كما يرى كانط.

إن هيغل أحسن من عبر عن الوعي متجليا في الفلسفة والفن والدين والدولة وهذا في جدلية خاصة به قائمة على الصراع .

مع العلم أن النظرة إلى هذا الموضوع لم تكن معاصرة بل لقد تعرض إليها كثير من أعلام الفلسفة في الشرق أمثال "غاندي" في الشرق الأقصى و"مالك بن نبي" في الجزائر... إلخ. لكنني ارتأيت أن أهتم بهذا الموضوع نظرا لخصوصية المرحلة المعاصرة التي تستدعي التواصل مع الآخر كضرورة و حتمية يفرضها بروز عدة مسائل على الساحة الإنسانية العالمية منها انتشار الحروب و فتكها بالحضارات العريقة و إضرارها بالحيث البيئي العالمي جراء الإنتهاكات البشرية غير المسبوقة ضد الطبيعة والإنسان.

**الفصل الأول :** تناولت فيه التعريف بمصطلحات العنوان فتطرقت للآخر منذ فترة اليونان التي تأثر بها هيغل خاصة وأن المصطلح يتخذ طابع العرقية أولا ثم يتطور إلى مفهومي الحرية والديمقراطية وبما أن جدلية التاريخ عند هيغل تعني النظر إلى التاريخ نظرة فلسفية فإنني تناولت بالتعريف الفلسفة والتاريخ ، ثم حاولت ضبط مفهوم "فلسفة التاريخ".

**أما في الفصل الثاني :** فقد تناولت فلاسفة التاريخ قبل هيغل فقدمت نبذات بسيطة عن حياة كل من القديس أغسطين وعبد الرحمن بن خلدون وفيكو وبوسويه ومونتيسكيو وفولتير وجان جاك روسو وإمانويل كانط وكوندراسيه وهردر .مؤكد أن إيرادي لهؤلاء المفكرين قبل التطرق لفلسفة التاريخ الهيجلية لم يكن محظ صدفة ،ولاعملية عشوائية بل تم التركيز على هذه الزمرة بالذات من باب إبراز الجوانب التي تأثر بها هيغل وللتأكيد أن ماكتبه لم يكن من العدم ولا من إبتكاره الخاص.

**أما الفصل الثالث :**فتناولت فيه مصادر فلسفة هيغل وأسباب نبوغه حيث تعرضت إلى المؤثرات الأسرية وإلى المحيط الأوروبي القريب منه كالأنوار والثورة الفرنسية وكذا أوضاع ألمانيا ورغبة أبيه في أن يصبح هيغل راعيا رسوليا للكنيسة حيث تعارضت طموحاته الشخصية في العودة إلى الأصول اليونانية اللاتينية مع رغبة الأسرة وهذا ما دفعه إلى التخلي عن فكرة رجل الدين بعد وفاة أبيه ولكنه ظهر في شخصيته التأثير اليوناني اللاتيني إلى جانب اليهودية والمسيحية

ولا أنسى أن أذكر بإعجابه بالديانة الوثنية اليونانية على حساب ديانات الشرق الأقصى و بلاد فارس و مصر .

**أما الفصل الرابع :** فقد تناولت فيه مناهج كتابة التاريخ عند هيغل ، حيث استعرضت أهم المناهج الافتراضية مبتدئا بالتاريخ الأصلي معتبرا بدايته باليونان ثم الرومان و أخيرا ما كتبه الرهبان الكاثوليك ، ثم التريخ النظري الذي يقترب كثيرا من الأصلي، فالتاريخ الفلسفي العام و الذي يبتدأ حسبه جزئيا باليونان و الرومان و يصل إلى ذروته عند الجرمان و في **الفصل الخامس :** طرحت اشكالية "من يحرك التاريخ" ، في نظر هيغل ؟ هل هم العظماء أم الحروب أم دهاء العقل؟ موضحا أن هيغل المعجب بالثورة الفرنسية يعتبر الحرب و عمل العظماء أداتين ضروريتين لتغيير المجتمعات و تحريك عجلة التاريخ.

و في هذا الفصل قارنت بين موقفي غاندي و مالك بن نبي من جهة و هيغل من جهة أخرى حول إمكانية إيجاد بديل للصراع و الحروب و التعبير بطريقة سلمية.

**أما في الفصل السادس :** فقد تناولت دور كل من العقل و الحرية في تحديد مسار و ماهية الروح. حيث تطرقت إلى دور العقل في التاريخ و إلى الحرية بين الأنا الغربي و الآخر الشرقي ، بعد أن تطرقت إلى تجليات الروح من خلال الدين و الفن و الفلسفة بين الأنا الأوروبي و الآخر الشرقي .

مستندا إلى كتابات باقر الصدر في موضوع فلسفة التاريخ و نقده لمذهب هيغل المثالي .

**في الفصل السابع :** تناولت نظرة هيغل إلى الشرق الأقصى أي إلى إمبراطوريتي الصين و الهند ، و هو الذي استعمل الجغرافيا لتحديد مسار التاريخ حيث قسم العالم إلى أقاليم طبيعية متباينة التضاريس مقصيا المناطق الباردة و الحارة من مسار التاريخ العالمي وركز على السهول الوديانية باعتبارها مناطق حضارية و عند تطرقه للشرق الأقصى أي إمبراطوريتي الصين و الهند فقد طبق على الصين مقولتي المنطق معتبرا إياها بمثابة الجوهر في المنطق للدلالة على بقائها على حالها

لاتتغير أما الهند فقد طبق عليها مقولة العدم لكونها خاضعة للأنا الأوروبي وأن السكون والهدوء  
يكتنفانها .

و قد بينت أن هيغل لو كان حيا اليوم لغير رأيه سواء بالنسبة للصين أو الهند اللتان  
أصبحتا تفلقان الغرب .ممتوجاهتما التكنولوجية الجدهامة المنافسة للسلع الغربية .

و قد قارنت بين دراسة البيروني للهند و السند و دراسة هيغل للعالم الشرقي .

**الفصل الثامن :** تناولت فيه كيفية إدغام هيغل لبلاد ما بين النهرين و الشام في بلاد

فارس و إعتبره إياها إقليما واحدا ، و تركيزه على الديانتين المجوسية واليهودية دون التطرق  
للديانة الإسلامية .

مع الإشارة إستبعاده لمصر التي تمثل الانتقال الخارجي للروح نحو بلاد اليونان ، أما

إفريقيا السوداء على الأصالة كما يقول ، فإنه استبعدها تماما من مسرح التاريخ .

أما إفريقيا الأوروبية -و التي يقصد بها شمال إفريقيا : مراکش ، الجزائر ، تونس و

طربلس- فإنه يعتبرها إقليما أوروبا ، و قد بارك ما تقوم به فرنسا من غزو للجزائر **1830**

قبل وفاته و هو يهدف إلى إرجاع هذا الإقليم إلى طبيعته الأوروبية و ديانته المسيحية .

**أما الفصل التاسع :** فقد أكدت فيه على إعادة قراءة هيغل للتاريخ من منظور المركزية

الغربية ، و لخدمة الإيديولوجيا الإستعمارية التي تعلي من شأن الأنا الأوروبي بداية باليونان

مرورا بالرومان وصولا إلى الجرمان .و في الوقت ذاته تقلل من شأن الآخر سواءا تعلق الأمر

بالزنج أو الهنود الحمر في العالم الجديد أو بسكان الشرق الأقصى ثم هل هذا ينسحب على

العرب والمسلمين؟ .

و ذكرت كيف أنه تنبأ لأمريكا بتبوء مكانة مرموقة في العالم بعد الجرمان و هي نقطة

يلتقي فيها مع تقرير فرانسيسكو فوكو ياما بنهاية التاريخ و بالنظام الجديد الأحادي الذي تنزعه

الولايات المتحدة الأمريكية اليوم.

أما الفصل العاشر فقد تعرضت فيه إلى الهيجلية بين الرفض والقبول سواء حياة هيجل في ألمانيا أوبعد وفاته وكيف انقسم الهيجليون على أنفسهم إلى مجددين ومحافظين . ثم عرجت على الهيجلية في فرنسا وإيطاليا وروسيا والأراضي المنخفضة وبقية أوروبا. ، علما أنني في هذا الفصل اخترت نماذجا فقط نظرا لشساعة القارة وتعدد المدارس والمذاهب الفلسفية المستمدة أصلا من فلسفة هيجل، لذلك فإنني أقر أن ما وضعته في هذا الفصل لا يمكن أن يكون إلا قطرة في بحر.

و في الأخير كانت الخاتمة التي تناولت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث بتوضيح جوانب صورة الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل و التي لا يمكنها أن تكون تعبيرا كليا و مطلقا عن موضوع الصراع الذي يفرضه الأنا الغربي على الآخر الشرقي عموما و العربي الإسلامي على الخصوص . و الذي هو أعمق مما قدمته في هذه الدراسة لذلك أرى أن هذه النتائج ما هي إلا إرهاصات أولية و مقدمة لبحوث مستقبلية سوف تكون أعمق إن شاء الله.

ولدراسة الخطة الميَّنة حاولت الاعتماد على مجموعة من المناهج فرضتها علي طبيعة الدراسة ، منها المنهج التاريخي المقارن والتحليلي حيث كانت نصوص هيجل هي مصدر دراسي الأساسية، و بحيث كنت أحللها و أستخلص منها جملة أو مجموعة من الاستنتاجات، وذلك توخيا للدقة والإلتزام بالموضوعية العلمية في ما يمكن أن أسوقه من أحكام تجاه هيجل مع العلم أن هذا الموضوع (فلسفة التاريخ عند هيجل ) كان محل دراسات أكاديمية سابقة تناولته مثل دراسة الأستاذ رشيد فوقام من جامعة الجزائر، خلال قيامه بتحضير رسالة الماجستير تحت عنوان "فلسفة التاريخ عند هيجل"، كما تناوله الأستاذ علي سعد الله من جامعة منتوري في رسالة دكتوراه تحت عنوان " نظرية الدولة في فكر ابن خلدون وهيجل وأثر الفكر الخلدوني في الفكر الأوروبي".

لكن ما أؤكد عليه أنني تناولت فلسفة التاريخ الهيجلية من منظور آخر ومن جانب مخالف بحيث ركزت على مكانة الآخر و دوره من خلال التفسير الهيجلي للتاريخ، علما أنني أنطلق من فكرة أن ما قمت به هو إتمام وإكمال لتلك الدراسات وليس تكرارا لها.



كما أود أن أقر ببعض الصعوبات التي اعترضتني ولكنني اعتبرها أمرا عاديا و من صميم طبيعة البحث العلمي، وفي هذا السياق أشكر كل من ساعدني بداية بالأستاذ المشرف الذي لم يخل عليّ بوقته الثمين كما أوجه الشكر لجميع الزملاء اللذين لم ييخلوا علي بتوفير بعض المصادر أو المراجع أو بترجمة بعض النصوص من اللغات الأجنبية وقد كانوا (الزملاء) من مختلف جامعات الوطن ومن الخارج أيضا، كما لا أنسى القائمين على مكتبي كل من جامعة منتوري وجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ومكتبي جامعة باتنة، و الجزائر العاصمة، كما أوجه شكرا خاصا لزوجتي ولكافة أفراد أسرتي ولكل من أشرف على كتابة هذا البحث وطبعه وتهيئته على صبرهم معي.

كما أهدي هذا العمل إلى روح أبي الذي شاء القدر أن يغادرنا في خريف 2006، وأنا في صميم تحضير هذا العمل وفي الوقت ذاته أهديها إلى الكتكوت عمار زين الدين الذي ولد في أول خريف 2006 ليحمل اسم جده تأكيدا على تواصل الأجيال بيولوجيا مع فارق التقدم الحضاري.

إن عملية البحث في الفلسفة بوصفها شكلا من أشكال التعبير الإنساني تعد مسألة هامة لأنها تشبع فضول الإنسان في موضوع معين تعجز بقية العلوم عن الخوض فيه .

وحيوية من حيث دلالتها على مواصلة البحث والدعوة إلى البحث المستمر في فلسفة التاريخ، حيث يحاول الفيلسوف استشراف المستقبل بالعودة إلى الماضي ناقدا وفاحصا، وبالتالي مستدلا ومستنتجا خاصة إذا تعلق الأمر بتفسير حركية التاريخ من طرف الفيلسوف الألماني " هيغل " وهو الذي أسال حبر الكثير من النقاد والدارسين خاصة بصياغته النوعية في تناول الآخر وإعادة قراءة التاريخ العالمي وهو الأمر الذي يفتح شهية أي باحث لمعرفة وجهة نظره حول الآخر الشرقي .

تتمثل أهمية فلسفة التاريخ في التفكير الفلسفي عموما من حيث أنها تؤكد على أهمية التاريخ في حياة الشعوب والأمم، وبالتالي على قيمة الوعي التاريخي، الذي يعبر عن وعي الذات لكيونتتها وصبورتها في التاريخ وصناعتها له، وفي موقف هيغل من جدلية الحضارات وتفاعلها وتواصلها في الزمان من حيث ما هو "ماضي وحاضر ومستقبل".

إذن فما هي صورة الآخر في مرآة فلسفة التاريخ الهيجلية خصوصا، وانسحابها على الرؤى الفلسفية الغربية عموما؟، تلك الرؤى التي طالما أسست لثقافة المهيمنة والإحتقار و نظرت للإستعمار مدعية تفوق الإنسان الأوروبي الأبيض محولة له الحق في تحضير الآخر الذي اعتبرته بربريا همجيا متخلفا ومكبلا بالأغلال وقد كانت جدلية السيد والعبد من بين الفرضيات التي أعطت الإستعمار الضوء الأخضر لغزو الآخر والإنتشار في بقاع خارج مجاله، تحت غطاء نشر الحضارة والقيم الإنسانية.

هذه الإشكالية تتركز على اختبار مجموعة من التساؤلات أهمها:

ما علاقة فلسفة التاريخ بالفلسفة الإنسانية؟ ما مذهب هيغل التاريخي؟ من أين استقى

هيغل طروحاته؟ ثم ما هي نظرتة لإنجازات الآخر؟:

هل جاءت فلسفة التاريخ الهيجلية لتنير الطريق أمام شعوب العالم الشرقي وتأخذ بيدها لالتحاق بالركب الحضاري، أم أنها جاءت لكي تكرر النظرية العرقية من خلال تمجيدها للإنسان الأوروبي الأبيض؟ وبالتالي ماذا يمثل الإنسان الجرمني في حركية التاريخ الهيجلية؟.

لو حاولنا قياس الموضوعية في فكر هيغل يا ترى هل أنصفت فلسفة التاريخ الهيجلية الإنسان الشرقي عموما والعربي الإسلامي خصوصا و اعترفت بدوره ومكانته قديما وحديثا في بناء وتفعيل الحضارة اليونانية قديما والنهضة الأوروبية حديثا؟.

و هل عملت هذه الفلسفة على ربط أواصر الإنسانية أو أنها سعت إلى إحداث القطيعة مع الآخر؟.

وكيف نظر هيغل إلى الحضارات الإنسانية عموما والشرقية خصوصا؟ وماذا كان موقفه من الحضارة الإسلامية؟. ثم ما موقف الؤرخ المسلم من الآخر عموما والغربي على الخصوص.

هل أضافت فلسفة هيغل شيئا ذا أهمية للرصيد الفلسفي الإنساني؟

إن البحث عن إجابة لهذه التساؤلات قد كان من بين أهم الدوافع التي جعلتني أختار هذا الموضوع، إضافة إلى طموحي في إبراز دور و مكانة فلسفة التاريخ في الحياة البشرية من حيث أنها تساعدنا على التطلع إلى الأثر أو الفعل البشري عندما يعبر الإنسان ولو بصورة بسيطة عن كينونته وتطوره ودرجة وعيه بذاته وبما يحيط به ويدرك ضرورة التكتل ليس لأننا فحسب بل وللآخر أيضا من أجل الوصول إلى وعي البشرية بالأخطار التي تتهددها وتوحد مصيرها وتدعوها إلى التقليل من الإضرار بالبيئة وبالإنسان الآخر و بذلك نعمل جاهدين إلى وضع خطط للسلام والتواصل العالميين كما يرى كانط.

إن هيغل أحسن من عبر عن الوعي متجليا في الفلسفة والفن والدين والدولة وهذا في جدلية خاصة به قائمة على الصراع .

مع العلم أن النظرة إلى هذا الموضوع لم تكن معاصرة بل لقد تعرض إليها كثير من أعلام الفلسفة في الشرق أمثال "غاندي" في الشرق الأقصى و"مالك بن نبي" في الجزائر... إلخ. لكنني ارتأيت أن أهتم بهذا الموضوع نظرا لخصوصية المرحلة المعاصرة التي تستدعي التواصل مع الآخر كضرورة و حتمية يفرضها بروز عدة مسائل على الساحة الإنسانية العالمية منها انتشار الحروب و فتكها بالحضارات العريقة و إضرارها بالحيث البيئي العالمي جراء الإنتهاكات البشرية غير المسبوقة ضد الطبيعة والإنسان.

**الفصل الأول :** تناولت فيه التعريف بمصطلحات العنوان فتطرقت للآخر منذ فترة اليونان التي تأثر بها هيغل خاصة وأن المصطلح يتخذ طابع العرقية أولا ثم يتطور إلى مفهومي الحرية والديمقراطية وبما أن جدلية التاريخ عند هيغل تعني النظر إلى التاريخ نظرة فلسفية فإنني تناولت بالتعريف الفلسفة والتاريخ ، ثم حاولت ضبط مفهوم "فلسفة التاريخ".

**أما في الفصل الثاني :** فقد تناولت فلاسفة التاريخ قبل هيغل فقدمت نبذات بسيطة عن حياة كل من القديس أغسطين وعبد الرحمن بن خلدون وفيكو وبوسويه ومونتيسكيو وفولتير وجان جاك روسو وإمانويل كانط وكوندراسيه وهردر .مؤكد أن إيرادي لهؤلاء المفكرين قبل التطرق لفلسفة التاريخ الهيجلية لم يكن محظ صدفة ،ولاعملية عشوائية بل تم التركيز على هذه الزمرة بالذات من باب إبراز الجوانب التي تأثر بها هيغل وللتأكيد أن ماكتبه لم يكن من العدم ولا من إبتكاره الخاص.

**أما الفصل الثالث :**فتناولت فيه مصادر فلسفة هيغل وأسباب نبوغه حيث تعرضت إلى المؤثرات الأسرية وإلى المحيط الأوروبي القريب منه كالأنوار والثورة الفرنسية وكذا أوضاع ألمانيا ورغبة أبيه في أن يصبح هيغل راعيا رسوليا للكنيسة حيث تعارضت طموحاته الشخصية في العودة إلى الأصول اليونانية اللاتينية مع رغبة الأسرة وهذا ما دفعه إلى التخلي عن فكرة رجل الدين بعد وفاة أبيه ولكنه ظهر في شخصيته التأثير اليوناني اللاتيني إلى جانب اليهودية والمسيحية

ولا أنسى أن أذكر بإعجابه بالديانة الوثنية اليونانية على حساب ديانات الشرق الأقصى و بلاد فارس و مصر .

**أما الفصل الرابع :** فقد تناولت فيه مناهج كتابة التاريخ عند هيغل ، حيث استعرضت أهم المناهج الافتراضية مبتدئا بالتاريخ الأصلي معتبرا بدايته باليونان ثم الرومان و أخيرا ما كتبه الرهبان الكاثوليك ، ثم التريخ النظري الذي يقترب كثيرا من الأصلي، فالتاريخ الفلسفي العام و الذي يبتدأ حسبه جزئيا باليونان و الرومان و يصل إلى ذروته عند الجرمان و في **الفصل الخامس :** طرحت اشكالية "من يحرك التاريخ" ، في نظر هيغل ؟ هل هم العظماء أم الحروب أم دهاء العقل؟ موضحا أن هيغل المعجب بالثورة الفرنسية يعتبر الحرب و عمل العظماء أداتين ضروريتين لتغيير المجتمعات و تحريك عجلة التاريخ.

و في هذا الفصل قارنت بين موقفي غاندي و مالك بن نبي من جهة و هيغل من جهة أخرى حول إمكانية إيجاد بديل للصراع و الحروب و التعبير بطريقة سلمية.

**أما في الفصل السادس :** فقد تناولت دور كل من العقل و الحرية في تحديد مسار و ماهية الروح. حيث تطرقت إلى دور العقل في التاريخ و إلى الحرية بين الأنا الغربي و الآخر الشرقي ، بعد أن تطرقت إلى تجليات الروح من خلال الدين و الفن و الفلسفة بين الأنا الأوروبي و الآخر الشرقي .

مستندا إلى كتابات باقر الصدر في موضوع فلسفة التاريخ و نقده لمذهب هيغل المثالي .

**في الفصل السابع :** تناولت نظرة هيغل إلى الشرق الأقصى أي إلى إمبراطوريتي الصين و الهند ، و هو الذي استعمل الجغرافيا لتحديد مسار التاريخ حيث قسم العالم إلى أقاليم طبيعية متباينة التضاريس مقصيا المناطق الباردة و الحارة من مسار التاريخ العالمي وركز على السهول الوديانية باعتبارها مناطق حضارية و عند تطرقه للشرق الأقصى أي إمبراطوريتي الصين و الهند فقد طبق على الصين مقولتي المنطق معتبرا إياها بمثابة الجوهر في المنطق للدلالة على بقائها على حالها

لاتتغير أما الهند فقد طبق عليها مقولة العدم لكونها خاضعة للأنا الأوروبي وأن السكون والهدوء  
يكتنفانها .

و قد بينت أن هيغل لو كان حيا اليوم لغير رأيه سواء بالنسبة للصين أو الهند اللتان  
أصبحتا تفلقان الغرب .ممتوجاهتما التكنولوجية الجدهامة المنافسة للسلع الغربية .

و قد قارنت بين دراسة البيروني للهند و السند و دراسة هيغل للعالم الشرقي .

**الفصل الثامن :** تناولت فيه كيفية إدغام هيغل لبلاد ما بين النهرين و الشام في بلاد

فارس و إعتبره إياها إقليما واحدا ، و تركيزه على الديانتين المجوسية واليهودية دون التطرق  
للديانة الإسلامية .

مع الإشارة إستبعاده لمصر التي تمثل الانتقال الخارجي للروح نحو بلاد اليونان ، أما

إفريقيا السوداء على الأصالة كما يقول ، فإنه استبعدها تماما من مسرح التاريخ .

أما إفريقيا الأوروبية -و التي يقصد بها شمال إفريقيا : مراکش ، الجزائر ، تونس و

طربلس- فإنه يعتبرها إقليما أوروبيا ، و قد بارك ما تقوم به فرنسا من غزو للجزائر **1830**

قبل وفاته و هو يهدف إلى إرجاع هذا الإقليم إلى طبيعته الأوروبية و ديانته المسيحية .

**أما الفصل التاسع :** فقد أكدت فيه على إعادة قراءة هيغل للتاريخ من منظور المركزية

الغربية ، و لخدمة الإيديولوجيا الإستعمارية التي تعلي من شأن الأنا الأوروبي بداية باليونان

مرورا بالرومان وصولا إلى الجرمان .و في الوقت ذاته تقلل من شأن الآخر سواءا تعلق الأمر

بالزنج أو الهنود الحمر في العالم الجديد أو بسكان الشرق الأقصى ثم هل هذا ينسحب على

العرب والمسلمين؟ .

و ذكرت كيف أنه تنبأ لأمريكا بتبوء مكانة مرموقة في العالم بعد الجرمان و هي نقطة

يلتقي فيها مع تقرير فرانسيسكو فوكو ياما بنهاية التاريخ و بالنظام الجديد الأحادي الذي تترجمه

الولايات المتحدة الامريكية اليوم.

أما الفصل العاشر فقد تعرضت فيه إلى الهيجلية بين الرفض والقبول سواء حياة هيجل في ألمانيا أوبعد وفاته وكيف انقسم الهيجليون على أنفسهم إلى مجددين ومحافظين . ثم عرجت على الهيجلية في فرنسا وإيطاليا وروسيا والأراضي المنخفضة وبقية أوروبا. ، علما أنني في هذا الفصل اخترت نماذجا فقط نظرا لشساعة القارة وتعدد المدارس والمذاهب الفلسفية المستمدة أصلا من فلسفة هيجل، لذلك فإنني أقر أن ما وضعته في هذا الفصل لا يمكن أن يكون إلا قطرة في بحر.

و في الأخير كانت الخاتمة التي تناولت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث بتوضيح جوانب صورة الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل و التي لا يمكنها أن تكون تعبيرا كليا و مطلقا عن موضوع الصراع الذي يفرضه الأنا الغربي على الآخر الشرقي عموما و العربي الإسلامي على الخصوص . و الذي هو أعمق مما قدمته في هذه الدراسة لذلك أرى أن هذه النتائج ما هي إلا إرهاصات أولية و مقدمة لبحوث مستقبلية سوف تكون أعمق إن شاء الله.

ولدراسة الخطة الميَّنة حاولت الاعتماد على مجموعة من المناهج فرضتها علي طبيعة الدراسة ، منها المنهج التاريخي المقارن والتحليلي حيث كانت نصوص هيجل هي مصدر دراسي الأساسية، و بحيث كنت أحللها و أستخلص منها جملة أو مجموعة من الاستنتاجات، وذلك توخيا للدقة والإلتزام بالموضوعية العلمية في ما يمكن أن أسوقه من أحكام تجاه هيجل مع العلم أن هذا الموضوع (فلسفة التاريخ عند هيجل ) كان محل دراسات أكاديمية سابقة تناولته مثل دراسة الأستاذ رشيد فوقام من جامعة الجزائر، خلال قيامه بتحضير رسالة الماجستير تحت عنوان "فلسفة التاريخ عند هيجل"، كما تناوله الأستاذ علي سعد الله من جامعة منتوري في رسالة دكتوراه تحت عنوان " نظرية الدولة في فكر ابن خلدون وهيجل وأثر الفكر الخلدوني في الفكر الأوروبي".

لكن ما أؤكد عليه أنني تناولت فلسفة التاريخ الهيجلية من منظور آخر ومن جانب مخالف بحيث ركزت على مكانة الآخر و دوره من خلال التفسير الهيجلي للتاريخ، علما أنني أنطلق من فكرة أن ما قمت به هو إتمام وإكمال لتلك الدراسات وليس تكرارا لها.

كما أود أن أقر ببعض الصعوبات التي اعترضتني ولكنني اعتبرها أمرا عاديا و من صميم طبيعة البحث العلمي، وفي هذا السياق أشكر كل من ساعدني بداية بالأستاذ المشرف الذي لم يخل عليّ بوقته الثمين كما أوجه الشكر لجميع الزملاء اللذين لم ييخلوا علي بتوفير بعض المصادر أو المراجع أو بترجمة بعض النصوص من اللغات الأجنبية وقد كانوا (الزملاء) من مختلف جامعات الوطن ومن الخارج أيضا، كما لا أنسى القائمين على مكتبي كل من جامعة منتوري وجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ومكتبي جامعة باتنة، و الجزائر العاصمة، كما أوجه شكرا خاصا لزوجتي ولكافة أفراد أسرتي ولكل من أشرف على كتابة هذا البحث وطبعه وتهيئته على صبرهم معي.

كما أهدي هذا العمل إلى روح أبي الذي شاء القدر أن يغادرنا في خريف 2006، وأنا في صميم تحضير هذا العمل وفي الوقت ذاته أهديها إلى الكتكوت عمار زين الدين الذي ولد في أول خريف 2006 ليحمل اسم جده تأكيدا على تواصل الأجيال بيولوجيا مع فارق التقدم الحضاري.



# الفصل الأول

التعريف بمصطلحات العنوان

مدخل: بداية ينبغي التنبيه إلى المشكلة التي تواجهنا في بداية بحثنا هذا، ألا وهي المصطلحات، خاصة وأن الفيلسوف موضوع الدراسة، اشتهر بمصطلحاته المعقدة، لذلك ارتأيت أن أبتدئ بهذه الأخيرة "المصطلحات" الواردة في عنوان الرسالة بحيث أحاول تحديد مفاهيمها بهدف ضبط جوانب الموضوع وذلك من شأنه أن يساعدني في توضيح مضمون الرسالة.

### أولاً: الآخر: نبذة تاريخية حول تطور مفهوم الآخر

إذا أردنا تحديد مفهوم الآخر في الثقافة الغربية وبالضبط في جذورها اليونانية فإن أرسطو<sup>1</sup> Aristotele - الذي تأثر بأحد المفاهيم السائدة - ألا وهو أن الآلهة قد خلقت اليونانيين من مادة نورانية خاصة، بينما خلقت غيرهم من مواد خسيصة، لذلك فقد اعتبر بأن غير اليوناني يعاني القصور العقلي أو العضلي، على خلاف اليوناني الذي يتمتع بالكمال في الجانبين، ناهيك عن مناخ وجغرافية اليونان بموقعها الممتاز الذي يساعد على الإبداع في مختلف العلوم والفنون، علماً أن هذه الفكرة في القرن الخامس قبل الميلاد حيث وضع مفكر يوناني قديم - وهو تابع للمدرسة الإيبوقراطية - مقالة عن تأثير الجو والمناخ والموقع الجغرافي، إلى جانب تنوع التضاريس وغنى التربة وتنوع النبات في طبائع السكان ونشاطهم، كما ربط بين حركة السكان وتأثير العوامل الطبيعية المذكورة آنفاً في تكوين خصائص الشعوب الأجنبية المعروفة لدى الإغريق وقتئذ، فقد اعتقد هذا الطبيب أنه من الممكن تحديد الصفات الخاصة بشعب ما استناداً إلى العوامل السالفة الذكر. مع العلم أن هذا الطبيب اعتبر تربة اليونان وهواءها وماءها ناهيك عن موقعها الممتاز مما أثر على الشعب اليوناني إيجاباً، وانعكس على إنتاجه الاقتصادي وتقدمه الحضاري، لذلك فقد شاع استخدام مصطلح الآخر الذي انسحب في بداية نشأته على غير اليونان سواء كانوا في الشمال أي العمق الأوربي أو في قارتي إفريقيا وآسيا وبهدف التمييز بين اليوناني المتحضر وغيره المتخلف

<sup>1</sup> - أرسطو: السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، القاهرة، 1960، ص 255.

استخدم أرسطو أهم عناصر الهوية اليونانية ألا وهي اللغة. فأطلق لقب " بربري " على كل من لا يتكلم اللغة " اليونانية " ويمكن استعباده إذا وقع أسيرا. وهكذا فقد تم احتقار " الآخر " وتم الحط من شأنه إلى درجة أنه اعتبر كلامه لغوا " Hoi barbaroi " وبهذه الكيفية تم تحديد هوية الأنا وربطها بالعنصر اليوناني و " الآخر " من هو خارج الدائرة اليونانية، ومنذ القرن الخامس عشر تقمص الأوروبيون التراث اليوناني الروماني وبهذه الكيفية تم التوفيق بين العنصرين الأوروبي المسيحي واليهودي الذي رسخ فكرة أرض الميعاد، التي تتمصها الأوروبيون باعتبارهم أصحاب رسالة حضارية تجاه الآخر سواء في العالم الجديد أو آسيا أو إفريقيا، وقد نظر لهذه الأسطورة فيلسوف التاريخ الإيطالي فيكوجيوفاني في كتابه العلم الجديد كما سيأتي ذكره في الفصل الثاني، وقد تلقى الغرب الحديث فكرة التفوق العرقي العنصري من تراثه التاريخي ومن منبعية الرئيسيين: اليونان والرومان ثم اليهود، حيث استند الأولون إلى الطبيعة. كما أسلفت ذكره أما اليهود فقد استندوا إلى " الله " .

فقد عهدت الطبيعة إلى اليونان والرومان ليكونوا سادة العالم كما عهد " الله " إلى اليهود بأن يقوم هؤلاء وأولئك بالدور القيادي في التاريخ.

### ب - من اللغة اليونانية إلى الديمقراطية:

وهكذا تعددت أوصاف اليونان للعالم البربري بأنه همجي وقديم ومتوحش والدليل على ذلك هو عالم تنعدم فيه الديمقراطية على خلاف عالمهم اليوناني الذي يتمتع بالحرية والديمقراطية المنظم، المتماثل، والمحدود بالبحر، كما اعتقد اليونان بأن البرابرة هم بالطبيعة عميد وأن الأساليب البربرية في الحياة غير مقبولة كليا لدى اليونان والفرس، لذلك كان من المستحيل تصور علاقات وثيقة بين اليونان والفرس، لذلك فقد اعتبرت الحرب ضد الفرس حربا مقدسة أي أن الآلهة قد

<sup>2</sup> - فيلهو هارلي وآخرون: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تعريب: الطاهر لبيب ، مركز دراسات الوحدة العربية،

باركتها<sup>3</sup>، وبأنها الحرب الوحيدة المفضلة على السلام، هنا إشارة واضحة من المفكر إلى نبذ الحروب التي كانت تندلع بين الحين والآخر، بين المدن اليونانية يعني أن الحروب اليونانية اليونانية منبوذة بينما عندما تصبح هذه الحروب ضد الفرس الذي يمثل الآخر فإنها تفضل عن السلام.

في هذا المناخ المشحون والمشبع بكره الآخر نشأت الفلسفة السياسية الكلاسيكية اليونانية كمنافس عنيد لكل ما كان شرقيا - هذا هو التراث اليوناني الذي تشبع به فيلسوفنا الكبير هيجل، كيف لا وقد قال: " إن جو إيونيا الجميل وموقعها الممتاز هما اللذان أوحيا إلى الشاعر اليوناني هوميروس Homeros لكتابة أروع وأرق شعر عرفته الإنسانية "4 - إذا فقد كان التركيز على عبقرية اليونان كافتراض مسبق بان الشرق يمثل نфия أو مصدر خطر، وفي هذا السياق ابتدع كل من أفلاطون Platon وأرسطو نوعا من السياسة تكاد تكون فيها فكرة المجال الحيوي مقدسة حيث استلزمت تلك الفكرة إقامة معالم للتمييز بين الداخل والخارج.

ولتوسع نقاط الخلاف بين الأنا والآخر أكثر طالما افتخر اليونان بممارسة الديمقراطية رغم الصراع الدائم بين حكومات المدن والذي كان يثور لأتفه الأسباب، كما يساعد هذا الصراع في ظهور الكثير من المصطلحات السياسية التي أثرت في التاريخ وبقيت متداولة في الغرب الحديث إلى يومنا هذا ومن أبرزها " الديمقراطية " حيث كثيرا ما رفع الأثينيون شعار الديمقراطية ضد الديكتاتوريات فقد كان الخطباء يركزون على أن أثينا لا تخوض حروبا إلا من أجل تحقيق أهداف سامية وعلى رأسها " الحرية " وغالبا ما تكون هذه الحروب دفاعا عن الفقراء والضعفاء، وفي وجه

<sup>3</sup> يمكن الإشارة هنا إلى الحملة الفرنسية على الجزائر والتي باركها البابا، باعتبارها عمل مقدس يقوم به " الأنا " الأوروبي الفتي والمنتقم ضد الآخر الممحي، البربري، والمتخلف "للاستزادة ينظر عبد الله بوقرن: الهوية في الفكر الجزائري الحديث ، رسالة ماجستير مخطوطة ، ص ص 53-54.

<sup>4</sup> - هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ ترجمة وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986 ج 1 ص 157.

الأغنياء والأقوياء، وفي هذا السياق شدد " ديمستينوس " " Demosthenes " <sup>5</sup> في خطبه الموجهة ضد فيليب المقدوني - الذي غزا ابنه بلاد فارس حيث مات هناك - على أنه لا أمان لدولة حرة تتسامح مع الديكتاتوريين، يقصد بذلك مقدونيا وبعض المدن اليونانية الأخرى، وقد بالغ كثيرا حينما اعتبر أن لقبه (فيليب) يتعارض مع الحرية مؤكدا على أن كل ملك إلا ويكون طاغية وأن حكم الطاغية يتناقض مع الحرية، وقد خلص إلى أنه لا يمكن أن يكون هناك شعور طيب وارتياح بين ممارسة القوة من جهة والتوق إلى تحقيق المساواة من جهة أخرى، كما أشار ديمستينوس إلى أنه لا يمكن المواءمة بين الديمقراطية والأوليغارشية (حكم الأقلية) لذلك فقد وضع شرطا لقيام الاتحاد بين الشعوب اليونانية ألا وهو الديمقراطية عندئذ يمكن استعادة السلام وسيادة الحوار والتفاهم لذلك يجب نبذ الديكتاتوريات<sup>6</sup>.

نستخلص من كلام (ديمستينوس) أن أسباب الحروب بين المدن اليونانية لم يكن العرق أو اللغة المشتركة وإنما يعود إلى طبيعة الحكم كما يرجع أيضا إلى المبالغة في المنافسة برفع شعارات الديمقراطية والحرية ورغبة كل مدينة من المدن اليونانية بمفكرتها وساستها وعسكريتها إلى الهيمنة والسيطرة على بقية المدن.

ولما كانت لغة اليونان واحدة وأهتهم تجتمع في الأولمب ورغم الصراعات فيها بين المدن فقد توحدت عرقيا في شكل الأنا اليوناني السيد ضد الآخر غير اليوناني لأن أساس الهوية اليونانية كان يحكمه اللسان المشترك لذلك فإن حملات الإسكندر المنطلقة من الأنا اليوناني ضد الآخر الشرقي كانت تتعزز دائما بمتطوعين من المدن اليونانية الأخرى.

كما ذكر (شيراز دوسا) (Shiras Dossa) أنه يمكننا أن نحدد الآخر بالرجوع إلى الفكر اليوناني الذي وضع خطا فاصلا بين اليونان المتمدين والشرق البربري والذي يعود في الأصل إلى

<sup>5</sup> - فيلهو هارلي وآخرون: صورة الآخر العربي المرجع السابق، ص 53.

<sup>6</sup> - المرجع نفسه، ص 53.

المؤرخ اليوناني الكبير (هيرودور) (Herodotus) والذي نال عندهم لقب مؤرخ الكفاح البطولي ضد الإمبراطورية الفارسية عن جدارة واستحقاق، كما أكد المؤرخ (إيكسينوقون) (Exenophon) مساهمة في الدعوة إلى الهيلينية كضرورة اجتماعية<sup>7</sup> وفي السياق نفسه استغلت أسماء المدن والدول للدلالة على أفضلية الأنا الغربي، وعلى النقيض من ذلك تم الحط من شأن الآخر الشرقي، ففي اللغة اللاتينية التي انحازت إلى المعسكر الروماني رافعة من شأن الاستعمار من أرض الواقع إلى رمزية اللغة والثقافة حيث كان الإسكندر الأكبر أول من زحف من الغرب في اتجاه الشرق بهدف استعماره، كما طوعت اللغة اللاتينية لكي تشتق لفظة " روما " " Roma " من لفظ " هورمالا Hormala " التي تعني " الجبارة " لعلو شأنها في نظرهم. وعلى النقيض من ذلك فإن لفظ (برساي Persael = فارس) تعني في اللاتينية المخربون، وبهذه الطريقة يصبح الرومان سادة متحضرون والفرس برابرة همجيون، وبهذه الكيفية تمكنت الديانة المسيحية، أو بالأحرى الكنيسة الأوروبية من جمع الأوربيين تحت راية واحدة بهدف استرجاع بيت المقدس خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (ق 12 و 13) وبعد هزيمتهم في الشرق رجعوا مخذولين ولكنهم تزودوا ببعض مآثر الحضارة العربية الإسلامية مما كان له بالغ الأثر في نشأة النهضة الأوروبية الحديثة<sup>8</sup>.

وبنجاح النهضة تبلورت الهوية الغربية الحديثة مع المركزية الغربية التي قسمت مال الآخر بهدف استعماره، وتحضيره لأن ثقافة التفوق التي صاحبت إلغاء المصادر الشرقية من التاريخ الأوربي انطلاقاً من مبدأ نفي الآخر لإثبات الأنا وذلك ابتداء من سنة 1492م وهو التاريخ الذي يتزامن مع حدثين هامين، اكتشاف أمريكا الجديد وطرد العرب والمسلمين واليهود من

<sup>7</sup> - المرجع السابق، ص 60.

<sup>8</sup> - جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، كتاب الهلال، العدد 205، أبريل 1968، القاهرة، ص 12 ص 25.

الأندلس إسبانيا، باعتبارهم ساميين، وبهذه الكيفية أصبحت المصادر الغربية خالية من مقوماتها الشرقية بفعل تعسف الأنا الغربي<sup>9</sup>.

إن الغرب الذي خرج منتصرا من غياهب القرون الوسطى مفتتحا عصر الثورة الصناعية بعد أن تزود بالعلم والتكنولوجيا ومن تم بالآلة الحربية الحديثة مما مكّنه من استعمار الآخر بسبب واحد وهو أن الآخر يعاني التخلف والجهل، لذلك كان على الأنا الغربي أو الرجل الأبيض أن يقوم بتحضير الشعوب البربرية الغارقة في الجهالة والتخلف<sup>10</sup>.

نعود إلى مفكري الغرب وفلاسفتهم الذين تشبعوا بفكر النهضة المزود بالمصادر التي حددناها آنفا وهي اليونانية، والرومانية، واليهودية، والمسيحية، فقد استغلوا المفهوم اليوناني القديم عندما غزوا إفريقيا وجزر الهند حيث سرعان ما وفق العنصر الأوربي المسيحي بين نفسه وبين العنصر اليهودي، فالرسالة تتضح أكثر مع العالم الجديد حيث يقترن النهب مع نشر المسيحية واستعباد الآخر (السكان الأصليين) وقد اتخذت هذه النظرية من الآخر مجالا لإجراء التجارب حيث عومل كالحيوان أو أدنى من ذلك كما سأوضح ذلك لاحقا، ويمكن الإشارة إلى فيلسوف التاريخ الألماني الشهير هردر Herder<sup>11</sup> الذي أشاد بفكرة الاستمرار التاريخي للصفات الوراثية حيث قال: " سيظل الصينيون هم الصينيون "

<sup>9</sup> - عبد الله السيد ولد أباه: منظومة القيم بين مقتضيات الكونية وحق الاختلاف، الحوار الثقافي الغربي الأوربي، معهد العالم العربي، 2002، ص 258.

10 - وهو الخطاب الذي طالما استعملته السلطات الفرنسية لا سيما برلمانها اتجاه شعوب التي كانت تحاول أن تستعمرها والتي تمثل الآخر في نظر الأنا الاستعماري الفرنسي صاحب الرسالة التحضيرية، وهو ما وقع بالضبط مع "الجزائر"، التي كانت لفترة طويلة من الزمن (1830-1962) مجالا خصبا للممارسات قمعية منقطعة النظر، حيث كانت المهمة تقتضي تغريب الجزائر وفرنستها وتنصيرها وإن عجزوا في تحقيق ذلك، كان عليهم أن يهدموا ما يحمل الفرد الجزائري من هوية عربية إسلامية، هذه هي الرسالة التحضيرية للاستعمار.

<sup>11</sup> - أبو فلسفة التاريخ الألمانية عاش ما بين 1744/1803، درس الفلسفة والدين وانتهى به الأمر إلى ارتداء ملابس الكهنوت.

وبعد نجاح الثورة الفرنسية وانتشار مبادئ الديمقراطية والحريات في مجال الأنا الأوربي لقيت هذه النظريات طابعا من التعميم كما تمسحك بها الألمان والفرنسيون والإنجليز حيث رأوا أن هذه المبادئ لا تنسحب إلى على الأوربيين، لذلك يجب التمسك بالتمايز التاريخي للأمم الأوربية وبعد التقليد بما جاءت به الثورة الفرنسية في مجال الآخرة، يعني أن مبادئ الأخوة والمساواة والعدالة يجب أن تبقى داخل الدائرة الأوربية، أما إذا تعلق الأمر بالآخر الشرقي أو الإفريقي أو حتى السكان الأصليين للعالم الجديد فإنه في كل مرة تثار فيها أمر السيطرة على الآخر الذي هو الاستعمار يحدث خلاف بصدد الأسبقية التي دفعت الأوربيين إلى احتلال البلدان الأخرى، هل هو المال؟ أو الرسالة الأخلاقية؟ فكثيرا ما وقع جدال بين الفاتح ونفسه أو مصاحبه من رجال الدين المسيحيين فإذا كانت مهمته العودة بأكثر كمية من الذهب فإنه في الوقت ذاته يحرص على امتلاك مجال الآخر بعد اغتصابه فاسم القارة الجديدة "أمريكا" نسبة إلى المكتشف "أمريكو فاسبوتشي" Amrico Vaspotché ناهيك عن تسمية أغلب المدن والأقاليم بأسماء الأميرات الإسبانيات أو القديسين فكلمبس يعتبر نفسه أعلى شأنًا من الأهالي لأنه يمنحهم الروح "باعتباره المبشر بالإنجيل" وبالتالي فهو حامل رسالة نورانية تمدنية بخلاف ما يقدمه الأهالي الذي لا يتعدى قناطر أو أطنان من الذهب ذو الأصل الترابي وعندئذ يصل هذه النتيجة التي تجعل منه السيد الأبدي في مقابل بقاء الأهلي تابعا في عبوديته إلى الأبد أيضا، وهذا ما حدث في الجزائر كما سيأتي ذكره لاحقا.

كما أدت قضية الإعجاب بالأنا لدى المكتشفين والغزاة الأوربيين إلى تكرار مقولة أرسطو بالنسبة للغة اليونانية في العالم الجديد من طرف كريستوف كلمبس krestoph Kolombus، وقد حدث أن التقى يوم 12 أكتوبر 1492 أول مجموعة من الهنود وعندئذ اختلط عليه الأمر، ودخل في شبه هيسستيريا رافعا صوته: إذا كان هذا سيرضي الرب وجلالة الملك والملكة فإنني سأصطحب



معني عند عودتي إلى إسبانيا " ستة منهم حتى يتسنى لهم معرفة الكلام "12 وكان هذا الإقرار من طرف كلبس بمثابة صدمة عنيفة تلقاها كل من اطلع على يومياته ونفي اللغة عن هؤلاء يعني الكثير بالنسبة للأنا الأوربي، فهم كائنات بدون هوية لأن اللغة منذ الفكر اليوناني هي عماد الهوية ومن لا لغة له يعني لا رصيد حضاري ماضي ولا حاضر ولا مستقبل له، وهذا يعني أنهم مادة خام يمكن تشكيلها بالكيفية التي ثناها كلبس عندما صاح: " بمشيئة الرب وموافقة الملك سيتعلمون لغة الكلام التي هي الإسبانية والتي ستمكنهم من فهم تعاليم المسيح ليكونوا وسطاء بين دعاة المسيحية الإسبان وسكان العالم الجديد "، غير أن الصدمة التي تركتها هذه العبارة في نفوس المترجمين الفرنسيين، مما دفعهم إلى تهذيب العبارة لتصبح كما يلي: " حتى يتسنى لهم معرفة لغتنا "13.

هذا ما قام به المترجم الفرنسي لإخفاء النظرة الاستعلائية لنا الإسبان القوي والمنتقم من الآخر الذي تعدد الخطاب اتجاهه ووصل حد التعارف، ففي كثير من المرات يصف الرحالة أو الغزاة الأهالي بأنهم جزء لا يتجزأ من الطبيعة الخلابة البكر حيث يصفونهم بالوداعة وبأنهم أفضل الناس وأكثرهم مسالمة. هذا عندما يتقبلون لغة الغزاة وديانتهم أي الثقافة الغربية. بمفهومها الواسع، أما عندما يبدون معارضة أو مجرد احتجاج فعندئذ الويل لمصيرهم فإن نجى بعضهم من التصفية الجسدية فإنهم سيتعرضون إلى شتى ألوان التعذيب ناهيك عن أصناف من التحقير والدونية إلى درجة تفضيل الحيوانات عن الهنود الحمر أو سكان المكسيك وغيرها من مناطق الحضارات القديمة وهذا ما وقع في الجزائر، من إزدواجية خطاب الأنا الغربي اتجاه الآخر غير الغربي عموما والعربي

12 - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 246.

13 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

الإسلامي على الخصوص والجزائر نموذجا<sup>14</sup>.

ج- مفهوم الآخر في الفكر الغربي الحديث: بالعودة إلى المعجم الفلسفي " لالاند " " Lalande" نجده يعرف الآخر كما يلي: " هو أحد المفاهيم الأساسية للفكر التي يصعب إيجاد تعريف محدد لها، لذلك يمكن اعتباره مفهوم مصاد لما هو نفسه، ونعبر عنه أيضا بعدة ألفاظ، " كالمختلف " أو " المغاير " أو " المتميز " <sup>15</sup>.

نلاحظ: أن هذا التعريف لا يستو في حقيقة الآخر ولا يعطينا تعريفا جامعا مانعا مثل: ما

هو نفسه " Le même " ومفهوم الآخر " L'autre " ومفهوم الأنا " Le moi " .

إن مفاهيم الفكر قد حيرت المشتغلين بالميتافيزيقا لعدة قرون والآن مازالت تحير المشتغلين

بالعلوم الإنسانية والاجتماعية في محاولاتهم المستمرة لفهم الإنسان ومشكلاته المتعددة وخاصة عندما يصبح هو نفسه موضوعا للدراسة.

14 ازدواجية خطاب الأنا الغربي تجاه الآخر الجزائر نموذجا: كما تعرضت للعالم الجديد وما وقع فيه من مظالم من طرق الأنا الأوربي فسوف أتطرق إلى الجزائر، فالخطاب المزوج أو الكيل بمكيالين استخدم في غزو الجزائر بهدف تحضيرها أحيانا ثم بهدف تخليص سكانها من الداي التركي الظالم، إذا فهذه الكيفية يعودون إلى اليونان الأثينيين الذين استعملوا راية الديمقراطية ضد المدن الأخرى والحرية ضد الآخر، كما اعتبرت فرنسا نفسها الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية لذلك فقد جاءوا إلى الجزائر بهدف تخليصها من الاستعمارين التركي والعربي وإعادتها إلى الحضارة الأوربية والديانة المسيحية، وفي هذه الحال يفتخرون بالقديس أوغستين Augustin ممثل المسيحية في إفريقيا، ومن تناقضات الأنا الأوربي تطبيقه لمقولة الاستعمار الروماني القديمة " فرق تسد " فقد استغلوا إثنية السكان المشكلة من عرب وبربر فقد رموا العرب بعدة نعت من شأنها أن تغرس فيهم الدونية، أما بالنسبة للقبائل البربرية فإنه من تناقضات " الأنا " الأوربي مع ذاته خاصة عندما يتعلق الأمر بالآخر فإنهم عندما يرغبون في استمالة جهة معينة من السكان من أجل فرنستها أو تنصيرها أو على الأقل تقديم هويتها عندئذ يطلقون العنان لأوصاف البربر بأن شعرهم أشقر وعيونهم خضر إذا فهم من أصول أوربية وأنهم جنس نشيط ومنتج وأن اختلاطهم بالعنصر العربي هو الذي نبط من عزائهم ولذلك فقد جننا - أي الفرنسيين لتخليصهم من الاستعمار التركي والعرب- أما إذا ثارت منطقة القبائل ضد الوجود الفرنسي وقاومت المنصرين ورفضت إرسال أبنائها إلى المدارس الفرنسية فإنه عندئذ يصبح البربري من أصول شرق أوسطية وأن هذا العنصر بالذات يتسم بالخشونة وأنه - أي هذا الشعب غير المتجانس - لم يكن أمة ولا يستطيع تأسيس دولة في المستقبل مثل ما وقع له في الماضي حيث تداول عليه القرطاج فالرومان والوندال فالبيزنطيون ثم عودة الفرنسيين لإحياء أمجاد روما هذا الخطاب لظالما رده أساتذة " جامعة الجزائر الاستعمارية وعلى رأسهم " أنست فيليكس " و " غوتي " و " ستيفان غزيل " وغيرهم " للاستازدة يراجع روجي غارودي: حوار الحضارات، ترجمة: عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، 1982، ص 68.

تاريخياً: فإن مفهوم الآخر قد اتخذ معنى القيمة *La valeur* مع الأنوار كنتيجة لما أفرزته " الحداثة " في الغرب من انفتاح من قبل الأنا الأوربي على العالم الشرقي مع الفارق الحضاري بين الأول الذي أصبح صناعياً متطوراً في حاجة ماسة إلى الموارد الاقتصادية وبين الثاني الذي استسلم للتخلف والتوحش<sup>16</sup> ، حسب تعريف لاروس.

وفي هذا السياق يمكن أن نتخذ الهيغلية كنموذج يجسد موقف الأنا من الآخر، فإذا رجعنا إلى نصوص هيغل وتحديدًا لكتابه المعنون بـ " علم ظهور العقل "<sup>17</sup> ، نجد أن هيغل قد حلل العلاقة بين الأنا والآخر منطلقاً من الوضع الأول للذات وتحدد الذات وفق معجم مصطلحات هيغل على أساس كونها الكينونة الفعلية، انطلاقاً من جهة امتلاكها للكيفيات، ومن جهة أخرى تنفيذها للأفعال، أي أن الوعي بالذات هو وعي بكينونة الأنا، والملاحظ أن هيغل انطلق من هذا الوضع باعتباره الوعي الخالص المتفرد والمختلف عن الآخر، ويمكن أن نعتبر الوضع الأول كوعي ساذج ورجسي لأن الذات خلال هذه المرحلة تتمحور حول نفسها دون أن تعبر أي اهتمام للآخر لذلك فإن هيغل يقول: " إن الوعي بالذات هو وجود لذاته بسيط ومساو لنفسه، ينفي من الذات كل ما هو آخر فماهيته وموضوعه المطلق هما بالنسبة إليه الأنا "<sup>18</sup> .

فالأنا محور الذات والذات منغلقة على أنها أي أنها هي هذه اللحظة الموجودة لذاتها، ولكن الملاحظ أن هيغل يقر بأن كيانات الوعي متفرقة ولكنها تلتقي على أساس غرابية كل جهة مما يؤدي إلى التعارض بين كيانات وعي الذات ووعي الآخر. وهذا ما يؤدي في النهاية إلى هيمنة أحدهما على الآخر، ومن هذا المنطلق ندرك أن الوعي بالذات يتصادم ويتعارض مع وعي الآخر باعتباره منفصل عنه وخارج عن ذاته، لذلك يؤكد هيغل على ضرورة أن يقوم الوعي بالذات

<sup>16</sup> - Grand la Rousse : librairie la rousse, tome troisième, P 470.

<sup>17</sup> - هيغل: علم ظهور العقل، ترجمة مصطفى صفوان، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2001، ص ص 141-150.

<sup>18</sup> - ميخائيل أنوود: معجم المصطلحات، ترجمه وقدم له وعلق عليه إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، 2000،

بحذف الماهية المغايرة، ويقصد هيغل بهذا القول ضرورة أن يقوم يعترف الآخر بالأنسا، أي أن الاعتراف هو الشرط الأساسي للوعي بالذات وبدونه لا يكتمل مسار الوعي بالأنسا إذ يقول هيغل: " إن الوعي بالذات هو في ذاته ولذاته، فإذا كان هناك وعي آخر في ذاته ولذاته أي هي ليست كذلك إلا في حالة تحصل على اعتراف بذاتها من قبل الآخر"<sup>19</sup>. وقد بين هيغل أن كل وعي يؤكد ذاته لنفسه وعي الوقت نفسه يثبت ذاته للآخر؛ إنها جدلية الوعي بالذات والوعي بالآخر وقد جسد هذه القضية من خلال جدليته المشهورة؛ العبد والسيد<sup>20</sup> إذ يقول: " الوعيان بالذات وبالآخر متضادان، الوعي بالذات يتضاد قبل كل شيء مع نفسه إنها دراما اللامساواة بين العبد والسيد، والملاحظ بالنسبة إليه أن هذا الصراع من أجل الحياة والموت"<sup>21</sup> إذ من خلال جدلية العبد والسيد فإن حتمية الصراع فرضت على أحدهما المجازفة بحياته مما مكنه من الانتصار على الآخر الذي اختار الحياة مع العبودية، وعلى الرغم من حصول الوعي بالذات للسيد - فإنه حسب هيغل - ليس وعيا حقيقيا بل هو وعي وهمي لأن الذي اعترف به لم يكن سيذا مجازفا مثله بل كان عبدا والعبد حسب هيغل " لا يمكن أن يكون إنسانا كما يقول أرسطو"، ولكي يكون هناك وعي حقيقي بالذات لابد أن يعترف به إنسان سيد مثله، وعلى الرغم من أن العبد يطوع الطبيعة ويخضعها لسيدته بفضل العمل إذا فالصراع أصبح بين العبد والطبيعة إشباعا لرغبات السيد ومادام العمل من القيم الاجتماعية الأساسية لذلك فإن العبد يصبح سيذا للطبيعة متحررا من ضغوطها والنتيجة أن العمل حرر العبد لكن هيغل يؤكد أن حرية العبد رواقية لأنه يعيش تمزقا بين وعيه بالحرية كفكرة مجردة وواقعه العبودي الفعلي وأبرز ما نستنتجه من هذه الجدلية أن الوعي بالذات

<sup>19</sup> - ألكسندر كوجايف: جدلية السيد والعبد من " المدخل إلى قراءة هيغل"، ترجمة وفاء شعبان، مجلة الفكر العربي المعاصر،

ع 114-115، مركز الإنماء القومي، الكويت، ص 49.

<sup>20</sup> - المرجع نفسه، ص 52.

<sup>21</sup> - المرجع نفسه، ص 54.

يستوجب الوعي الآخر، وفي غياب الآخر لا يمكن الحديث عن وعي حقيقي بالذات، ولكن الهيجلية لم تستبعد الصراع كنمط لتحديد العلاقة بين الأنا والآخر.

#### د- وجود الآخر كحقيقة:

يبدو أن الفيلسوف الألماني هوسرل Husserl هو الذي نظر للآخر كحقيقة في الفلسفة المعاصرة وذلك بشكل خاص في كتابه " تأملات ديكارتيّة " فعنوان الكتاب يوحي بوفائه للتقليد، أو للأثر الفلسفي الديكارتي غير أن ما فعله على الصعيد النظري مخالف تماما لما أنجزه ديكارت، حيث وسع الكوجيتو وأهم ما في التوسعة حضور الآخر الذي أقصاه ديكارت تماما، بينما جعله هوسرل ملازما للكوجيتو<sup>22</sup> وقد أضاف إلى ذلك مواطنه هايدجر Haïdgar علاقة الأنا بالآخر كمفهومين مرتبطين L'être avec met seinx أي أن الأنا لا يمكن أن يوجد إلا في إطار علاقته مع الآخر.

#### ثانيا - الفلسفة:

##### أ- تعريفها:

لفظ فلسفة مشتق من اليونانية وأصله [PHILO فيلو و SOPHIE زوفي]، ومعناه في العربية محبة الحكمة. وهي : علم القوانين العامة للوجود بشكل من أشكال الوعي الإنساني. وأول من أطلق هذا اللفظ على هذا المجال من المعرفة هو فيثاغورث اليوناني.

وقد كانت الفلسفة عند القدماء مشتملة على جميع العلوم فسميت بأمر العلوم، وهي قسمان : نظري، وعملي.

أما النظري فينقسم إلى :

العلم الإلهي : وهو العلم الأعلى.

<sup>22</sup> - Husserl : Méditation cartésiennes vrin, 1969, P 75.

العلم الرياضي: وهو العلم الوسط.

العلم الطبيعي: وهو العلم الأسفل.

وأما العملي فينقسم إلى ثلاثة أقسام أيضا:

سياسة الرجل لنفسه: ويسمى بعلم الأخلاق .

سياسة الرجل لأهله: ويسمى بتدبير شؤون المنزل .

23

والثالث تسيير المدينة والأمة والملك: علم السياسة .

### ب- تعريف الفلسفة من خلال بعض الفلاسفة:

لم يتفق الفلاسفة على تعريف جامع مانع للفلسفة وذلك يرجع إلى طبيعة الفلسفة المبنية أصلا على الاختلاف. لذلك فإن كل فيلسوف يضع تعريفا خاصا للفلسفة يتماشى مع نظريته أو مذهبه الفلسفي . مثلا أرسطو: لما تشعب بمختلف العلوم التجريبية وضع المنطق "أور قانون العلم" حيث اعتبره أداة لتحصيل العلوم وما بعده اعتبره مجالا غير قابل للتجربة، لهذا سماه الميتافيزيقا، أي ما بعد الطبيعة، وهكذا كانت مكتبته مرتبة بالشكل التالي: الطبيعيات ثم المنطق ثم الفلسفة، وهذه الكيفية تصبح الفلسفة عنده هي البحث عن العلل الأولى للظواهر.

أما الرواقيون والأبيقوريون: فقد غلب عليهم الجانب العملي المتمثل في معاملات البشر وما يترتب عنها من حسن وقبيح، لذلك عدت فلسفتهم أخلاقية، أي سعيا إلى تحقيق السعادة البشرية، وفي هذا السياق يقول ابيقور:

" ليست وظيفة الفلسفة تفسير الكون وإنما تتمثل مهمتها الرئيسية في أن تدلنا إلى السعادة

24 وأن ترشدنا إلى الحياة الخالصة من كل أنواع الخوف والاضطراب والبؤس والشقاء " .

أما ابن سينا : فقد عرفها بقوله ، " إنما الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن للإنسان أن يقف عليه "25 .

أما الجرجاني : فقد عرفها بـ " التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية "26 .

أما ديكرارت : فقد انطلق من مبدأ تقارب العلوم الاجتماعية والإنسانية مع الفلسفة ومع بقية العلوم الطبيعية الأخرى، باعتبار أن محورها في نهاية المطاف هو الإنسان ككائن بيولوجي فيزيائي نفساني اجتماعي تاريخي ميتافيزيقي، لذلك فقد شبه الفلسفة بشجرة جذورها علم ما بعد الطبيعة وجذعها علم الطبيعة وأغصانها العلوم الأخرى كالطب وعلم الميكانيكا وعلم الأخلاق ... إلخ.

والصفات التي تتميز بها الفلسفة هي : الشمول والعمق والوحدة في التفسير والتحليل. وعلى الرغم من استقلال أغلب العلوم عن الفلسفة خاصة العلوم الطبيعية والرياضية وحتى العلوم الاجتماعية والإنسانية أضحت تسعى جاهدة لخلق مناهج خاصة بها.

ويطلق لفظ فيلسوف على الذي يتعاطى الفلسفة، علما أن القدماء كانوا يطلقون عليه اسم " الحكيم " .

والفيلسوف هو الذي يؤمن بقيمة العقل ويحاول التقيد به في عمله بخلاف من يبني عمله على الأوهام والخرافات .

24 - المرجع السابق، ص 162.

25 - المرجع نفسه، ص 163.

26 - المرجع نفسه، ص 163 .

وقد أطلق لفظ الفلاسفة في العصور الوسطى على علماء الكيمياء الأوربيين الذين وقعوا في الخطأ الذي وقع فيه الكيميائيون المسلمون الذين أنفقوا الكثير من الجهد والوقت والمال من أجل تحويل المعادن النحاسية إلى ذهب، لذلك فقد سلك الأوربيون الطريق نفسه محاولين استخراج الذهب من معدن النحاس، ومن ذلك جاء قولهم "حجر الفلاسفة" و"مصباح علي بابا" ... إلخ من مفاتيح الشرق التي أبهرت الغرب، كما أطلق لفظ الفلاسفة في القرن الثامن عشر على الكتاب الطبيعيين الذين وقعوا من الدين المسيحي المحرف ومن رجاله موقفا سلبيا ودعوا إلى التخلص من كل الوسائط وعلى رأسها وسائط رجال الدين بين الإنسان وربه، وقد دعوا إلى استعمال العقل في الحكم على الأشياء، كفولتير وروسو وديدرو وهيردر... وغيرهم.

27

ولا يزال بعض أهل زماننا يطلقون اسم الفيلسوف على من يتنكر للدين ويتمرد على أوامر ونواهيه، وهذا خطأ فادح، لأنه لا يشترط في الفيلسوف أن يكون ملحدا أو كافرا أو جاحدا، وانطلقا من هذه الأفكار الخاطئة لا نستغرب ما هو شائع في مجتمعنا الجزائري من أن دراسة الفلسفة مضیعة للوقت لأنها في نظره لا تسمن ولا تغني من جوع، وأنها ليست علما يقدم حلا ملموسة للمجتمع، وهذا أيضا من الأخطاء الشائعة في المجتمع. حتى أن بعضهم شبهها بشيء أسود يفترض وجوده في غرفة مظلمة علما أن الشخص المكلف بالبحث عن الشيء الأسود المفترض وجوده في الغرفة المظلمة كفيف، والمؤكد أن الشيء المفترض وجوده لا وجود له إطلاقا، والمغزى أن الفلسفة مجرد تعقيدات وطلاسم لا طائل منها.

وبهذه الكيفية تتحول دراسة الفلسفة إلى عبث في عبث حسب زعمهم، وهذا أيضا من الأغاليط المنتشرة في المجتمع، ولدحضها يؤكد أحد الفلاسفة المعاصرين بقوله: "إن الفلسفة لازمة لنا لزوم التنفس لأنه إذا أراد أحدهم أن ينفي وجود الفلسفة فعليه أن يأتي بحجج وأدلة

<sup>27</sup>- روزنطال: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص 336 - 338 .



وبراهين، وهذا في حد ذاته تفلسف مما يعني إثباتا لوجود الفلسفة وضرورتها للإنسان، إنها تتدخل في المجال الذي تعجز بقية العلوم عن الخوض فيه".

وبالتالي فإن للفلسفة لها موضوع ومنهج وهدف لأن الاختلاف في تعريفها وفي مواضيعها دليل على غنائها، علما أن الاختلاف في التعريف يمكن أن يصل إلى حد التعارض، حيث كانت تبحث عن الحقيقة لذاتها وعن سعادة الإنسان، كما تطمئن السائل عن مصيره. فمثلا عند الرواقيين كان دورها أن تزيل الخوف من الموت عند الإنسان.

أما عند شيشرون : فإنها تعلمنا كيف نعيش ، وعلى النقيض من ذلك فإنها عند سقراط تعلمنا كيف نموت!.

وفي الوقت الحاضر تخوض الفلسفة في أهم قضايا العصر كالديمقراطية والحريّة وحقوق الإنسان ومصيره والعولمة ونهاية التاريخ.

وأحدث تعريف للفلسفة، يركز حول المفاهيم فقد ورد في كتاب الفلسفة<sup>28</sup> لجيل دولوز وقيتاري: أنها فن تشكيل وابتكار وفبركة المفاهيم إذن من هذا ينبغي على الباحث في الفلسفة أن يركز على المفاهيم الفلسفية نقدا وتحليلا بهدف ضبط المصطلحات، مثلما أوضحته في مصطلح الآخر أو كما سأطرق إلى مصطلحي التاريخ وفلسفة التاريخ.

### ثالثا - التاريخ:

أ- مصطلح التاريخ في العربية : أرخ يؤرخ تأريخا: الكتاب أو الحادث عرف وقته " المنحد الأبجدي " تاريخ الشيء، أي وقته وغايته تطلق كلمة تاريخ " على العلم بما تعاقب على الشيء في الماضي من الأحوال المختلفة سواء كان ذلك الشيء ماديا أم معنويا كتاريخ الشعب، وتاريخ الأسرة، وتاريخ القضاء، وتاريخ النوع الفلاني من الأحياء، وتاريخ العلم، تاريخ الفلسفة،

<sup>28</sup> - جيل دولوز وقيتاري: ما هي الفلسفة، ترجمة جورج سعد، عويدات، بيروت، 1991، ص 15.

تاريخ الأدب، تاريخ اللغة،... الخ وتطلق أيضا على الأحوال المتعاقبة التي مرت بها البشرية فمنها ما يعرف بالأخبار والتقاليد والآثار كما في التاريخ، ومنها مالا سبيل إلى معرفته بهذه الوسائل، كما في علم ما قبل التاريخ<sup>29</sup>.

وللوصول إلى تشكيل مفهوم جامع ومانع حول كلمة (تاريخ) إرتأينا التطرق إلى بعض النظريات وآراء بعض الفلاسفة والمفكرين من القديم وصولا إلى العصر الحديث.

### ب - التاريخ عند القدماء:

1- التاريخ عند اليونان : إن التأثير اليوناني وإن كان أكثر عمقا في الفلسفة والأدب فإنه لم يكن كذلك في مجال التاريخ كعلم بالمفهوم الحديث للكلمة ورغم ذلك فقد اشتملت الإلياذة والأوديسيا بين صفحاتهما على البذور الأولى للاهتمام بهذا البحث إذ يتغنى هوميروس بتمجيد البطولة وروح القتال التي يستمد منها الإنسان قيمته ومكانته التي تدفعه إلى فعل التجاوز والتقدم، وقد ورد ذلك في قصص تاريخي شيق، غير أن هذا النوع من الكتابة وإن كان له دور في تهذيب النفوس وشحن الهمم فإنه لم يعد إهتمامه بالأحداث ذاتها أكثر من إرتباطه بمغزاهما حيث كان يُعنى بشخصيات الأبطال والمتفوقين والإشادة بخصالهم دون الحديث عن أسباب الانتصار، إضافة إلى أن اليونان لم يهتموا بمجمل التاريخ البشري واكتفوا بصياغة بعض الأحداث في جنس أدبي بتقنيات راقية يارسائهم لأسس " القصص التاريخي " نثرا أما إن كان ذلك العمل شعرا فيسميه النقاد " الشعر الملحمي " .

2- التاريخ عند سقراط: مرادف للخير والمعرفة من باب العلم بالشيء.

3- التاريخ عند أرسطو: مجرد جمع الوثائق وهو أيضا ضد النظري.

4- التاريخ عند بيكون: هو العلم بالأمر الجزئية لا بالأمر العامة، والقوة اللازمة له هي الذاكرة وهو ضد الشعر، لأن موضوع الشعر وهمي وموضوع التاريخ واقعي وضد الفلسفة لأن موضوع الفلسفة كلي وموضوع التاريخ جزئي والقوة النفسية اللازمة للشعر هي المتخيلة، أما القوة اللازمة للفلسفة فهي العقل.

### ج - التاريخ في نظر بيكون:

وينقسم إلى التاريخ الطبيعي والتاريخ المدني، فعلم الجيولوجيا يبحث في تاريخ نشأة الأرض وتطورها، وعلم المستحاثات يبحث في تاريخ الأنواع الحية المفقودة، وتاريخ الإنسان يبحث في تاريخ أحوال البشر ووقائعهم الماضية، ومع أن بيكون ذهب إلى ما ذهب إليه أرسطو من القول بأن التاريخ الطبيعي مضاد للفلسفة فقد أخذها عنه مؤلفو الموسوعة في القرن 18 وضمونها بصورة خاصة فكرة التسلسل الزمني.

وقريب من ذلك أيضا ما ذهب إليه (كورنو)<sup>30</sup> في تصنيف العلوم، إذ قسم المعارف البشرية إلى ثلاثة أقسام: العلوم النظرية والعلوم الكونية والتاريخية والعلوم العلمية، والثاني من هذه الأقسام يشتمل على علم الفلك، وعلم الجغرافيا وعلم الجيولوجيا، وعلم النبات وعلم الحيوان علم الآثار وعلم التاريخ المدني والسياسي والأدبي والأخلاقي والديني.

### د - التاريخ في الديانات السماوية:

- التاريخ عند اليهود: " من الخطأ الظن أن عصر العلم قد ألغى الأساطير والغيبيات وفقا لمقولة أوغست كونت وقوله بالمرحلة الثالثة للفكر البشري، ذلك أن ما من مرحلة تظمس أو تلغى سابقتها، وإنما تتعايش معها ومع اللاحقة عليها تماما، كما قد نجد في مرحلة النضج لدى بعض الناس أنماطا طفولية لدى آخرين ".

<sup>30</sup> - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت (د ط)، 1994، ص ص 144-145.

وعليه فإن أفكار اليهود حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه، تبلوره الكتب العبرانية المقدسة. وبديهي أن ما غلب من طابع تاريخي على معظم تلك الكتابات خير شاهد على اهتمام اليهود بتاريخهم، فإن الترتيب الذي جمعت على أساسه يشير إلى تتابع تاريخي بداية بما اعتبره القوم بداية البشرية، وتدل محتويات الأسفار التاريخية على أن اليهود كانوا على اهتمام بشيء أعمق من مجرد تسجيل الأحداث إذ الشيء الأهم في نظرهم من ذلك هو تفسير الأحداث من حيث اتجاهات من ورد ذكرهم فيها وما يدخل تحت ذلك من علاقات ضمنية بالإله<sup>31</sup>.

ونظرة اليهود إلى التاريخ تقوم أساسا وفي أوسع نطاق على المذهب التألهي، فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية. ومع أن الإصحاحات الأولى من سفرهم الأول (التكوين)، إعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية، فإن تلك الكتب تنطوي على فكرة جوهرية هي أن بداية التاريخ البشري إنما ترجع إلى الله، فهو الذي خلق الأرض بكل ما لها من خصائص تجعل التاريخ ممكنا على ظهرها.

وذهب اليهود إلى أن الله ظل دائما على اتصال بالناس في التاريخ، وفكرهم عن التاريخ لم تكن قط، ذات نزعة فردية فهي فكرة تدور حول شعب إسرائيل أولا ثم حول البشرية عامة.

### هـ - الأساطير المغذية للعنصرية اليهودية:

يقول الدكتور حسن ظاظا :

" قد تكون الخرافة أقوى أثرا في خلق النفسية العنصرية من الحقيقة التاريخية نفسها خصوصا إذا اصطبغت بقدسية الدين، وهذا ما كان من أمر الشخصية الإسرائيلية"<sup>32</sup>.

<sup>31</sup>- قريقوري وإيدقري: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د ط)، 1972، من ص 85 إلى ص 88.

<sup>32</sup>- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 293.

التي تحاول الالتصاق بالإله حتى تضفي على نفسها قدسية خاصة تجعل الغير يعتقد أنهم فعلا شعب الله المختار.

### و - أسطورة صراع يعقوب مع الإله:

فرَّ يعقوب من أصهاره بالعراق وفي طريقه إاعترضه جدول ماء وتعرض له شخص ظل يصارعه حتى الفجر ولم يستطع التغلب عليه حتى لحق الوهن بالشخص فطلب من يعقوب أن يخلي سبيله لأن الفجر قد طلع، فقال له يعقوب: لن أتركك تذهب إلا إذا باركتني. فسأله عن اسمه فقال: يعقوب، فقال: إسمك منذ الآن وصاعدا إسرائيل لأنك صارعت الله والناس وغلبت<sup>33</sup>.

المتمعن في هذه الأسطورة يلاحظ محاولة إبراز المقدرة الخارقة لليهود وإبراز أنهم شعب الله المبارك المختار، إذ تفنى الشعوب والأمم ولكنهم خالدون إذ قال الرب يهوه: إسرائيل إبنى البكر " سفر الخروج 22/4 ". وهذا الاعتقاد عند اليهود جعلهم يزعمون بأنهم إنفردوا بالتوحيد بين أمم وثنيه وهو الأمر الذي جعلهم يتعرضون للاضطهاد، غير أن الحقيقة منافية لذلك، بل لأنهم كما يقول فولتير: "يمقتون الأمم الأخرى ويقتلون أعداءهم المغلوبين بلا رحمة".

فهل يعقل أن يختار الله شعبا إستحثه نبيه موسى على قتال فرعون الذي إاضطهدهم في مصر فما كان لهم من رد سوى قولهم: ( فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ )<sup>34</sup>.

" أما طقوس السحر والشعوذة لدى اليهود فقد أفرد لها التلموذ أبوابا كثيرة اعترفت أسفار العهد القديم بمزاولة اليهود لها<sup>35</sup>.

وفي سفر التثنية: "وإذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت صائر إليها لترثها فاستأصل

<sup>33</sup>- المرجع السابق، ص 293.

<sup>34</sup>- سورة المائدة، الآية 24 .

<sup>35</sup>- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 294.

أما كثيرة ولا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم"<sup>36</sup>.

ومن سفر التكوين فقد ورد "الصحاح 15 و 17" أن الناسك أعطي هذه الأرض من نهر

مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات"<sup>37</sup>.

وقد عرض قصاصو التوراة تاريخ بني إسرائيل فأقحموا فيه خرافات وحكايات، وقسموا

التاريخ إلى عصور (الآباء - السفارة في مصر - الخروج وغزو كنعان) بغرض إضفاء الشرعية على الغزو الإسرائيلي لفلسطين.

### ل - التاريخ عند المسيحيين:

من المؤكد أن المسيحية تهتم بالتاريخ من جهتين: فهي تعد أحداثا معينة — ربما كانت

أشياء حقيقية أو مزعومة — أمورا جوهرية كما أن لديها مضمونات مرتبطة بأهمية التاريخ بوجه

عام، والمسيحية مختلفة عن غيرها إختلافا متميزا. وتقدم المسيحية التاريخ في صورة هي ضرب من

الدراما المسرحية حيث في الفصل الأول مشهد سقوط آدم (الخطيئة). والفصل الثاني دخول الله في

التاريخ متجسدا في صورة بشرية (ياسوع المسيح)، الفصل الثالث تبشير العالم بالإنجيل مع إتساع

نطاق نشاط الكنيسة، أما الفصل الرابع والأخير فهو عودة المسيح للمرة الثانية والأخيرة حاملا معه

يوم الحساب. فيما يتعلق بحياة المسيحيين وانتشار المسيحية في التاريخ فإن الله في صورة ثالث

واحد هو: الأب، الإبن والروح القدس، ويرون أن الأب خالق الدنيا وبارئ البشر هو صورة

سامية هو: لا تلحق، وأنه بذلك طبع عصور التاريخ، وأن الإبن هو المخلص الذي يرد التاريخ

<sup>36</sup> - عفت الشرفاوي: فلسفة الحضارة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1981، ص 298.

<sup>37</sup> - المرجع نفسه، ص 299.

إلى هدفه الذي أراده الله منه، ويرون أن الروح القدس هو الذي يطهر الناس أثناء عملية التاريخ،

38

وعلى هذا الأساس يقابل التاريخ في المسيحية بالإيمان .

وباعتبار القديس أغسطين (354 – 450 م) ميلادي أهم المفكرين في تاريخ المسيحية فإن نظريته في العناية الإلهية تقول أن التاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها الإنسان، أي أن وقائع التاريخ تخضع للمشيئة الإلهية بل هي التي شكلتها على نحو ما هي عليه، تنكر هذه النظرية القول بالمصادقة التي لا تعنى حسبها إلا الفوضى والعبث وهذه النظرية في التاريخ تقتضي الإيمان بالله وترتقي إلى مستوى الاعتقاد إذ لا بد من تدخل محكم للإله الحكيم ليخطط للإنسان العاجز عن فعل الخير لنفسه ولو لا هذا التدخل الإلهي لأصبح التاريخ كومة مضطربة من عصور متراكمة في عبث أو مأساة رهيبية دون بداية أو نهاية معقولتين. وهذا ما أكده في كتابه "مدينة الله" ردا على القائلين بالتعاقب الدوري في التاريخ (التي تقول بالتكرار في الحوادث التاريخية) ولكن المسيحية تجعل المسيح أهم واقعة تاريخية منذ بداية الخلق ومن ثم القول بفرديّة الواقعة التاريخية واستحالة

39

تكرارها .

• إلا أن نظريته هذه قد تعرضت لانتقادات شديدة من طرف بليخانوف الذي وصفه بالتهافت لأنه لم يستطع التوفيق بين مبدئه (العناية الإلهية) وبين طلبها. وقد وصف أوغسطين بالتناقض في قوله: إن طرف الحرب لا يسبر لها غور في كتابه (رسائل إلى أهل روما) إذ يقول بليخانوف:

38- المرجع نفسه، ص 298.

39- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 166 - 167.

" ما جدوى المشاق التي تعترض الإنسان في البحث عن النعمة التي لا يصل إليها"<sup>40</sup> .  
وبهذه الكيفية نجد أن المسيحيين أيضا يضيفون الصبغة اللاهوتية على التاريخ ويفسرونه وفق منظورهم الخاص نافين أي دور للديانات الأخرى ولا للإنسان بصفة عامة.

### م - التاريخ عند المسلمين:

مما ليس فيه شك أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل متصارعة ولم يكن لهم شأن بالاستقرار والتحضر بل كانوا بدوًا رحلا، وتلك الحياة القاسية المتمثلة في البحث عن لقمة العيش وعدم الاستقرار كانت من أهم الأسباب في عدم انصرافهم للتأمل والكتابة والاهتمام بالإشكاليات الفكرية الجادة، فكانت حياتهم وطريقة عيشهم بسيطة وهو في اعتقادنا الأمر الذي جعل تراث العرب تبلوره أشعارهم التي كانت على جانب كبير من البلاغة والفصاحة، ثم أن هذه الأشعار والمعلقات كانت البوثة التي تصاغ فيها كل تجاربهم وأبعاد اهتماماتهم والحديث هنا عن التاريخ لذلك يرتبط الكلام عن هذا الموضوع بمجيء الإسلام وما ينطوي عليه ذلك من الإشارة إلى التغير الجذري بين نمط الحياة بعد مجيء الإسلام عنه في الجاهلية إذ قامت الحضارة العربية الإسلامية على الفكرة الدينية، به كان ظهورها وبه تم ازدهارها ومجدها، كان القرآن طاقة مضيئة أمدت جميع مظاهر الفكر والحياة بالإشعاع والنشاط ومن ثم حملت جميعا طابعه، واتخذت ملامحه، حتى في الفن الذي يفترض فيه البعد عن الدين"<sup>41</sup> .

<sup>40</sup> - جورج بليخانوف: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1973، ص 13.

<sup>41</sup> - عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة، ص 87.



ويعد القرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع أزهى عصور الإسلام في مختلف الميادين حيث ظهر الكثير من المؤرخين والجغرافيين مثل البلاذري والبيروني والدينوري والطبري ... إلخ، وأشهرهم على الإطلاق في فلسفة التاريخ والحضارة ابن خلدون .

لا يؤدي ظهور دين معين بالضرورة إلى قيام حضارة، فقد يظهر دين في أمة وتظل مسيرة التاريخ دون منعطف جوهري كما في البوذية أو اليهودية بل وقد تنهار الحضارة بعد انتشار الدين، كما حمل بعض مؤرخي الحضارة الرومانية. مثل جيبون – المسيحية مسؤولية تدهور الإمبراطورية الرومانية. غير أن هناك تلازما سببيا بين نشأة الإسلام وقيام الحضارة بالمعنى الواسع للكلمة من : التقدم والازدهار في كل الميادين فما عسى أن يكون في الإسلام من مقومات أدت إلى قيام حضارة امتدت إشعاعها حتى القرن التاسع عشر؟.

قدم الإسلام تصورا مبينا للمسيحية سواء بصدد الحياة على الأرض أو بصدد المثل الأعلى للإنسان، فليس نزول آدم عقوبة على خطيئته، كما تدعي اليهودية والمسيحية وإنما لإعمار الأرض ( ... إني جاعلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً ... )<sup>42</sup> ورفض الإسلام حياة الرهبنة حيث قال ع ( لا رهبانية في الإسلام ) كما هي في المسيحية، وجعل العبادة في الإسلام من صميم عمل بني آدم ونشاطهم فوق الأرض ( هُوَ أَنْشَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا )<sup>43</sup> . فالمثل الأعلى للمسلم هو العالم العامل لا الراهب الناسك.

إضافة إلى أن مبدأ التوحيد يعد تطورا هاما في التصور الديني لم يخلص العرب من الوثنية فحسب بل عدل تعديلا جوهريا من التصور اليهودي والمسيحي بصدد الألوهية.

<sup>42</sup>- سورة البقرة، الآية 30 .

<sup>43</sup>- سورة هود، الآية 61 .

مع هذا الارتقاء في الاعتقاد كان من الضروري أن يرقى فكر الإنسان فكما يقول رانكة:  
" يبدأ العلم المعقول بنقد التقليد الموروث ".

ويؤكد على ذلك الغزالي في منهجه الشكى بضرورة إعادة النظر في كل ما يحيط بنا من  
عادات وعبادات، حتى نعيد بناءه بناءً صحيحاً.

"فمعنى الخلافة الذي جاء به الإسلام إنما يعني أمرين:

1. المكانة المرموقة للإنسان الذي اجتمعت فيه على حد تعبير ابن عربي كمالات  
الوجود كلها الروحية والفكرية والمادية بما لم يجتمع في مخلوق آخر حتى الملائكة التي يعوزها  
الكمال المادي أو الجسمي.

وهكذا أشاع الإسلام نظرة متفائلة بديلاً عن التصور الملازم للخطيئة الأصلية في اليهودية  
والمسيحية .

2. وتقتضي الخلافة كذلك أن يفوض الإله - بمشيئته المطلقة للإنسان - الحرية من  
أجل عمارة الأرض، بعد أن علّمه دون سائر ملائكته الأسماء كلها، وبالعلم اكتشف الإنسان  
ظواهر الكون وسخرها بما ينفعه.

لم يقدم الإسلام هذا التصور الجديد عن الإنسان فحسب، وإنما سخر له الله جميع مخلوقاته  
في البر والبحر وبذلك تهيأت له أسباب التفوق والتمكن، ما كان له في حدود قدرة الإنسان  
وطاقته البدنية المحدودة أن يصلها !.

وقد لفت القرآن الكريم نظر المسلم إلى ظواهر الكون طالبا منه النظر والتدبر، والنظر  
يؤدي إلى العلم، وبالعلم تنشأ الحضارات.

ثم أثار الإسلام كل ما يستثير همّة المسلم ليفجر بها طاقاته ويوقظ مواهبه وقدراته الروحية  
والفكرية والمادية الكامنة فيه .

وهنا أكد القرآن الكريم على ضرورة تمسك الإنسان بالأسباب والتدبر في معان مثل:  
المداورة والسنن الإلهية والنواميس التي تحكم هذا الكون وقد جاء ذلك مكررا في كثير من القصص

44

القرآني حيث قال Y : ( وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ) .

ويقول أيضا : ( قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُكْذِبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَ لَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمَسُّنَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ  
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَجْزِيَ

45

( الكافرين ) .

إن كل هذه المعاني والعوامل السابقة الذكر قد بلورت الفكر الإسلامي وجعلته ينصرف  
إلى الاهتمام بالحضارة والإعمار ذلك أنه إذا كان " التفسير عملية فكرية فقط، فإن الفهم عملية  
تتشارك فيها كل قوى الروح " .

### ن - الإسلام والتاريخ :

قال تعالى: ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ،  
وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى  
كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ  
قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا  
أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ، قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ  
مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَلَا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا

-44- سورة آل عمران، الآية 140 .

-45- سورة آل عمران، الآية 137- 141 .

أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ  
 46  
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .

هذه الآية توضح فكرة اللاهوت والتاريخ، حيث كان الإنسان البدائي - وكنتيجة لضعفه - يعبد مختلف مظاهر الطبيعة، حيث كان يخاف من جبروتها كالكواكب والرعد والبرق والليل والنهار ... إلخ، ثم تدرج قليلا قليلا إلى أن أدرك حقيقة الله الذي أرسله خليفة له في الأرض، كما ورد في الإسلام . وقد اهتدى من البشرية من بلغتهم دعوى إبراهيم والتفتوا إلى القمر والشمس والكواكب، التي هي دلائل على القدرة الإلهية، لقد اهتدوا بعد طول تأمل، واعتمدوا القمر في قياس الزمن وضبط المواقيت والفصول الموسمية، قبل أن تعرف الدنيا أي جهاز للرصد الفلكي أو البوصلة.

لكن أتباع إبراهيم عليه السلام لم يلبثوا أن عادوا إلى ظلامهم واهتموا بالكواكب حد العبادة حيث يخبرنا التاريخ الديني أن عبادة الشمس كانت دين سبأ حيث قال p : ( وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ) .  
 47

وإذا كان العرب قبل الإسلام قد ربطوا دورة القمر بمواسمهم الدينية ومواقيت حجهم و الأشهر الحرام - التي لا يحل فيها القتال - فإن القرآن الكريم قد أضفى على القمر جلالا وحرمة، حين جعل منه المقياس الزمني لمواقيت فريضة الصيام، أنظر ( البقرة 185 و197) والأشهر الحرم : ( البقرة 194 المائدة2 و 97 والتوبة 5).

<sup>46</sup>- سورة الأنعام، الآية 74 - 81 .

<sup>47</sup>- سورة النمل، الآية 24 .

كما ضبطت به في الشريعة الإسلامية، كل الأحكام التي تتعلق بوقت أو زمن مثل : حلول عيد الفطر، مواعيد الزكاة، وحيثما ذكر الشهر في آيات الأحكام، كالكفارة بالصيام، وأشهر الإيلاء والعدة ( آيات النساء 92 ، والمجادلة 3 ) هي الشهور القمرية، كما يأتي شهود الشهر في القرآن مراد به شهود الهلال من شهر القمر .<sup>48</sup>

إذن : لقد تكلم القرآن الكريم عن سر الأهلّة وكنهها في وقت مل كان عصر العلم التجريبي قد بدأ بعد، ولا كان في طاقة البشرية أن تدرك أسرار الفلك إلا أن ترجّم بالظن أو تخوض في غياهب الميتافيزيقا وتحليلات والعقل الإنساني، فحتى عصر نزول القرآن، لم يكن يدرك من علم الفلك إلا تصورات ذهنية اختلط منها السحر البابلي بالتأملات الميتافيزيقية لكهنة الفراعنة وفلاسفة اليونان، و الإشراق الصوفي لروحاني الهند والصين .<sup>49</sup>

وهكذا بدأ المسلمون الدراسات التاريخية وارسوا قواعدها قبل أن يبدأ الغرب ذلك حيث تنطلق بدايتهم من حيث انتهت جهود علماء الإسلام في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية التي أضاءت للغرب ظلمات عصوره الوسطى، وقدمت له مع أجهزة الملاحة ذخيرة من علوم الطبيعة والملاحظة والطب والرياضيات والفلك ولعل أهم من أسهم في الأعمال التاريخية:

**البيروني :** " ولكل واحدة من الأمم المتفرقة في الأقاليم تأريخ على حدة بعدها من أزمنة ملوكهم أو أنبيائهم أو دولهم أو بسبب من الأسباب التي أسلفت ذكرها وتستخرج بها ما يحتاج إليه في المعاملات ومعرفة الأوقات وتنفرد به دون غيرها" .<sup>50</sup>

قال أيضا متحدثا عن التاريخ الإسلامي: " ثم تاريخ هجرة النبي ع وآله من مكة إلى المدينة

وهو على السنين القمرية برؤية الأهلة لا الحساب وعليه يعمل أهل الإسلام بأسرهم" .<sup>51</sup>

<sup>48</sup> - عائشة عبد الرحمن: القرآن الكريم وقضايا الإنسان، دار المعارف، القاهرة، ص 130 .

<sup>49</sup> - المرجع السابق، ص 29 .

<sup>50</sup> - البيروني: ما للهند من مقولة تحقيق ومراجعة عبد الحليم محمود وعبد المنعم يوسف، منشورات المكتبة المصرية، ص 130.

وقد ميز البيروني (في قوله) بين الحادثة التاريخية التي وقعت وهي بداية التقويم الهجري، معتبرا إياها (تاريخا) وبين استعمال وتوظيف الحوادث التاريخية عقد المؤرخين كتأريخ لها.

إذن: نستنتج مما سبق أن لفظ (تاريخ) كتعبير عن الماضي أو عن العلم الذي يهتم بدراسته ليس دخيلا على الثقافة العربية الإسلامية ولا هو وليد العصر الحديث بل هو من صميم العقيدة الإسلامية والتاريخ الديني يشهد على ذلك إضافة إلى أن المصطلح بمفهومه الحقيقي كان شائعا لدى المؤرخين المسلمين حيث قال أحدهم: "قال سفين الثوري لما استعمل الرواه الكذب استعمالناهم التاريخ"<sup>52</sup>.

إن المقصود بالقول الأخير استخدام المؤرخين المسلمين للتاريخ المقارن في تأكيد أن التاريخ لم يكن دخيلا على الثقافة العربية الإسلامية، وذلك لعدة أسباب نورد بعضها فيما يلي :

**I-** كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في تصور المسلمين للتاريخ، لأن ما ورد ذكره في القرآن الكريم من قصص الأنبياء مع أقوامهم قد حدد خصائص التاريخ الإسلامي.

- اتخذ الدين الصدارة التاريخية في القصص القرآني قبل السياسة أو الحكم، فذكر فرعون مثلا لم يأت إلا بسبب موسى أو يوسف عليهما السلام ، أو في موضع آخر بسبب طغيانه.  
- إن الهدف من قَصَصِ القرآن هو الموعظة والعبرة فهو هدف ديني أخلاقي.

**II-** ارتبط التاريخ الإسلامي ارتباطا وثيقا بالحديث منهجا وموضوعا، فمن حيث المنهج تأثر التاريخ بالرواية و الإسناد وأما من حيث الموضوع فكان يدور حول حياة وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبداية التقويم الإسلامي حدد بالهجرة فجمع التاريخ إلى الحديث حقق

<sup>51</sup> - المرجع نفسه، ص 29 .

<sup>52</sup> - محمد شمس الدين السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1979، ص 9 .

أهدافا مشتركة هو تسجيل نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما شرعها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي جوانب حضارية.

III - الإجماع: وهذا يعني بالنسبة للتاريخ أن يرتفع فكر الأمة الإسلامية ممثلا في علمائها في شتى العلوم إلى مكانة تجعل أقوالهم وأفعالهم جديرة بالتسجيل و التأريخ.

IV - القصص الديني: جاء تدعيما للقرآن أي أن يدور التاريخ حول الأنبياء والرسول.

بالإضافة إلى (وقائع التاريخ السياسي للإسلام وتسجيل الأنساب...)

ومن أهم أعلام التاريخ الإسلامي: (ابن خلدون 1332 م – 1402 م) الذي أسماه بعضهم بمؤسس علم التاريخ لأنه ذهب إلى أن التاريخ فرع نوعي من المعرفة يهتم بكامل مجالات الظواهر الاجتماعية للتاريخ الفعلي وبكشف المؤثرات المختلفة التي تعمل فيه، وباستمرارية الأسباب والنتائج، وبالمكونات الفيزيائية والنفسية ولم يكن التاريخ لديه مجرد تسجيل للحوادث بل وصفا للعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية، وقد ذهب إلى ما اعتبره حقائق التاريخ التجريبية بعد النظر عن الفلسفة التقليدية وعدم الثقة في التأملات العقلانية التي كانت سائدة في عصره فما كتبه كان المقصود منه أن يكون بيانا عن المادة التاريخية ويكون من الدقة الواقعية بالمتزلة التي يمضي فيها في ظل الله ويلوح ابن خلدون بالإشارة إلى أن مجرى التاريخ يعتمد على ظروف البيئة أكثر مما يعتمد على النشاطات الحرة للأفراد ولكنه لم يظهر فيما كتب بأنه شديد التمسك بالحتمية فإنه يعترف بالدور الذي يقوم به الفرد والنموذج المتكرر في مجرى حياة الإمبراطوريات يرجع إلى

طبيعة الاستجابات البشرية<sup>53</sup> وذلك في تعاقب الدول والحضارات لأطوار ثلاث<sup>54</sup> :

<sup>53</sup> - محمد شمس الدين السخاوي: المرجع السابق، ص 95 .

<sup>54</sup> - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ص 144 - 145 .

قال ابن خلدون في التاريخ هو: "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم. وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش و التأنس والعصبية وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك من العمران بطبيعته من الأحوال"<sup>55</sup>.

يؤكد ابن خلدون على أهمية التاريخ لدراسة ماضي البشرية وتطورها. وما يقع لها من حوادث وانعكاس ذلك على المجتمع في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعمرانية والثقافية وكل ما يترتب من تقلبات أحوال الدول.

إلا أن بعض المؤرخين يقتصرون على ذكر الأخبار والوقائع من دون أن يذكروا أسبابها وبعضهم الآخر يأبي الاقتصار على التعريف بالحوادث الماضية فيمحص الأخبار ويعلل الوقائع ويستبدل بالتسلسل الزمني ترتيبا سببيا يرجع فيه الحوادث إلى أسبابها والوقائع إلى أحوالها"<sup>56</sup>.

#### رابعا - العصر الحديث وميلاد فلسفة التاريخ:

يعتبر العصر الحديث من أهم العصور التي مر بها التفكير الإنساني من حيث ازدهاره، حيث كان بمثابة نقطة التحول في جميع مناحي المعرفة منهجا وموضوعا فعقب الاكتشافات العلمية تدعمت ثقة الإنسان في المستقبل. انطلاقا من عصر التنوير أسهم الفلاسفة في الدراسات التاريخية إذ جعلتهم نزعتهم المتحررة رواد النقد التاريخي في العصر الحديث، فقد وضعوا كل شيء موضع النقد والفحص، الأمر الذي خلص التاريخ من أخطاء كثيرة كما وسعوا النظرة الأوروبية إلى

<sup>55</sup> - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق وتقديم علي عبد الواحد وافي، مطبعة بولاق، مصر، 1967، ط1، ص 344.

<sup>56</sup> - المرجع السابق، ص 275 .



التاريخ حيث لم يصبح اهتمامه محصورا في اليونان والرومان دون سائر الحضارات وكذلك الشعب

57

العبراني وبهذا أصبح المؤرخ أكثر تحورا وابتعادا عن التعصب الديني والقومي .

- كما تجاوز مؤرخو هذا العصر العلاقات السياسية و أمور الحروب لأنها لا تكشف عن

التقدم، فتجاوزوها إلى أوجه النشاط الإنساني كالعلم و الفن و الفلسفة و الأدب والتكنولوجيا،

فالتاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عن تقدم العقل البشري ومن ثم أصبحت وحدة

الدراسة التاريخية هي : الحضارة، ومنه بدأت تتحدد معالم فلسفة التاريخ Philosophy of History

في كتاب فيكو ( العالم الجديد).

- ويعتبر " فيكو " في نظر الكثيرين أول من أرسى معالم فلسفة التاريخ في القرن 18،

وأهميته تكمن في منهجه. أكثر مما هي عليه في مذهبه. كما نجد " فولتير " الذي اهتم بالتأريخ

للحضارات بدلا من التاريخ للملوك و أخبار السياسة والحرب التي لا تفصح عن تطور العقل

الإنساني عبر الزمن، وكذلك اتساع دائرة التاريخ لتشمل الشعوب البدائية وحضارات الشرق

القديم وعدم الاقتصار على التاريخ الأوروبي أي : " عالمية التاريخ "، وكذلك الكشف عن أخطاء

الماضي لتجنبها في المستقبل.

- كما نجد " هيغل " يعتمد على كل من الميثافيزيقيا والمنطق ويعتبرهما أساسيين في دراسة

58

وفلسفة التاريخ من خلال:

1 - التفرقة في الدراسة التاريخية بين ظاهر و باطن.

2- صراع الأضداد باعتباره سر حركة التاريخ.

57- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ص 189 - 190.

58- المرجع السابق، ص 240 .

- أما "ماركس" فيفسر التطور التاريخي على أسس اقتصادية معتمداً مبدأ الديالكتيك إنقلتر والمذهب المادي، وهذا ما نجده أيضاً عند إنجلز ومن هنا تلاشت التفسير المرتبطة بالإلهيات في فلسفة التاريخ، وأصبحت أكثر ارتباطاً بالنشاطات الفكرية الإنسانية كالمثالية الهيكلية والمادية الماركسية ومادية إنجلز وفيورباخ والبعد البيولوجي عند شبينقلمر والبعد الحضاري عند تويني، وإن كانت النواة لهذا العلم قد وجدت عند ابن خلدون (المقدمة) وكتاب (الأمير) لميكافيلي...  
فلسفة التاريخ حاولت التوفيق بين ما تتركه الحادثة أو ما يسجله المؤرخ والحقيقة الموضوعية.

#### خامساً - تعريف فلسفة التاريخ:

##### أ - مصطلح فلسفة التاريخ:

"فلسفة التاريخ" هي: الاسم الذي يطلق على مجال المعرفة الذي يدرس معنى التاريخ وقوانينه والاتجاهات الرئيسية لتطوره، وترجع فلسفة التاريخ من الناحية التاريخية إلى القدماء لأن هناك من خاص فيها مثل أفلاطون، أرسطو، أوغسطين... الخ، وفي القرن 18م شهدت تطورا كبيرا على أيدي مفكري عصر التنوير: فولتير وهيردر ومونتسكو... الخ .  
59

وهي " تبحث في القوانين العامة التي تحكم تطور المجتمعات الإنسانية ومعنى هذا التطور وغايته، وبالمعنى العام تبحث في الأسباب التي بها تكون الوقائع التاريخية، ومن فلاسفة التاريخ ابن خلدون فيكو وهيغل وكونت وشليجل وباكل " <sup>60</sup> .

وقد " كانت فلسفة التاريخ في ألمانيا إطارا إيديولوجيا تنعكس فيه - بقوة - رغبة الألمان في الوحدة والتقدم. وحدة الشعب الألماني المفكك الذي يهدف إلى التقدم والحق بركب الدول الأوروبية المتقدمة. وهكذا كانت ألمانيا الإقطاعية تعيش آنذاك على صعيد الحلم، ما كانت تعيشه فرنسا وإنجلترا على صعيد الواقع " <sup>61</sup> .

ولم يمضى زمن بعيد حتى رأى بعض الباحثين أن هناك "علاقة واضحة بين أساطير اليونان والشرق الأوسط وبين بداية الرواية التاريخية أي سرد الأحداث في نسق زمني. لكن لما اتجه الاهتمام نحو أساطير الشعوب الطوطمية، الأمريكية والإفريقية. حدثت مشكلات غير منتظرة. أدت إلى ربط علاقات مماثلة بين الأسطورة وفلسفة التاريخ وإلى التمييز بين هذين النوعين والرواية التاريخية " <sup>62</sup> .

### ب - موضوع فلسفة التاريخ:

تبحث فلسفة التاريخ في العوامل الأساسية المؤثرة في سير الوقائع التاريخية وتدرس القوانين العامة المسيطرة على نمو الجماعات الإنسانية وتطورها على مر العصور. ومصطلح فلسفة التاريخ جديد وضع في القرن 18، وبعد فيكو ( 1668 - 1744 ) صاحب كتاب "العلم الجديد" واضع هذا المصطلح، إلا أن مباحث فلسفة التاريخ ترجع إلى أقدم العصور، منها كتاب مدينة الله

<sup>60</sup> - المرجع نفسه، ص 241.

<sup>61</sup> - محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991،

ص ص 98 - 99.

<sup>62</sup> - عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط4، 1997، بيروت، ص 10 .

للقدّيس أغسطين وكتاب المقدمة " لابن خلدون وكتاب الأمير " لمكيافيلي 1532م وكتاب الجمهورية لجان بودن. 1577م وخطابة في التاريخ " لبوسويه " 1681م والحكومة المدنية لجون لوك 1690م ومن الذين بحثوا في فلسفة التاريخ بعد فيكو مونتيسيكو وفولتير وغبرو وليسنج وهردر وهيغل الذي استنبط قوانين تطور البشرية من مذهبه العام، ومجمل القول : أن جميع فلاسفة التاريخ يبحثون عن القوانين العامة لتطور الشعوب والأمم .

- ويمكن تحديد مقولات فلسفة التاريخ على النحو التالي:

**I - الكلية :** تبدو الحوادث التاريخية أمام الباحث أشتاتاً لا رابط بينها و أكواما تتراكم فوق بعضها البعض ولتجنب المصادفات يطلب الفيلسوف الوحدة العضوية بين هذه الأجزاء ومن ثم فإن نقطة البدء في فلسفة التاريخ : تكامل بين الأجزاء وترابطاً بين الوقائع ويتشكل من ذلك كله ما يسمى بالتاريخ العالمي الذي يصبح مادة الفيلسوف. ففلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين ولا تكتفي بمجتمع خاص بل تضم العالم كله في إطار واحد من الماضي السحيق حتى اللحظة التي يدون فيها الفيلسوف نظريته، بل قد لا يقتنع بذلك ويمد تفسيره إلى المستقبل.

**II - العلية :** يلجأ المؤرخ في التاريخ العادي إلى التعليل لكنه يتقيد دائماً في استنباطه للأسباب بواقعة جزئية ملتزماً بأطر التاريخ أو مقولاته من فردية وإمكانية أما فيلسوف التاريخ فيختزل العلة الجزئية للحوادث الفردية إلى علة واحدة أو علتين على أكثر تقدير يفسر على ضوءها التاريخ العالمي وهذا يقتضي بطبيعة الحال إعادة تشكيل وقائع التاريخ لينسج منها صورة عقلية .

وكما ذكرنا سابقاً أن فلسفة التاريخ ( كمادة بحث ) ترجع إلى العصور القديمة وقد اختلفت النظرة إلى التاريخ باختلاف العصور لصلتها الوثيقة بالوضع الحضاري وبالتطورات

<sup>63</sup> - جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج1، ص 229 .

<sup>64</sup> - عبد الله إبراهيم : المركزية الغربية ص ص 36-38.

الثقافية لقد تأثرت دراسة التاريخ وفكرته بتطور الفكر العلمي والفلسفي خاصة وقد ساهم الفلاسفة والمؤرخون على حد سواء في الخوض في فلسفة التاريخ .

وقد انقسمت الآراء إلى اتجاهين رئيسيين :

أولهما: يحاول استخراج قوانين عامة لسير المجتمعات البشرية في التاريخ.

ثانيهما : يرفض ذلك ويقرن التاريخ بمجموعة أحداث مفردة لا تنظمها قوانين أو مبادئ عامة.

فيختلف أصحاب الاتجاه الأول بين ما يصدر من تأملات فلسفية تشتق منها قوانين أو مبادئ تطبق على التاريخ وبين من يقول بالتوصل إلى تلك القوانين بطرق تجريبية أو استنباطية عن دراسة المجتمعات البشرية دراسة علمية موضوعية ويرى البعض الآخر بأنه لا يمكننا عرض الماضي كما حدث لأنه فلت من الحاضر وبالتالي لا نجد ما نلاحظه الآن إلا النشاطات في سائر ميادين الحياة، أو ما تتناقله الأفواه شفاهياً، فدراسة الماضي حسب هذه النظرة تنطلق من مشاكل الحاضر. يوجد منهجان مختلفان للبحث في فلسفة التاريخ.

الأول: هو التحليل الفلسفي للتاريخ : أي تشخيص منطق ومفاهيم وأساليب عمل المؤرخين.

الثاني: محاولة اكتشاف معنى أو دلالة في طبيعة المسيرة التاريخية تتجاوز الفهم الذي يصل

إليه العمل التاريخي العادي ويشار إلى :

- الأول بالفلسفة النقدية للتاريخ.

- وإلى الثاني بالفلسفة النظرية أو التأملية للتاريخ.

إذن إننا لا نجد فلسفة للتاريخ عند القدماء بهذا المعنى وربما بدأت حسب التصنيف الغربي في عصر التنوير الذي سبقه عصر النهضة .

حيث وضع الإنسان وسط الصورة التاريخية كما حرر التاريخ من الأساطير حيث ركز فلاسفة العقد الاجتماعي على التاريخ السياسي وكيفية ظهور الأنظمة السياسية وضرورتها لحماية حريات الفرد وتنظيم المجتمع.

## ج - العلاقة بين الفلسفة والتاريخ أي (فلسفة التاريخ):

- إن لمبحث " فلسفة التاريخ " موضوع تساهم فيه الفلسفة بحظ وافر ولا يمكن للتاريخ أن يستغني عن مؤازرتها في المجالات التي يكون التاريخ قاصر فيها، وقصور التاريخ راجع إلى عيوب طبيعة المنهج وطرق الدراسة فيه، فهو من جهة يغرق الباحث في وقائع وحوادث لا حصر لها - حتى لا يكاد على حد تعبير فولتير - يصبح بعدها أكثر حكمة مما كان عليه قبلها، ومن جهة أخرى يشد الباحث إلى الماضي شدا حتى يصبح لشدة ألفته غريب عن الحاضر (ديكارت) كما ينتهي الأمر بكثير الأسفار إلى أن يصبح غريبا عن وطنه، والتاريخ فضلا على ذلك ينوء تحت عبء الماضي بينما الحالة الإبداعية لفكر الإنسان إن أفادت من حصيلة الماضي - فهي على حد تعبير فخته - " لا بد أن تنفصل عنه، إذ الحالة التاريخية متعارضة بطبيعتها مع اللحظة الابتكارية " .

- وفلسفة التاريخ تعوّض في التاريخ كل هذا القصور إذ تعطي لوقائعه المتراكمة المتتالية مغزى ومعنى، وهي تبدأ من مشكلة قائمة في الحاضر، وتقيم الإنسان دائما فيه وتربطه به، ومن ثم لا يغوص في أعماق الماضي السحيق غوصا غريبا يجعله غريبا عن حاضره، وهي إذ تخالف التاريخ في تطلعها الدائم نحو المستقبل فإنها لا تجعل الإنسان ينوء تحت الماضي ومن ثم فهو محصن ضد ما أسماه فيتشه داء التاريخ، أي انبهار العقل حين يغريه الماضي بالولاء له.

- وفلسفة التاريخ لا تعوض قصور التاريخ فحسب بل إنها تعوض قصور الفلسفة أيضا، لأن الفلسفة تعاني من قلق دائم مصدره اشتياق الفيلسوف لإدراك الحقيقة، فهو ذائب في البحث عنها، لكنه يخشى أن يظل السبيل حين يخلق في عالم المجردات وهذا لفرط تجريدها، ومن ثم فإن فيلسوف التاريخ يلتمس مكانة من واقعية التاريخ. يشد التاريخ الفلسفة حتى لا تخلق بعيدا عن

عالم الإنسان وترتفع الفلسفة بالتاريخ حتى لا يغوص في وحل الماضي ودمائه، يلتمس التاريخ من

65

الفلسفة الحكمة والمغزى وتلتمس الفلسفة من التاريخ الواقعية، كلاهما يكمل قصورا في الآخر .

نخلص إلى تسجيل النتائج وتفسيرها

ومعنى ذلك أن التاريخ بالمفهوم الحديث أصبح ينصب على البحث عن الحقيقة، إن عملية

استخلاص الحقائق التاريخية وتفسيرها هي ما نطلق عليه اصطلاح (فلسفة التاريخ) والتي

يقصد بها :

**1- محاولة تفسير الأحداث التاريخية ومعرفة العوامل والقوى الأساسية التي تتحكم في**

تشكيلها ومحاولة الكشف عن القوانين التي يعتقد أنها تحكم المجتمع البشري.

**2- محاولة التنبؤ (التوقع) وهو الهدف الذي يسعى التاريخ لتحقيقه من خلال استقراء**

الأحداث التاريخية واستخلاص القوانين التي تحكم التطور الاجتماعي وتسطير - على ضوء ذلك -

احتمالات للمستقبل.

• إن موضوع تفسير التاريخ وقوانين التطور شغلا اهتمام الفلاسفة والباحثين منذ

القديم، لكن الجديد في ميدان البحث في العصر الحديث هو بروز هذه الإشكالية : لمن نسند مهمة

الدراسات التاريخية للمؤرخ الذي يعنيه ذلك من خلال استخدام المنهج التحليلي والطريقة

الاستقرائية أو نسنده لفيلسوف التاريخ وما يتبع ذلك من صياغة لقوانين شاملة قد يرى فيها

البعض بعدا عن الموضوعية وزيجا عن المقصود؟ أم أنه على المؤرخ والفيلسوف التأزر كل بآلياته

وتقنياته من أجل هدف مشترك هو في نهاية المطاف: محاولة تفسير التاريخ وقوانين التطور أي

الوصول إلى معرفة القوى الحقيقية التي تحكم حركة التاريخ وتطوره؟.



إن فلسفة التاريخ باعتبارها ذلك الناتج الذي تمخض عن اجتماع التاريخ بالفلسفة هي بمثابة العلم الذي يقوم التاريخ منهجا وموضوعا لأجل الإلمام بالماضي على أحسن وأكمل وجهه، وذلك بتعديده على مقولتي: الزمان والمكان إلى ما بعدهما، واستبدال الفردية بالكلية، ومن هنا جاءت الانتقادات لفلسفة التاريخ على أساس الاختلاف الجوهري بين مقولات طبيعة الدراسة في فلسفة التاريخ عن طبيعة التاريخ في حد ذاته، انطلاقا من التاريخ العالمي ووحداية العلة، فكان الانتقاد للتاريخ العالمي كمادة لفلسفة التاريخ، لذلك يؤاخذ فلاسفة التاريخ على تعليلهم لأحداث التاريخ بناء على تأمل قبلي عقلي لا ينطبق على الواقع في بعض الأحيان كما سيأتي توضيحه في الفصل القادم مع فلاسفة التاريخ السابقين لهيغل.

# الفصل الثاني

فلاسفة التاريخ قبل هيغل

فلسفة التاريخ هي المجال المعرفي الذي يهتم بدراسة الوقائع التاريخية والقوانين العامة التي تحكم تطور المجتمعات البشرية، ومباحث فلسفة التاريخ ترجع إلى أقدم العصور حيث أشرت إلى بعضها فيما سبق، وسوف نركز على أشهرهم فيما يلي مراعين الإقليم الجغرافي والتاريخي.

### أولا - فلاسفة التاريخ الشمفريقيون:

#### 1 - أغسطس: Saint Augustin :

أ - حياته: هو فيلسوف مسيحي وأحد كبار الكنسية الكاثوليكية، ولد في تاغشت Tagaste وهي ما تعرف اليوم بسوق أهراس في شرق الجزائر في 13 نوفمبر 354م، وتوفي في " هبون" اسمها اليوم بونة "عناية" في الجزائر، في أغسطس من سنة 430، كان أبوه وثنيا ينما كانت أمه مسيحية .

درس "أوغسطين" النحو في تاغشت والفنون الحرة وفنون الخطابة في قرطاج، ويصف أوغسطين أحواله في تلك السنة وهو في السادسة عشر من عمره فيقول؛ أنه كان منهكا من انتهاب اللذات والشهوات غير مهتم بالدراسة حتى أنه في تلك السنة قد تركها وأقام في منزل أبيه، ويقول عن حاله في تلك السنة: "ولدى خروجي من طفولتي إرواء تعطش، لا اخش الشهوات، أسلمت تياري لما لا نهاية له من الشهوات المتزايدة في قلبي يوما بعد يوم كأها عناية كثيفة"<sup>1</sup>.

وبعد وفاة والده عاد إلى قرطاج في كفالة أحد أقربائه وهنا بدأ حرصه على التعليم ، وفي سن التاسعة عشرة قرأ كتابا " لشيرون" فآثر في نفسه أبلغ تأثير إذ أوقد في عقله حب الحقيقة الخالدة والحكمة الدائمة، وبعدها صار معلما ناجحا للخطابة في قرطاج وفي الوقت نفسه، استمر في تعليم نفسه فدرس كتاب " المقولات" لأرسطو وفي سن السادسة أو السابعة والعشرين ألف أول كتبه وهو (رسالة في الجميل والملائم)، كما اشتغل بالتدريس وكان معلما للخطابة في مدينة ميلانو كما ألف عدة كتب منها: (مدينة الله).

<sup>1</sup> - عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، ج1، 1984، ص 247-249.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

أ- غاية الإنسان السعادة: الفلسفة عند "أوغسطين" هي الحكمة والغاية من الحكمة هي السعادة، السعادة التي تؤدي إلى طمأنينة النفس، ولا سبيل إلى إدراك حقيقة هذه السعادة إلا "بمعرفة الإنسان لنفسه بنفسه"، كما دعا إلى ذلك سقراط، لأن النفس إذا عرفت نفسها: من ينبغي عليها أن تطيع؟ وفق ماذا يجب عليها أن تسيطر؟ أن تطيع الله وأن تسيطر على البدن<sup>2</sup>!

إن السعادة تقوم عند حصول المرء على ما يريد، لكن ليس على أي شيء، بل لا بد أن تتوافر في هذا المرء عدة شروط منها:

أن يكون ثابتا باقيا: لا يتوقف على الصدفة، والله هو الموجد الوحيد الذي يتصف بالدوام وعدم الخضوع للصدفة، لهذا يجب أن يكون مرادنا هو الله إن شئنا تحصيل السعادة، التي هي تتعلق بالروح لا بالجسد.

ب- الله: إذا كان الله هو وحده موضوع سعادتنا، فلا بد لنا من إثبات وجوده، وأوغسطين يؤمن بأن إدراك وجود الله أمر بيقين، وفي الوقت نفسه يقرر أننا وإن كنا نقر بوجوده فإننا لا نستطيع أن ندرك ماهيته<sup>3</sup>.

والله عند أوغسطين هو الحق السرمي الصمد، وهو الخير المطلق وهو مبدأ كل وجود ومبدأ كل معرفة ذهنية توجد "الصور". أو الحقائق الأزلية الأبدية ففيه وبه وحده يمكننا معرفة كل الأشياء إذ هي تجد سندها وأصلها في الله كخير مطلق ومصدر كل خير .

### ب - فلسفة التاريخ عند أوغسطين:

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 249-250.

<sup>3</sup> - Dictionnaire des auteurs, ed : robert laffont, T1 Grand Bretagn , 1980, P 385.

تقوم فلسفة التاريخ عند "أوغسطين" على أن العالم منذ أن خلقه الله وهو في صراع بين نوعين من الحب : حب الإنسان لله، وحب الإنسان لنفسه، لهذا انقسمت المدينة إلى مدينتين : مدينة أرضية، ومدينة سماوية، وانقسم التاريخ إلى تاريخ دنيوي وتاريخ مقدس، والإمبراطورية البابلية والإمبراطورية الرومانية هما نموذجاً الدولة الدنيوية وأورشليم هي مقام المدينة السماوية ، وقبل أن نتطرق لنظرية المدينتين عند القديس أوغسطين علينا أولاً تحديد مفهوم المدينة عنده والجدير بالذكر أنه لم يعالج أبداً مفهوم المدينة معالجة مجردة وعامة كما فعل الفلاسفة السابقون عليه وإنما عالجها من خلال استدلالات مفككة إذ كان ممزقاً بين عقله وإيمانه، والمدينة عنده لم تكن مدينة محسوسة ملموسة أي مجموعة من المساكن والحدائق والطرق والأسوار، إنما كانت مدينة إنسانية أي مجتمعاً إنسانياً، ويقول عنها: "المدينة ليست إلا مجموعة من البشر تقع بينهم رابطة اجتماعية" وقد حدد هذه الرابطة على أساس الحب ليتوصل إلى أن المدينة هي الشعب الذي هو جماعة من الكائنات العاقلة التي يجمع بينها حب نفس الشيء<sup>4</sup>.

حاول أوغسطين أن يقيم بناءً مثالياً جديداً يتكون من مملكتين الأولى إلهية، والثانية أو دنيوية وتخضع الثانية منهما للأولى لكي يبرر تحكم الكنيسة في الدولة وفي العالم.

### ج- مفهوم المدينة السماوية:

يرى أوغسطين أن مدينة الله موجودة فعلاً، فالكتاب المقدس يشير إلى ذلك في كثير من المواضيع منها قوله: إن الأشياء الجليلة شاهدة على وجودك أيتها المدينة، مدينة الله<sup>5</sup> " أما عن طرق معرفة هذه المدينة فتتمثل في طريقي: الوحي والإلهام.

وهذه المدينة السماوية التي يعتبر الله مؤسسها وملكها، توجد في هذا العالم الأرضي في بابل إنها أسيرة، وإنها تضم أسرة البشر الذين يعيشون بالإيمان ، وينتظرون بصبر استقرار المسكن

<sup>4</sup> - محمود الحضري: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1، 1992. ص 92

<sup>5</sup> - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار المعارف بمصر، ط2، ص 118.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

الأبدي، وكل الخيرات الأبدية، لقد أعطيت هذه الأسرة منذ الآن الوعد بالخلاص، فإله عنده الحق السرمدى الصمد وهو الخير المطلق، وهو مبدأ كل وجود ويكفينا أن ندخل في ذواتنا لنجد أنفسنا ونجد فيها الله.

وقد كان يرمز للمدينة السماوية بأورشليم ( القدس ) قبل مجيء السيد المسيح ويقول أوغسطين في اعترافاته<sup>6</sup>: " نار الحيرة تلهبنا، فنروح ونصعد إلى سلام، أورشليم وما أعظم فرحي حين أسمع "<sup>7</sup>. " إلى بيت الرب نذهب " هناك تقدم لنا- الإرادة الصالحة -مكانا وهناك تنال أمانتنا الوحيدة بأن نبقى فيه إلى الأبد"<sup>8</sup>.

ولقد حاول "أوغسطين" تتبع مسيرة مدينة الله أو المدينة السماوية تاريخيا منذ أوائل أبنائها على الأرض ودفن هايبيل وحتى نوح والطوفان، ثم حال صمت الكتاب، المقدس ودون تتبع هذه المسيرة، وهذا راجع إلى مصدر أوغسطين التاريخي فيما يتعلق بمدينة الله الذي هو الكتاب المقدس وحده، ليس هذا فحسب بل إنه عد هذا الكتاب النص الوحيد الذي يقيم لنا من خلال ما يقدمه من تاريخ صورة ما ستكون عليه الإنسانية في المستقبل الغاية التي يشير إليها .

ويذهب أوغسطين إلى أن الله في البدء عندما خلق الإنسان كان يعتمزم أن يصير أبناء الإنسانية جميعا أعضاء في مدينته، ولكن خطيئة آدم أب البشرية قضت على هذا المشروع لأنها أدت إلى نزول الإنسان ملوثا بهذه الخطيئة إلى الأرض، حيث أصبح غير جدير بشرف هذه المدينة، ولكن الله يضيف رحمته Gratia متى يشاء على الناس الخيرين ليجعل منه أعضاء في مدينته.

ومدينة الله عند القديس أوغسطين هي جسم المسيح الذي ينمو مع الأيام وسوف يكتمل نموه في الوقت المحدد له سلفا، فكل جيل وكل عصر وكل منارة تساهم في النمو من خلال

<sup>6</sup> - علي زعيمور: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والإصلاح المكتب العالمي للطباعة ، ص175.

<sup>7</sup> - المرجع نفسه، ص175.

<sup>8</sup> - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية، ص119.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

المسيحيين الحقيقيين أبناء مدينة الله الذين يتسمون للقطيع واكتمال مدينة الله. هو اكتمال نمو جسم المسيح.

وحسب أوغسطين فإن العالم ليس صورة الله وإنما أثر له، حيث يحمل العالم في طياته الصفات الإلهية من وحدة خيرية، وحق وجمال، أما الشر فدخل الأرض بدمج آدم وهبوطه إليها، ليتكاثر بالأفراد الذين يتفرعون إلى جماعات، كل يسعى إلى اتجاه ما، ثم تكون المدن والدول بمرور الوقت، وجد لدى الإنسان رغبات أو محبات في اتجاه ذاتي، وأخرى نحو الله وبذلك تكونت دولتان أو مدينتان ترجع إليهما سائر المجتمعات البشرية، المدينة السماوية أو مدينة الله والمدينة الأرضية أو مدينة الإنسان<sup>9</sup>.

في نظر أوغسطين هناك حين أو رغبتين صنعنا المدينتين: "حب الذات لحد احتقار الله صنع المدينة الأرضية، وحب الله لحد احتقار الذات صنع المدينة السماوية، والمدينة الأولى تتجدد في ذاتها، أما الثانية فتتجسد في الرب كما أن الأولى تؤسس بأجماد البشر، أما الثانية فإن الله الشاهد على الضمير هو مجدها الأكبر..."<sup>10</sup>.

ومن هذا نستنتج أن الإنسان ذا طبيعة مزدوجة مكونة من روح وجسد وشتان بين طمأنينة الروح، وراحة الجسد، ومن هنا كان موطننا للعالم الدنيوي، والمدينة السماوية في نفس الوقت وعندما يتم تحقيق تلك الوحدة بين العالمين تكون نهاية التاريخ نهاية التاريخ و التي هي فكرة مسيحية أصلية أحسن صياغتها بإحكام شديد، وذلك من خلال تشبيه الإنسان الأرضي بجسم المسيح الذي ينمو ويتطور وبروح المسيح التي تنشر الأخلاق الفاضلة، في كل الأرض على مر العصور، ليحقق في آخر المطاف.

### د - مفهوم مدينة الأرض:

<sup>9</sup> علي زيعور، الفلسفة في أوروبا الوسيطة، ص 168.

<sup>10</sup> Vera Parameto : augustin, le message d'une vie, traduit par Noel Bugnard le centurion, p88.

ومؤسسها هو الإنسان ولقد رمز لمدينة الأرض بيبابل والتي تعني التشتت والبلبلة لغويا، وأبناء مدينة الأرض أهم خاصية مميزة لهم أنهم سيسعون لغاية واحدة هي: السعادة الدنيوية على الأرض، وهذه الغاية هي العامل المشترك الذي يجمع بينهم في مجتمع واحد، وبالرغم من تنوع الأشياء التي يرغبون فيها واختلافها، يجمع بينهم أبناء الأشياء المادية الذي لا يهدأ له حد، ويطلق أوغسطين على مدينة الأرض اسما معبرا تماما، عن حقيقتهم فهم *commercants des* وأبناء مدينة الأرض هؤلاء يحبون حياة الإنسان القديم *cetens homo* و حياة ما قبل الشريعة اليهودية<sup>11</sup>، أي ما قبل التمييز بين الخير والشر، أي حياة الإنسان الأرضي بعد الخطيئة وهي حياة مرة.

### هـ - الكنيسة والسلطة السياسية:

في ثنائية أخرى عرض أوغسطين وحاول تفسير سيرورة التاريخ وهنا لعبت الظروف التاريخية دورا حاسما في تحديد العلاقة بين قطبيها.

من المعروف أن الفترة التي عاش فيها أوغسطين وكتب هي تلك العقود الأخيرة للفترة الممتدة من القرن الرابع الميلادي إلى العقد الأول من القرن الخامس، حيث كانت الفترة فترة اضطرابات عميقة أسفرت عن الانتقال من عصر إلى عصر، وعن اختفاء حضارة ويزوغ أخرى أي أفول الحضارة اليونانية الرومانية في العصر القديم ويزوغ الحضارة المسيحية في العصر الوسيط، وتمثلت عبقرية أوغسطين في تبنيه (حقيقة هذه المرحلة) التي عايشها وفي إدراكه أن ثمة قضايا عديدة تحتاج لإعادة طرح ومعالجة جديدة وأن هذه هي رسالته، وهذا هو دوره، وعلى رأس هذه القضايا كانت علاقة الدين بالسلطة السياسية وعلاقة الكنيسة بهذه السلطة.

وأوغسطين دائما في معالجته للقضايا يرى ضرورة أن يضع نصب عينيه أن المسيح لم يشجع أتباعه على مقاومة أو حتى على تجاهل السلطة السياسية القائمة، بل على المسيحيين طاعة

<sup>11</sup> أوغسطين، أنسلم توما الأكويني: نماذج من الفلسفة المسيحية، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، 1983، ص 24.



## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

أوامر السلطة السياسية في كل الأمور إلا إذا تعارضت مع التعاليم المسيحية المقدمة، وعززت هذه الفكرة، أي طاعة السلطة السياسية القائمة رسالة "بولس" للرومان.

وقد رأى أوغسطين أن الفصل بين الكنيسة والسلطة السياسية والخروج من المأزق الذي أصبحت فيه المسيحية يكون بتعديل العلاقة بين الكنيسة والدولة والرجوع إلى أصول المسيحية الأولى وحجر الزاوية فيها هو هذه القاعدة أي أن تعطي لقيصر ما لله لله<sup>12</sup> وقد أدرك أوغسطين أن سلامة استقرار المسيحية لن يتحقق إلا بنوع من الفصل بين سلطة الكنيسة والدولة وبين الدنيا والسياسة مع الاكتفاء بجعل العلاقة بين الطرفين علاقة تعايش سلمي، وبالرغم من أن الكنيسة تبنت فكرة أوغسطين بعد ذلك بحيث جعلت منه صاحب نظرية سياسية مسيحية الإباحة سيطرتها على الدولة فإن في أوغسطين<sup>12</sup> كان يسعى -على العكس- لإيجاد نوع من الفصل بين السلطتين التباعدا بينهما، وإن البشر قادرون بواسطة تأويل تلك الإرادة السحرية الخطيرة على تبرير كل المواقف وكل الآراء وكل سلوك، وموقف أوغسطين هذا خير دليل على أنه كان يصبغ نظرياته بما يحقق مصالح عقائدية وأن نظرياته لم تكن مقطوعة الصلة بالواقع بل عاكسة له وساعية لإصلاحه.

ونجح أوغسطين في تحديد الداء والدواء معا، أما الدواء، فهو ضرورة عودة المسيحية لسالف عهدا وكما كانت عقيدة لا يشغلها شاغل عن إرشاد أبنائها لطريق الخلاص، طريق مدينة الله، وأما الداء فهو الذي أصابها عقب اتخاذها رسميا كدين للإمبراطورية الرومانية.

وعليه نستنتج: أن التاريخ عند أوغسطين لم يكن مجموعة من الوقائع والأحداث ساهمت في صنعها شخصيات، إنما التاريخ في الحقيقة يتجلى في خطة إلهية تتحقق حتما، ويكون تجليها في الماضي إشارة لما سيحدث في المستقبل وحتى آخر الزمان.

<sup>12</sup> القديس أوغسطين: اعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، ط3، دار النشر، بيروت، 1986، ص ص 50-52.

فلسفة التاريخ عند القديس أوغسطين تتمثل في المدينة السماوية والمدينة الأرضية أي

تاريخ المدينتين ( التاريخ المقدس والتاريخ الأرضي الذي يتمثل في الحضارات).

## 2- عبد الرحمن بن خلدون:

ولد عبد الرحمن ابن خلدون في 27 ماي 1332، بتونس الموافق لـ 732هـ وتوفي

في 19 مارس 1406 الموافق لـ 808هـ بالقاهرة.

مؤرخ ومنظر في الاجتماع والتاريخ والتربية والاقتصاد والسياسة والفنون... الخ.

إذا كان اهتمام القديس أوغسطين بالتاريخ يعود إلى صدمة سقوط روما كما أسلفت الذكر، فإن الاضطرابات السياسية والتذبذبات الاقتصادية وتدهور الوضعية الاجتماعية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي، إذ لم يمض قرن على سقوط بغداد في يد التتار، حتى أدى ذلك إلى انقسام الخلافة الإسلامية، حيث بدأت الدولة العثمانية في التأسيس في آسيا الصغرى، كما حكم المماليك مصر وتقلصت دولة المسلمين في الأندلس حيث انحصرت رقعتها إلى غرناطة بزعامة بني الأحمر كما صادف ذلك سقوط دولة الموحدين في المغرب الإسلامي ونتج عن ذلك تأسيس دويلات، فقد حكم المغرب الأقصى بنو مرين والزيانيون في المغرب الأوسط (الجزائر) والحفصيون في تونس، وهي دويلات كانت متصارعة كثيرا، ما دفع باستعانة حكامها بالأجانب ضد الأتقاء، مع كثرة الفتن والانقلابات والحروب بين هذه الدويلات التي عاش فيها ابن خلدون<sup>13</sup>.

لهذه الأسباب اهتم ابن خلدون بحركية المجتمع وأطوار الدولة وحاول بعد دراسته للتاريخ الإسلامي استخراج قوانين تتحكم في سير المجتمعات وهذا ما أكده تويني بعد دراسته لابن خلدون حيث تبين له أن فيلسوف التاريخ يستفيد من دراسة الماضي بنقد مضمونه وهذا يساعده على تطوير علم المناهج أو ما يعرف حديثا بالنقد التاريخي الذي مارسه ابن خلدون ونال به السبق

<sup>13</sup>- الجابري : العصبية والدولة، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1982، ص ص 21-22.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

على المؤرخين، مع التفطن إلى إدراج الحيز المكاني أو العامل الجغرافي موقعا ومناحا كبعد ضروري لدراسة الحادثة التاريخية، ناهيك عن التوسع إلى المجالات الاقتصادية السياسية والثقافية .

ويعد ابن خلدون أول من تفطن إلى استعمال المنهج المقارن في النص التاريخي، لهذا يجدر بنا أن نتعرض إلى تعريف التاريخ عنده.

يقول: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم وحتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين"<sup>14</sup>.

إن انكباب المسلمين على دراسة التاريخ يرجع إلى طبيعة دينهم خاصة في جانب السيرة النبوية الشريفة حيث كان من أهم ما يجب على الرواة هو التأكد من مصادر الخبر كما لا يخفى علينا أن عرب الجاهلية كانوا يهتمون بالأنساب وأصول القبائل وفروعها ويتبادلون تنقل القبائل وحركة القوافل وأخبار سائر الأمم القريبة منهم والبعيدة.

وهذه المعارف كانت منتشرة بين الكبير والصغير والعبد والسيد والمرأة والرجل، وهذا ما يذهب إليه ابن خلدون في مواصلة تعريفه للتاريخ كما ورد في مقدمته المشهورة إذ يقول: "أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد له الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأجيال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأوائل، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ... وعمرها الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحال بينهم الزوال"<sup>15</sup>.

<sup>14</sup> - ابن خلدون: المقدمة، ص 12.

<sup>15</sup> - المرجع السابق، ص 7.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

في هذا النص يشير ابن خلدون إلى دورته المعروفة حيث يشبه المجتمع وأجياله بكائن ينمو ويتطور ويتكاثر، وبعد أن يقوم بدوره يندثر، ولتوضيح ذلك يواصل ابن خلدون: "... ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم، نبهت عين القريجة من سنة الغفلة والنوم، وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم، فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً"<sup>16</sup>

ابن خلدون يشير في هذا النص - وبتواضع العالم - إلى إنشائه لعلم جديد باعتبار أنه توجه إلى الأجيال القادمة بشيء مبتكر يتمثل في "النقد التاريخي" الذي مارسه على كتب المؤرخين السابقين عليه والمعاصرين له، وفي هذا السياق يضيف قائلاً: "وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا، بابا، وأدبت فيه لأولويته الدول أو العمران عللاً وسبباً"<sup>17</sup>

هنا يتحدث ابن خلدون لأول مرة عن ربط النتائج بالأسباب وبالتالي تجاوز التاريخ التقليدي المتمثل في سرد الأخبار إلى النقد التاريخي الذي يعني إعادة كتابة التاريخ وفقاً لمنظور معاصر يستخدم فيه العقل وهذا واضح في كلمة "الاعتبار" حتى يتبين لنا أنه علم جديد يردف قائلاً: "وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً"<sup>18</sup>.

يعني أن المنهج الذي استخدمه ابن خلدون مبتكر، حيث اعتبره مذهباً عجبياً، والناس في العربية يتعجبون من الشيء غير المعروف لديهم أو الجديد عليهم، حيث يضيف ابن خلدون قائلاً: "وابتكرته من بين المناحي مذهباً عجبياً وطريقة مبتدعة وأسلوباً، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتنع بعلل الكوائن وأسبابها"<sup>19</sup>.

<sup>16</sup> - المرجع نفسه، ص 3.

<sup>17</sup> - المرجع نفسه، ص 3.

<sup>18</sup> - المرجع نفسه، ص 5.

<sup>19</sup> - المرجع السابق، ص 6.

هذا النص يبين لنا أن ابن خلدون لم يسلم جزافاً بما ورد فيما كتب المؤرخون عن الحوادث الماضية بل عمل على نقدها نقداً علمياً مستعملاً المنهج العلمي الذي يكشف أغاليط المؤرخين والكذب الذي يقعون فيه إضافة إلى المزالق التي تخص هذا النوع من الدراسة، وفي ضوء ذلك توصل ابن خلدون بعد أن أكد على أهمية التاريخ وضرورته بالنسبة للمستقبل على أساس أن الحاضر أساسه الماضي والمستقبل أساسه الحاضر.

وفي ضوء هذا المنهج توصل ابن خلدون إلى تحديد ثلاثة قوانين من شأنها أن تجنب المؤرخ الوقوع في الخطأ وهي:

أ- **قانون السببية:** ومفاده أن الوقائع الاجتماعية من قبيل الأحداث التاريخية خاضعة للحتمية ولا علاقة لها بالمصادفة لذلك فقد ربط بين الأسباب والمسببات واتصال الأكوان ببعضها واستحالة بعض الموجودات إلى بعض.

هذه خطوة أولى في النقد التاريخي مارسها ابن خلدون بطريقة علمية وانطلاقاً من الواقع في ربطه للنتائج بالأسباب.

ب- **قانون التشابه:** بين الماضي والحاضر ومردده وحدة الأصل والعقل البشريين ومن هنا يرى ابن خلدون وجوه الشبه بين الماضي والحاضر والمستقبل، لهذا وجب في اعتقاده عدم الاعتماد في الأخبار على النقل وحده، بل على "مقايسة الغائب"، بالمشاهد فالماضي أشبه بالآن شبه الماء بالماء<sup>20</sup>.

هذا النص يوضح لنا مدى اهتمام المسلمين الأوائل بالتاريخ وأهميته وضرورته للحاضر والمستقبل.

ج- قانون التباين: العرض منه أن المؤرخ ما يطرأ على المجتمع بفعل العوامل المختلفة من تبدل، وهكذا يكون: "من الغلط الخفي في التاريخ الدهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال"<sup>21</sup>.

وفي هذا القانون يؤكد ابن خلدون على عدم دوام الحال على حاله إذن فالأصل هو التبدل وبالتالي أن يختلف الحاضر عن الماضي والحاضر عن المستقبل كما يعني صراع الأجيال في المجتمع إنما يعيشه الآباء من أفكار وبناء فوقي - كما يقول ماركس - يختلف عما يعيشه الأبناء وهذا ما يؤكد عليه علي ابن أبي طالب في مقولته المشهورة: " لا تلموا أبنائكم على أن يكونوا صورة طبق الأصل منكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم".

هذا القول يؤكد على ضرورة وجود تقبل الآباء لتغيير سلوك أبنائهم لأنهم خلقوا لزمان غير زمانهم وهذا دلالة على أن المجتمع شهد حركة في بنائه الفوقي فتغيرت التصورات والمفاهيم والأحكام حتى تطورت القيم وهذا ما يؤكد أبو حامد الغزالي في وجوب إعادة النظر فيما نقوم به من أفعال سواء تعلق الأمر بالعادات أو العبادات حتى نكون مساييرين لروح العصر وهو الأمر الذي تؤكد عليه فلسفة التاريخ الحديثة من منظور أهمية وضرورة أن يشهد المجتمع حركة حتى نثبت أنه قد تغير إلى الأحسن.

#### د- التاريخ عند ابن خلدون:

مما سبق وبعد استعراضنا لتحديد وضبط ابن خلدون لمفهوم التاريخ ولأسس النقد التاريخي ومن هذه الزاوية بالذات أعرض ابن خلدون عن التخبط وراء حدود العقل أي في الميتافيزيقا مثلما فعل هيغل، وآثر أن يهبط بالنظر العقلي إلى الحدود الزمانية وعالم الإنسان وواقعه المعاش لا عالم الألوهية الغيبي، ما دام أن الغيب لا يعلمه إلا الله، لذلك فقد تمسك بالنص التاريخي كاشفا عن الأغاليط الكثيرة والمغالطات المقصودة ناهيك عن المزالق التي وقع فيها المؤرخون قبله بذلك، فقد

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

طور علماء جديداً أسماه "العمران البشري" والذي يعد ابن خلدون طوره في المجتمع الإسلامي حيث ومع تطور العلوم ونشوء التخصصات أصبح يعرف بعلمين مستقلين عن بعضهما البعض الأول: يسمى "علم الاجتماع"، والثاني: "النقد التاريخي" الذي يعتبر الشق الأساسي في فلسفة التاريخ، لهذا يعد ابن خلدون واحد من أكبر العلماء العرب في علم التاريخ والاجتماع، الذين سبقوا علماء من أمثال: أوغست كونت في علم الاجتماع بما لا يقل عن خمسة قرون، ولم تقتصر قوانينه الاجتماعية على شمال إفريقيا والأندلس وصقلية كما زعم المستشرق أوغست موللر، بل تتجاوز هذا الحيز إلى العديد من الأقاليم والبيئات فهو في هذا الباب طليعة فلاسفة الاجتماع في تاريخ العرب والفكر الإنساني عامة، وما يقال عن علم الاجتماع يقال عن فلسفة التاريخ فهو سابق على فيكو بثلاثة قرون من الزمن، وفي هذا السياق يقول الدكتور عمر فروخ: "فلا أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغست كانوا أندادا له، لحسن ابتكار وعظيم رصانته، وعمق بحثه وشمولية ذلك البحث"<sup>22</sup>.

ويمكن الإشارة إلى أن ابن خلدون كتب مقدمته المشهورة في الجزائر أثناء تنقله بين تيارت وبسكرة كما تردد على بجاية وتلمسان ناهيك عن المغرب الأقصى وتونس مسقط رأسه والقاهرة مدفنه في نهاية المطاف.

<sup>22</sup> - عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت 1971، ص 283.

## 1- فيكو جيوفاني VICO:

## أ - نبذة عن حياته ومؤلفاته:

ولد فيكو جيوفاني باتيستا VICO GIOVANNI PATISTA في 23 جوان 1688 في نابولي، وتوفي في 23 جانفي 744 في نابولي NAPOLE.

كان والده صاحب مكتبة فأفاد منها، كما أفاد من كلية اليسوعيين، اشتغل فاتولا أستاذا لأبناء أخت الأساقفة ، ثم عاد إلى بلده سنة 1695، عين أستاذا للخطابة في نابولي<sup>23</sup>، وقد وجد فلسفة ديكرت مسيطرة على جامعة نابولي فدعا إلى الدراسات الكلاسيكية ، كما اهتم بربط القانون بالأبحاث اللغوية، وكان يطمح في تولي كرسي أستاذية القانون في جامعة نابولي، ومع ذلك فقد استطاع أن يتابع دراسته في التشريع واللغويات والتاريخ، له عدة مؤلفات أهمها:

العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم، ويتألف الكتاب من خمسة أجزاء:

\* الجزء الأول : الأسس والمبادئ

\* الجزء الثاني: في الحكمة الشعرية

\* الجزء الثالث: في الكشف عن حقيقة هوميروس

\* الجزء الرابع: في مسار تاريخ الأمم.

\* الجزء الخامس: في عودة الانقلابات، وتكرارها عند انبعاث الأمم بعد انحطاطها.

إن الكثير من الباحثين يعزون الفصل في إرساء قواعد فلسفة التاريخ إلى فيكو الإيطالي ، الذي كما أسلفت بانتقاء طبيعة المعرفة الدكارتية وتأسيس المعرفة يقينية باعتبارها وقد رأى بأن

<sup>23</sup>- روتي إلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأعاجم، دار الكتب العلمية، ط1، 22، بيروت ، لبنان، 1992،



## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

ديكارت قد أرسى دعائم يقينه على أسس ثلاثة يراها فيكو VICO بأنها غير صالحة للتاريخ، وهي كما يلي:

- الأول: الاستناد إلى الوعي الذاتي كمبدأ أول لليقين وهذا هو الكوجيتو الديكارتي.  
- الثاني: الاستناد إلى وجود معرفة سابقة على التجربة، وهذا متضمن في اليقين الديكارتي بوجود الله.

- الثالث: الاستناد إلى البداهة والوضوح والتمايز كمعايير للحقيقة<sup>24</sup>، علما أن الوعي الذاتي لا يشكل أساسا سليما للمعرفة كما ورد في كوجيتو: أنا أفكر إذا أنا موجود فالفعل لا الوعي هو مبدأ تأسيس المعرفة العلمية وخاصة في التاريخ.

أما الاستناد إلى معرفة أولية سابقة على التجربة، وهذا ما تضمنه اليقين الديكارتي بوجود الله، مرفوضة لدى فيكو، لأن هذا النوع من البرهنة على وجود الله، فيه تطاول لا يليق بالذات الإلهية فضلا عن أن المعارف النظرية السابقة عن التجربة مرفوضة بالنسبة للتاريخ.

يفرق "فيكو" بين الحقيقة التي يتم التوصل إليها بالاستنباط الرياضي، وبين التي يتم الوصول إليها بالتجربة، كما في العلوم الطبيعية، ذلك أنه في الظواهر الطبيعية يتم التعامل مع معطيات جاهزة، لا دخل للإنسان في تجهيزها بينما في التاريخ يقوم الإنسان بالفعل، ثم نقوم بالتفكير فيما فعل، إن الحقيقة في الطبيعة هي حقيقة ظاهرية أما في التاريخ، فالمؤرخ يدرس الإرادة الإنسانية ومن خلال إنسانيته يستطيع استيعاب وفهم أفعال الإنسان، وفي هذا السياق يقول فيكو: "إنه لغريب أمر الفلاسفة الذين يهتمون بتفسير الطبيعة مع أنها من صنع الله وقد خص الله ذاته بهذا العلم، ثم يهملون التأمل في عالم الاجتماع الذي هو من صنع الإنسان، لقد بحث الفلاسفة عن دلائل القدرة الربانية والعناية الإلهية، بين مشاهد الطبيعة وفاتهم أن تلك القدرة والعناية تتجليان بأحلى مظاهرها في الحياة

<sup>24</sup> - عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، ص 160.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

الاجتماعية. يسعى العلم الجديد إلى تلاف هذا النقص بإظهار دلائل العناية الإلهية من خلال وقائع التاريخ، فهذا العلم بمثابة -لاهوت مدني-، يبرهن على العناية الإلهية بالوقائع التاريخية...<sup>25</sup>.

إن عبارة -لاهوت مدني- الواردة في النص الآتي الذكر لـ "فيكو" تدل على تناقضه لا في ما يخص الكوجيتو الديكارتي فحسب، ولكن أيضا في معاتبته للفلاسفة الذين يبحثون في حقيقة الطبيعة، التي هي من صنع الله، فهو يحتمهم على ترك ذلك، والانكباب على دراسة المجتمع البشري علما أن الفلاسفة اليونان وكذلك المسلمين أدركوا أن هناك علاقة وثيقة بين الإنسان والطبيعة لهذا اتجهوا إلى دراسة أثر البيئة المناخية، والموقع الجغرافي على الإنسان ودورهما في صنع الحضارة وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون وقبله أرسطو.

#### ب - نظرية العناية الإلهية:

كما يرى "فيكو" بأن: "العناية الإلهية تتدخل في الأزمات وحالات الفوضى، بإظهار بطل فإن لم يكن فبغزو من شعب آخر أرقى، فإن لم يكن طبقت العناية الإلهية دواءها الأخير وهو الفناء"<sup>26</sup>.

يربط "فيكو" في هذا النص بين العناية الإلهية التي تسير الكون، وبين ظهور البطل إلا أنه يتحدث عن إمكانية عدم تدخل العناية الإلهية، وبالتالي فإن مصير هذا الشعب سيكون الخضوع لشعب آخر أرقى منه، وصولا إلى الظاهرة الإنسانية التي خططت لها المركزية الغربية خلال هذه الفترة التي عاش فيها فيكو ألا وهي ظاهرة الاستعمار والفناء- لا يقصد به الفناء المادي، لا يقصد به موت الشعب والبشر، وإنما يقصد به الخروج من دائرة التاريخ-، بالخضوع لشعب آخر يقوم باحتلاله ونهب خيراته، وجعله سوقا لتصريف فضلات مصنوعاته، مع استعباد شعبه، وهذا ما وقع لأغلبية بلدان العالمين "العربي والإسلامي" عندما تفككت الأمة، وسادت الصراعات الهامشية على

<sup>25</sup> - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 155.

<sup>26</sup> المرجع نفسه، ص 155.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

الكرسي، وعمت القوضى والإضرابات الاجتماعية وم اسبغاد العلماء وتقريب الأجانب وهذه الكيفية وصلنا إلى القابلية للاستعمار كما يقول "مالك بن نبي"<sup>27</sup> باعتبارنا الآخر الهزيل المفكك، الذي بحث عن منقذ ومخلص ، فلم يجده .

-رغم قيام الكثير من الكفاءات المحلية بدور البطولة ، قيادة المجتمع "مثل الأمير عبد القادر" في الجزائر في مواجهة الأنا الغربي الفتي القوي والمنتقم.

إن مؤلف فيكو العلم الجديد " في الطبيعة المشتركة للأمم، الذي نشر عام 1725، والمتكون من خمسة أجزاء يتضمن منهج البحث في التاريخ، أكثر مما يمكن أن يكون بلورة لمذهب، وإذا كان فرانسيس بيكون قد وضع منهجا للبحث في العلوم الطبيعية فإن فيكو قد اكتفى في بوضع منهج مماثل في التاريخ ، لذلك فقد يكون لبيكون السبق في الأوهام التي نبه إليها فيما ما أشار إليه فيكو من أوهام ، حيث اعتبر أن المؤرخين عرضه لأوهام مماثلة للأوهام في العلوم الطبيعية:

1- وهم التهويل والتفخيم: إن قيمة كل فترة تاريخية ليست بمقدار ما تم فيها من إنجازات، وإنما للمسار الإنساني العالم في التاريخ وهو ما دعاه فيكو ( وهم القبيلة).

2- وهم الثقافة الأكاديمية : لم يتصور مؤرخ أن الشخصيات التاريخية لعبت دورا بارزا وتحكمت في مصائر شعوبها لما كانت عليه من ثقافة وعلم، غير أن فيكو يرى بأن المجد التاريخي والثقافة الفكرية غير مرتبطين ، وهو يقابل وهم الكهف عند بيكون.

3- وهم الاقتراب: حين يعتقد المؤرخ أن السابقين أكثر علما من اللاحقين، والعكس أحيانا وهذا راجع إلى تطور التاريخ كذاكرة الإنسان كلما كان موضوع التذكر أقرب عهدا، كان أكثر وضوحا.

4- وهم التأثر والتأثير:<sup>28</sup> وهي ذاتها إنكار للطاقة الإبداعية للعقل الإنساني إن هذه الحقيقة لا يمكن اعتبارها زعما، لأن الإنسان يتأثر من محيطه الصغير " الأسرة" ثم المجتمع المحيط والمدرسة"،

<sup>27</sup> - مالك بن نبي: شروط النهضة. ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، بيروت، ص 82.

## الفصل الثاني:

### فلسفة التاريخ قبل هيغل

وتتوسع معارفه ومداركه شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى درجة من التفكير والإبداع وبالتالي التأثير في الغير.

وما يقال عن الفرد أو المجموعة يتسحب على بقية المجتمعات ، وبالتالي على كل الحضارات ، والحقيقة أن ابن خلدون قد سبق فيكو في هذه القضية بعدة قرون ، كما تعرض للشروط التي يجب على الباحث في التاريخ أو المؤرخ، أن يتصف بها، كما نبه إلى المزالق والهفوات التي يمكن أن يقع فيها، كما أسلفت ذكره.

ملاحظة: لم يبي فيكو منهج فلسفة التاريخ انطلاقاً من انتقاده للمنهج الرياضي والأفكار الأولية ، عند ديكارت ، ولا باقتفائه لأثر منهج بيكون في العلوم الطبيعية، بل استفاد كثيراً من فلاسفة النهضة وأصحاب نظرية العقد الاجتماعي من أمثال هوبز HOBES .

بملاحظات تدل على ذلك، حيث يقول:

1- أنهم فسروا الماضي بما يشبع أهوائهم، ولم يدرسوه من أجل الحقيقة لذاتها.

2- افتقارهم للحاسة التاريخية المتمثلة في إدراك الحقائق التالية

أ- التغير الذي لا بد أن يطرأ على المجتمعات التاريخية من عصر لآخر، وبالتالي الحاجة لمنهج

التكوين التاريخي لا التركيبي الفلسفي.

ج- نظرية التعاقب الدوري للحضارات عند فيكو:

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

يطلق فيكو من فكرة أن لعصور التاريخ خصائص مستركة، وأن مسار التاريخ ليس كعجلة تدور حول ذاتها ولكنه، حركة حلزونية لأن التاريخ لا يعيد نفسه بل في تغير مستمر ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1- عصر الآلهة: حيث كانت الشعوب الأممية، تعيش في ظل حكومات تشرع قوانينها انطلاقا من إدارة الحكام الآلهة أو وفقا لمشيئة الآلاف.

2- عصر الأبطال: حيث يسيطر على الحكم أبطال اشداء محاربين يعتقدهم الناس أسمى من البشر، وفي هذا العصر نشأت وازدهرت الفروسية والصليبية.

3-عصر البشر: حيث الاعتراف بتساوي البشر، في الطبيعة، ويتقلص دور الملكيات المستبدة، ظهرت الأنظمة الديمقراطية، حيث اجتازت كل الشعوب هذه الأدوار ومازالت تتجازها في تاريخها إلى اليوم، حيث تصل نهاية الدور الثالث في بداية الطور الأول في نفس الأمة أو لامة أخرى، فهي دائرة حلزونية<sup>29</sup>.

- وقد قدم فيكو في مجلده الأول من كتابه "العلم الجديد" لوحة تاريخية لأهم وقائع التاريخ منذ أن خلق العالم، مستندا إلى التوراة، وأبناء نوح بعد الطوفان اختلفت اتجاهاتهم، بينما حافظ أبناء سام على لغتهم وعاداتهم تشتت أبناء حام ويافت في الأرض وعاشوا حياة حيوانية ، ففقدوا مزاياهم البشرية ومن ثم انقسم البشر إلى عبرانيين من أبناء سام إلى عمالقة من نسل يافت وحام، ويضيف فيكو إلى تاريخ اليونان والرومان ، ثم أوروبا ( العصور الوسطى). نلاحظ: أن فيكو تأثر بالعهد القديم، حيث فضلهم على بقية الأمم ثم تطرق لليونان مؤكدا أن عصر الأبطال لن يستمر طويلا لان ظهور الفلسفة عجل بالانتقال من الدور الإلهي إلى الدور البشري دون أن يبقوا مدة طويلة عكس ما حدث للرومان، حيث طال الدور البطولي وعندما وصلوا للدور البشري كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن الدور الإلهي.

<sup>29</sup>- T.G.Bergin et M.T jisch : Scienza nouva tramal, by: the new science of giambattista vico.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

- ثم عاد الأوروبيون في لعصور الوسطى إلى البربرية سببها بالبربرية الأولى واجتازوا دوراً إليها جديداً، بقوة الملكيات المطلقة، وتحالفهم مع رجال الدين أما الدور البشري فهو العصر الذي عاش فيه فيكو.

#### د - نقد وتقييم:

نلاحظ أن فيكو قد وضع ما يزيد على مائة مسلمة جعلها أوليات لا تقبل النقاش وهو ما يبعده عن الموضوعية، وهذا بخلاف آراء ابن خلدون المستقاة من التجربة واستقراء الواقع إلى جانب نقد النص التاريخي ومناهج المؤرخين السابقين عليه بينما فيكو نجد أنه تطرف كثيراً لجانب اليهود حيث قسم الجنس البشري إلى عبرانيين وأميين، وهو يفضل العناية الإلهية لهم فقد اعتبرهم شعب الله المختار" حيث لقد كانت أجسامهم متوسطة القامة وسلوكهم إنسانية بينما تربى بقية الأميين تربية حيوانية وكانت أجسامهم عملاقة (مسلمة رقم 27)<sup>30</sup>.

- إن الله منع العبرانيين من الكهانة بينما هي أساس الديانات الوثنية ولذلك انقسم العالم القديم إلى قسمين هما: عبراني وأممي (مسلمة رقم 24)<sup>31</sup>.

\* نلاحظ أن الأفكار الرئيسية هي هذه المسلمات المستقاة من العهد القديم، مما جعل آراء فيكو بعيدة عن الروح العلمية على النقيض من ذلك آراء ابن خلدون الذي تعرض إلى الكثير من القصص الواردة في القرآن الكريم، كسنن التاريخ ومنهاج الحياة فوق الحياة مضيفاً إليها تغييرات عليه من ذلك مثلاً عقاب الله لبني إسرائيل بالتيه في صحراء سيناء أربعين سنة بعد أن رفضوا دعوة موسى لهم، إلى التوجه للأرض المقدسة لفتحها وفي هذا السياق يذهب ابن خلدون إلى أن الجيل الذي كان مع موسى من بني إسرائيل قد اعتاد حياة الحضر والترف، في مدن مصر، ثم خضع إلى الذل والقهر من فرعون، وبعد أن شردهم فرعون مدة أربعين في صحراء سيناء وهي مدة كافية لفناء هذا الجيل

<sup>30</sup> - Op-cit , P 250- 251

<sup>31</sup> - Ibid, P 251.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

وظهور جيل جديد لم يعرف إلا حياة البادية، وما يميزها من شطف العيش وحسونة والقافة، وهذا قوى فيهم العصبية التي مكنتهم من المطالبة والتغلب.

\* ومجمل القول أن الأفكار الرئيسية في فلسفة فيكو تنقصها الروح العلمية، كما أن تقييمه الحضارات القديمة يطغى عليه التعصب الديني مما يجعل من أساس نظريته المعتمدة على قصص محرف من العهد القديم، نظريته لم تصمد أمام النقد التاريخي نظرا لهشاشة مقدمته وتحيزه الواضح لليهود.

## 2- بوسوية: Bousouet Jaques

### أ- نبذة عن حياته:

جاك بنين ولد في ديجون الفرنسية في 27 سبتمبر 1627م، وتوفي في 12 أبريل 1704 بباريس، درس بمسقط رأسه اللاهوت والقانون في متر<sup>32</sup>، قد داعت شهرته في باريس كواعظ ديني مؤكدا على سلطة الكنيسة ودورها الضروري لحماية الأنا الأوروبي الذي كان يتعرض لهجومات دفاعية من طرف العثمانيين، وقدر سمي قسيسا عام 1652م، يعتبر كتابه discours sur l'histoire universelle مقال في التاريخ العالمي، الذي صدر سنة 1681 يجدر في هذا الكتاب ذوي الاتجاه العلماني من الخطر القادم من الشرق، لذلك فقد اتسمت كتاباته بـ "جاء الشرقيون فاحتلوا وقتلوا"<sup>33</sup>.

وبعد فترة يردد نفس الكلمات، وقد فرضوا ديانتهم، يقصد بذلك دولة الخلافة العثمانية التي كانت في موقع المدافع عن حواضر الأندلس الذين كانوا يفرون بجنودهم خوفا من مصالح التفتيش وما تصدره من أحكام بالشنق والحرق ضد كل من تشم منه رائحة الإسلام أو العروبة، ولم يكتف المسيحيون بذلك بل لاحقوا مسلمي الأندلس وقبرص إلى سواحل شمال إفريقيا، وهذا ما جعل العلاقة العثمانية تقف موقف المدافع إلا أن "بوسوية" وبعده كتب أصدرها بعد الكتاب

<sup>32</sup>- Dictionnaire des auteurs , T1, P 385.

<sup>33</sup>- أحمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ، ص 143.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

الأساسي الذي عد به فيلسوف التاريخ وخاصة كتابه رسالة في معرفة الله ومعرفة ذاته، السياسة مستخلص من الكتاب المقدس، التاريخ فرق الكنائس البروتستانتية.

لكن اتجاهه لم يكن جديدا بل امتداد لما ذهب إليه القديس أوغسطين، ولقد استولت عليها فكرة الخطيئة حتى في تبرير أحداث التاريخ ولأنه يريد أن يقول للأنا الغربي المسيحي إنك ابتعدت عن تعاليم المسيح، لذلك فقد خسرت الحروب الصليبية عند الآخر وتركت لهم بيت المقدس، ومنذ ذلك الحين والآخر الشرقي المسلم التركي ينتصر على الأوروبيين من موقعه إلى أخرى وقد استولى حتى على عاصمة المسيحيين الشرقية ( القسطنطينية ) التي فتحها السلطان العثماني "محمد الفاتح" سنة 1453 ، وبعدها بفترة وجيزة كان المسلمون الإسبان قد طردوا المسلمين من الأندلس وذلك 1492م، هذه المسألة لم يتعرض لها بوسوية باعتباره يمثل الأنا الأوروبي المتعجرف الأناي النرجسي لأنه يركز فقط على الحملات التي قام بها العثمانيين ضد الأوروبيين وهي حفلات دفاعية .

لقد ركن بوسوية إذن في مؤلفاته على الأمم الأوربية والديانة المسيحية والخطر الوهمي الذي يحدق بها أو مصدره الشرق!.

### ب - تقسيمه للتاريخ:

لقد قسم التاريخ إلى أحقاب على أساس ديني مستمد من الكتاب المقدس، ومن هنا فإن أهم أحداث التاريخ -وكما وردت في الكتاب المقدس:

- هبوط آدم عام 404 قبل الميلاد.

- طوفان نوح عام 2348 قبل الميلاد.

- دعوة إبراهيم 1921 قبل الميلاد.

- نزول شريعة موسى 1491 قبل الميلاد



- ثم ظهور السيد المسيح، أما أهم الوقائع بعد ظهور المسيحية فهما اثنتان:

- اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام 312 م.

- تتويج شارلمان إمبراطور على الرومان 800م<sup>34</sup>.

مما سبق تبين أن المادة التاريخية لبوسويه مستخلصة من الكتاب المقدس وليس من وثائق التاريخ ومستنداته والتاريخ عنده تحكم شعوبه قوانين وضعية قبل شريعة موسى، ثم قانون سماوي منذ موسى وإلى أن تمت النعمة الإلهية بالمسيح.

نلاحظ أن بوسويه وكنتيجه نستخلصها مما سبق أنه لم يتعرض لمولد محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا لهجرته ولا لدعوته التي تعتبر امتداد لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

فيما بعد ، نلاحظ أن هيغل قد تأثر كثيرا بمثل هؤلاء الفلاسفة الذين قد تجاهلوا بصفة كلية ما ورد في كتبهم المقدسة سواء منها العهد القديم أو الحديث عن مجيء الرسول اسمه أحمد كما ورد في القرآن الكريم.

إذن: فهو يعتبر الدين هو الظاهرة الجديرة بالتسجيل بين جميع مظاهر الحضارة، ذلك أنه التراث الروحي للشعوب ولأنه الحقيقة الخالدة على مر الزمان، غير أن بوسويه لم يضع في عين الاعتبار غير تاريخ العبرانيين، أو المسيحيين لأن أديان الحضارات القديمة ليست سوى انحرافات، أما الإسلام فهو يتجمله تماما، علما أن بوسويه في تفسيره للتاريخ يربط الكنيسة والعناية الإلهية .

وفي هذا السياق يؤكد أن التاريخ يهدف إلى إعلاء كلمة الله والتي يقصد بها سلطة الكنيسة وهكذا يتضح لنا أن مفهوم العناية الإلهية عند رجال الدين المسيحيين لم تتجاوز إطار العقيدة المسيحية بل ضيقوا في مفهومها وقيدوها بسلطات الكنيسة الكاثوليكية مقللين من شأن

المحضارات القديمة والعريقة مثل الصينية والهندية والبابلية والآشورية والمصرية ناهيك عن العربية الإسلامية والديانة السمعية التي عملوا بكل ما أوتوا من قوة الحط والتقليل من شأنها.

### 3- مونتيسكيو Montesquieu:

#### أ- نبذة عن حياته:

ولد البارون شارل ديمونتيسكيو في 12 يناير 1689م بشمال فرنسا ومات في 1755، أهم كتب (روح القوانين) الذي صدر عام 1750 وهو عبارة عن دراسة تاريخية مقارنة بين الشرق والغرب بين الأنا الأوروبي الآخر الشرقي، وقد عرض فيه العوامل التي تحدد نظام الحكم في مجتمع ما، وشم أنظمة الحكم إلى استبدادية، وأرسطوقراطية، وديمقراطية مستعملا المنهج التاريخي والمنهج المقارن إن أعمال مونتيسكيو تنطوي على انتقادات إصلاحية لادعة، لما تقوم عليه الحكومات المستبدة وفي هذا السياق يقول: "تألف أخلاق معظم البطانات في كل زمان ومكان، من الطموح في كنف البطانة، والصنعة المستمرة وراء الكبرياء والرغبة في الثراء دون عناء والتملق والخيانة والخداع والمؤامرات والتخلي عن الوعود وازداد واجبات المواطن، والفرع إن كان الأمير فاضلا، وتمنى أن يكون ضعيفا مع الاستهزاء الدائم من الفضيلة ومعتنقها... إن من المزعج حقا أن أكثر أكابر الدولة فاقدو الأمانة بينما أصاغرهما هم أصحاب الصلاح<sup>35</sup>."

#### ب- بنية الدولة وحركية التاريخ:

هكذا هاجم النظام الاستبدادي المقتر للشرق والأخلاق الحسنة والعادات كبنية أساسية للمجتمع، فخلص إلى تحديد قوانين الدولة وأشكال الحكومات والعوامل التي لها أثر في تحديد مسار التاريخ وقد أولى الحرية أهمية قصوى ومقت الاستبداد، فحكم الاستبداد يعني استئثار فرد بمقاليد الحكم، وتحريكه حسب أهوائه ورغباته، والمستبد مستعد لأن يهوي بسيفه، ويزيح عن

<sup>35</sup> - مونتيسكيو: روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر، دار النهضة، ج1، د ط، د ت، ص 42.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

طريقه كل من حالته وبالتالي يدخل في بطش الخوف والهلوع ففي نفوس أبناء الرعية مما يلجم أفواههم ويترك لهم مرتبة الحيوانات التي تساق كالقطعان.

لقد تعرض مونتيسيكو إلى وصف أشكال الحكومات وإلى التداير العسكرية والتفريق بينها وبين أمور الجباية واهتم بعلاج الأمور الاقتصادية والدينية، ومختلف الأعراف لمختلف الشعوب، ويؤكد أنه في وضعه للقوانين لم يكن يبحث عن حقيقة القوانين بقدر اهتمامها بروحها، إنه حاول أن يخضع العلاقات بين الأفراد وبين الأشياء إلى القوانين حيث قال: "إن القانون يعني العلاقات الضرورية الناشئة عن طبيعة الأحداث ...." <sup>36</sup>.

"وما يفهم من العلاقات أي الروابط المنطقية والأسباب التي شكلت العقل أو الفهم التاريخي كثير من الحقائق لم تعرف إلا بعد استعراض السلسلة التي تربطها مع غيرها" <sup>37</sup>.

يؤكد مونتيسيكو على أهمية الربط التاريخي والمنطقي للحوادث حتى تتمكن من ربط الأسباب بالمسببات.

- إن القانون هو الموجب البشري الذي يسيطر على أمم الأرض جميعاً، بحيث لا ينبغي للقوانين السياسية والمدنية في كل أمة من الأمم، أن تطبق غير الأحوال الخاصة بهذا الموجب البشري لهذا البلد وتكون متكيفة مع الإقليم البارد أو الحار أو المعتدل.

- وبطبيعة الأرض وموقعها واتساعها بحيث يجب أن تتناسب مع درجة الحرية التي يمكن أن يبعثها النظام، وكذلك ديانة المواطنين وعاداتهم وعواطفهم وتجارتهم وعاداتهم وصناعاتهم" <sup>38</sup>.

- يجب التنبيه هنا إلى أن الكثير من المؤرخين المسلمين كانوا قد تطرقوا إلى دور المناخ، أو الطبيعة والموقع الجغرافي وضرورة أخذه بعين الاعتبار في قيامهم أو تكوين الحضارات،

<sup>36</sup> - المرجع السابق، ص 44.

<sup>37</sup> - خالد شهاب: فلاسفة غيروا العالم، د أرسطو ميكيفيلي ومونتيسيكو، دار النهضة ص 62.

<sup>38</sup> - المرجع نفسه ص 76.

وحتى في مقارنة الأحداث الماضية الواقعة كالمسعودي والمقدسي وخاصة "ابن مسكويه" الذي يربط التاريخ بالسياسة.

### ج- الروح الأخلاقية والتاريخ:

وتتحكم هذه الروح في مختلف العلاقات التي يمكن أن تكون القوانين مع مختلف الموجودات، فكما تشكل البرودة حافزا للنشاط فإن الحرارة تولد النعاس والخمول وبهذه الكيفية إذا أخضعنا مدى تطور أو نكوس الحضارة إلى العوامل الجغرافية تأثرت العوامل الثقافية والاجتماعية، فإن معنى ذلك أن الانعكاس سيكون مهما أو خطيرا على سكان إقليمين جغرافيين مختلفين من حيث البرودة والحرارة.

نلاحظ أن مونتيسكيو لم يتطرق إلى فكرة الروح المتدفقة والمساعدة على التحضر إلى وهو الدين، وقد لعب دورا أساسيا في تأخر الجزيرة العربية، عندما كان دينها الأوثان، وعلى النقيض من ذلك عندما أصبح دينها الإسلام، وهنا يمكن الفرق بين مؤرخي الإسلام وفلاسفة التاريخ المسلمين الذي يقومون برحلات ميدانية، لمختلف الأقاليم، وذلك للتأكد من مدى مطابقة النص التاريخي للواقع، بخلاف المؤرخين الغربيين وفلاسفة التاريخ المسيحيين الذين يكتبون على الآخر ويصدرون أحكاما خرافية هكذا.

إن مونتيسكيو يؤكد على أهمية الحرية السياسية للمواطن الذي يشعر بالأمان المطلق الذي يتحتم بأنه آمن من جميع الجهات، وهنا الأمان تحققه الحكومة عن طريق حماية المواطن من أي مواطن آخر<sup>39</sup>، وبالتالي فإن الحكومة القائمة على مبدأ عطل السلطات تحمي حرية وحقوق المواطن.

ملاحظة: من المؤكد أن الحياة السياسية التي عاشها مونتيسكيو في فرنسا إبان حكم الملك موريس الرابع عشر، والمتأثرة بفلسفة "ريتشاليو" التي كانت تقول على ضرورة قمع الحريات،

<sup>39</sup> - خالد شهاب: فلاسفة غيروا العالم، ص 80.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

والتضييق على المعارضة من أجل التمكين للحكم، وقد تأثرت هذه الحالة تأثيراً كبيراً على نفسية مونتيسكيو وهذا ما جعله يعجب أيما إعجاب بنظام الحكم الملكي في إنجلترا، معتبراً إياه المثل الأعلى، والحكم الراشد، بعيداً عن أجواء الباستيل، والتسلط والرشوة، كما أعجبه كذلك المناخ الملائم للنشاط البشري والذي كان من بين العوامل الهامة التي دفعت بعجلة الثورة الصناعية في إنجلترا للتقدم إلى الأمام ورغم تعرض نظرية مونتيسكو إلى الكثير من الانتقادات خاصة في جانب المناخ، من طرف نظرية مونتيسكيو إلى الكثير من الانتقادات، خاصة في جانب المناخ من طرف فولتار Voltaire تبقى أعماله رائدة في مجال النظريات السياسية وتشريع الدساتير.

#### 4- فولتير Voltaire:

##### أ- نبذة عن حياته:

ولد فولتير Voltaire في 21 نوفمبر 1694 في باريس وتوفي بها في 30 ماي 1778 واسمه الحقيقي هو فرانسوا ماري أرويت françois marie arouet أما اسم فولتير فهو لقب مستعار<sup>40</sup>. وهو أديب وفيلسوف فرنسي، تكاد تجمع البحوث الغربية أنه أول من استعمل مصطلح "فلسفة التاريخ"، Philosophie de l'histoire في القرن الثامن عشر يبحث نشره سنة 1756، ثم وضعه مقدمة لكتابه "مقاله في أخلاق الأمم وروحها" Moeurset essai sur l'esprit des nations .

غير أن هذا البحث لم يكن منظماً ولا دقيقاً بحيث لا يحدد من خلاله معنى المصطلح وحيث قصد به مجرد تأمل عقلي في التاريخ البشري متأثراً بالترعة العقلانية السائدة خلال القرن الثامن عشر<sup>41</sup>، سبق وتعرضت إلى أن ابن خلدون مارس النقد التاريخي مستخدماً العقل متوصلاً إلى وضع قوانين وبالتالي فإن "فولتير" كمحصلة لعصر الأنوار حيث ساد العلم والفلسفة وسقطت

<sup>40</sup>- Dictionnaire des auteurs, t 4, P 647.

<sup>41</sup>- البان قريغوري ويد قري: التاريخ وكيف يفسرونه، ص ص 4-8.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

المخزفة والدين المزيف وبدأت تسمية مواطن تحل محل الرعية، والمناداة بحياة الملك تحل محلها بحياة الوطن، وبدأت حقوق المواطن تتحدد وسلطات العسكر ورجال الأمن تنحصر في إطار القانون عندئذ قال كلمته المشهورة،: " لو سئلت أي هؤلاء أعظم، الاسكندر أن قيصر أم تيمور لنك أم كارمويل لأجبت إن استحقاق العظمة يرجع إلى نيوتن، فهو أعظمهم جميعا"<sup>42</sup>. إن هذه المقولة تعبر عن العقلية السائدة أثناء الأنوار والتي أولت أهمية قصوى للإنسان معبرة دراسة التاريخ لبنة أساسية لفهم وتفعيل الحاضر فضلا عما تحققه دراسة التاريخ دراسة نقدية متمعة في إصدار الأحكام المتحررة من سلطة الكنيسة ورجال الدين الذين كثيرا ما تسلطوا وأصدروا أحكاما جائرة حتى في حق العلماء والمبدعين معتبرين إياهم ملحدين، وقد سادت هذه الظلمات أوروبا فترة طويلة من الزمن، لذلك فقد ظهرت مقاييس جديدة وخاصة في الدراسات الفلسفية والتاريخية ولم يعد تقدم المجتمع يقاس بعدد الحروب التي خاضها وسير الملوك بقدر ما أصبح يقاس بنشاط المجتمع في ميادين العلم والتقنية والثقافة<sup>43</sup>.

### ب - موقفه من المؤرخين:

وقد اتجه فولتير إن نقد المؤرخين السابقين عليه والذين قد اهتموا بالحروب والمعاهدات حيث يقول في هذا المعنى: " بعد قراءتي لوصف ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف معركة ومئات من المعاهدات لم أجد نفسي أكثر حكمة من ذي قبل، حيث لم أتعرف إلا على حجر وحوادث لا تستحق العناء وأي حكمة تكتسب من العلم بسيادة حاكم طاغية لشعب بربري لا هم له إلا أن يغزو ويدمر؟! "

إن فولتير من خلال المقولة السابقة يشير إلى بعض الملكيات المطلقة في أوروبا وكذلك إلى الآخر المهزوم في الشرق لأن فترته شهدت حروبا ضارية في الشرق الأقصى.

<sup>42</sup> - أحمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ ، ص 83.

<sup>43</sup> - المرجع نفسه، ص 181.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

ثم يستطرد قائلاً: "إن جمال التاريخ يجب أن يتسع لما هو أهم من ذلك ويتبع سير العقل البشري في الفلسفة والبلاغة في الشعر والنقد في التصوير والبحث في الموسيقى والرسم وحتى في تطور النسيج، من المفروض أن يتبع المؤرخ حتى أدق الصناعات مثل صناعة الساعات وكل ما له صلة بالشعب، إنها أجدد اهتماما من المعارف الجزئية عن الحياة الخاصة للملوك والأمراء وحوادث البلاط.

إن الخبر الحقيقي يجب أن يسلط للإنسانية وليس في قوادها ولكن في علمائها وفلاسفتها وشعرائها لأن هؤلاء هم القواد الخلفيون في المحابر والمدارس والجامعات، يكونون الإنسان وينرون له الدرب، ولهذا فإن عالما مثل نيوتن لا يكاد يوجد الزمان بمثله "مرة كل عدة قرون، يكون هو العظيم حقا"<sup>44</sup>.

أما هؤلاء الساسة والقواد فلا يكاد يخلو منهم زمان بل ليسوا في الحقيقة سوى استمرار لغيرهم، ومن ثم وجب علينا أن نحني رؤوسنا إجلالا لذلك الذي فسر الكون لا إلا أولئك الذين يشوهونه.

إذن - التاريخ - حسب فولتير هو ما يسجل عن الحضارات أنها المعبرة عن المستوى العقلي للإنسان وإنجازاته...

إن هذه النظرية تعبير عن روح التنوير (عصر الأنوار) عقب الكشوف العلمية والمنهج للقرن السابع عشر، والتي عمقت النظرة التفاضلية للإنسان الغربي وعمقت قناعته بالتقدم ووجدوى النقد التاريخي والاستعلاء على الماضي بخطى واثقة نحو التطور ونحو كل ما هو أفضل وأسمى.

لقد صبغت هذه النظرة (التطورية) شتى ميادين الحياة:

### 1- في العلم: علم الأحياء، الاجتماع، النفس.

<sup>44</sup>- فولتير: رسائل فلسفية، ترجمة عادل زعيتير، ص59.

**2- في الفلسفة:** فلسفة التاريخ حيث تصل دروها المتعالية مع الروح المطلق عند هيغل

وعند ماركس وعلم اليوتيبيا أو الفردوس.

**3- في السياسة:** أصبح علم التاريخ هو منبع استلهام العبر وتفادي أخطاء الماضي على أساسه ينظر للسياسة، حيث توجهت الأنظمة شيئا فشيئا نحو الديمقراطية خاصة بعد الإصلاحات الدينية التي أعقبتها الثورة الفرنسية وراحت الأفكار المتفائلة حول مصير الإنسان حيث يقول رامبه: " سيشهد المستقبل نموا لا حد له لسيطرة الإنسان على الطبيعة وتسخيرها لصالحه"<sup>45</sup>.

وهكذا أصبحت الحياة في باريس ولندن وروما، أفضل عند فولتير وأتباعه من الفردوس الأخرى!.

الاهتمام بالتاريخ للحضارات التي وجهت نحوه الأنظار فلسفة القرن السابع عشر وفلسفة التاريخ على وجه الخصوص، وبالتالي ضرورة أن تشمل هذه العملية كل أبناء الجنس البشري عبر العصور السابقة لذلك انتقد كتاب بوسويه ( مقال في التاريخ العالمي) من حيث أنه لم يشمل جميع الشعوب.

اهتم فولتير بدراسة التاريخ القديم الوسيط لأوروبا بغية الوقوف على هفوات الماضي لتفاديها مستقبلا، واعتبر أن أزهى فترات التاريخ الأوروبي :

- اليوناني القديم

- الدولة الرومانية في فترة ازدهارها

- عصر النهضة ، وعصر التنوير الذي يعتبره أهم المراحل على الإطلاق نظرا لسيادة العقل واستبعاد الغيبات والجهل.

ج- موقفه من الكتاب المقدس:



كما انتقد فولتير قصص العهد القديم والتاريخ المسند إليه من القديس أوغسطين وحتى فيكو لأنها تجاهلت حضارات شعوب الشرق العريقة وفي المقابل أعطت أهميته مبالغة للبرانيين كما لو كانت حضارات الشرق لا تساوي شيئاً إلا من حيث علاقتها باليهود الذين يرى - أنه ربما كان لهم مكان في اللاهوت- أما في الحضارة والتاريخ فليسوا سوى طائفة من الشاميين الرحل، الذين عاشوا مشتتين في الصحراء بين مصر وسورية حيث يذكر التاريخ أن (أماسيس) وهو أحد ملوك مصر الفرعونية قد طرد من بلاده قبيلة أصيبت بالجذام ويذكر (تيودورس) الصقلي أنه حين خاض ملك مصر غمار الحرب في أرض الحبشة هاجمت مصر - أثناء غيابه عنها- جماعة من قطاع الطرق يفترض أن تكون هي تلك القبيلة المطرودة فألقى عليها (أماسيس) القبض وقطع أنوفهم وآذاهم ونفاهم إلى صحراء سيناء حيث صنعوا شبابيك لصيد السمان هؤلاء هم أجداد اليهود<sup>46</sup>.

"... إنهم شعب لثيم منحرف جاهل، وعاطل عن كل إبداع فكري حيث كان اليهود يزدرون أكثر الأمم حضارة، وإنهم أحقر شعوب الأرض، قطاع طرق ممقوتون همجيون، منحطون في الفقر وقحون في الغنى، إذا كتب لهم الظفر فتكوا بالمغلوبين وبطشوا بالنساء والأطفال في نشوة جنونية، وإن كتبت عليهم الهزيمة تجدهم في مذلة مشينة ومهانة مزرية فهل ثمل الله بعنايته هذا الشعب الوضيع كما تقول التوراة لكي يكون شعب الله المختار؟! أو ليكون مخلص الجنس البشري؟!<sup>47</sup>.

### د- دور العقل البشري في حركية التاريخ:

ومن ثم يفحص فولتير القول بالعناية الإلهية في تسيير التاريخ وينتقده مرجحاً أن يكون العقل محرك التاريخ، ومحقق التقدم الذي هو انتصار لقوى النور على مزالق الظلام والرشد على

<sup>46</sup>- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 185.

<sup>47</sup>- المرجع السابق، ص 185.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

الجهل لذلك فإن القرن الثامن عشر هو أزهى وأرفع العصور البشرية لسيادة العقل والمنهج وما انعكس منها على تقدم في العلوم الطبيعية " غير أن التقدم قد لا يكون متصلاً، إذ قد تحدث المفاجآت وإذا كان العقل كفيلاً بعلاج الآفات التي يتعرض لها الإنسان كالخرافة والجهالة فإن الدواء الذي يشفي المرضى قد يهلك مريضاً، كذلك تكون أخطاء التاريخ وانتكاساته...

قد تتورث الأحقاد أو التعصب ومن ثم تترد الحضارة ومع ذلك يمكن التفاؤل بصدد إمكان العقل إحراز التقدم في العلوم والاكتشافات<sup>48</sup>.

إذن لقد ناصر فولتير ديدرو، وآخرين من فلاسفة التنوير في فرنسا حيث نادى بالعقل على الدين وانتقدوا تحالف الكنيسة والدولة محاولين إظهار التعارض بين العقل والدين بينما أقر البعض بدينهم من حيث الإيمان والقلب لا الفكر والعمل.

### 5- جان جاك روسو: (1712-1779) John Jack Rausseau:

#### أ- نبذة عن حياته:

أحد واضعي نظرية العقد الاجتماعي<sup>49</sup> التي كانت ولا تزال أساس الحياة المدنية حيث تتبلور الإرادة العامة للشعب في اختيار الحكام لقد جاء بدعوة صريحة لحرية الإنسان في منطلق قوله بالطبع الطيب والخير للإنسان الذي يعتبر قادراً على صنع تاريخه الذي يجب أن ينطلق قبل كل شيء من إقامة المساواة الاجتماعية حيث تتم سيادة الشعب على تقرير مصيره وعلى الحكام أن يلتزموا بإرادته ومصالحته<sup>50</sup>.

#### ب- أهم مراحل التاريخ:

حسب روسو البشرية مرت بمراحل متعاقبة:

<sup>48</sup> - المرجع نفسه، ص 185.

<sup>49</sup> Rousseau, du contrat social livre 1, Id, champs flamation, Paris, 1922, p64.

<sup>50</sup> - البان وديقري قري قري: التاريخ وكيف يفسرونه، ص 144.

---

---

1- الحالة الطبيعية.

2- الحالة الهمجية.

3- الحالة الاجتماعية: التي رغم عيوبها فإنها مرحلة سيادة القوانين والدساتير التي يجب احترامها لأنها تعبر عن الروح الاجتماعية ممثلة في التربية والأخلاق والتقاليد وهي الدعامة الأساسية للكيان السياسي لأية أمة وقد وضح هذه النظرة في كتابه ( نظرات في الحكومة البولونية لعام 1722)، حيث أعلن فيه عن حقوق الإنسان وأن السيادة للأمة لا للأفراد من خلال القانون، وأن القانون يجب أن يكون تعبير عن الإرادة العامة، وهو نداء صريح لقيام الدول الديمقراطية، وتعتبر نداءاته من أهم الدعائم وأسباب قيام الثورة الفرنسية وهو من أبرز منظري وصاغة دساتيرها.

إن أهم بحث شغل فكر روسو أطروحته " هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى فساد الأخلاق أو إلى إصلاحها"<sup>51</sup>.

حيث أجاب: "بقدر ما كانت علومنا وفنوننا تتقدم نحو الكمال كانت أخلاقنا تفسد ونفوسنا تتعفن إلا أن نفس الشيء حدث في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة"<sup>52</sup>.

يقرر روسو إذن: أن العلم والفن ذا دور سلبي في التطور البشري الذي وإن توهنا في الوهلة الأولى أنه يحقق الازدهار المادي فإنه في الحقيقة غير ذلك لأن روسو يرى أن الأساس في التقدم ليس الجانب المادي الحضاري بقدر ما هو الجانب الثقافي ومن ثمة يقرر أن العلوم والفنون هي سبب فساد الأخلاق وإذا كان وجهها المادي: التقدم التقني فإن ذلك لن يورث الإنسان سوى تفكيراً وسلوكات وروحا منافية لطبيعته البسيطة الطيبة التي هي منبع الفضيلة والأمانة والصفاء.

إن الفنون والعلوم أحد نتائج الحياة الاجتماعية، هذه الحياة التي دعت ضرورة الاجتماع إلى قيامها.

تعد رواية روسو الفلسفية (إميل) أو (التربية) أهم ما كتب في التربية النفسية للطفل في عصره حيث ذهب إلى أن "التربية يجب ألا تكبح أو تطوع ميول الطفل الطبيعية بل يجب أن تشجعها حتى تنمو وتزدهر، كما أن التعليم لا يجب أن يأتي من الكتب والإرشادات اللفظية، بل من الأمثلة والخبرة والمباشرة بالناس وبالأشياء والأسرة لا المدرسة هي الميدان الحقيقي للتعليم، وأدواته هي: الحب التعاطف لا القواعد والعقوبات، ولا ينبغي أن يكون مسألة عقائد ومعتقدات

<sup>51</sup> - Rousseau : Du contrat social, opcit, P 65.

<sup>52</sup> - Ibid, P 66.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

العقوبات ولا ينبغي أن يكون مسألة عقائد ومعتقدات ونصوص وسكليات وإنما هو أن يتغلغل في القلب الشعور بالهيبة والعبادة، ذلك الشعور الذي يوحى بالله الذي هو وراء عقولنا<sup>53</sup>.

إذن: ركز روسو على التربية كركيزة أساسية ولبنة تنطلق منها عملية الإصلاح وفي الوقت نفسه تعد نظرية في التربية مزيجاً متناغماً بين انتقاد لواقع كان يراه فاسداً ونظرية نفسية على منهج المذاهب الوضعية من جهة وآفاق متعالية ورومانسية تعمقت بدعوته إلى الرجوع إلى الحياة الطبيعية الحرة، الخيرة، كما كتب روسو رسالة هي: "الاقتصاد السياسي"، وهي رسالة بمثابة مشروع لدساتير الدولة لتحقيق السعادة والسلام غير أن الأهم منها كتابه "العقد الاجتماعي"، الذي يلحقه بـ (مبادئ القانون السياسي).

وهو ليس أقل قيمة من مبادئ لوك أو روح قوانين مونتيسكيو في تقريره المبادئ الحرة والمساواة حيث يقول: "يولد الإنسان حراً ولكنه مكبل بالأغلال في كل مكان فكيف حدث هذا التغيير؟!"<sup>54</sup>

### د - أهمية الحالة الطبيعية:

إن الإنسان في حالته الطبيعية حر، وهو يعيش الحياة الفردية منيع الحرية، غير أن الحياة الاجتماعية هي التي أخضعتة للضرورة وقيدت حرياته حيث اقتضت وضع (عقد وقوانين) لكفل السلم والتنظيم وعدم التصادم.

رغم أن فلسفة روسو قد يراها البعض فلسفة متفائلة تقن لعهد جديد، فإن الغوص في أعماقها والتوصل إلى روحها يلمس -ولا ريب- خيبة أمل روسو في الحياة الاجتماعية التي كبلت حرية الإنسان بالقوانين.

<sup>53</sup>- خالد شهاب: فلاسفة غيروا العالم، ص 93.

<sup>54</sup>- المرجع نفسه، ص 111.

كما أنه على الرغم من أنه كان يهدف -على غرار "لوك"-، إلى انتقاد الاستبداد والحكم المطلق والمناداة بحكم ديمقراطي ممثلاً في البرلمان، فقد فهمه البعض على أن نداءه لا يختلف من حيث النتائج عن (تئين هوبز) وتأييد الحكم المطلق، لكن باستبداد جماعة بدل الفرد، كما أن روسو سلك طريقاً معاكساً لفولتير ومونيتسكيو خاصة في نقطة القول بأن التقدم وليد المعرفة والعلم،... كما اعتبر أن الحياة الاجتماعية والمدنية ضريرتها الغالية هي " الحرية" التي تنازل عنها الفرد كلها أو عن جزء منها لاستتباب النظام والسلام " فالحرية مفروضة على الشخص الذي يفرض عليه المجتمع نمط حياة العبيد"<sup>55</sup>.

## 6- كوندرسيه (1743-1794) Antoine de Condorcet:

### أ- نبذة عن حياته:

الماركيز ماري جان أنطوان دي كوندرسيه<sup>56</sup> maequis de marie antoine de condorcet (كان صديقاً لفولتير وتارجو) كان عضواً في الأكاديمية الفرنسية منذ عام 1769. اهتم كوندرسيه بدراسة التاريخ الماضي في محاولة لرسم مسار التطور من الحاضر نحو المستقبل فيما قدمه من محاولة لرسم لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري.

### ب- أهم مراحل التاريخ:

1- المرحلة الأولى: التنظيمي الأول للإنسان كان في شكل العشائر كإطار اجتماعي وسياسي، حيث العشيرة عائلة كبيرة يتعاون الأفراد في الدفاع عنها، يتولى تسيير شؤونها كبير أفرادها، برزت بدايات التطبيب بالسحر وبعض الأعشاب الطبيعية.

<sup>55</sup> - المرجع السابق، ص 111.

<sup>56</sup> Dictionnaire des auteurs, opcit, p470.

**2- عصر الأقوام الرعاة:** نظرا لزيادة عدد البشر وعوامل كالتحط استأنس الإنسان

الحيوانات لتحسين طرق معيشتها والتي كانت مصدرا لقيام حرف كالنسيج وطرق المفايضة وعرف الإنسان الشعور الديني.

**3- عصر الزراعة واختراع الكتابة:** حيث تكوّن النظام الإقطاعي من نبلاء يرثون ورقيق

مرتبون بالأرض، ونظرا لحاجة المزارعين لتصريف منتجاتهم نشأت المدن وظهر علم الحساب وبدايات الهندسة.

**4- المرحلة الرابعة من التدوين إلى تقسيم العلوم:** تمثل هذه المرحلة الخطوات الأولى في

تقدم الفكر البشري، تلقى اليونان تراثا واسعا وفنونا عديدة ومعارف ومعتقدات من الشرق، ولأن اليونان ليس به كهّان يحتكرون العلم كما في الشرق نشأ الفكر حرا نشأت الرياضيات على يد فيثاغورس، والآلية عند ديمقريطس لكنهم أسأؤوا حين لم يأخذوا بالتجربة وحتى حين حاول سقراط إنزال الفلسفة من السماء إلى الأرض أعادها أفلاطون إلى السماء، وعلى الرغم من هذه المؤاخذة يعزى لهذا العصر بإسهامات جوهرية.

**5- المرحلة الخامسة:** عصر تقدم العلوم منذ تقسيمها : تبدأ من أرسطو الذي صنف

العلوم وطبق المنهج الفلسفي على الخطابة والشعر وتحررت في هذه الفترة الرياضيات والطب. وعند خضوع اليونان للرومان ورث الرومان عن اليونان الفن والأدب.. ولم يقدموا سوى التشريع ومعبد البانثون الذي هيا الأذهان لعبادة التوحيد<sup>57</sup>.

وقد صاحب انتشار الدين الجديد ضعف الإمبراطورية وتدهور العلوم والفلسفة ولم تكن وسائل انتشار الثقافة مستمرة فكان صدور أمر من الإمبراطورية كفيلا بإغلاق المدارس الفلسفية، ومن ثمة نهاية الفلسفة اليونانية.

<sup>57</sup> opcit, p 471.

**6- المرحلة السادسة:** من المخطاط العلوم إلى بعثها، حيث دمرت غزوات البرابرة حضارة

الرومان تلتها سيطرة طبقة الكهان على الفكر فانتشرت الخرافات.

أما في الشرق فقد حمل المسلمون تراث اليونان وتقدمت بعض العلوم وكان ذلك كافياً لتنبه أوروبا من غفلتها وإن لم يمنع ذلك من عودة المسلمين إلى غفوتهم.

**7- المرحلة السابعة:** من بعث العلوم إلى اختراع الطباعة: ويعزو التقدم خلال هذه

المرحلة إلى عوامل:

أ- النفور من تسلط الكنيسة.

ب- تحرر بعض المدن.

ج- الحروب الصليبية فرضه احتكاك الغرب بالحضارة الشرقية وعلومها.

د- نشأة الجامعات التي أصبحت مراكز الفكر وبدايات لتخلص الفكر من الخرافة وبداية الاختراعات.

**8- المرحلة الثامنة:** من اختراع الطباعة حتى طرح نير السلطات التقليدية ميز هذه المرحلة

الإصلاح الديني الذي بدأ مع مارتن لوتر، ثم ظهور تقييد سلطة الملك، إلى جانب ظهور مناهج العلوم التي أسهمت في تحرير الفكر من الخرافات غير أن إشراف الكنيسة على التربية المدرسية عطل تحرير الفكر.

**9- المرحلة التاسعة:** ظهور بيكون وجليلو وديكارت: يؤكد كوندرسيه كما أكد من قبله

مؤرخي الفلسفة الغربية وفلاسفة التأريخ والحضارة أن الفلسفة اليونانية تكتسي مكانة خاصة وفكر اليونان فكر رائد بالنسبة للعالم "فتحت له عبقريتها أبواب الحقيقة كلها"<sup>58</sup>، ويذهب كغيره من الفلاسفة التقدميين بأن الفكر اليوناني أول لبنة تؤسس لمسار التاريخ والتطور وأن الإنسان

<sup>58</sup>- عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص 18.



## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

اليوناني أول إنسان على وجه المعمورة نطق، إذا اعتبرنا أن الكلام حركة ظاهرية لعملية حفية هي التفكير، فال يوناني أول إنسان تميز عن باقي المخلوقات بإنسانيته ويوضح الفرق بينه وبينها، فإذا اعتبرنا أن الفلسفة كما حدد معناها سقراط وسيلة يستطيع بها الإنسان استخدام عقله على نحو صحيح فإن الشرق هراء والتاريخ يبدأ من اليونان.

### ثالثا - فلاسفة التاريخ الجرمان:

#### 1 - كانط إمانويل (1724-1804): Emmanuel kant

أ- نبذة عن حياته: ولد في 22 أبريل 1724، وتوفي في 12 فيفري 1804<sup>59</sup>، اهتمت والدته بتربيته وقدمته إلى الواعظ "شولتر" منذ نعومة أظافره وكانط مؤسس النزعة الألمانية بسط أعمال (فختة) و(شلنج)، اعتمد كانط النقد في المعرفة كوسيلة للوصول إلى نتائج مرضية من خلال تحديده للمجال الإبستمولوجي فكانت أفكاره السياسية خلاصة لتلك الانتقادات من وجهتين أساسيتين:

1- ثقته في العقل البشري كمنبع للإرادة والتطور.

2- النوع البشري مجبول وفق هدف غائي مجهول سطرته العناية للإلهية، ومن ثمة فحرية الإرادة عند الفرد تحددها قوانين طبيعية عامة، لذلك كان موضوع التاريخ هو سرد هذه الظواهر ومحاولة فهم الغاية الإلهية الموجهة لأفعال البشر.

<sup>59</sup> - بروناند راسل: ، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977 ص 317.

ب- حركة التاريخ بين العناية الإلهية وأفعال البشر:

" تبدو الأفعال الإنسانية مستندة إلى حرية الإرادة، وهذا يعني أنها لا تخضع لقوانين كقوانين الطبيعة، حقيقة أن حرية الإرادة لا تعني أن الناس يسلكون مسلك الحيوانات ولكنهم أيضا لا يتصرفون بإحكام، ولا تصدر أفعالهم دائما عن تعقل واطزان حتى الفلاسفة الذين يعتقد أنهم حكماء ليسوا من الحكمة بحيث يخططون لحياتهم الخاصة على نحو يتفق مع القيم التي يبشرون بها، ولكن إذا لم تكن للأفعال الإنسانية مبررات معقولة فالحروب مثلا تبدو من نسيج الحماسة وصادرة عن شهوة التدمير، فهل هناك من هدف كامن وراء ما يبدو وكأنه فوضى. هذه هي غاية التأريخ: الكشف عن الاطراد والنظام الذين يكمنان وراء ما يبدو فوضى تماما كعمل " كبلر" حين كشف عن القوانين الدقيقة التي تحكم مسار النجوم التي تبدو للمشاهد العادي كأنها فوضى"<sup>60</sup>.

إذن يعتمد كانط في قوله بالغائية الإلهية التي تحكم أفعال البشر وتأثيرهم في التاريخ من خلال الاستعدادات الغريزية للإنسان وأهمها العقل والأهواء المختلفة كالصراع وحب التملك. - ثم أن هذه الغائية مرجوة من النوع لا الفرد ذلك أن حياة الأفراد قصيرة وعملية التغيير تكون سريعة.

- رغم أن كانط يقرّ بالاستعدادات الطبيعية فهو يقول بتجاوز الإنسان لنطاق الآلية الحيوانية لأن الإنسان يختص بالعقل الذي يوفر له حرية الإرادة والفعل .

إن الغرائز العدوانية التي فطر عليها الإنسان تبدو-ظاهريا- لا أخلاقية وعملية تتناقض مع الحياة الاجتماعية، غير أنها في حقيقة الأمر على النقيض من ذلك تماما، لأنها جزء من النظام الإلهي الذي يتحكم في سير التاريخ، فـ "...بفضل هذه الروح العدائية من الإنسان لأخيه انتقلت

<sup>60</sup> - E. Kant : Leçons de métaphysique présentation traduction et notes par Monique Castillo préface de Michel Meyer, Paris, librairie générale française, coll le livre de poche, 1993 P 244.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

الإنسانية من البداوة إلى الحضارة،... إن الطبيعة تريد من الإنسان أن يخرج من الركود والتراخي إلى العمل والكفاح...."61.

كما يرى كانط ضرورة أن توضع القوانين لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية من أجل حماية الحريات الفردية.

كما ان الحروب والثورات قانون خفي، وأن المصالح المتعارضة في العلاقات الدولية هي السبب في السعي إلى التسلح والتأهب للحروب، وأن عدم التماسك الداخلي للدول يجعلها تشهد ثورات داخلية.

### ج- ضرورة السلام العالمي لحركة التاريخ:

كانط من الأوائل الداعين إلى السلام العالمي، هو واضع مصطلح VOLKER BUND الذي جاء في كتابه (السلام الدائم) 1795 أنه: "على الإنسان أن يؤمن بوجود غايته في طبيعة الشر ككل.. "62.

"إنه حتى لو توصلت الإنسانية إلى سلام دائم فإنه سلام لن يخلو من وجود أخطار وإلا خمدت قوى الإنسانية إذ لا بد من مبدأ الفعل ورد الفعل المتبادلين، وستظل الإنسانية تتحمل في سبيل ذلك أقصى الشرور"63.

"...تبدو هذه الغائية في طبيعة البشر في مجرى التاريخ، فإن استعرضنا مساره مبتدئين بتاريخ اليونان القديم باعتباره نقطة البدء في الحضارة الأوروبية وتابعا سيره في نظام الدولة لدى الرومان ثم سقوطها على يد القبائل البربرية، ثم تابعا السير حتى عصرنا الحاضر وما أسهمت به الشعوب الأخرى في مسار التاريخ، فإنه يمكن أن يستخلص في هذا العرض السريع دليلا على ما

61- إيمانويل كانط: مشروع السلام الدائم، ترجمة عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة، 2000، ص 10.

62- المرجع نفسه، ص 10.

63- المرجع نفسه، ص 10.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

يبدو مضطرباً في أحوال الإنسان، ومن ثمة يمكننا التنبؤ السياسي بمستقبل التغيرات في نظم الدول وتصور حال النوع الإنساني في المستقبل البعيد، وهذا يدل على عمل الطبيعة أو بالأحرى العناية الإلهية وإلا فما قيمة إطرء جلال الخالق وحكمته في مملكة الطبيعة غير العاقلة ثم نياس من العثور على غاية كاملة وحكمة بالغة في تاريخ النوع الإنساني! <sup>64</sup> كما يخلص كانط إلى أن " اللاهوت الوحيد الممكن للعقل هو المؤسس على قوانين أخلاقية أو يسعى للاهتداء بها" <sup>65</sup>، إذ حث كانط على ضرورة الاستغلال العملي للعقل دفعه إلى وضع: نقد العقل العقلي الذي اتبعه بـ " نقد العقل العملي 1786 وحجته الأخلاقية يقيمتها على قاعدة: أن القانون الأخلاقي يتطلب العدالة أي السعادة المتناسبة مع الفضيلة، وأن العناية الإلهية هي الكفيلة بأن تحقق ذلك إن الحرية هي الأساس الذي يكفل السلوكات الفاضلة.

### د- الواجب الأخلاقي والصعود الحضاري:

إن الروح العالية لـ (ميتافيزيقا الأخلاق 1785) قد منحت هذا المؤلف أهمية تاريخية قصوى ذلك أن كانط لا يعبأ بمذهب المنفعة العامة الذي ساد القرن السابع عشر وحتى القرن الثامن عشر عند الاتجاه التجريبي وهو الذي يرى ضرورة أن تكون للأخلاق مبتغا إنسانياً لذاتها ودون أن تجعل للأخلاق أغراضاً خارجها، إن جميع التصورات الأخلاقية تستمد أصلها بصفة قبلية من العقل وأن القيمة الأخلاقية تتحدد فقط عندما يكون الدافع الكامن وراء الفعل الأخلاقي هو: الإحساس بالواجب النابع من حرية الإرادة والقانون.

- إن أفكار كانط في السياسة وحول فلسفة التاريخ أفكار مبعثرة في أغلب مؤلفاته حيث نجدها في (فروض عن بداية تاريخ الإنسانية سنة 1786)، (فكرة التاريخ العام على أساس خطة سياسية عالمية)، (نقد ملكة الحكم 1790)، (مشروع للسلام الدائم 1795). ونجد أن كانط قد

<sup>64</sup> - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 203.

<sup>65</sup> - E. Kant : Critique de la raison pratique in œuvres philosophiques des prolégomènes aux écrits de 1791, Paris Gallimard la pléiade, 1985, PP 610-643.

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

لن حدة موقفه من الحرب، فبعد أن كانت مرنة وصفها في كتابه "فروض عن بداية تاريخ الإنسانية" 1786 بأنها: "أكبر شر يصيب الشعوب المتعدنة... لا بمعنى الحرب الحاضرة أو الماضية بل بمعنى دوام الاستعداد للحرب القادمة..."<sup>66</sup>.

بينما يرى في "نقد ملكة الحكم" أن سلما طويلة الأمد قد تولد مع روح التكسب والتجارة، نوعا من الأنانية العامة الغليظة"<sup>67</sup>.

كما أن عيش الإنسان جنبا إلى جنب مع أناس آخرين بسلام ليس أمرا فطريا بقدر ما هو نتاج التحضر والمدينة لأن السلام مكفول بالقانون كما أنه "يجب أن يكون دستور المدينة في كل دولة دستورا جمهوريا"<sup>68</sup>.

إن نشاط ذهن كانط ورجاحة آرائه هو ما يميز مؤلفاته في الشيخوخة على رأسها "السلام الدائم" وهي الرسالة التي جعلته منبوذا في وطنه، كما أن دعوته لتحرير العقل والأنا قد استغلت من بعد إلى أقصى الحدود وفي الاتجاه الذي لم يكن ليرضاه وهو الداعي إلى ضرورة الالتزام بالواجب.

## 2- هردير يوهان قرتفرايد Herder Johan Gottfried: (1744-1803):

### أ- نبذة عن حياته:

ولد في 25 أوت 1744 وتوفي في 18 ديسمبر 1803 م، نشأ في أسرة تدين بالمذهب التقوي، يعتبر مؤلفه "أفكار عن فلسفة التاريخ الإنساني" idées sur la philosophie de l'humanité، الصادر عام 1884، وكتابه "فلسفة أخرى للتاريخ" عام 1774.

### ب- غائية التاريخ:

<sup>66</sup> - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 203.

<sup>67</sup> - المرجع نفسه، ص 203.

<sup>68</sup> - كانط: مشروع السلام الدائم، ص 35.

من أهم ما يجعل "هردر" حيث قال بوجود مسار وعائية في التاريخ الذي اعتبره ذلك الزحف إلى الأمام<sup>69</sup>، وهو زحف له أسسه العلمية والطبيعية المتمثلة أساسا في حرية الاختبار التي يقوم عليها تطور العملية عبر الزمان، وهي نظرة ساير فيها هردر فلاسفة عصر التنوير، غير أن "ولش" يرى أن هردر قد عارض ذلك التيار الذي افترض وحدة الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان وأقام قيما مطلقة، وفرضها على عصور التاريخ، وأن "هردر" نقد التيار الذي جعل الإنسان جزءا من الطبيعة وأخضعه لمنهج العلوم الطبيعية في دراسة تاريخية، وأن "هردر" قد دعا إلى ضرورة إدخال عامل (التغير) الذي اعتبره جوهر مسار التاريخ.

قام هردر بانتقاد بعض آراء كانط رغم أنه اقتفى أثره في ابتعاده عن النزعة العلمية كمنهج في دراسة سير التاريخ وهو القائل: "أنه لا تتساوى في التاريخ لحظتان كما لا يتساوى لدى الصوفي"، فلا تتشابه لدى أمة واحدة لحظتان، ولا تتشابه تبعا لمنطق التغير أمتان، والمؤرخ الذي يلاحظ التشابه الظاهر ويغفل التباين إنما يسيء فهم أسس التاريخ، حيث أن مهمة المؤرخ ليس إصدار أحكام تقييمية بقدر ما ينحصر دوره في البحث عن خصوصيته الحقبة أو الحضارة من خلال خصوصية العوامل والظروف أو خصوصية شخصية الشعب وقيمه إنه ليس من شأن المؤرخ النظر إلى الماضي بعين الحاضر ومعاييره ذلك أن الإنسانية ليست شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحدا، فلكل عصر طابع يميزه وروح خاصة لا تتكرر والفرق واضح بأمثلة من التاريخ حيث الاختلاف بارز بين إجراء مقارنة للحضارة المصرية والصينية أو هما معا أو اليونانية و الرومانية، وليس معنى ذلك ضرورة أن يتعاطف المؤرخ مع العصر -قيد الدراسة- ولا يتجاوز معطيات الزمان والمكان، وإصدار أحكام مطلقة، فليس شكسبير هو سوفوكليس ولا ميلتون هو هوميروس.

وكلما اختلفت عقلية الإنسان اختلف آثاره الحضارية وهذا تدليل آخر على أن التغير لا التشابه هو منطق التاريخ والحضارات.

" لقد اعتبر مؤرخو عصر التنوير التاريخ في تدهور خلال العصر الوسيط وفي تقدم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، متجاهلين الديمومة والاتصال بين أجزاء التاريخ بينما العصر الوسيط حلقة اتصال بين الماضي والحاضر، وليس كما يرى فولتير خرافة وجهلا وغيبيات، وليس التقدم الذي تدعيه مؤرخو عصر التنوير لعصرهم في مجرد انتصار للإنسان على قوى الطبيعة لأنه إذا كانت هذه تمثل جانب العقل فالإنسان ليس مجرد عقل وكما لا تفهم شخصية الإنسان إلا في ضوء هذه الجوانب كلها كذلك الروح المتميزة للامة في عصر معين لا تفهم إلا في ضوء مكوناتها جميعا، وليست هذه مجرد أفعال خارجية وإنما طبيعية باطنية تكمن خلف هذه الأفعال وتشكلها في صور مختلفة من سياسة واقتصاد وفلسفة وفن وأدب ودين...، ولا يتسنى التعرف على روح الأمة وشخصيتها بمنهج العلوم الطبيعية لأن هذا لا يكشف إلا عما هو ظاهري وخارجي، أما الماضي التاريخي فهو واقع روحي ولا يمكن التعرف على روح إلا بالروح، أي أن الروح الداخلية للإنسان هي التي يمكن أن تكشف روح العصر، ومن تم لا بد للمؤرخ كي يتعرف على شخصية الأمة أن يتفاعل معها وأن يستشعر في ذاته تراثها، ولا يتسنى فهم ذلك من خلال الكليات المجردة كما هو الحال في العلوم الطبيعية<sup>70</sup>.

د- دور الروح في حركية التاريخ: إن الدعوة التي أقامها هردر لفهم التاريخ واهتمامه بروح الحضارات وخصوصيات الأمم والشعوب قد عمل بها الألمان حقا وقربت بينهم فأصبحوا يتعاملون على أنهم أبناء أمة واحدة لما تحمله أفكار هردر من تأثير قومي فكان من نتائجها تحقيق الوحدة الألمانية<sup>71</sup>.

<sup>70</sup> - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 30.

<sup>71</sup> J.Herber : idées sur la philosophie de l'histoire de l'humanité, tra-par Edger Quinet, T1, F.G, Levraut, paris, 1827.p07

## الفصل الثاني:

### فلاسفة التاريخ قبل هيغل

ذلك أنه ما دام "الروح" التي تكلم عنها هردر باعتبارها الفهم هي نوع من الشعور بالانتماء، ذلك الشعور الذي تهون في سبيله مظاهر التفرقة إذا كان الهدف الحقيقي والسامي هو "القومية الألمانية".

- إن "الروح" أي روح المؤرخ هي الكفيلة بتأمل الوقائع والتوغل في أعماقها واستكشاف أسباب وخفايا الفعل الإنساني الذي حدث على هذا الشكل ولم يحدث على هذا المنوال، ذلك الفعل الذي يحدث مرة واحدة ولن يتكرر - مهما تشابه - لن يتكرر حدوثه بنفس الصبغة، وهو ما يختلف تماما عما يحدث في الظواهر الطبيعية الساكنة التي يمكن أن توضع لها القوانين وبالتالي تدرس ما يتكرر وقوعه باستمرار.

كما يرى "هردر" أن الجماعة كالكائن العضوي الذي ينمو ويتحول في النهاية إلى كلٍ حتى أعظم من أجزائه الفردية، وهو يمتلك روحا فريدة تمثلت على أفضل وجه في العناصر التالية: الدين اللغة، الأدب..<sup>72</sup>.

لقد اعترف "هردر" للشعوب بمساهمتها في إقامة حضارات التاريخ العالمي: "لقد وزعت الطبيعة هباتها بطرق مختلفة تبعا للجو والثقافة فلنبتهج لأن الزمان أب كل شيء وقد وهب من آن لآخر هبات من كنوزه الوفيرة وبين في توده البشرية بكل مكوناتها المختلفة<sup>73</sup>.

وعليه فإن مضمون نظرية هردر قد كن له صداه الواسع سواء في تحقيق جمع شمل الأمة الألمانية أو عند المفكر اللاحقين فيما بعد الذين تبنا روح أفكاره إلى أقصى ذروتها كما هو الحال عند هيغل فأوجدت نظريته عصبية وحبا فائضا للوطن والأمة والذي جعل الشعور بالتفوق والتميز عن الأمم الأخرى يعمي بصيرة هيغل فلا يكاد يفقه مفهوما غير التطور والتقدم أو حضارة أو قومية وتاريخا غير الدولة الألمانية نهاية مطاف المطلق.

<sup>72</sup>- نور الدين حاطوم: تاريخ الحركات القومية، ص43.

<sup>73</sup>- فؤاد كلين ل. باور: الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة أحمد حمدي محمود، هيئة الاتصال والتغير، ج3، ص 39.



# الفصل الثالث

## أسباب نبرخ هيغل

من المعروف والتقليدي أن دراسة التراجم تُعد أحد المفاتيح الهامة لفهم وتقييم أعمال أي شخصية، وفي أي ميدان كانت، غير أن هذه الأهمية تزداد لتصبح أمرا ملحا عند أي دارس لفكر هيغل ينشد الدقة والنفاذ إلى الأعماق، حيث يجد نفسه أمام عبقرية فريدة لشخصية نمطية تدعوه وتثير في نفسه حوافز البحث وفضول التنقيب عن الخصوصيات التي شكلت شخصيته على هذا النحو، وعن الأحداث والظروف الخفية التي ساهمت - ولو بقدر يسير - في صقل وبلورة فكر أهم قمم البحث عن الحقيقة في العصر الحديث، ممن ناشدو المطلق حيث يقول: " أعتقد أنني في مجرى تطوري كفيلسوف لخصت، بل وعبرت عن ( السيرة الذاتية ) للمطلق"<sup>1</sup>.

### أولا - مولده ونشأته:

في يوم 27 أغسطس عام 1770 في رقم 53 ابرهارد شتراس بمدينة شتوتجارت ولد " جورج فلهلم فردريك هيغل من أب يدعى لودفيج هيغل، يعمل في بلاط دوقية فورتمبرج بفاريا، كموظف بسيط في المالية إقليم ( Swabia ) الذي يقع جنوب ألمانيا يمتاز أهله برقة المزاج وشاعرية الروح، ويكفي دليلا على ذلك أنه موطن شيلر وهولدرلين وشلنج ... إلخ. إضافة إلى فلاسفة ولاهوتيين كثيرين، وقد احتفظ هيغل بلهجة هذا الإقليم حتى عندما كان يحاضر في جامعة برلين.

أمه هي: ماريا ماجدلينا فروم قامت بتعليمه اللاتينية قبل التحاقه بالمدرسة ماتت ولم يتجاوز الحادية عشر من عمره سنة 1781، تاركة وراءها جورج لودفيج كان ضابطا في الجيش، شارك في حملة نابليون على روسيا ومات شابا، وهيغل وأخته كريستيانا وكانا شديدا الارتباط ببعضهما البعض ويظهر ذلك بوضوح حين يتكلم عن أفكاره حول الأخلاق ويشير دائما إلى مسرحية (أنتيجونا للشاعر اليوناني سوفكليس) معبرا في الوقت نفسه على أن أهم درس استخلصه

<sup>1</sup> - ليود سينسر، أندرجي كروز: هيغل، ترجمة: إمام عبدالفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، مصر، ص 7.

من تلك المسرحية هو حب الأخت لأخيها الذي يعتبره أرقى أنواع الحب في إشارة إلى أهمية العلاقة التي ربطته بأخته ( في ظاهريات الروح ).

ذكرت أنه تعلم - من أمه التي كانت على قدر كبير من الثقافة - قواعد اللغة اللاتينية وكان ذلك قبل سن الخامسة، ثم تعلم اليونانية عندما دخل المدرسة اللاتينية، وبعد إتقانه لهاتين اللغتين الأداة التي يسرت له الغوص في كنوز الفلسفة اليونانية وأديباتها، فكان يقضى (في معهد توبنجن) أغلب وقته يطالع وهو ما عمق معلوماته حول اليونان فكان كثير الإعجاب بتاريخهم وحكمائهم لدرجة أنه هاجم (وضعية الديانة المسيحية) و (حياة يسوع) مقارنة بإها بديانة اليونان الأقدمين حيث كانت: "الأعياد الشعبية عند اليونان كلها أعياد دينية... وفيها كل شيء، حتى الإفراط في الشراب - لأنهم يعتقدون أنه مقدس عند بعض الآلهة-. أما معظم أعياد العامة فإن الفرد يتقدم للمشاركة في القربان المقدس في ثياب الحداد ذليلاً مكسور الخاطر...، وعلى النقيض من ذلك كان الإغريق يصنعون أكاليل الزهور ويرتدون ملابس زاهية الألوان"<sup>2</sup>.

كما فضل سقراط على يسوع في المعاملات: "بالطبع لم يسمع إنسان قط أن سقراط ألقى عظاته من على منصة الخطابة أو من فوق جبل... كان يرحب ببقية الناس كأصدقائه سواء بسواء. فلم يكن رئيساً عليهم، يستمدون منه الحكمة كما يستمد أعضاء الجسد من الرأس عصارة الحياة... ولم يفكر أن ينظم جماعة يكون له حرس شرف عليها... بل كان كل تلميذ من تلاميذه هو نفسه أستاذاً... ولم يحاول قط أن يضايق أحداً وأن يفاجر بما له من أهمية أو أن يستخدم عبارات رنانة غامضة من ذلك النوع الذي لا يؤثر إلا في الجهلاء والسذج!..."<sup>3</sup>.

لقد تمثل هيغل ميثالية الحكماء اليونان قبل سقراط ونظرية المثل لأفلاطون و(النوس = العقل) عند الأفلاطونية الجديدة ومزجها بأفكار روسو (1778/1712) ثم بأعمال غوته

<sup>2</sup>- هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 14.

<sup>3</sup>- المصدر نفسه، ص 14.

(1832/1749) وشلر (1805/1759)... وشعر بفجوة عميقة بين الدين والعقل إلا أنه لم يأخذ بموقف هذا الأخير في الحضارة العربية الإسلامية، وهو حتى لم يكلف نفسه عناء الإطلاع على بعض كنوزها وراح ينغمس في مختلف فنون الأدب والشعر الإغريقي الذي اعتبره الملاذ والعلاج خاصة وأن أعز أصدقائه في سنه المبكرة. كان (هولدرلين ابن قسّ 1843/1770) الذي كان يقاسمه أغلب آرائه في بداية حياته وحتى مرحلة الشباب حيث أقاما في غرفة واحدة في مرحلة الدراسة الثانوية في (توبنجن) في معهد اللاهوت البروتستاني حيث أرادت له أسرته أن يصبح راعيا (رسوليا) وفي ربيع 1791 ذهب الأصدقاء وغرسوا شجرة الحرية باندلاع الثورة الفرنسية وعندما عمل هولدرلين 1796 مدرسا خصوصيا عند أسرة جوتنار بحث لهيغل عن عمل مماثل لدى عائلة (قوغل) في مدينة (بيرن) بسويسرا ليكونا قرييين من بعضهما. غير أن هيغل لم يكن مرتاحا مع هذه الأسرة، لأنه كان يترك وحيدا، فاندفع للبحث عن السلوى في أحضان الطبيعة المنعزلة حيناً وبين صفحات الكتب في أغلب الأحيان، حيث سمح له فريديريك شتيجر باستخدام مكتبته، التي كانت ثرية بمختلف المؤلفات، فقرأ (إدوارد جيبون) و(مونتسكيو) كما واصل قراءة الآداب الكلاسيكية القديمة، كما قرأ لكانط ما كان قد كتبه: "الدين في حدود العقل" حيث صدر هذا الكتاب في نفس السنة التي تخرج فيها هيغل من معهد توبنجن 1793 وهو الكتاب الذي أحدث ضجة كبرى في ألمانيا حيث اضطر بعد ذلك كانط الاعتذار إلى السلطة الرسمية والتعهد لفريديريك وليم "بعدم العودة إلى الكتابة في مسائل الدين..."<sup>4</sup>.

وإذا كان اهتمام هيغل بالسياسة أيام الجامعة مسألة نظرية فإن إقامته في برن وعند الأسرة التي كان يعمل عندها) قد أصبح أمرا واقعا معاشا لأن حاكم هذه المدينة السويسرية (أوليغار) كانت تربطه صيالات وطيدة بالأسرة التي كان يعمل عندها هيغل الأمر الذي فتح عينيه على مساوئ السياسة فكتب إلى شلنغ يقول: "إن جميع الدسائس ومحاباة الأقارب والمحسوبية

التي تحدث في بلاط الأمراء في ألمانيا، ليست شيئاً أمام ما يحدث هنا مما لا أستطيع أن أصفه لك، فالأب يسند المنصب لابنه أو إلى زوج ابنته الذي استطاع أن يحقق أفضل زواج. ولا بد لمن يريد أن يعرف هذا الدستور الأرستقراطي أن يقضى هنا شتاء كهذا قبل فترة عيد الفصح عندما يتم تحديد المجلس...<sup>5</sup> .

إذن : فقد كان هيغل وكذلك هولدرلين صديقين لفريدريك شلنج (1754/1773) منذ بداية حياتهما وكان هيغل أشد ولعا بفكر ومثابرة شلنج حيث كتب له في 30 أغسطس 1794 تزامنا مع إصداره ( الأقوال الفلسفية في أقدم العوالم ) 1794 وحول إمكان وجود شكل للفلسفة بصفة عامة سنة 1795 إضافة إلى (رسائل فلسفية حول الدوغماتيقية والنقدية) و( عن الذات بوصفها مبدأ للفلسفة ). قائلا : " لا تتوقع مني شرحا على كتابك، فلست سوى تلميذك. فأنا أحاول أن أدرس فخته ... لكن عملي لا يستحق أن أتحدث عنه"<sup>6</sup> .

كما كان كل من هولدرلين وهيغل صديقين حميمين لجوته ولعل الرسالة التي كتبها إليه هيغل سنة 1825 توضح بعضا من الإعجاب الكبير لهيغل به " لقد تلقت طبيعتي الداخلية غذاءها وقوتها منك لتقاوم التجريد ولينطلق مجراها في صورتك وكأنها منارة توجهها.. عندما أفحص مسيرة تطوري الروحي فإنني أجدك كل شيء، وفي هذه المسيرة تغزل فيها نسيجك، إنني أحب أن أطلق على نفسي اسم واحد من تلامذتك"<sup>7</sup> .

في صباح أحد من ربيع سنة 1791 زرع هيغل إلى جانب مجموعة من أصدقائه: هولدرلين، شلنج، وشيلر "شجرة الحرية" خارج مدينة توينجن ابتهاجا بإعلان الثورة الفرنسية

<sup>5</sup> - ليود سينسر، أندرزجي كزوز: هيغل، ص 25.

<sup>6</sup> - المرجع نفسه، ص 26.

<sup>7</sup> - المرجع نفسه، ص 26.

(الحرية) كمبدأ عام لكل البشر و هذا المبدأ الذي لا بد أن يقلب تعاليم المسيحية من أجل القضاء

على عبودية الإنسان للإنسان وهكذا حققت الفلسفة الألمانية وبالتحديد ثلاثية النقد مع كانط.

1 — نقد العقل الخالص 1781 .

2 — نقد العقل العملي 1786 .

3 — نقد ملكه الحكم 1790 .

ما حققته الثورة الفرنسية في بلورتها للقوانين هو من أهم أهداف الدولة الألمانية إلى جانب نتائج ثورة كانط في الفلسفة حيث لم تعد - كما قال - سوى " فكرة العلم بوصفه نسقا " فنحن نستطيع أن ننجز في الميثافيزيقا - كما في المنطق إحساسا بالكلية والاكتمال غير أنه في العلم والواقع - فإن هذه الكلية لا بد أن تظل وهمية خرافية؟<sup>8</sup> .

وهكذا بعد تأكيد كانط بأن الحقيقة أمر يمكن بلوغه من جهة، وبين نظرتيه في المعرفة القائمة على التفرقة بين الذات والموضوع. حاول كل من فخته ( علم المعرفة 1794) وشلنج ومن ورائهما هيغل معالجة الشرخ الذي أحدثه كانط في كتاباته ( إنقسامات بين العقل والإيمان) بين الكنيسة والدولة، بين المتناهي واللامتناهي).

وكانت كنتيجة لذلك ظهور بحث هيغل (حياة يسوع عام 1795) حيث يؤكد فيها أن حياته لم تشتمل على أي حوار تذكّر بل جاءت ترجمة فكرته كقاعدة سياسية "أفعل فقط طبقا لقاعدة تريد لها في الوقت نفسه أن تصبح قانونا عاما"<sup>9</sup> . وهي البداية مع هيغل لإعادة الأمور إلى نصابها وإرجاع العالم إلى وحدته من جديد، كما كتب بحثا عام 1799 "روح الديانة المسيحية ومصيرها" وفي هذا السياق يرى (وولش) أن هيغل عاكس بعض العلامات التي يمكن الاعتماد

<sup>8</sup>- هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 36.

<sup>9</sup>- المصدر نفسه، ص 32.

عليها كحجج لمدى تأثيره بكانط، وذلك في بسط المراحل المكونة للتقدم التاريخي نحو الحرية، بالإضافة إلى فكرة التاريخ العالمي. بمعنى أن تأمل تاريخ شعب أو قومية لا يكفي وحده للخروج

10

بتصور عام يطبق كقانون على باقي القوميات .

إذن يمكن القول بأن هيغل أخذ عن كانط جانبين مهمين دون أن يصرح ألا وهما:

- صميم الإنسان: الجانب المعنوي له، من عقل وأخلاق وفطرة التدين كما أخذ عنه القول العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الأفراد وتوجه مهمة التاريخ الفلسفي حتى يظهر في تنظيم (الدولة) وذلك منذ أقدم العصور وحتى عصر هيغل غير أن المؤكد أن هيغل تأثر كذلك بكانط في فكرة الحرية وتحليلاتها في التاريخ، ففي محاضراته في فلسفة التاريخ يقارن بين تطور الطبيعة وتقدم الإنسان كتجسيد لتطور الروح كما مزج بين هذا المركب وفكرة الشقاء عند هولدرلين Holderlin وغوته Goethe الذين اعتبروا أن بلوغ السعادة لا بد وأن يمر بالشقاء، وهذا تأثرا بالفلسفة اليونانية التي تركز على أن الإيجاب أساسه السلب وهو ما يتجلى في صراع العبد والسيد وفي صراع الأضداد في منهج هيغل...

كان هيغل يتحدث عن نفسه، وعن أقرب أصدقائه شيلر وهولدرلين أما خارج هذا فلم يكن يذكر الشخصيات التي أثرت في توجيهه، لكن المؤكد بتشجيع من هولدرلين بقد أخذ هيغل Hegel يدرس مؤلفات Kant دراسة جادة كما اشترى مؤلفات فخته ودرس بعمق تلك المؤلفات مما ساعده على تطوير بحوثه وتطوير آرائه كما أدى إلى اضطراب مواقفه حد التناقض في بعض الأحيان.

والغريب في الأمر أن هيغل كان معاصرا لغوته الألماني ولبعض المستشرقين الغربيين الذين أنصفوا الآخر واهتموا بتراث الشرق بصفة عامة العربي الإسلامي ودرسوه بموضوعية غير أن هيغل

<sup>10</sup> - وولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة أحمد حمدي محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1962، ص 211.

لم يتطرق إليه، وإن فعل فلم يتعدى ذكر المساوئ متعمداً بجاهل إيجابياته مثلما فعل مع الدين، حيث أنه لم يذكر مرتبة الإسلام بين الديانات التي درسها، وسوف نوضح ذلك لاحقاً.

ظل هيغل في فرانكفورت حتى وفاة والده 1799 فأخذ ما ورثه عن والده ( ثلاثمائة جنيه). في هذه الأثناء كان شلنج أستاذاً بجامعة بينا ومنذ عام 1798 فراسله هيغل وشرح له طموحه في الحصول على منصب للتدريس في الجامعة خاصة إذا كان ذلك إلى جانب جوته وشيلر وفخته وشلنج،... والشعراء الرومنتيكيين... وقد التحق بهذه الجامعة فعلاً في عام 1801 وأعاد إحياء أوامر صداقته مع شلنج وقاما بإصدار جريدة فلسفية كتب فيها هيغل خمس مقالات هي: ( في طبيعة النقد الفلسفي ) ، ( الحس المشترك )، ( المذهب الشكي وشولته )، ( الإيمان والمعرفة )، ( في الطرق العلمية لدراسة الحق الطبيعي ومكانته في الفلسفة العلمية وصلته بعلوم القانون الوضعية ) وقد تمت كتابة هذه المقالات بين عامي (1803/1802).

وقد سبق كتابة هذه المقالات بكتيب من حجم 100 صفحة تناول فيه الفرق بين مذهبي فخته وشلنج وعلاقة ذلك بإسهامات رابنهولد في الكشف عن وضع الفلسفة في بداية القرن التاسع عشر، بقلم جورج فلهلم هيغل دكتور في الحكمة الدنيوية).

كما كتب بحثاً باللاتينية عام 1801 (بحث فلسفي في مدار الكواكب) وهو ما أهله للحصول على حق التدريس في الجامعة رغم أن من كان يحضر محاضراته لم يكن ليزيد عن الإحدى عشر طالبا في أحسن الظروف.

اهتم هيغل بدراسة مختلف أنواع العلوم والفنون التي عجز بها زمانه وتعمق بصفة أدق - إلى جانب تاريخ الفلسفة والسياسة والدين والشعر - بدراسة الاقتصاد السياسي، حيث ومع حلول عام 1804 كان قد استوعب أهم أعمال جيمس استيوارت (1780/1712) وآدم سميث (1780/1723) وآدم فيرجسون (1816/1723) (نسق العلم) أما كلمتا ( ظاهريات



الروح) فقد كتبتا بحروف صغيرة أسفل الصفحة بعد هذه المرحلة يكتب (ظاهريات الروح) أي في 13 أكتوبر 1806.

في 6 فبراير عام 1807 تضع الخادمة كريستيان شارلوت طفل هيغل غير الشرعي (لودفيج).

بعدها رحل هيغل إلى بامبرج حيث عمل رئيس تحرير لجريدة محدودة الانتشار.

وفي ديسمبر من عام 1808 يصبح ناظرا لمدرسة ثانوية في نورمبرج ويدرس للطلبة - الذين أعجبوا بإلهامه بمختلف العلوم - كلما تغيب أستاذ في الطبيعة أو الفلسفة أو الرياضيات، إلا وعوضه.

إنتهت هذه المرحلة في عام 1816 (لقد جمعت نصوص التدريس لهذه المرحلة بعد وفاته بما يعرف بالجزء الثامن عشر من مجموعة مؤلفاته المعنون بـ : (مدخل إلى الفلسفة).

تزوج هيغل بماري فون توشر وهي في سن العشرين ورزقا بكارل (1813/1901)، وقد لمع كأستاذ للتاريخ وإما نويل (1814/1891) الذي أصبح بدل هيغل راعيا رسوليا.

كتب (علم المنطق 1812 تم أتمه بجزئه الثاني المنطق الذاتي عام 1816 وهو المؤلف الذي ساعده في خلافة (فرايزر) على كرسي الفلسفة في جامعة هايدلج تلك المحاضرات التي جمعها في موسوعة العلوم الفلسفية عام 1817 وهكذا استقر ببرلين في عام 1818 حتى وفاته عام 1831 بالكوليرا.

ثانيا - أهم أحداث عصر هيغل لدى الأنا الغربي: كانت ألمانيا - في عصر هيغل - مجزأة إلى ولايات صغيرة إقطاعية متصارعة تفتقر لمظاهر التمدين والتصنيع غير أنها من الناحية الثقافية السياسة والأدبية كانت تنضح بمختلف المذاهب والمدارس...

وكان عصره زاخرا بأهم الأحداث والأسماء التي كان لها وزنها وتأثيرها المباشر سواء على الساحة الثقافية والسياسية الألمانية أو الأوروبية ويكفي أن نشير إلى بعض منها لتمثل مدى الشراء الثقافي الفكري والروحي لعصر هيغل<sup>12</sup> :

السنة	نوع الحدث
1729:	- ميلاد الأديب "لسنج" وصديقه الفيلسوف موسى مندلسون اليهودي الألماني .
1732:	- ميلاد الموسيقار النمساوي (فرانزهايدن).
1744:	- ميلاد هرذر يوهان قوتفرايد أي فلسفة التاريخ الألمانية.
1749:	- ميلاد غوته الأديب الألماني الكبير صديق هيغل.
1756:	- ميلاد (موتزارت) الموسيقار النمساوي المشهور.
1762:	- ميلاد (فخته) الفيلسوف الألماني الكبير صاحب خطابات إلى الأمة الألمانية.
1769:	- ميلاد نابليون بونابرت الذي غزى أغلبية أوروبا بما فيها ألمانيا.
1770:	- ميلاد الموسيقار الألماني الكبير بتهوفن والشاعر هولدرلين والشاعر الإنجليزي وردزورت.
1772:	- ميلاد شليجل ونوفاليس والشاعر الإنجليزي كوليرج ولودفيخ تيك.
1773:	- ميلاد د. فرايزر (و كريستينا) شقيقة هيغل.
	- إصدار غوته أولى مسرحياته (جوتس).
1774:	- أول قصة لغوته (آلام فارت).
1776:	- إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

- وفاة الفيلسوف الإنجليزي دفيد هيوم.

- ميلاد المرابي والفيلسوف الألماني هربرت 13.

**فولتير:** في زمن معاصر لفيلسوفنا الكبير هيغل، عاش فولتير أب فلسفة التاريخ الفرنسي (توفي 1778) 14 بعد ميلاد هيغل بثمان سنوات وقد اشتهر بالفكر اللاديني على المسرح، وقد هاجم كل الأديان بما في ذلك المسيحية مستخدماً النبي صلى الله عليه وسلم، وأهدى هذه المسرحية إلى بابا الفاتيكان، وقد مثلت في شمال فرنسا عدة مرات ولما انتقلت إلى باريس احتج السفير العثماني لدى الحكومة الفرنسية، وبتلك الطريقة ثم إيقاف عرض المسرحية، علماً أن فولتير لم يكن يقصد نبي الإسلام محمداً ولكن استخدمه كأداة حرب ضد الكنيسة، وهذا ما يوافق المثل الشعبي "الكلام معك والمعنى على جاري" وقد فهم البابا هذه الرسالة، أو القصد الخفي لفولتير ولذلك اقتصر فرده عليه بالقول: أنه قد قرأ مسرحية محمد صلى الله عليه وسلم باهتمام وما يؤكد رأينا هو أن فولتير في مقالة أخرى عن الأخلاق يقدم لنا صورة مختلفة تماماً عن محمد صلى الله عليه وسلم وهي صورة ذلك العظيم الذي جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والواعظ والحاكم، الذي قام بأعظم الأدوار التي يعجز أي إنسان عن القيام بها على وجه الأرض.

وقد داع هذا الرأي الأخير وانتشر في الأوساط الثقافية في فرنسا في ذلك الوقت حتى أصبح محمداً صلى الله عليه وسلم موضوعاً للأحاديث في صالونات باريس ذلك العصر، وقد ردد الموسوعيون حينذاك ما قاله فولتير بصيغ مختلفة، فوصف ديدرو محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه مشرع ماهر ورسول للفضيلة، كما كتبت أغلب الأكاديميات لموضوعات مختلفة عن محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه وتأثيره<sup>15</sup>.

<sup>13</sup> المصدر السابق ص 20

<sup>14</sup> المصدر نفسه، ص 21

<sup>15</sup> - محمود حمدي زقروق: الإسلام في مرآة الفكر الغربي، دار الفكر العربي، ط4، 1994، ص 12.

نلاحظ: أن هذا الإشعاع الصادر عن فولتير حول رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم قد عاصر فترة تكوين هيغل وانكبابه على قراءة التراث اليوناني، الروماني، واليهودي المسيحي وحتى الإنتاج الأوربي المعاصر له خاصة وأنه قد أعجب كثيرا بالثورة الفرنسية التي يعد فولتير من أهم منظريها، وهو الذي أعاد الاعتبار للآخر من خلال عمله هذا.

**1778:** - وفاة الفيلسوف الفرنسي وروسو.

- ميلاد كريستيانا شارلوت يوحنا فيشر (أم لودفيج) ابن هيغل غير

الشرعي.

**1779:** - ليسينغ يصدر مسرحيته (ناتان الحكيم) Nathan der Weise.

يعد هذا الكتاب من أهم أعمال ليسينغ وهو عبارة عن مسرحية شعرية يصور فيها وجود الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام متجاورة ومتعايشة في القدس، علما أن الدور الأساسي يقوم به صلاح الدين، الذي اعتبره الكاتب من أهم شخصيات هذه المسرحية، والغرض منها هو: إظهار استيعاب ليسينغ للأديان السماوية الثلاثة باعتبارها نواة للدين الحقيقي وقد ترجمها إلى مسرحية بغية توضيحها للجماهير.

ويرمز ليسينغ إلى ارتفاع التناقضات القومية والعرقية بين الأديان الثلاثة مع بقاء كل دين في حدوده، أي عدم ذوبان أي دين في الآخر، وكل إنسان يعترف بالآخر ومع ذلك يحافظ على خصوصيته التي تلقاها منذ مولده وتنشئته وتربيته، لأن الأديان من المفروض أنها تلتقي في جوهرها المتمثل في المعنى الإنساني الذي يُمكنها من التعايش في ظل التسامح والعدالة والمساواة.

علما أن كل الأديان تمثل محطة دخول إلى دائرة الجنس البشري الذي يتميز بالسمو نحو

الكمال.

بهذه المسرحية يتبين لنا مدى حياد ليسينغ بالنسبة للإسلام، وبعد نظره تجاه الأديان السماوية بصفة عامة مع وعيه بما حصل للديانتين المسيحية واليهودية وما لحقها من تحريف كما نبّه في مؤلف آخر تحت عنوان " تربية الجنس البشري " إلى تنبيه مثقفي زمانه بأن الأخبار التي كانت رائجة حول الآخر - الذي يمثل رمزها الخلافة العثمانية آنذاك ومحمد صلى الله عليه وسلم - فقد أشار ليسينغ إلى الأغاليط المروجة خلال القرن السادس عشر حول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه بأنها أخبار مزيفة ومختلطة بالكاذب التي كان المجادلون المسيحيون يقومون بترويجها على أنها حقائق ويذكرنا ليسينغ إلى أن أول معرفة صحيحة عن محمد صلى الله عليه وسلم قد جاءت عن طريق مؤلفات كلا من: ريلاندو سيل ريلاند (توفي 1718م) مستشرق هولندي كان أستاذا للغات الشرقية في جامعة أوتريشت بهولندا، أما جورج سيل (1697-1703) فهو مستشرق إنجليزي له ترجمة شهيرة لمعان القرآن الكريم صدرت عام 1734<sup>16</sup>.

ملاحظة: ينبغي التنبيه بأن ليسينغ قد قام بهذه الأعمال الفكرية وبموضوعية الباحث في زمان كان هيغل يواصل دراساته بين المدرسة الثانوية ومعهد ثوبنغن الديني، علما أن ليسينغ قد اخطأ في بعض الأمور حين أخلط بين الإسلام كدين وبين بعض السلوكيات الصادرة عن الأتراك العثمانيين في ذلك الوقت عندما كانت الدولة العثمانية قوة تخيف أوروبا وتمثل الآخر الشرقي العربي الإسلامي، ولكنه سرعان ما يتراجع ويفرق بين الدين الإسلامي الذي يتمثل في النص القرآني منها النقاد الغربيين للإسلام بأنهم لم يطلعوا على القرآن وأن أغلب من قرؤوه كانت قراءتهم له بنية سيئة، وينبغي التذكير بأن هناك بعض ممن قرأ القرآن بنية حسنة مثل توماس هايد، المتوفى سنة 1703 بعد ميلاد هيغل بثلاث سنوات وهو مستشرق إنجليزي كان أستاذا للعربية والعبرية في جامعة إكسفورد.

محمل القول، أن ليسينغ قد أوضح اشتغال القرآن الكريم على مبادئ عامة في العقائد التوحيدية والفضائل الأخلاقية التي تعد من الأشياء الرائعة بحيث يود كل مسيحي حقيقي أن يراعيها<sup>17</sup>.

نلاحظ: أن نشاط هذا المفكر كان معاصرا لفترة تكوين هيغل الذي نظر بموضوعية للدين الإسلامي، كما كانت أحكامه على سلوكات وعادات الأتراك باعتبارهم يمثلون الآخر في ذلك الوقت، اعتبرها تصرفات شخصية منفصلة عن مبادئ الدين الحنيف، وهذه قمة الموضوعية كان الجدير بفيلسوف مثل هيغل أن يقتدي به في هذا المجال.

- غوته يصدر مسرحيته (إيفيجيني في توريد).

- جوك يؤلف أروع أوبراته (إيفيجيني في توريد).

**1780:** - ليسينغ يصدر كتابه (تنقيف العقل البشري).

**1781:** - وفاة ليسينغ.

- كانط يصدر كتابه (نقد العقل الخالص).

- شيلر يصدر مسرحيته (قطاع الطرق).

- فوس يترجم الأوديسيا.

**1783:** - كانط يصدر كتابه (مقدمات لكل ميتافيزيقا).

- هندلسون يصدر (أورشليم).

**1785:** - كانط يصدر (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق).

- وفاة فريديريك الأكبر.

- موتسارت يؤلف أوبرا (زواج فيجاو).

- ياكوبي يهاجم (مندلسون).

**1787:** - كانط يصدر الطبعة الثانية لمؤلفه (نقد العقل الخالص).

- غوته يعيد كتابة مسرحيته (إيفيجيني في توريد).

- ميلاد الشاعر الألماني لودفيج أولاند.

- وفاة مؤلف الأوبرا الألماني جلوك.

**1788:** - ميلاد شوينهاور 18.

- ميلاد الشاعر إيشدروف.

- ميلاد الشاعر الإنجليزي بيرون.

- هيغل يتخرج من المدرسة الثانوية ويلتحق بمعهد توبنجن الديني.

- كانط يصدر (نقد العقل العملي).

- موتسارت يؤلف (سيفونيه جوبتر).

**1789:** - كان هيغل لم يحتفل بعد بعيد ميلاده 19 انضم إلى النادي السياسي

حتى يشارك في مناقشة الطلاب حول (الميلاد الأخلاقي الجديد لأوروبا).

- اندلاع الثورة الفرنسية التي كانت حدثا بارزا في أوروبا حيث

أدت إلى تغييرات عميقة.

- ياكوبي يصدر الطبعة الثانية من كتاب مذهب (سبينوزا).

- شلير يصدر كتابه التاريخ العام 19.

**1790:** - كانط يصدر كتابه (نقد ملكه الحكم).

- هيغل يحصل على شهادة في الفلسفة من معهد توبنجن.

- ميلاد ماري فون توشر زوجه هيغل.

- غوته يصدر قصة (فاوست).

**1791:** - موتسارت يؤلف (الناي السحري) و(صلاة الجنازة). يموت

- في ربيع 1791 انضم هيغل إلى مجموعة من الشباب قاموا بغرس (شجرة

الحرية) وهم ينشدون قصيدة شيلر.

**1792:** - الفرنسيون يتأهبون لغزو ألمانيا.

- فخته يصدر كتابة (نقد لكل وحي).

- ميلاد الشاعر الإنجليزي (شللي) ومؤلف الأوبرا الإيطالي روسيني

**1793:** - إعدام لويس السادس عشر.

- أصبح هيغل معلما خصوصيا مقيما في منزل كارل فردريك شنيجر

فوشوخ، لم يكن هيغل يرتاح لهذه الأسرة فكان ينصرف إلى المكتبة.

- كانط يكتب مقالة (الديانة الشعبية) نشرها أول عام 1907

ضمن مؤلفات الشباب اللاهوتية حيث قام بتأدية الامتحان الأخير في

اللاهوت في معهد توبنجن ثم يذهب إلى مدينة بيرن في سويسرا ليعمل مدرسا

خصوصيا.

- كانط يصدر كتابه (الدين في حدود العقل الخالص).



- موجة عارمة في فرنسا تطالب بإلغاء الديانة المسيحية وتمجيد العقل.

- ترقية نابليون من رتبة كابتن إلى جنرال.

- مقال شلنج الأولى (68 صفحة عن الأساطير) 20.

**1794:** - إعدام روبسير.

- فخته يصدر كتابه (مذهب العلم).

**1795:** - شلنج يصدر (حول الأنا).

- هيغل يختار في اول يناير عضوا شريفيا في الجمعية الفيزيائية لهايدل بيرغ وفي الوقت ذاته يكتب تصديرا لظاهرة الروح ويرسله إلى الناشر في 10 يناير ثم ينحب لوتفيغ وهو ابن غير شرعي، وفي 05 فبراير يغادر بينا إلى بامبرغ ليشارك في تحرير صحيفتها، ويصدر في أبريل أول كتبه ظاهريات الروح، وتعين شقيقته كمربية للأطفال، ثم يغادر بامبرغ إلى الخارج ليدير المدرسة الثانوية في نورمبرغ، ويقوم بتدريس الفلسفة وغيرها 21.

- شيلر يصدر (التربية الحماية للإنسان).

غوته: 1749-1832: الذي ولد قبل هيغل وتوفي بعد وفاته، وهو الأديب والمفكر الذي اعتزت به ألمانيا وأطلقت اسمه على أغلب المؤسسات التي تهتم بالدراسات اللغوية، وقد كان غوته شاعرا وأديبا وفيلسوبا تعانق في روحه الأنا بالآخر، أي امتزج فيه التراث الشرقي مع الفكر الغربي بدون أية خلفية، وقد تعلم عدة لغات منها: العبرية بسبب اهتمامه بالكتاب المقدس وخاصة العهد القديم، ويقول أن اهتمامه بالشرق يرجع فيه الفضل إلى أستاذه هرذر أبو فلسفة التاريخ الألمانية الذي كان أستاذا عصره في أدب العبرانيين، وقد قرأ غوته القرآن الكريم في ترجمة ألمانية

<sup>20</sup> - المصدر السابق، ص 26.

21 المصدر نفسه، ص 26

للمستشرق (ميجرلين) ثم في ترجمة لاتينية للآب اليسوعي مراتشي، وقد أعجب بالقران الكريم حتى اقتبس الكثير من آياته من صورة البقرة " والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله "22، " مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون "23، " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل... "24.

وقد أورد الكثير من الآيات في كتابه الشرق الإسلامي مؤكدا على أن القارئ الأجنبي قد يمل بعد القراءة الأولى لكنه سرعان ما ينجذب ويعود إليه وفي النهاية يشعر بروعته ويضطره إلى تعظيمه وإجلاله ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين "25 إلى قوله تعالى: " وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم "26.

وعلى النقيض مما شاع في زمانه من أن القرآن مكرر ومقتبس من كتب اليهود والنصارى فإن غوته قد رفض هذا الطرح جملة وتفصيلا مؤكدا أن محمدا قد جاء بإعلان الدعوة وتبليغ الشريعة وجمع الأمم حولها، كما أن أهمية القصص القرآني تكمن في العظة والاعتبار.

وبهذه الكيفية يمكننا أن نسجل الموضوعية التي تناول بها غوته الألماني الذي عاصر هيغل، وصادقه فترة طويلة من الزمن، وهي نظرة مستقلة تماما عن التعصب الأوربي ونظرتة الحاقدة لكل ماله صلة بالشرق وبالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم27.

وفي هذا المعنى يقول غوته: " من حماقة الإنسان في دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه، وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فإننا جميعا نحيا ونموت مسلمين "28.

22 - سورة البقرة، الآية 115.

23 - سورة البقرة، الآية 171.

24 - سورة آل عمران، الآية 144.

25 - سورة البقرة، الآية 2.

26 - سورة البقرة، الآية 7.

27 - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 51.

كما كان لغوته إعجاب بالشعر العربي القديم، فقد قرأ المعلقات في ترجمة إنجليزية فاعجب بها إعجاباً عظيماً، كما أعجب بشعر حافظ الشرازي (وهو شاعر فارسي، وبصفة خاصة بديوانه الشهير: الشرقي الغربي) تعبيراً عن التقاء الشرق بالغرب، وفي هذا الديوان يقول متأثراً بالقرآن الكريم: " لله المشرق والله المغرب وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعاً"<sup>29</sup>.

وقد كتب على دفة الكتاب اليسرى تحية شعرية بالألمانية وأعدّها لها ترجمة بالعربية من طرف المستشرق الألماني المشهور دي ساسي، وهذا نصها: " يا أيها الكتاب سر إلى سيدنا الأعظم فسلم عليه بهذه الورقة التي هي أول الكتاب وآخره"<sup>30</sup>. يعني أوله في الشرق وآخره في الغرب.

مما تقدم نتبين أن الكثير من معاصري هيغل قد اتصلوا بالفكر الإسلامي حيث كانت ترجمات القرآن والآداب والفلسفة تتم من العربية والفارسية والتركية إلى العبرية واللاتينية، وحتى إلى الألمانية، بالإضافة إلى اللغات الأوروبية الأخرى مثل الإنجليزية والفرنسية، وقد اطلعنا على الكثير منها وهي كتابات معجبة بالعقيدة الإسلامية وبالشعر العربي ناهيك عن تأثرها بالروائع الأدبية كألف ليلة وليلة، واقتباس الكثير من الأعمال الغربية من هذه الروائع العربية مع الاعتراف بفضل الآخر الشرقي في تطور الأنا الغربي، بخلاف فيلسوفنا الكبير الذي أجحف في حق الآخر ووضع في أدنى المراتب.

- ميلاد الشاعر الإنجليزي بجيتس .

**1796:** - الفرنسيون يغيرون على جنوب ألمانيا.

- هيغل يقوم بترهة في جبال الألب السويسرية ويغادر بعدها بيرن

- حملة نابليون الشهيرة على إيطاليا.

<sup>28</sup>- زكريا هاشم ، فضل الحضارة العربية الإسلامية على العالم، دار الفكر بيروت ص 394.

<sup>29</sup>- محمود حمدي زقزوق: الإسلام في مرآة الفكر الغربي، ص 141.

<sup>30</sup>- هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 23.

- غوته يصدر (تلميذة فلهلم مايستر) الكتاب السابع والثامن.
- وفاة الشاعر الاستكلكندي روبرت بيرنز.
- 1797:** - كانط يصدر (ميثافيزيقا الأخلاق) جزآن.
- شلنج يصدر أفكار الفلسفة الطبيعية.
- هولدرلين قصته الغنائية (هيريون) الجزء الأول.
- هيغل يذهب إلى فرانكفورت ليعمل مدرسا خصوصيا.
- 1798:** - الفرنسيون يستولون على روما ويسجنون البابا في فرنسا.
- فيخته يصدر (فلسفة الأخلاق) ويتهم بالإلحاد.
- حملة نابليون على مصر.
- نابليون أول قنصل<sup>31</sup>.
- كانط يصدر (علم الأنتروبولوجيا).
- شيلنج يصدر (في روح العالم) (كان صديقا هيغل وهولدرلين (1775-1854).
- 1799:** - فيخته يصدر (نداء إلى الجمهور) ويغادر بينا إلى برلين.
- هيغل يكتب مقالة (روح الديانة المسيحية ومصيرها) نشرها عام 1907.
- وفاة والد هيغل في 14 يناير.
- شلنج يصدر التخطيطات الأولى لفلسفة الطبيعة.
- شلير ماخر يصدر في الدين.

- هولدرلين يصدر الجزء الثاني من قصته الغنائية (هيربون).

- ميلاد (هاينيو (بلزاك).

**1800:** - الفرنسيون يغزون إقليم بافاريا.

- كانط يصدر المنطق.

- فيخته يصدر (مصير الإنسان).

- شيلنج يصدر (مذهب الميثالية الترنسندنالية).

- شيلر يصدر المسرحية الثلاثية (فالنشتين).

**1801:** - فخته (يصدر تقرير واضح وضوح النهار إلى الجمهور).

- شيلر ماخر (مناجاة).

- هيغل يذهب إلى فينا ويكتب الفرق بين مذهبي فيخته وشيلنج يكتب رسالة

باللاتينية عنوانها: مدار الكواكب 27 أغسطس عيد ميلاده<sup>32</sup>.

في سبتمبر 1801م عيّن هيغل في وظيفة غير رسمية، كانت تدعى وقتذاك "المدرس

الخاص " Privatdozent، حيث جرت العادة أن يخضع الأستاذ لفترة تجريبية، حيث يعيّن دون أن

يتلقى مقابلا لجهده من الجامعة التي كلفته ولكن يتولى الطلبة جمع مرتب زهيد يدفعونه للأستاذ،

ولما كان عدد طلابه - في شتاء 1801م لا يتعدى أحد عشر طالبا بينهم أحد اخوة الفيلسوف

شيلنج - وكان هيغل في هذه الفترة يقوم بتدريس مقياسا: (المنطق والميتافيزيقا)، وبفضل سمعة

هيغل وتفانيه في العمل تزايد عدد الدارسين حتى بلغ في شتاء 1804 ثلاثون طالبا، ومنذ ذلك

التاريخ وعدد طلابه يتراوح بين العشرين والثلاثين، وفي أول جويلية من عام 1806م وظف

هيغل رسمياً في جامعة بينا، حيث تقاضى أول راتب له، وهو راتب زهيد لا يكاد يتعدى مائة كثيرة<sup>33</sup>.

هيغل يصدر الجزء الثاني من كتابه المنطق الذاتي سنة 1816 مما شجعه في التقدم إلى أستاذية الجامعة في (هايدلبرغ) بعد وفاة فريز، ولكنه يضيق ذرعا بهذه المدينة ويطمح في التقدم نحو برلين (العاصمة البروسية) خاصة وقد خلا كرسي الفلسفة بوفاة فيخته، وذلك سنة 1817م حيث عرض عليه وزير التعليم هذا المنصب فقبله، وكان الكثير من الوزراء قد تحمسوا لأن يشغل هيغل هذا المنصب، حتى أن إحدى قريبات الوزير كلفت نفسها بالبحث له عن منزل من أجل الاستقرار، وبهذا التعيين احتل هيغل المرتبة الأولى في بروسيا في الفلسفة والسياسة، وهكذا بدأ يلقي محاضراته في فلسفة القانون، وقد صدر له - في هذه الفترة - أصول فلسفة الحق سنة 1821م، وبهذه الكيفية انتشرت الهيغلية حتى أوشتكت أن تصبح العقيدة الرسمية للدولة البروسية.

وقد توافد عليه الطلبة من جميع أنحاء البلاد، والدليل على أنه قد أصبح في تلك الفترة أحد أساتذة النظام أن أحد أساتذة علم النفس التجريبي قد فصل من جامعة برلين لأنه هاجم الهيغلية وخاصة (المثالية في مذهب هيغل) وهذه الفترة كانت ميسورة ماديا لهيغل غير أنها قد جلبت له الكثير من الأعداء والحساد، حيث أن أحد تلامذته المتحمسين قد اندفعوا بحماسة إلى إسقاط كل ما ليس هيغليا في محيط الجامعة أو الدولة، ولذلك وقعت العداوة بين هيغل وبين فلاسفة عصره، كما استغل هيغل هذه الفترة التي راج فيها فكره، وكان الساسة إلى جانبه، فقام برحلات إلى النمسا وسويسرا، وهولندا، وبلجيكا، والسويد، وإنجلترا، كما زار باريس وأعجب بمسرحها مثلما أعجب بالأوبرات في فيينا، ولما عاد إلى ألمانيا عين رئيسا لجامعة برلين 1829 إلى 1831م، حيث بلغت شهرته أغلب أنحاء ألمانيا<sup>34</sup>.

<sup>33</sup> - هيغل: ظاهريات الروح، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2003 ص 70.

<sup>34</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص ص 17-18.

- شيلير يكتب مسرحيته (ماري إستيورات).

- ا. ف شليجل يترجم (هاملت) لشكسبير.

**1802:** - وفاة نوفاليس.

- نابليون يصبح قنصلا مدى الحياة.

- شيلير يصدر مسرحيته (فتاة أوليانز).

- كتابات نوفاليس تصدر في مجلدين.

- شلنج يكتب (برونو).

- هيغل يشترك مع شلنج في إصدار جريدة (النقد الفلسفي) ويكتب في المجلد

الأول: (في طبيعة النقد الفلسفي)، (الحس المشترك وتناوله للفلسفة)، (العلاقة بين المذهب

الشكي والفلسفة) وفي المجلد الثاني: (الإيمان والمعرفة)، (في الطرق العلمية لدراسة

الحق الطبيعي ومكانته في الفلسفة العلمية وصلته بعلوم القانون الوضعية).

**1803:** - شلنج يصدر (محاضرات في منهج الدراسات الأكاديمية) وأفكار لفلسفة

الطبيعة (طبعة منقحة) ويغادر بينا إلى بلغاريا ويؤسس الجريدة الجديدة لعلم الطبيعة

النظري<sup>35</sup>.

— وفاة هردر.

**1804:** - نابليون يجتاح أوروبا.

- اختيار هيغل عضوا بجمعية.

- وفاة كانط.

- كروج يخلف كانط في كرسي<sup>36</sup>.

- الفلسفة بجامعة كوبنيسج.

- فرايزر يصدر (مذهب في الفلسفة).

- شلنج (فلسفة الدين).

- شيلر يصدر مسرحيته (فهلم تل).

- بتهوفن يؤلف (أوبرا فيدللو).

**1805:** - نابليون يصبح ملكا.

- هيغل يصل إلى درجة أستاذ لقاء مكافأة زهيدة ويبدأ في الخريف في إلقاء

محاضرات في تاريخ الفلسفة لأول مرة ويبدأ في الشتاء في كتابة مذهبه.

- فرايزر يصدر (في المعرفة، والإيمان، والتراث).

- غوته يصدر (إبن أخ رامو).

- ميلاد روزنكرانتش (أول راو لحياة هيغل).

- بتهوفن يؤلف (إرويك).

- وفاة شيلر.

- فرايزر يصبح أستاذا بجامعة هيدلبرج.

**1806:** - انتصار نابليون في معركة بينا.



- هيغل يتم تأليف ظاهريات الروح في أكتوبر ليلة قبل معركة

بينما انتهت الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي أسسها شارلمان عام

800 بعد الميلاد<sup>37</sup>.

يعد كتاب " ظاهريات الروح " باكورة الإنتاج الفكري لهيغل، وليكن التذكير بالأزمة المالية التي طالما عانى منها هيغل والتي دفعته سنة 1806 إلى التعاقد مع ناشر يسمى (يوسف أنطوان قهوبهارت Josef Anton Gobherdt)<sup>38</sup>. وقد قضى هذا الاتفاق على أن يرسل هيغل النسخة الأصلية للناشر على دفعات حتى يتمكن هذا الأخير من الشروع في العمل موازاة مع إتمام هيغل لبقية الكتاب، علما أن الاتفاق قد نص على أن يقوم الناشر بدفع مبلغ من المال عندما يتسلم نصف الكتاب، لكن الناشر - السيئ السلوك - بعدما تسلم النصف رفض دفع المبلغ المتفق عليه متحججا بأنه لا إثبات بأن ذلك الذي كان قد استلمه هو النصف من الكتاب المتفق عليه، وقد كان هيغل معتمدا على صديق له يدعى نيتام الذي يقطن في مدينة بمبرغ Bambrg حيث كانت توجد مكتبة ومطبعة الناشر المذكور، ولذلك لجأ هيغل إلى هذا الصديق (نيتام) لكي يتوسط له مع هذا الناشر الذي كان قد اقترح ميلغاز هيدا، إذ لم يتعد 18 فلورين Florin عن الصفحة الواحدة من كتاب الظاهريات الرفيع القيمة، والذي يقول عنه الأستاذ إمام عبد الفتاح إمام أنه فكرة كانطية بدليل أن هناك رسائل كان قد تم تبادلها بين كانط والفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني (يوحنا هنرش لمبرت Johan Heirich Lambert) (1777-1728) والذي يعد أول من استخدم مصطلح الظاهريات وذلك في كتابه الأوغنون الجديد حلل فيه العديد من المسائل منها، المنطق الصوري وعلم الاحتمالات ومبادئ العلوم والذي صدر سنة 1764، كما التقط المصطلح هرردر واستخدمه في فقرتين على صلة بالموضوع، كما تمنى أن تكون لديهم (الألمان) ظاهريات حقيقية عن الجميل والحق!

<sup>37</sup> - المصدر السابق، ص 25.

<sup>38</sup> - هيغل: ظاهريات الروح، ص 65.

وفي 02 سبتمبر من سنة 1770 (وهو الأسبوع الذي ولد فيه هيغل) كتب كانط إلى لمبرت يقول: " يبدو أنه من الضروري أن يكون هناك علم " للظاهريات العامة " يسبق الميتافيزيقا ويحدد مشروعية وحدود مبادئ الحساسية خشية أن تختلط أحكامنا حول موضوعات العقل الخالص "، كما كتب كانط إلى ماركوس هرتر Marcus Hertz أنه فكر في كتاب يحمل عنوان: " حدود الحساسية والعقل " على أن يتضمن جزئين، جزء نظري والآخر عملي<sup>39</sup>.

ومن المؤكد أن هيغل قد اطلع على ما نشر قبل ميلاده أو بعد ولادته عن هذا الموضوع إلا أن الشيء الذي عقد الموضوع أكثر وجعله متقطع أحيانا، فبعض أجزائه بما إسهاب في الشرح، بينما جاء البعض الآخر مقتضبا، كل ذلك يعود إلى ظروف خاصة.

وأول هذه الظروف علاقته بالناشر السيئ السمعة والذي استغل حاجته الماسة إلى المال، وثانيا مولد ابنه غير الشرعي وهو عامل شخصي للغاية لكنه زاد هموم هيغل في هذه الفترة الصعبة التي كانت تمر بها بروسيا قاطبة، ففي يوم 5 فبراير 1807 وضعت كريستيان شارلوت يوحنا بركهات طفلا غير شرعي لهيغل اسمه لودفيغ علما أن الكثيرين ممن كتبوا عن هيغل لم يتعرضوا لهذه الحادثة حيث اعتبروها أمرا لا يليق غير أن ذكر هذه الواقعة مسألة هامة لأنها تتيح لنا الإطلاع على حالة هيغل النفسية والعقلية أثناء تحريره للظاهريات لأن الكتاب لم يحرر وهيغل في حالة مزاجية عادية بل كان يعاني من اضطرابات، والدليل على ذلك أنه ظل لسنوات يعلن أنه سوف يصدر كتابا فلسفيا في الأشهر القريبة لكنه لم يتمكن من ذلك رغم أن زملائه بدؤوا يصدرون الكتاب تلو الآخر فقد نشر " شلنج " عدة كتب ثم هناك " فرايزر " وهناك أيضا " كروج " .

إذن فإن مولد لودفيغ في هذه الظروف قد أضاف عبئا على الحالة المزاجية لهيغل صحيح أن الميلاد جاء بعد الانتهاء من الظاهريات لكن الفترة السابقة للوضع هي الأكثر حرجا لهيغل مما أثر على ترتيب عناصر الكتاب، كما أسلفت ذكره على الرغم من أنه أوضح في رسالة إلى صديقه

شلتج: (أنه أتم المخطوطة في الليلة السابقة لمعركة بينا) حيث قال: "أرجو أن تنظر بعين الاعتبار والتسامح لنقص الصورة الفضيع في الأجزاء الأخيرة من الكتاب، وأن تتذكر أنني بالفعل أتممت المسودة بتمامها في منتصف الليلة السابقة لمعركة بينا "40.

### ثالثا: معركة بينا:

قبل معركة بينا التي دارت رحاها يوم 14 أكتوبر 1806 بين جنود نابليون وقسم من جيش بروسيا وانتهت بانتصار الفرنسيين انتصارا حاسما حيث تمكن بعض الجنود من دخول مدينة بينا وعاثوا فيها سلبا ونهباً حيث بقي هيغل في منزله إلى أن دخل عليه الجنود الفرنسيون عندئذ قدم لهم ما كان عنده في بيته من طعام وشراب فاكتفوا بذلك وغادروا المنزل، ولكن لما ازداد التهديد والضغط على المدينة عندئذ اضطر هيغل إلى وضع ما تبقى من مخطوطة ظاهريات الروح في جيبه تاركا أوراقه وكتبه وبيته للمصير المجهول علما أنه لجأ إلى أحد الطلبة وأقام عنده وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى منزله فوجد كل ما في البيت مقلوبا رأسا على عقب وأن الكثير من الوثائق قد ضاعت وعندئذ حمد الله على أنه احتفظ بما تبقى من المسودة الخاصة بظاهريات الروح.

علما أنه بمجرد سماعه بقدوم نابليون وهو يعيش تناقضا يصل إلى حد الهستيريا بين خوفه على ضياع البريد الذي سيحمل باقي الظاهريات إلى الناشر في مدينة بامبرغ وإعجابه بنابليون حيث عبّر عن ذلك في رسالة إلى صديقه نيتام: "لقد رأيت الإمبراطور - روح العالم هذا - ممتطيا صهوة جواده يجوب شوارع المدينة ليتعرف عليها! إنه لإحساس رائع للغاية أن يرى المرء مثل هذا الشخص، وقد تركز هنا في نقطة واحدة ممتطيا جواده، هذا الشخص تمتد يده لتطول العالم وتسيطر عليه... "41.

40- المصدر السابق، ص 79.

41- المصدر السابق، ص 74-75.

مما سبق ومن تواريخ الرسائل المتداولة نستنتج أن هيغل انتهى من الظاهريات قبل معركة بينا بدليل أن قائد الجيش البروسي نفسه لم يكن يتوقع أن يهاجمه نابليون يوم 14 من شهر أكتوبر وأن هيغل ذكر أنه حمل المسودة وترك بيته قبل ليلة المعركة ومع ذلك كله فمما لاشك فيه أن هيغل قد انزعج من الحرب على الأقل خوفا من ضياع النسخة الخطية لكتاب الظاهريات ومجمل القول أن بعض التناقضات التي تظهر في الكتاب لا تقلل من ضخامة هذا العمل التاريخي العظيم<sup>42</sup>.

- نابليون يدخل برلين.

- فخته يصدر ( الملامح السياسية للعصر الحاضر السبيل إلى الحياة السعيدة ).

- شيلر ماخر يصدر الطبعة الثانية من كتابه (في الدين).

- بتهوفن: (كونشرتو الكمان).

**1807:** - فرايزر يصدر (نقد جديد للعقل في ثلاث مجلدات).

- اختيار هيغل في أول يناير عضوا شرفيا بالجمعية الفريزيائية في هايدلبرج

ويكتب تصديرا لظاهريات الروح ويرسله إلى الناشر في 10 يناير ينجب لودفيج وهو ابن غير شرعي.

- في 05 فبراير يغادر بينا إلى بامبرج ليشارك في تحرير صحيفتها ويصدر في

أبريل أول كتبه: ( ظاهريات الروح ).

- شقيقته تصبح مربية أطفال وبغادر مامبرج إلى الخارج ليدبر المدرسة الثانوية في

نورمبرج والقيام بتدريس الفلسفة وغيرها من المواد.

- مذهب فخته الجديد.

- شلنج ينشر بعض محاضراته.
- بتهوفن يؤلف السمفونية الخامسة.
- 1808:** - فخته يصدر ( نداءات إلى الأمة الألمانية).
- ف. شليجل يكتب (لغة الهند وحكمتها).
- غوته يصدر (فاوست ج1).
- بتهوفن يؤلف السمفونية السادسة.
- ميلاد د.ف شتراوش.
- 1809:** - شلنج يصدر المؤلفات الفلسفية المجلد الأول: (جميع ما سبق ذكره) ولا يصدر شيئاً بعد ذلك من 1807 حتى 1812.
- غوته يصدر (الأنساب المختارة) 43.
- وفاة هولدرلين.
- 1811:** - فريز (يحمل المنطق) و(نسق المنطق).
- هيغل يخطب في أبريل ماريا فون توشر ويتزوجها في 6 سبتمبر.
- 1812:** - حملة نابليون على روسيا.
- جورج لودفيج ( شقيق هيغل يقتل في المعركة).
- بتهوفن يؤلف ( السمفونية السابعة والثامنة).
- هيغل يصدر المنطق، المجلد الأول وينجب طفلة اسمها سوزانا
- تموت في نفس العام.

**1813:** - هزيمة نابليون في ليسترغ<sup>44</sup>.

- شوبنهاور (في مبدأ العقل).
- ميلاد كبير كجورد.
- ميلاد فاجتر.
- ميلاد فردي والد نيتشه.
- ميلاد بوختر وهيبيل.
- هيغل يصدر في المنطق المجلد الأول القسم الثاني ويرزق بابنه كارل الذي أصبح فيما بعد أستاذا للتاريخ.

**1814:** - نابليون يُنفي إلى جزيرة ألبا.

- هيغل يرزق بأصغر أبنائه إمانويل الذي أصبح فيما بعد راعيا رسوليا.
- 1815:** - عودة نابليون وهزيمته في معركة واترلو وينفي إلى سانت هيلانه.

- شلنج يصدر ( في الأمور الإلهية).

- شقيقة هيغل تعاني من المرض.

**1816:** - شوبنهاور يصدر (في الرؤية والألوية).

- روسيني يؤلف (حلاق إشبيلته).

- فرايزر يغادر هايدليرج إلى بينا.

- هيغل يصدر المجلد الثاني في المنطق، ويعين أستاذاً بجامعة هايدلبرج

خلفاً لفريز ويصدر الموسوعة التي هي تصور عن مذهبه كله.

- لودفيج الإبن غير الشرعي ينضم إلى الأسرة.

- هيغل يعين أستاذاً للفلسفة بجامعة برلين.

- لودفيج يلتحق بالمدرسة الثانوية.

**1818:** - ميلاد كارل ماركس.

**1819:** - شوبنهاور يصدر (العالم بوصفه إرادة وتمثلاً).

**1820:** - شقيقة هيغل تمكث فترة في المستشفى وهيغل يصدر آخر كتبه قبل

وفاته (أصول فلسفة الحق) في برلين.

**1821:** - وفاة نابليون والشاعر كيتس وديستوفسكي، بودلير، فلوير يوهان

فولجانج فون غوته (1749-1832) فلهلم يصدر : مايستر سنوات التحوال<sup>45</sup>.

- كان له أبرز الأثر على هيغل لأنه مثال الإنسان الذي يجدد بناء نفسه

باستمرار زاره عدة مرات وكتب له رسالة من برلين 1825 من بين ما جاء فيها

" لقد تلقت طبيعتي الداخلية غذاءها وقوتها منك لتقاوم التجريد لينطلق مجراها من

46

صورتك وكأنها منارة توجهها .

**1822:** - وفاة الشاعر الإنجليزي شيللي.

- بتهوفن يؤلف (سوناتا بيانو).

**1823:** - بتهوفن يؤلف السمفونية التاسعة.

<sup>45</sup> - المصدر السابق، ص 27-28.

<sup>46</sup> - المصدر نفسه، ص 28-29 .

**1824:** - وفاة الشاعر الإنجليزي اللورد بيرون.

**1825:** - بتهوفن يكتب مقطوعات موسيقية قصيرة هي الرباعيات تعزفها أبع

آلات.

- لود فيرغ يترك وظيفته في مخزن الكتب ويلتحق بجيش المستعمرات

الألماني ويذهب إلى بافاريا.

**1827:** - فرنساتبدأ في حصارها لشواطئ الجزائر.

- هيغل يصدر الطبعة الثانية من موسوعة العلوم الفلسفية (حوالي ضعف

الطبعة الأولى).

**1829:** - وفاة ف. شليجل.

**1830:** - ثورة يوليو في باريس.

- يصدر الطبعة الثالثة من الموسوعة ويعين مديرا لجامعة برلين.

**1831:** - وفاة لودفيغ في 28 أغسطس، وهيغل بالكوليرا في 14 نوفمبر.

**1832:** - وفاة غوته.

- انتحار شقيقة هيغل في 2 فبراير.

- يبدأ تلاميذ هيغل وأتباعه وأصدقائه في نشر مؤلفاته في 18 مجلدا حتى

1840.<sup>47</sup>

ثالثا: أهم الأحداث لدى الآخر الذي لم يحظ باهتمام هيغل:



أول حدث بارز وقع لدى الآخر هو شروع الأنا الغربي ممثلاً في نابليون بونابرت سنة 1798 بغزو مصر بهدف نشر القيم الحضارية الغربية مع إدعائه بالمحافظة على خصوصية السكان المحليين من دين وعادات وتقاليد كما جاء في رسالته إلى الشعب المصري 48

أ- 1791/1703: محمد بن عبد الوهاب، مصلح ديني ركز في دعوته وإصلاحاته على "التوحيد" حيث أعطاه الأولوية على الجانب السياسي، وقد انصبت جل محاولاته على تطهير العقيدة من الخرافات والخرافات التي كانت تسودها وترمي باللائمة عليها كأحد العوائق في وجه التطور الذي كانت تعيشه أجزاء واسعة من العالم الإسلامي لكن نجد أن هذا النوع من الإصلاح كان اهتمامه منصباً على التراث الإسلامي ومن تم كانت نتائجه محدودة، كما أن موسم الحج هو المجال الذي كان يستغله لتبليغ رسالته إلى كافة الأقطار الإسلامية حيث يذكر التاريخ أن أحمد خان بعث إلى شبه القارة الهندية، والسنوسي إلى الجزائر وشمال إفريقيا وإفريقيا السوداء والشوكاني إلى اليمن ومحمد عبده ورشيد رضا إلى مصر والشام.

- إن الإصلاح الديني كان يهدف خاصة إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية والاضطرابات

49  
السياسية .

ب- 1859/1787: - محمد بن علي السنوسي، درس العلوم الشرعية والطرائق الصوفية، والفلسفية والمنطق وعلوم الفلك قضى حياته في التنقل والترحال عبر البلاد العربية و الإسلامية وإفريقيا الوثنية، جمع في دعوته بين منهجين:

48- وفي السياق نفسه قام قائد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 وتحت إمضاء ديبيرمون وزير الدفاع الفرنسي آنذاك منشور وزع على السكان، وموداه أن الجيوش الفرنسية جاءت إلى الجزائر بهدف تخليصها من الطاغية حسين داي الذي حكم الشعب الجزائري بالزور والبهتان كما يقول المنشور، علماً أن السلطات الفرنسية سوف تحمي حقوق السكان السياسية والدينية والثقافية وحتى حقوق الملكية وحقوق المرأة فهي مصانة وبمجرد ما تخلصهم من هذا الطاغية فإنها عندئذ تسلم الحكم للجزائريين أصبح أصحاب الحق الشرعيين. للاستزادة يمكن الرجوع إلى عبد الله بوقرن "الهوية في الفكر الجزائري الحديث" رسالة ماجستير مخطوطة.

- الإصلاحى حسب دعوة محمد بن عبد الوهاب.

- والصوفى الإشرافى البرهانى الذى ساعده على نشر الإسلام بين كثير من القبائل الوثنية

50

فى إفريقيا. كما أنشأ نظاماً هرمياً للزاوية ساعد على ترسيخ الإسلام فى هذه الأقطار .

ج-1805 - كانت قد ترجمت معلومات عن المقدمة لابن خلدون إلى اللغة الألمانية

وعمر هيغل آنذاك لا يتجاوز الخامسة والثلاثين سنة، كما ترجم كتاب وصف إفريقيا للحسن

الوزان الذى أورد فيه أخبار عن ابن خلدون وعن مؤلفه العبر فى التاريخ، وذلك باللغة الإيطالية

1526 وقد ترجم المؤلف إلى اللاتينية سنة 1556 أي قبل ميلاد هيغل بحوالي قرنين.

- وكما سبق وأن قلنا أن هيغل قد أتقن اللاتينية منذ صغر سنه، لذلك نرجح أن يكون

هيغل قد اطلع على مؤلف ابن خلدون (المقدمة) ولو باللغة اللاتينية. كما يذهب إلى ذلك (علي

51

سعد الله) فى مخطوطه .

د-1834/1773: ولد حمدان بن عثمان آل خوجة، بالجزائر وتعلم القرآن الكريم

واللغة العربية، القانون والطب والفلسفة، سافر إلى الأستانة (عاصمة الخلافة) حيث تعلم التركية

وطاف بمختلف دول جزيرة البلقان، كما تعلم الإنجليزية والفرنسية ومارس التجارة الخارجية

بنجاح بإشرافه على تجارته الداخلية والخارجية والفلاحة، سافر إلى باريس عدة مرات حيث لم

يقتصر على مخالطة الأوساط التجارية، بل خالط السياسيين وتردد على النوادي الفكرية والثقافية،

حتى قيل عنه أنه : ( بن جيمين كونتان Benjamin Kontan ) كاتب وسياسى فرنسى ولد عام

1767 وتوفى عام 1830.

50- عبد الكريم بوالصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر فى القرنين التاسع عشر والعشرون، منشورات مخبر الدراسات

الفلسفية والتاريخية، 2004، ص 175.

51- علي سعدالله: نظرية الدولة فى فكر ابن خلدون وهيغل، رسالة دكتوراه، مخطوط، ص 599.

ومهما يكن فقد أكسبته ثقافته الواسعة وتعدد لغاته وكثرة رحلاته أفقا واسعا وثقافة عميقة، أهله لأن يتعايش مع أهم التيارات الفكرية والسياسية التي انتشرت في أوروبا، خاصة بعد قيام الثورة الفرنسية واتساع هوة الخلافات الأوروبية الداخلية مع بروز شعارات القومية بين الأقليات المضطهدة وأفكار حركة التنوير ومبادئ حقوق الإنسان، ومما يدل على استيعابه لهذه الثقافة الجديدة مقارنته بين ما وصلت إليه أوروبا في هذا المجال وبين ما هو موجود في شريعتنا، مع فارق بسيط في التطبيق<sup>52</sup> وقد أوضح في رسالته إلى البرلمان الفرنسي والرأي العام الأوربي من أن فرنسا وأوروبا قد ساعدت شعوب بلجيكا وبولونيا على الاستقلال، بينما تقوم فرنسا بغزو الجزائر بدون مبرر، ثم لماذا لا يتركونا وشأننا مثلما فعلوا مع مصر (حملة نابليون على مصر).

هذا التصرف من حمدان خوجه يدل على أنه كان مطلعاً على ما يجري وقتها - على

<sup>53</sup>  
الساحة العالمية .

**هـ - 1883/1808:** ولد الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري بمعسكر بالغرب الجزائري وهو ابن الشيخ محي الدين زعيم الطريقة القادرية في الجزائر: تعلم في مسقط رأسه ثم في وهران أديب ومتصوف وسياسي وعسكري محنك درس أفلاطون وأرسطو وحياة جالينوس، وكذلك العلوم الدينية، ولما عاد من الحج عام 1832 وجد الفرنسيين قد احتلوا عاصمة الجزائر وأن الجزائريين مشتتون ويبحثون عن زعيم يكون لهم المنقذ، فتوجهوا إلى الشيخ محي الدين مقترحين عليه قيادتهم لمواجهة الغازي فرفض الشيخ قيادتهم، معتذرا لعدم قدرته بحكم سنه واقترح عليهم ولده عبد القادر<sup>54</sup> فقبلوا به وبايعوه أميراً عليهم، وبالمبايعة تلك أعلن الجهاد ضد

<sup>52</sup>- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، معهد البحوث والدراسات العربية، ط2، القاهرة، 1977، ص ص 14-15.

<sup>53</sup>- حمدان خوجة: المرأة، تحقيق وترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1982، ص 277.

<sup>54</sup>- بوالصفا عبد الكريم وآخرون: معجم أعلام الجزائر، ص 205.

فرنسا، حيث أوقف زحفهم فارضا عليهم معاهدتين الأولى عام 1834 والثانية في ماي من عام 1837 وأهم عمل أنجزه الأمير عبد القادر بعد شروعه في الجهاد هو إعادة بعث الدولة الجزائرية الحديثة معتبرا القرآن والسنة المصدرين الأساسيين للتشريع في هذه الدولة وقد أنشأ مجلسا دستوريا وصكا للعملة التي كانت تسمى (المحمدي) وقسم البلاد إلى ولايات كما تمكن في فترة وجيزة من إخضاع ثلاثة أرباع (4/3) الجزائر تحت سيطرته، كما يرجع له الفضل في إنشاء الكثير من الحصون في ضواحي المدن الداخلية التي لا تزال شاهدة عليه.

وقد راسل السلطان العثماني عدة مرات وكذلك باي تونس وسلطان المغرب، والإنجليز والإسبان كما تفاوض مع الفرنسيين مثلما واجههم في ميادين القتال. خاصة أنهم قادة عسكريون متخرجون من الكليات الحربية الحديثة، وعلى رأسهم الجنرال بيجو والدوق دي مال كما حرص على نشر التعليم بين السكان وسعى لتوفير الكتب، وأقام محلات للاستنساخ وبعد سبعة عشر (17) عاما من الجهاد وإتباع فرنسا لسياسة الأرض المحروقة في الجزائر، حاصرته من الشمال والشرق مستعينة بجيش محلي يتكون من متطوعين خونه ومرترقة، كما ضغطت عليه للاستسلام من خلال سلطان المغرب فاستسلم، وبعد فترة من الحجز دامت أكثر من خمس سنوات أطلق نابليون الثالث سراحه وأهم عمل قام به في الشام بعد الإقامة هناك، هو المشاركة الفعالة في إنقاذ مسيحي الشام سنة 1860 من مذابح كادت تؤدي بأغليبتهم إلى الهلاك، وقد منح عدة أوسمة من طرف رموز الغرب. وقد اعترف به مفكرو الغرب إلى درجة أن أحد الفرنسيين قال مقارنا بين هيغل والأمير عبد القادر: "لما كان هيغل يفكر في نظرية الدولة كان الأمير عبد القادر يطبقها في الواقع المعيش"<sup>55</sup>.

و- **1879/1810**: خير الدين التونسي بعدما تلقى مبادئ العربية انتقل إلى باريس

حيث تشبع بالثقافة الغربية وصل إلى مرتبة وزير فبدأ بإصلاح هياكل الدولة وتغيير المجتمع وقد

<sup>55</sup> - بوكردة زواوي: فلسفة الدولة عند الأمير عبدالقادر، محاضرات مخطوطة ، معسكر، نوفمبر 2000.

ألف كتاب (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) حاول استخلاص ما تحمله مقدمة ابن خلدون وتحديد فلسفة التاريخ لديه من أدوات لتغيير المجتمع وإصلاح الدولة، ومحاولة ربطها بالخلافة العثمانية لمناهضة أطماع الغرب، 1898/1818 أحمد خان: مصلح اجتماعي اهتم بالتربية وتنقيف المجتمع كأساس لعملية الإصلاح الديني، أسس مجلة تحت عنوان: تهذيب الأخلاق، كما حاول تطوير اللغة (الإوردية) حاول الاهتمام بالمعنى لا بالمبنى، منتقدا بذلك ما ذهب إليه المستشرقون، وخاصة نقاد الكتب المقدسة للعهد القديم والحديث، كما تعايش مع المجتمع الهندي بطوائفه ودياناته المتباينة، مقتربا من العلمانية الغربية كمنهج اعتمده، وقد هادن الإنجليز وحاول تمرير برنامجه الإصلاحية.

**1883/1823:** مدحت باشا، ولد في تركيا وعاش في عهد السلطان محمود ثم السلطان عبد الحميد، ثم عبد العزيز، وقد جاء في وقت تحولت فيه الخلافة العثمانية باعتبارها الآخر الذي يمثل الإسلام والعروبة وقد آلت — فيما بعد — إلى ما عرف بالرجل المريض مقابل الأنا الأوروبي القوى والمنتقم للحروب الصليبية لذلك فقد انصبت أعمال هذا المصلح على النقد الذاتي للدولة التركية التي ابتعدت كثيرا عن العلم والثقافة وساعدت على انتشار الجهل والفقر والمرض واضطهاد الأقليات مع انتشار الفساد في الدولة، وفي حياة السلاطين الخاصة، كالحریم والرشوة والتجسس على المصلحين وسجنهم وقتل المعارضين. بتعدد أسفار هذا المصلح استطاع أن يؤثر على السلاطين مؤكدا على أهمية العلم في رقي الأمم وتطبيق الديمقراطية وتأسيس المجالس النيابية، ولكن نظرا للإلحاح في مطالبه تم التخلص منه هو الآخر.

**ي-1839-1897:** جمال الدين الأفغاني، مصلح سياسي اجتماعي، ديني تحول في الكثير من الدول العربية الإسلامية والأوربية، مفهوم الإصلاح الديني عنده: اتسم منهجه الإصلاحية بالنظرة الشمولية إلى الإنسان انطلاقا من فساد الجانبيين الديني والديني لدى المسلم، فاعتبر الجهل أخطر مصيبة يمكن أن يتلى بها الإنسان وتكون سببا في تعثره وتخلفه، كان موقفه

هذا تابع من إيمانه الكبير بالإمكانات العقلية للإنسان والذي يكتشف كل يوم شرا جديداً من أشرار الكون، وتدعيماً لموقفه هذا يؤكد: "إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً وما صورته جموده وتوقف عقله عنده بأنه خيال قد أصبح حقيقة"<sup>56</sup>.

وبموقفه هذا ينتقد جمال الدين الفلسفات التي تنطلق من أن الكون مناطق معلقة وإلى الأبد، لا يمكن اقتحامها، ويضيف قائلاً: "وهل يبق مستحيلاً إيجاد مطية توصل الإنسان إلى القمر أو إلى الأجرام الأخرى"<sup>57</sup>.

وهو ما حدث بالفعل منذ السبعينات ولكن للأسف فإن ذلك كان من طرف الغرب!. وقد واصل جمال الدين الأفغاني مقاومة الجهل والفساد والخرافات في وجه أطماع الغرب في المجتمعات العربية الإسلامية إلى أن وافته المنية.

**رابعا : الغزو الفرنسي للجزائر 1830:** في يوم الخامس من جويلية 1830 تقوم القوات الفرنسية بغزو الجزائر فما هو موقف هيغل من هذا الاحتلال؟.

يطلق هيغل على شمال إفريقيا (إفريقيا الأوروبية... واصفا إياها بأنها إقليم رائع توجد فيه مراكز الحديثة والجزائر وتونس وطرابلس ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من إفريقيا بأوروبا ولا بد بالفعل أن يرتبط بها، ولئن بدل الفرنسيون جهودنا ناجحة في هذا الاتجاه بغزوهم للجزائر"<sup>58</sup>. (كما سيأتي توضيح ذلك لاحقاً في الفصل الثامن).

بهذه الكيفية يكون الفيلسوف الألماني الكبير عاشق الحرية ومحب الديمقراطية والمجنون بمبادئ الثورة الفرنسية من أوائل مفكري الغرب مباركة للغزو الفرنسي للجزائر والمؤيدين لإلحاقها بأوروبا

<sup>56</sup>- جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، تحقيق محمد عمارة، ص 208.

<sup>57</sup>- المرجع نفسه .

<sup>58</sup>- هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 168.

---

كيف لا وقد ارتبط هيغل بالمركزية الغربية التي لا تعترف إلا بمحيطها الضيق الأنا الأوروبي، أما

بالنسبة لخارج أوروبا فإنه الآخر المجهول الذي يمكن ممارسة كل الرذائل في حقه!.

# الفصل الرابع

مناهج كتابة التاريخ عند هيغل



سبق وتطرق إلى مفهوم " فلسفة التاريخ " <sup>1</sup> التي تتشكل من منظورين، المنظور الأول يحددها بأنها: دراسة لمناهج البحث في التاريخ، أي الطرق التي يمكن للمؤرخ أن يسلكها أثناء تسجيله للحوادث التاريخية، وإذا قلنا المنهج فالمقصود منه: كيفية التحقق من صحة الوقائع التاريخية ومدى مطابقتها للواقع، وهذا الأمر سبق لإبن خلدون وأن تعرض له كما سبق وأوضح .

إذن: هذا المنظور يعني: فحصا نقديا دقيقا للمادة التاريخية وهذا ما يمكن أن نصنفه ضمن

النشاط التحليلي للتاريخ.

أما المنظور الثاني لفلسفة التاريخ، فهو الذي يمكن أن نصنفه ضمن النشاط التركيبي للتاريخ، وفيه يقوم الفيلسوف بتقديم وجهة نظره عن مسار التاريخ ككل مثلما انطلق ابن خلدون من الواقع مستندا إلى التاريخ مستنتجا أطوار الدولة وكما فعل فيكو بالنسبة للأطوار الثلاثة، وأوغست كونت للحالات الثلاثة، وماركس الذي أرجع حركية التاريخ إلى العامل الإقتصادي والمادية التاريخية عكس هيغل الذي ركز على منظورين، حيث ناقش أولا الطرق المختلفة التي يمكن أن يكتب بها التاريخ، ثم قدم وجهة نظره عن مسار التاريخ العالمي، ويبدأ هيغل " محاضراته في فلسفة التاريخ " متسائلا: هل يمكنه أن يقوم بعرض مجموعة من الملاحظات العامة والمبعثرة حول التاريخ، أو أن يقدم تاريخا قوميا يرتبط بشعب معين أو بأمة دون سواها،؟ غير أن الذي ركز عليه هيغل هو التاريخ الكلي ويعني به تاريخ الإنسان وتطوره الحضاري بغض النظر عما في هذا التاريخ.

<sup>1</sup> - أنظر: الرسالة، الفصل الأول ص 37-38

أولاً : منهج التاريخ عند هيغل: نلاحظ أننا أمام الخصوصية الهيجلية التي تنظر إلى الموضوع نظرة شمولية وعامة، وهذا هو الموقف الفلسفي<sup>2</sup> في مقابل الموقف العلمي الذي يهتم بجزئية معينة جاعلاً إياها موضوع الدراسة.

ولهذا الغرض بدأ هيغل بفحص المناهج المختلفة التي يمكن أن يكتب بها التاريخ وضبطها في ثلاثة طرق هي:

1- التاريخ الأصلي.

2- التاريخ النظري.

3- التاريخ الفلسفي.

حتى نفهم معنى " التاريخ " عنده لابد أن نرجع إلى مدلول كلمة " تاريخ " في الألمانية حيث تتركب من لفظتين: الكلمة اليونانية (هيسطوريا) Historia: (البحث، المعرفة، التفسير المكتوب للبحث والرواية) وتاريخ الأحداث من الكلمة Historien (يبحث يرتاد) وقد دخلت اللغة الألمانية من اللغة اللاتينية (التي تتقنها أمه كما سبق وذكرت) في القرن الثالث عشر كلمة Historie ومع الاستخدام تطورت الكلمة منذ القرن الثامن عشر بظهور كلمة Geschichte بينما ازدهرت الصفة Historish "تاريخي" والاسم historiker المؤرخ.

والمعنى الأصلي لكلمة التاريخ في الألمانية: قريب من معنى التجربة ويميل هيغل إلى استخدامها للدلالة على (إمبريقي) Empirie أكثر من استخدامها بمعناها التخصصي الذي يعني التجربة التاريخية والأحداث الماضية، كما يتطرق هيغل بازدياد إلى (التاريخية) التي استخدمها رجال الكنيسة في اللاهوت (هيغل متخرج من معهد توينغن الديني) أي التبحر التاريخي في آراء رجال الدين والمؤسسات الدينية على حساب البحث في الحقائق الدينية.

<sup>2</sup> هيغل: موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط، دار التنوير، بيروت، 1983م، ص 17-18.

أما المعنى الثاني للكلمة: Geschichte (قصة، شأن، عمل، تاريخ) فهي كلمة ألمانية قومية مشتقة من الفعل Geschechien (يعمل، يحدث، يقع) وهي بذلك تعني أصلا حدث، سلسلة أحداث، لكنها ابتداء من القرن (15) الخامس عشر تساوت مع كلمة التاريخ Historie وأصبحت تعني الرواية أو التقرير، ومع نمو البحث التاريخي وتطور المعرفة في هذا المجال في القرن الثامن عشر أصبحت تعني وبصفة خاصة عند هرردر التاريخ (بوصفه بحثا منظما للأحداث الماضية مع الربط وهي الكلمة التي استخدمها هيغل للدلالة على التاريخ) فما هي الطرق التي يسجل بها هذا التاريخ لأننا حتى ننتقده يجب علينا أن نبحث في ثناياه عن كيفية تحريره أولاً<sup>3</sup>.

إذن: حسب التعريف السابق فإن موضوع التاريخ متشعب وله أشكال متعددة غير أنها تؤدي جميعا إلى غرض واحد، وهو تكون رصيد معين عما عاشته الإنسانية في الماضي من تطور وازدهار لمختلف الحرف والصنائع والفنون... الخ.

وهيغل ينطلق من اعتقاد راسخ لديه ألا وهو ضرورة شمولية الفكر البشري وارتباطه بالعقل، ولو تدريجيا، وهذا الأمر ليس في حاجة إلى برهنة لأنه جوهرى في الإنسان، ومن العناصر الأساسية في ماهيته، التي تتطور عبر العصور بطريقة جدلية، واعتبارا لهذه الضرورة العقلية لاشيء خارج العقل يوجد أو يتطور أو تقوم له قائمة ما لم يكن بدافع من العقل أو مؤسسا عليه، وفي هذا السياق يقول غارودي Garoudi: " ما من شيء في هذا العالم خارج متناول عقل الإنسان... " وقيل أيضا: " أن عالم الإنسان عمل الإنسان"<sup>4</sup>.

إذن: يمكن اعتبار المقدمتين عملية قياسية لتكون النتيجة: ما من شيء من عمل الإنسان غير خاضع لعقله.

<sup>3</sup> - ميخائيل أنوود: معجم مصطلحات هيغل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 23.

<sup>4</sup> - رجاء غارودي: فكر هيغل، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة بيروت ص 141.

وقد قام هيغل بمجهود كبير في سبيل إظهار الترابط بين الطبيعة، أي عالم المادة أو الواقع وبين عقل الإنسان، وحتى لا يكون متناقضا مع نفسه قسم التاريخ إلى مراحل ودرجات متعاقبة وفق النظام الطبيعي ومستويات عقول البشر وكذلك وفق نسق المقولات المنطقية، وبهذه الكيفية يكون مؤسسا للعقلانية المثالية، فيما يخص " حركية التاريخ " مع العلم أنه في البداية اعتبر تاريخ الشرق الذي يمثل الآخر بالنسبة لنا الجرمان الغربي " لا تاريخ " لأنه لم يصدق ما كان رائجا عن تاريخ الشرق في ذلك الوقت وحتى مذكرات الرحالة (الأوروبيين الذين جابوا الشرق ووصلوا حتى العالم الجديد) لم يأخذها بعين الاعتبار بل وضعها في مرتبة الخرافات والأساطير التي لا ترق إلى مستوى التاريخ المكتوب باعتباره قد رفض كل ما هو شفهي وغير مدون عن التاريخ.

وهيغل في تصنيفاته المختلفة وخاصة لمادة التاريخ وتطوره وأحواله يلتزم بمنهج الجدل حيث قسم التاريخ إلى ثلاثة أقسام رئيسية: وكل قسم يمكن أن يتفرع إلى أنواع أبسط وهكذا دواليك حتى ينهي التاريخ عند الجرمان.

### ثانيا - التاريخ الأصلي:

والمقصود به هو تلك المادة التي يكتبها المؤرخ وهو يعيش أحداثها ويعرف منبعها بحيث ينقل الأحداث كما رآها أو كما سمعها من الآخرين<sup>5</sup> والمؤرخ في هذه الحالة، حينما يقوم بنقل الأحداث فإنه يحملها إلى عقله، وبهذه الكيفية تتحول من إطارها الخاص إلى تصور عقلي داخلي يعبر عن الفترة المعاشة ويمكن أن نحصر هذا النوع من التاريخ في أربعة عناصر:

أ- إذا كان المؤرخ سجل أحداثا عاشها فإن روح العصر التي شكلت الأحداث هي نفسها التي تشكل المؤرخ، إذن هناك إندماج بين الأحداث والمؤرخ فهو مرآة عصره.

ب- تكون الفترة التي يرصدها المؤرخ فترة قصيرة نسبيا (أي حسب حياة المؤرخ).

<sup>5</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، العقل في التاريخ، ص 32.

ج- المؤرخ يهتم بأشكال خاصة من الأحداث والأشخاص الذين يلتقي بهم وبالتالي فهـي ليست كلية.

د- يكون الهدف من رواية المؤرخ نفس الـوضوح الصادر من ملاحظاته الشخصية أو من الروايات المستقاة من الناس القريين منه.

ويضرب لنا هيغل أمثلة كثيرة من هذا النوع من التاريخ يمكن حصرها فيما يلي:

أ- عند اليونان: نجد هيرودوت الملقب بأبي التاريخ، وغيره من المؤرخين اليونانيين ممن عاشوا الأحداث التي كتبوها.

ب- عند الرومان: نجد أن هيغل يركز على المذكرات التي سجلها القيصر وخاصة في ميادين القتال أثناء غزواته لبلاد الغال مع العلم أن المؤرخ في هذه الحالة هو أحد صناع التاريخ، فما يكتبه عن أهدافه الخاصة سواء تمكن من تحقيقها أو فشل في ذلك، فالنتيجة واحدة يعني أن هذا هو مضمون التاريخ في هذه الفترة.

ج- وفي العصور الوسطى الأوروبية: نجد أن الرهبان هم الذين احتكروا الكتابة التاريخية حيث ركزوا على الحوليات، علما أن هيغل يضيف على هذه الفترة صفة السداجة باعتبار أن رجال الدين كانوا يعيشون العزلة على الرغم من سيطرتهم على التعليم، الفكر، الثقافة... فإن المطلوب من المؤرخ حسب هيغل هو أن يعيش وسط تيار الأحداث بينما كان الرهبان منعزلون في الأديرة عن المجتمع، ومن هنا جاء وصفه لهم بالسداجة.

إلا أنني أشتم من هذا الحكم الهيجلي بعدا إيديولوجيا لأن هذه الفترة كانت فترة ازدهار بالنسبة للعالم العربي الإسلامي الذي يمثل الآخر بالنسبة لنا الجرمان الغربي كما سأوضح ذلك لاحقا، ربما كان تجاهله للعصور الوسطى محاولة لإقصاء الآخر.

د- وفي العصور الحديثة: نجد أن هذه الحوليات التي يسجلها المؤرخ عن أحداث عايشها تنصرف قي الغالب إلى سرد الوقائع العسكرية وتسجيل الخلافات السياسية التي تحدث مثل مذكرات القيصر، والرهبان، ناهيك عن<sup>6</sup> تسجيل الصراعات التي عادة ما تنشب بين قادة الجيوش ورجال السياسة.

نلاحظ: أن تقسيم هيغل للتاريخ ثم ضرب الأمثلة للصنف الأول من التاريخ وتركيزه على الفترة اليونانية والرومانية والعصور الوسطى الأوربية والعصر الحديث الذي يعيشه هيغل مهملاً الفترة الإسلامية المزدهرة وكذلك الحضارات الشرقية القديمة، فالتاريخ الأصلي عنده هو أشبه ما كان عندنا - نحن العرب - بعصر الرحلات لدى ابن بطوطة والمسعودي وابن مسكويه والبيروني وصاعد الأندلسي وابن حزم وابن خلدون، أو الورتلاني... الذين جابوا مختلف الأقاليم<sup>7</sup>.

نلاحظ أن هيغل أقصى هؤلاء جميعاً باعتبارهم يمثلون الآخر بالنسبة لنا الغربي المتعالي، رغم تفضن بعض المستشرقين الغربيين مثل: روزنثال إلى أن رغبة المسلمين في حماية عقيدتهم قد حفزتهم إلى العناية بالتاريخ الأصلي بحيث كانوا يسجلون منذ بعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أغلبية الأحداث، بل أن الباقي من الأحاديث غير المسجلة كانوا يتكبدون أعباء الأسفار من أجل تصحيح المنقول منها، وما يقال عن الحديث<sup>8</sup> ذي الصلة بالعقيدة ينطبق على الحوادث التاريخية كالغزوات،... وبالتالي، فقد مارسوا التاريخ الأصلي رغم أن هيغل قد أهملهم ولم يذكرهم في مثل هذا النوع من الدراسة.

### ثالثاً - التاريخ النظري:

<sup>6</sup> - ميخائيل أنوود: مصطلحات هيغل، ص 232-233.

<sup>7</sup> - عبد الرزاق قسوم: فلسفة التاريخ من منظور إسلامي، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص 35.

<sup>8</sup> - المرجع نفسه، ص 34.

أما النوع الثاني للكتابة التاريخية والتي يطلق عليها هيغل التاريخ النظري والميزة الأساسية لهذا النوع أن المؤرخ لا يعيش الأحداث التي يرويها باعتبار أن الحادثة تكون قد مرت وتركت وراءها مخلفات.

إذن: فالمؤرخ يتجاوز عصره لكي يسجل لعصر آخر كما هو الحال بالنسبة للتأريخ لفترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر من 1830 إلى 1962م.

فالمؤرخ المعاصر يعيش في القرن الواحد والعشرين ويحاول التاريخ لأحداث لم يعيشها كما كان يفعل المؤرخ (الأصلي) فالمؤرخ في هذا النوع يتجاوز عصره، حيث يقوم بجمع المادة التاريخية وتصنيفها وتبويبها وتقسيمها إلى مراحل أو فترات، والفترة الواحدة إلى فروع وتخصصات مثلما فعل المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله في محاولة تغطيته للحركة الوطنية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وكما فعل المؤرخ الجزائري يحي بوعزيز في محاولته تغطية فترة الثورات المسلحة ضد المحتل الفرنسي.

وتنقسم هذه الطريقة إلى أربعة أقسام تتصف جميعا بسمة واحدة وهي: تجاوز المؤرخ لحدود عصره لأنه يكتب عن عصر لم يعيش أحداثه، وتتلخص كالاتي:

**الفرع الأول:** وفيه يقترب المؤرخ كثيرا من التاريخ الأصلي لأنه يتخصص في جزء معين من التاريخ العام لشعب معين بحيث يكون قريبا من التاريخ الأصلي فعندما تقرأ له تشعر وكأنه عاش الأحداث التي يرويها بالفعل، وخير معبر عن هذه الفكرة مقولة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " أي بني إني وإن لم أكن قد عمّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما إنتهى إلي من أمورهم قد عمّرت مع أولهم وإلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره...<sup>9</sup>."

من خلال النص الذي هو وصية الإمام علي إلى ولده الحسين نتبين مدى شغف واهتمام المسلمين بالتاريخ وعلى الرغم من ذلك فإن هيغل لم يشر إليهم سواء كان ذلك عن قصد أو جهل فإنه يقصدهم باعتبارهم يمثلون الآخر بالنسبة إليه.

<sup>9</sup> - محمد مهدي شمس الدين: حركة التاريخ عند الإمام علي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1،



ولما كان من المستحيل على أي إنسان أن يعيش الماضي لأن كل واحد منا هو ابن عصره وريبب زمانه هيغل في كتابه " فلسفة الحق " <sup>10</sup>.

فإن المؤرخ النظري في هذه المرحلة يمكنه أن يسقط المصطلحات المتداولة في عصره على الفترة الماضية التي يدرسها وبالتالي فإن النتائج التي يتوصل إليها لا تحمل روح العصر المدروس.

إن هذا الحكم من طرف هيغل لا ينسحب على كل المؤرخين وإنما وجب على المؤرخ إستعمال مصطلحات الفترة المدروسة مع شرحها بلغة عصره وهكذا... نحافظ على النصوص الأصلية مع فهمنا لأحداث الماضي بمصطلحات الحاضر.

**والنوع الثاني من التاريخ النظري هو ما يطلق عليه هيغل إسم: التاريخ العملي <sup>11</sup> أو البرجماتي:** الذي يكون الهدف من دراسته إستخلاص العظة والعبرة والإستفادة من المبادئ والقيم التي كانت سائدة في ذلك الوقت إلى جانب الدروس الأخلاقية أي معرفة ما كابده الآباء والأجداد من أجل تحرير الأوطان مثلاً.

إذن: الهدف الرئيسي من الرواية هو إستخلاص الدروس من الفترة الماضية بهدف الإستفادة منها في العصر الحديث وفي هذا السياق يمكن أن نرجع إلى كتاب مقدمة ابن خلدون وهو المعنون: (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). " فإن فن التاريخ... حتى تتم فائدته في الاقتداء " <sup>12</sup>.

يوضح لنا نص ابن خلدون -السابق الذكر- تأكيده على دور التاريخ وأهميته بالنسبة لحاضر الأمة ومستقبلها، وعلى الرغم من ذلك، فإن هيغل قد أهمل أعماله تماماً في هذا الجانب، غير أنه يؤكد على أن هذا النوع من التاريخ لا يمكن أن يحقق أهدافه باعتبار أن التاريخ لا يعيد

<sup>10</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 110.

<sup>11</sup> المرجع نفسه، ص 74.

<sup>12</sup> أنظر الرسالة، ص. ص 50-54

نفسه ذلك أن لكل عصر ظروفه الخاصة حتى أن تصرفات الشعوب والسياسة لا بد أن تحكمها إعتبارات مرتبطة بعصرها، لو كان هيغل حيا لتراجع عن هذه الفكرة فالأسباب التي إتخذتها فرنسا ذريعة لإحتلال الجزائر سنة 1830 مثلا هي نفسها الأسباب التي اتخذتها أمريكا لغزو أفغانستان وإحتلال العراق، رغم الفارق الزمني! .

**والنوع الثالث من التاريخ النظري هو التاريخ النقدي:** وهو عبارة عن نقد للروايات

التاريخية الأخرى من حيث مصادرها، ومعقوليتها في تاريخ التأريخ.

إذن: في التاريخ النقدي يقوم المؤرخ بعرض الروايات التاريخية المختلفة لكي يقوم بدراستها مستعينا بالمنهج المقارن فحول حادثة واحدة ينبغي عليه أن يطلع على عدة روايات حتى يكتشف الغلو والتطرف والتضخيم أو العكس.

إن المؤرخ في هذا النوع يلجأ إلى " المقارنة " بين عدة كتابات تاريخية سجلت في وقت واحد، فيكشف عن مدى المبالغة في رواية فلان وعن عدم الضبط والدقة أو الموضوعية لدى مؤرخ آخر، أي أنه باستعمال العقل يجري مقاربات بين ما كتبه المؤرخ وبين ما كان ينبغي أن تكون عليه الرواية بموضوعية.

سبق وذكرت أن ابن خلدون قد تطرق إلى هذه الطريقة المنهجية مستخدما عقله ومنطلقا إلى أماكن الأحداث من أجل المقايسة بين ما ذكره المؤرخ وإمكانية تطابق ذلك مع الواقع أو العكس، مستعينا بعلوم أخرى كالرياضيات، والجغرافيا، والعمران، وعلم الاجتماع وحتى أنه كان يراعي الحالة النفسية للأشخاص موضوع الدراسة" مثلما هو شأن علم النفس الحديث".

إلا أن هيغل لم يتطرق لابن خلدون، وحتى يكون منسجما مع الأنا الغربي الجرمني أعجب بالفرنسيين الذين استخدموا هذا النوع من التاريخ النظري، وفي هذا السياق يقول: " إن الفرنسيين برعوا في هذا اللون من الكتابة التاريخية فقدموا أعمالا كثيرة تجمع بين الأصالة والعمق والنظرة

الصائبة، لكنه يتوجه باللائمة إلى الكتاب الألمان الذين لجأوا إلى النقد (المتعالي) في ميدان اللغة والتاريخ على السواء واتخذوا من هذا التعالي ذريعة لتشويه التاريخ<sup>13</sup>.

أي أنهم أسقطوا خيالاتهم الذاتية على الماضي بحيث شوهوا التاريخ من حيث لم يدروا فأصبحت تخيلاتهم تحل محل الحوادث التاريخية وبهذه الكيفية قد شوهوا التاريخ.

**والنوع الرابع من التاريخ النظري** يحمل خاصيتين متعارضتين هما: الجزئية والعمومية.

فإذا قلنا أنه جزئي فلكونه يتحدث عن تاريخ الإنسان بما هو إنسان عن جزء واحد من هذا التاريخ، وهو إما القانون أو الفن أو الدين، كما أنه يحمل صفة العمومية من حيث كونه لا يحرص اهتمامه في القانون عند الرومان أو الفن عند المصريين القدماء أو الدين في العصر الوسيط.

فالمؤرخ في هذه الحالة يتحدث عن القانون بصفة عامة، أو الفن أو الدين منذ بداية التاريخ، حتى عصرنا الحاضر، أي العصر الذي عاش فيه الفيلسوف.

فالمؤرخ عندما يتعرض للدين منذ نشأته الأولى فهو ينطلق من الديانة البدائية التي عبد فيها الإنسان مختلف قوى الطبيعة، ففي مصر الفرعونية قرن الإنسان بين الإله وفيضان النهر إلى درجة أن المصريين كانوا يقومون برمي فتاة في زي عروس وبكامل زينتها لنهر النيل بعد كل فيضان حتى جاء الإسلام، وكان عمرو ابن العاص واليا على مصر وقتذاك حيث منعهم من ممارسة هذه العادة، كما كان فوق الأرض من يعبد النجوم، القمر، الشجر،... ثم على المؤرخ أن ينتقل إلى الديانات البشرية كالبودية، والهندوسية، والكنغوشوسية،... الخ، ثم ينتقل إلى الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، إلى أن يصل إلى وضع الدين في القرن العشرين محاولا تفسير هذا التطور بإمادة اللثام عما يقف خلف ذلك التطور الديني كله؟

ويؤكد هيغل أن هذا التطور وطوال العصور التاريخية المختلفة سادته توجد روح واحدة هي التي كانت تنمو وتتغير طوال العصور التاريخية وبهذا النوع المتعارض من التاريخ يقترب المؤرخ من التاريخ الفلسفي.

نلاحظ: أن هيغل يتجاوز العصر الوسيط لأنه يمثل مرحلة انحطاط لدى الأنا الأوربي مقابل ازدهار الآخر العربي الإسلامي وهو ما يبرز التجاهل العمدي بهدف تجنب الحديث عن دور الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوروبا، حسب ما يبدو لي.

#### رابعاً - التاريخ الفلسفي:

يقوم المؤرخ الفلسفي باستخدام النتائج التي توصل إليها المؤرخ الأصلي، والمؤرخون النظريون، لكي يقوم بالشرح والتعليق أي يقوم بتأويل التاريخ على أساس أنه التطور العقلي للروح<sup>14</sup> في الزمان كما يقول هيغل، لأن هذا المستوى يفلت من صناع التاريخ الأصلي والنظري، فالمؤرخ الفلسفي يبحث عن روح العالم التي كانت تجسد الفكرة التي تتحقق عن طريق الأعمال الفعالة التي يقوم بها الأفراد في حوادث التاريخ وخاصة العظماء من الأبطال والشخصيات التاريخية، سواء كانت عسكرية أو سياسية، ويضرب لنا هيغل الأمثلة بالإسكندر والقيصر و نابليون.

نلاحظ: أن هيغل يركز على اليونان والرومان والغرب المعاصر له وخاصة الجرمان، بخلاف فولتير الذي يضع في أولويات حركية التاريخ العلماء والفلاسفة والمفكرين في مختلف المجالات، ويمنحهم أهمية أسبق من الساسة والقادة العسكريين على خلاف العادة التي جرت من أن الناس يتذكرون بصفة خاصة العسكريين والسياسيين متناسين العظماء الحقيقيين مثل نيوتن في

الفيزياء وأديسون في الكهرباء وباستور في الطب... هؤلاء قدموا خدمات جليلة للإنسانية أفيدهم بكتير مما قدمه الإسكندر الأكبر أو محمد الفاتح، أو نابليون كما يقول فولتير.

إلا أن هيجل يثير تساؤلا حول غرض الأبطال التاريخي ولكنه يستدرك قائلا: " إن الذي يقودهم هو دهاء العقل - لأنهم سواء عن قصد أو عن غير قصد تسببوا بطريقه قصرية في ظهور حقبة جديدة تجسد مرحلة مغايرة لفترة ظهورهم وهي جديدة أيضا بالنسبة للروح، وبذهب هيجل - على خلاف كانط وفولتير - إلى أن هؤلاء الأبطال لا ينبغي الحكم عليهم على ضوء القواعد الأخلاقية والاجتماعية الشائعة"<sup>15</sup>.

فالدراسة الفلسفية للتاريخ، تعني دراسة التاريخ من خلال الفكر لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان والفكر جوهرية بالنسبة إليه، فهو الخاصة التي تميزه عن الحيوان، فإذا ما نظرنا إلى أعمال الإنسان طوال التاريخ على أنها كلها مجرد أحداث، سوف يكون ذلك عسيرا على المؤرخ ما لم ينظر إلى هذه الأعمال على أنها مظهر خارجي للتفكير.

هناك من يتهم الفلسفة بإقحامها الأحداث، والظواهر التاريخية في أفكار مسبقة أو قبلية، لكن " هيجل " ينفي نفيًا قاطعا هذا الاتهام الذي يوجه إلى الدراسة الفلسفية للتاريخ، ويبدأ بتوضيح ما يقصده بالدراسة الفلسفية للتاريخ، ويمكن أن نلخص وجهة نظره في النقاط التالية:

ذ- الفيلسوف لا يزاحم المؤرخ التجريبي في البحث عن الوقائع التاريخية وجمع المعلومات والمادة، والوثائق، وما إليها، وينحصر دور المؤرخ الفلسفي في تفسير أحداث التاريخ.

ر- الفكرة الوحيدة التي تجلبها الفلسفة معها وهي تدرس التاريخ هي الفكرة البسيطة عن العقل التي تقول: " أن العقل يسيطر على العالم وأن تاريخ العالم يمثل أمامنا بوصفه مسارا عقليا ".

ومن ثم فإن العقل هو جوهر الطبيعة كما أنه جوهر التاريخ، وهذه المقدمة التي يبدأ منها "هيغل" لا يبرهن عليها في فلسفة التاريخ حيث يرى أنه سبق أن برهن عليها في منطقته على وجه التحديد.

ج- إذا كان العقل جوهر الطبيعة على هذا النحو، فإنه جوهر التاريخ البشري أيضا، مع فارق هام جدا هو أن العقل الذي يحكم التاريخ هو عقل واع بذاته أي هو العقل البشري الذي يعرف ويدرك ما يفعل، أما حركة النظام الشمسي كما يقول: "هيغل" فهي تتم وفقا لقوانين هي العقل الكامن في ظواهر الطبيعة ولكن هذه القوانين لا يمكن أن ينسب إليها أي درب من دروب الوعي<sup>16</sup>. ذلك أن الوعي الذاتي قاصر على الإنسان.

د- لكن قولنا أن العقل يحكم التاريخ لا يعني أننا نقحم أفكارا فلسفية على علم التاريخ الذي ينبغي أن يظل كما يقولون مستمدا من أحداث واقعية، بل أن هذه الفكرة هي نتيجة مستخلصة من دراستنا للتاريخ، و"هيغل" يسوقها في بداية مقدمته لهذه الدراسة ويبرز ذلك بقوله: "لقد حدث لي أن عرفت هذه النتيجة لأنني قطعت ميدان الدراسة كله فنحن إنما نستخلص إستنتاجا من التاريخ حين نقول أن تطوره كان مسارا عقليا، وأن التاريخ يشكل المجرى العقلي الضروري لروح العالم، إذن فليس ثمة إقحام لأفكار فلسفية على التاريخ كما يزعم أولئك الذين يتهمون الفلسفة عامة، وفلسفة التاريخ خاصة، ويدعون "هيغل" إلى تناول التاريخ وهو يسير بطريقة تاريخية، أي بطريقة تجريبية، كما يحذرون من الروايات التاريخية لأنها تعد جزءا من التاريخ الذي ينبغي التأكد منه.

والشرط الأول الذي ينبغي مراعاته في فلسفة التاريخ هو أن نبنى بأمانة كل ما هو تاريخي وأن لا نقحم أفكار أو إختراعات ذاتية في أحداث التاريخ وهذا ليس معناه أن يقدم الفيلسوف على المعطيات التاريخية وهو خالي الذهن تماما، بل عليه أن يجمع مجموعة من الأفكار أو

<sup>16</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص ص 41-42.

المعقولات، ليكشف عن القوانين الصحيحة التي توجه مسار التاريخ ويقول " هيغل " في هذا الصدد: " إن من ينظر إلى العالم نظرة عقلية فإن العالم بدوره يتخذ أمامه طابعا عقليا، فالعلاقة متبادلة بين الذات والموضوع "17.

الفلسفة إذن: لا تقدم إلى الدراسات التاريخية سوى فكرة واحدة وهي أن العقل يحكم التاريخ، ويقول " هيغل " أنه حتى هذه الفكرة نفسها ليست جديدة على النحو الذي تظهر به، فهي قديمة قدم الفلسفة اليونانية وشائعة شيوع الدين نفسه، وعلى ذلك يسوق " هيغل " لهذه الفكرة:

الصورة الأولى فلسفية: التي قال بها الفيلسوف اليوناني " أنكسا غوراس " في عبارته الشهيرة: " أن النوس يحكم العالم "، وهو يعني بها أن الطبيعة تجسّد للعقل، وأنها دوما تخضع لقوانين كلية، غير أن هذه الفكرة لم يعمل " أنكسا غوراس " على تطبيقها بل على العكس حين بدأ في الحديث التفصيلي، راح يرد الطبيعة إلى علل مادية كالهواء والماء وما إليها.

أما الصورة الثانية المدنية فهي الصورة المعروفة لنا جيدا، أو هي التي تقول إن أحداث العالم لا تترك للمصادفات والعلل الخارجية العارضة، وإنما للعناية الإلهية.

ملاحظة:

لم تسلم فلسفة هيغل من الإنتقادات كباقي الفلسفات، وقد شملت كافة جوانبها من بينها الجدل، فكرة الدولة، وكذلك فلسفة التاريخ... الخ.

بعد هذه المرحلة مع هذا الفيلسوف العملاق لا بد لنا من أن نقف وقفة قصيرة لنسوق بعض الإعتراضات التي يمكن إثارتها دون التقليل من أهمية العمل الذي قام به هيغل والذي يعترف به النقاد أنفسهم يقول وولش في هذا المعنى: " أما هيغل فقد قام بعمل جوهري للدراسات

التاريخية فليس في ذلك أي شك فقد كان من أوائل الذين كتبوا في فلسفة التاريخ، وكان لمؤلفه في هذا المقام تأثير على خلفائه، وأكثر من ذلك فقد أظهر خلال كتاباته معنى لأهمية الماضي في فهم الحاضر، وهذا ما يفتقر إليه كلية أو إلى درجة كبيرة أكثر أفكار فلاسفة القرن 18، وإذا كانت المدرسة الهيغلية قد أثرت قليلا، أو كانت بغير تأثير على تقدم العلوم الطبيعية في القرن 19، قد دفعت العلوم الاجتماعية بكل تأكيد إلى الأمام دفعة لها أهميتها في هذا العصر<sup>18</sup>.

أما التاريخ في أشكاله المختلفة فيعد تاريخا للفكر، وطالما كانت أعمال الإنسان مجرد حوادث تعذر على المؤرخ فهمها ما لم تكن هذه الأعمال مظهرا خارجيا للتفكير، وعلى هذا الأساس بنى " هيغل " التاريخ إذ صرح بأن العقل هو الذي يحكم التاريخ، لكن القول بهذه القضية هو من مجال أو إختصاص الفلسفة النظرية، بصفة عامة، والمنطق بصفة خاصة، وهنا يقع هيغل في إشكال: فكيف إستطاع أن يستخلص هذه القضية من دراسته لمسار التاريخ وما الشيء الذي يجعلنا حينما ندرس الوقائع التاريخية نتمثل التاريخ على أنه مسارا عقليا؟<sup>19</sup> مما تقدم نستخلص:

- أن التاريخ العام - كما يتمثله (هيغل) - ليس هو التاريخ الأصلي الشائع تاريخ رواة الأحداث الأولين، ولا التاريخ المتأمل الذي يريد أن يفسر الوقائع وأن يستخلص دروسا عملية من الماضي... ولكنه - كما يراه هيغل - التاريخ الذي يشرف على الأحداث من وجهة نظر كلية، غير خاضعة للزمن، وهي وجهة نظر عقلية، لأن العقل في نظره هو جوهر التاريخ، والعقل هو الذي يحكم العالم، فالتاريخ من هذه الناحية هو التاريخ الفلسفي<sup>20</sup>.

- كذلك أن التاريخ العام - كما يراه هيغل - إنما يتابع زحفه إلى الأمام، فتحصل حينذاك الإصطدامات الكبرى بين المؤسسات القائمة، والإمكانات المعارضة التي تزعزعها، وبهذه

<sup>18</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 57.

<sup>19</sup> - أميرة حلمي مطر: الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس، دار المعارف، مصر 1986، ص 146.

<sup>20</sup> - عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، ص 148.



الإصطدامات تتحقق (الجدلية) في التاريخ... وهذه الجدلية تتقدم الإنسانية... لأن الإنسانية لا تتقدم، في نظر هيغل، إلا بتحقق التناقضات التي تفضي إلى وضع أكثر عقلانية.

ومن هنا اعتبر هيغل التاريخ عملية دياكتيكية وروحية في آن معا ومن هنا أيضا فهو نضال مستمر من أجل الحرية البشرية، وهذه الأمور تجدد دلالتها في التاريخ الفلسفي، إذ أن " هيغل " - كما رأينا - قسم طرق كتابة التاريخ إلى تاريخ أصلي ونظري وفلسفي، وأعطى أهمية بالغة لهذا الأخير كونه يعبر عن التاريخ الكلي الذي يتخذ الأفراد كوسائل لتحقيق أغراض وبذلك أحل التاريخ محل الأفراد على حد تعبير " كير كجاردي ". ومجمل القول: " أن التاريخ الفلسفي عند هيغل هو الذي لا يعتمد على الأصلي أو النظري ولكنه يشملهما جميعا لأنه يعتمد على العقل، فيستخدم نتائج المؤرخين إستخداما جوهريا، وهذه الكيفية ندرك أن توظيف هيغل لمصطلح " Cshichite " ليس محض صدفة ولا أمرا عرضيا ولكن من أجل أن يؤكد أو يربط هذا المصطلح بالعقل، وإذا أردنا الخوض في هذا الموضوع علينا أولا أن نحدد المقصود مثالية هيغل " Idéalisme " وهي كلمة مركبة من شقين: Idéa وتعني الفكرة، Lisme وتعني علم أو مجال بحث يهتم بالأفكار، وهذا يعني من خلال الإشتقاق اللغوي أنه مذهب يجعل الفكر أو العقل أو الروح (وهي كلها كلمات ذات معنى متقارب في اللغة الألمانية) مصدرا أساسيا للمعرفة<sup>21</sup>.

**نلاحظ:** مما سبق أن الفكر أساس كل حقيقة إنطلاقا من مقولة هيغل الشهيرة: " كل ما هو فكري واقعي وكل ما هو واقعي فكري "<sup>22</sup>، فما ليس فكر لا يمكن أن يكون حقيقة. بمعنى أن كل ما عجز الفكر عن إدراك أغواره فهو مستبعد من المجال الإبستمولوجي لهيغل، لكن هل تنتفي الحقيقة إذا عجز الإنسان عن إدراكها؟!

<sup>21</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات هيغلية، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984، ص 14.

<sup>22</sup> - إليود سبنسر، أندريه رجي كروز: هيغل، ص 116.

هل جهلنا بالشيء والقوانين التي تحكم الظواهر يعطينا الحق بالطعن فيها أم هو قصور في

العقل البشري والمعرفة الإنسانية؟!

لعل أهم ما يميز فلسفة هيجل مقولته أن الحقيقة النهائية والتي هي أساس الحقائق جميعا هو

الروح أو العقل الذي لا يبلغ مرتبة إدراك نفسه إدراكا كاملا إلا إذا اجتاز عدة مراحل واستوعبها

لأن قوام الحقيقة هو الفكر والفكر وحده، ولهذا لا بد من تفسير كل شيء تفسيراً عقلياً لأنه ليس

للحقيقة مقياساً آخر تختبر به سوى الفكرة<sup>23</sup>.

وهذا تأكيد على تمجيد الفكر في الفلسفة الهيجلية فهو قوام الحقيقة ووحده المقياس، وبناء

عليه يتم تفسير كل شيء الذي لا يكون إلا بناء على العقل.

وإذا كان الفكر اللامتناهي هو الحقيقة النهائية، فإن ما يصاد الفكر (كالمادة) مثلاً ليس هو

الحقيقة على الرغم من أن المادة متناهية - أي يمكن التحقق منها مخبرياً ومعرفة مكوناتها منذ الثورة

(الكوبرنيكية) وباستور ونسبية نيوتن... - لهذا يؤكد أغلب النقاد على الغموض الذي يكتنف

فلسفة هيجل إلى جانب الشعب الذي يصل حد التناقض أحياناً، ففي التاريخ مثلاً يعتمد على

المنطق في تفسيره لتاريخ العالم حيث يبدأ بالشرق مجماً إياه في مقولة كبرى ثم الحد الأوسط وهو

اليونان والرومان وكل شيء ينتهي عند الغرب عموماً وعند الجرمان على الخصوص.

نلاحظ أن: هيجل كسابق عهده يقوم بإنكار أي دور للآخر في التاريخ متجاهلاً ما قدمته

الحضارة العربية الإسلامية للغرب الحديث، مكتفياً في ذلك بالحديث عن الحضارات الشرقية القديمة

كالصينية والهندية والزرادشتية مدجماً البابلية والآشورية والمصرية وحضارات الفينيقيين والكنعانيين في

الفارسية، وهذا دليل آخر على تناقض هيجل وجهله بحضارات الآخر رغم ما حققته من تقدم وما

قدمته من تجارب وعلوم إستفادت منها اليونان والإنسانية جمعاء.

<sup>23</sup> زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج1، د.ط، 1967، ص 139.

وللتوضيح أكثر فإن المذهب المثالي الهيجلي يقوم على فكرة أساسية مفادها أن الأشياء الموجودة في العالم الخارجي موجودات متناهية علما أن الحقيقة حسب المذهب المثالي لا متناهية.

وإنطلاقا من ذلك نصل إلى نتيجة وهي أن هذه الأشياء ليس لها وجود حقيقي حسب منطق هيغل إلا إذا إرتبطت بالعقل والعكس صحيح، أي أن كل ما هو عقلي يمكن أن يكون واقعا وهو تحقيق للفكر وهو خطوة في سبيل الوصول إلى المطلق بتعبير هيغل.

إذا أردنا الوصول إلى الحقيقة وجب علينا أن نتجاوز هذه الوقائع الظرفية لنصعد إلى مرحلة أعلى، وهذا يؤكد لنا أن ثورة المثالية الهيجلية تركز على هذه الفكرة البسيطة في ظاهرها والعميقة في معناها وعمقها يأتي من كونها قوة دافعة وهي محل إختلاف وفي الوقت نفسه تشكل مصدرا لثورة المذاهب الأخرى عليها، وذلك أنه إذا إعتبرنا الفكر هو أساس الحقيقة فذلك يعني أن كل ما لا يتفق مع الفكر يجب أن نتجاوزه باعتباره غير حقيقي، والإنتقال إلى مرحلة أعلى وهي المرحلة، التي سوف تكون أكثر صدقا من سابقتها، ولهذا الفكرة نستغرب من موقف هيغل السلبي تجاه الحضارات الشرقية عامة والعربية الإسلامية على وجه الخصوص ومن المفروض أن يعطيها الأهمية القصوى لأنها كانت بمثابة الانطلاقة والأساس!.

إن المذهب الهيجلي بهذه الكيفية لا يصل إلى النهائية...؟

ثم ما هي المرحلة التي تطمئن إليها باعتبارنا قد انتهينا إلى الحقيقة الكاملة؟ إن التناقض يكمن في أن هيغل يصل إلى الحقيقة التي أقر عدم التمكّن من امتلاكها من قبل وينتهي التاريخ عند الجرمان!

وبهذه الكيفية فإن إمتلاك الحقيقة الكاملة يعني أن الفكر أو الروح قد وصلت إلى نهاية المطاف، وبالتالي الوصول إلى مرحلة الوعي الذاتي على حد تعبير هيغل، ولما كانت الروح في سعي دائم للوصول إلى غايتها فهي لا تقنع قط بالحدود والمنتاهي، فكل مرحلة تحمل في طياتها بذور

فنائها أي أنها تعمل دائما على تحطيم سابقتها حتى تكون لها جسرا تعبر منه إلى مرحلة أعلى، وهكذا نتبين أن المثالية الهيجلية تسير في خط مضاد تماما مع الفلسفة التجريبية وذلك " لأن لوك وهيوم وغيرهما من التجريبيين قد حصروا الناس في حدود ما هو معطى أي في حدود النظام القائم للأشياء والحوادث وأصبح من العسير تجاوز هذا النظام..."<sup>24</sup>.

بهذه الكيفية تصبح الفلسفة التجريبية تابعا لمعطيات الواقع الخارجي فهي المرجع الأخير وفي الوقت ذاته الحقيقة النهائية التي لا يمكننا تجاوزها مثلا: إذا تطرقنا لتجريبية هيوم نجد أن المبدأ الأساسي في هذه الفلسفة هو الإقرار بالسلطة المطلقة للواقع الذي يعكس لنا جميعا الإنطباعات الحسية التي تكون في نهاية المطاف أم أفكارنا ومنبعها سواء كانت أفكارا مؤسسة أو وجهات للنظر نستقيها عن طريق الحواس الخمس من العالم الخارجي، وإلا كانت أوهاما كاذبة ومعنى ذلك أن معيار الصدق هو التطابق مع هذا المصدر الخارجي.

لكن السؤال المطروح كيف نغير هذا الواقع لكي ندفع به إلى الأمام؟

إذا كان هذا الواقع هو الأساس وهو المصدر النهائي على اعتبار أن الرجوع المستمر إليه يؤدي إلى تجميده وبالتالي تصبح عملية التعاطي مع الواقع التجريبي عملية روتينية خالية من كل إضافة أو إبداع.

في هذا السياق يعترف هيغل: " بأن الفلسفة الطبيعية لم تعد الآن مقبولة بل هي اليوم أقل قبولاً مما مضى، لأن العلوم الطبيعية قد خطت خطوات عملاقة دون مساعدة من الفلسفة، وهو لا يريد أن يخلط حاجات الفلسفة بالمسائل العلمية"<sup>25</sup>.

<sup>24</sup> - ماركيز هيرت: العقل والثورة، ص 43.

<sup>25</sup> - إيلود سبنسر، أندريه رجي كروز: هيغل، ص 124-125.

يردف هيغل: " إن مثل هذا الدجل (فلسفة الطبيعة) أي الخلط بين العلم والفلسفة كما مارسه شلنج لن تكون النتيجة منه إلا عبارة عن تشويه لسمعة الطبيعة التي تواجهنا كلغز ومشكلة تثار أمامنا، فإذا رغبتنا في حلها إبتعدنا عن الحقيقة، فهو يجذبنا لأنه يؤكد على وجود الروح في الطبيعة وفي الوقت نفسه يبعدها لأن الطبيعة تبدو وجودا غريبا عنا، نظر إليها الغرب نظرة العدو، وبهذه الكيفية لا تجد فيه الروح نفسها وربما هذا هو السبب الذي دفع بأرسطو إلى القول بأن الفلسفة تبدأ من الدهشة والتعجب<sup>26</sup>! .

إن المتأمل لسير التاريخ - كما رسم مساره هيغل - يتأكد أن وراء حركيته طاقة تكمن في أولئك الأفراد العظماء الذين تتخذهم الروح أدوات ووسائل لتحقيق غاياتها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن وجود هؤلاء العظماء لقيادة الشعب والدولة وإخراج شعوبهم من الأزمات، إن تحقيق هذه الغاية تجعلنا نعتز بدور هؤلاء العظماء ونطلق عليهم لقب " الأبطال "، وما المراحل التاريخية إلا تجليات لتلك الروح التي بدأت من الشرق ذو الحضارات العريقة لتسير نحو الغرب حيث يحتضنها اليونان وتترعرع عند الرومان وتستكمل نضجها عند الجرمان حسب تعبير هيغل الذي لا يعترف بأي دور للشرق.

بناء على ما تقدم طرح السؤال التالي: من يحرك التاريخ؟ هل الأفراد أم الشعوب أم

الظروف الطبيعية أم العناية الإلهية أم أشياء أخرى؟!



## خامسا - علاقة هيغل بفلاسفة التاريخ السابقين:

إن إيراد فلاسفة التاريخ: أوغسطين، ابن خلدون، افيكو، بوسويه، مونتسكيو، فولتير، كوندرسيه، كانط وهردر،... إن إيراد هؤلاء المفكرين بعد التطرق لفلسفة التاريخ عند هيغل لم تكن محط صدفة ولا عملية عشوائية، بل تم التركيز على هذه الزمرة بالذات من باب إبراز الجوانب التي تأثر بها هيغل لديهم وللتأكيد على أن ما كتبه لم يكن من العدم ولا من إبتكاره الخاص .

لقد إعتاد هيغل - ومنذ فترة مبكرة من حياته أن يطلع على كل ما تقع عليه عينه وفي مختلف العلوم، حيث كان لا يكل ولا يمل من القراءة والمطالعة، كما إعتاد أن يسجل كل العبارات والمعلومات التي تروق له، حيث بدأ ومنذ الخامسة عشر من عمره في تدوين يوميات لم يكن بطبيعة الحال عبارة عن مسائل شخصية بل كانت مقتطفات وتلخيصات لما أتم قراءته، لقد أراد أن يستوعب كل شيء، ولما كان عقله لا يتسع لذلك الزخم الذي كان يقرؤه، فقد كان يستعين على ذلك بتدوين تلك المعلومات في دفاتر، يذكر دارسي هيغل أن معظم الإقتباسات في مؤلفات هيغل الناضج كانت تحوي أخطاء لأن هيغل كان وباستمرار يقتبس من ذاكرته تلك، وإذا كان هيغل قد صرّح بإطلاعه على بعض المؤلفات وتأثره ببعض المفكرين فإنه لم يفعل ذلك بالنسبة للجميع الذين أخذ عنهم، لقد إتسم فكره بالتنوع والغنى لكن ذلك كان على سبيل التجميع لا الإبتكار.

فلو حاولنا عقد موازنة بين سانت أوغسطين وهيغل، لخرجنا بالنقاط التالية :

أنه لمن الصدف العجيبة أن يعيشا في ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية مزرية مماثلة تلك الظروف التي كانت الحافز لكليهما للتبرم من الحاضر والإهتمام بالتراث ودراسة الآثار اليونانية للوقوف على كنوزها التليدة كمصدر للتباهي والتغني بأمجادها .

ذلك أن من لا يجد في واقعه السلوى يبحث عنها بين الكتب وهو ما حدث بالضبط مع المفكرين، حيث أن فترة الضياع النفسي والإنغماس في الشهوات الجسدية والمذات هو إحدى صيغ الهروب من ذلك الواقع المريض المزري، ونظرا للحقبة المشبعة بروح الديانة المسيحية التي كان كل من هيغل وأوغسطين قد أخذها منذ طفولتهما إن عملية المد والجزر بين نزعات الضياع والتركيز العقلي والرصانة لم يطل زمانها واتضح ذلك في العودة إلى جادة الصواب والإرتقاء من جديد بين أحضان الديانة المسيحية محاولين الخضوع والإنسحاق لمبادئها لعل ذلك يسد جانبا من الفراغ الروحي الذي أحدثه اليتيم والتشتت الإجتماعي منذ مرحلة الصبا عند كليهما!

فأدركا أن التفكير أو الفلسفة أو الحكمة هي ما يحقق طمأنينة النفس وغاية الروح في عالم محفوف بالعناية الإلهية، وإذا كان أو غسطين قد آمن أشد الإيمان بأن الحياة مسرحية كتبها الله ويمثلها البشر فإن هيغل لم يبتعد عن هذه الفكرة كثيرا عندما قال بفكرة "دهاء العقل" التي تتحكم - ليس فقط في فعل وأثر الإنسان العادي - المستنير بالعقل بل في المنقذ أو البطل!

ليتفقا كل من أوغسطين وهيغل حول أن الله مبدأ كل وجود ويكفي أن يستطعن الإنسان ذاته ليجد نفسه ويتعقلها ويجد فيها الله،

إن فكرة (الحلول، أو الفيض الإلهي) قد اتضحت عند هيغل من خلال تلك العلاقة المتينة والغامضة في ذات الوقت بين مراحل تطور الروح والمطلق الذي يفهم حيناً على أنه أقصى مراحل تقدم الروح من جهة، في صورة العقل أو النوس) ومن جهة أخرى على أنه الله، أو منبع الكمال والحكمة!

كما أنه إذا كانت مدينة الله الفاضلة - عند أوغسطين هي جسم المسيح الذي ينمو مع الأيام والذي سوف يكتمل نموه في الوقت المحدد له سلفاً، فإن ذلك لن يكون غير فكرة المطلق الذي هو أقصى تطورات الروح عند هيغل بعد القضاء على اغتراب الروح في الطبيعة والمحسوسات



وتحقيق الإئتلاف بين المدينة السماوية والمدينة الدنيوية (وهي الروح في الطبيعة) بعد إخراج الوجود بالقوة (الروح: أخلاق العقل،...) إلى الوجود بالفعل وإزالة الصراع بين الشيء ونقيضه ذلك التعارض الذي نلمسه في فلسفة أو غسطين بين حب الذات وحب الله بين راحة الجسد وطمأنينة الروح وعند هيغل في التركيب بين الثالوث المسيحي : الأب والإبن والروح القدس (أي تركيب المطلق) كما يرى هيغل أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد حققت ذلك التركيب من خلال إتحاد مملكة الناسوت (الدولة) مع مملكة اللاهوت بعد إعتناق الإمبراطور للمسيحية والخروج من الديانة الوثنية القديمة!

وهكذا إتجه كل من أوغسطين وهيغل إلى إقامة فلسفة التاريخ على أسس مثالية رغم أن ذلك كان بعد تفحص الواقع وتحديد الدواء الذي هو عند أوغسطين ضرورة عودة المسيحية لسالف عهدها كعقيدة تعمل على إرشاد أبنائها لطريق الخلاص، طريق مدينة الله، وهي في رأيه مزهية ولا تشوبها شائبة، غير أن الأمر عند هيغل مختلف قليلا حيث يدعو إلى تنقيتها من بعض الشوائب حتى تصبح ديانة الجميع المتواضعة والديانة المبتهجة، الديانة التي تعكس المسيح كصديق للبشر على إختلاف طبقاتهم، بدل الناسك الواعظ الذي يتحدث للناس من على قبوة جبل، المسيح الذي يريده هيغل أن تكون شخصيته مثل شخصية سقراط الذي رغم نبوغه وحكمته، فهو حلیم ومتواضع،...

#### أ- بين عبد الرحمن ابن خلدون وهيغل :

إذا كان إهتمام هيغل بفلسفة التاريخ يعود إلى محاولة إيجاد مشروع سياسي يخرج بروسيا الإقطاعية من حالة الضعف والركود والإنحطاط، فإن سبب إهتمام ابن خلدون يرجع إلى الإضطرابات السياسية وتدهور الأوضاع على مختلف الأصعدة وفي كافة الميادين في العالم العربي الإسلامي، حيث دفع ذلك ابن خلدون إلى محاولة الإستقصاء عن العلة ومواطن الداء خاصة وقد كانت الأوضاع التي عاشها مجالا خصبا لكل ذلك .

لهذه الأسباب إهتم ابن خلدون بحركية المجتمع وأطوار الدولة محاولا إستخراج قوانين تتحكم في سير التاريخ وبناء الحضارات مصورا تلك الفكرة في تشبيه بليغ حيث رمز لتطور الدولة ومراحل قيامها وانحطاطها بالكائن الحي الذي ينمو ويتطور ويزدهر ثم يهن ويضعف ويموت، كما جعل لكل مرحلة من مراحلها إمتداد جيل من الزمن وهو متوسط عمر الإنسان في عصر ابن خلدون وهو أربعون سنة .

أما هيغل فنجده يستغل هذه الفكرة مع تحويل بسيط لها يتمثل في إطلاق التشبيه البيولوجي على مراحل تطور التاريخ العالمي بدلا من الدولة محمدا المفهوم في " الإنسان " بدلا من " الكائن الحي " كما هو واضح في استخدام كلمات مثل: طفولة الإنسانية (الشرق) الشباب (اليونان) والكهولة (عند الرومان)، والشيوخوخة كأقصى مراحل الخبرة والنضج والحكمة (عند الجرمان).

إن التاريخ البشري هو ذلك التطور العاقل لأن الفكر هو الذي يحكم التاريخ وأن تاريخ العالم هو الروح وقد تجسدت في كل مرحلة من المراحل المختلفة، وذلك عبر منطق الجدل الذي يحكمه مبدأ التناقضات بين الأحداث تسيرها العناية الإلهية وترسم طريقها، وهي الفكرة التي نجدها عند ابن خلدون لكن في صيغة وقالب مختلف يتمثل في القول بالنواميس والسنن الخالدة التي تتحكم في الحياة والاستخلاف على وجه هذه الأرض، إضافة إلى قول كليهما بفكرة الجدل التي تتحكم في سير التاريخ، غير أنه إذا كان مسار التاريخ عند ابن خلدون يتخذ شكلا دائريا حلزونيا مفتوحا فإنه عند هيغل يتخذ شكلا متدرجا من الأسفل إلى الأعلى وذلك راجع بطبيعة الحال إلى نوعية المقدمات التي انطلق منها كل منهما، حيث إعتد ابن خلدون على السنن الإلهية والمنهج الرباني وبالتالي إستحالة تقرير النهاية، بينما إنطلق هيغل من أفكاره الذاتية (رغم تذرعه بالعناية الإلهية) التي لم يدعها تقرر نهاية التاريخ وقررها هو بدلا عنها .

لأن القول بالجدل والنقائض يحتم أن يبق المجال مفتوحا، غير أن ما حدث أن هيغل أوقفه عند الجرمان وهكذا، يعتمد هيغل إلى تقسيم مراحل التاريخ البشري حسب هواه وبطريقة تعسفية أوقف الجدلية، عند حدود عصره، بل دولته".<sup>27</sup>

إن التاريخ عند هيغل هو تاريخ الروح في تقدمها ، والروح هي الفكر على إتساع مداركه وتشعبها وأساس الملك أو تطور التاريخ متجليا في الدولة هو " العصبية" عند ابن خلدون تلك اللحمة أو الشعلة الفعالة التي يمتزج فيها العقل، والمنطق بالرغبات والعواطف والتطلعات، وهو ما يدفع للقول أن القومية وسمو العرق التي عول عليها هيغل في تحقيق الدولة الجرمانية المزدهرة (كإحدى آخر محطات التاريخ) هي ذاتها التي يعلق عليها ابن خلدون آماله في إخراج العالم الإسلامي من التمزق والتطاحن والإنحطاط غير أن العصبية التي يدعو إليها ابن خلدون أكثر إتساعا وأعمق معنى من حيث مدلولها الإنساني (إنضواء مختلف الأمم في الدولة الإسلامية) بينما هي أضيق مجالا عند هيغل الذي يحصرها في الجنس الآري الذي يعتبره أرقى الأجناس على الإطلاق .

#### ب- بين هيغل وفيكو:

من المؤكد أن الثقافة التي نهل منها كل من هيغل وفيكو هي عند الأول (معهد توبنغن وعند الثاني كلية اليسوعيين). بمعنى أن المرجع لكل منهما هي الثقافة المسيحية إلى جانب الإفادة من الكلاسيكيات وهو الأمر الذي جعلهما لا يختلفان من حيث الإستناد إلى العناية الإلهية في الحوادث التاريخية التي هي محور الديانة المسيحية، إلى جانب القول بالبطل في الأزمات والفوضى وبضرورة الحرب كعملية إيجابية لتحريك التاريخ وإحداث التغيير والتطور وخاصة بالنسبة للدول والشعوب الجامدة والمتعاسة التي لا بد لها من غزو من شعب أو دولة أخرى أقوى منها، وهي الفكرة التي

<sup>27</sup> - علي سعد الله : رسالة دكتوراه، نظرية الدولة في فكر ابن خلدون وهيغل وأثر الفكر الخلدوني في الفكر الأوروبي،

إستهوت هيغل كثيرا وجعلته يبارك الغزو الفرنسي للجزائر، هذه الفكرة المبررة للإستعمار كأساس للتقدم هي التي أنجبت الدولة النازية واعتبارها كأساس للمسيحية أما فيكو فيذهب إلى تمجيد اليهود ويرى -معهم- أنهم شعب الله المختار!

#### ج- بين هيغل وبوسويه :

ما قيل عن أوجه الإلتقاء بين أوغسطين وهيغل في فلسفة التاريخ يقال عنه وعن بوسويه لأن هذا الأخير اقتفى اثر أوغسطين ولا يكاد يختلف عنه .

#### د- بين هيغل ومونتسكيو :

يقيم مونتسكيو فلسفة التاريخ على الفهم العميق للعلاقات والروابط المنطقية والأسباب التي شكلت العقل من خلال تأكيد مونتسكيو على القانون كموجب بشري والذي تعد الحرية الفردية والسياسية أهم عوامل تفعيله وصياغته، وهو إلى جانب الحرية يركز على العوامل المناخية والمواقع الجغرافية وتحكمها في توجيه نشاطات الإنسان ونوعية حضارته .

كما أكد مونتسكيو على عظمة الرومان وأرجع سبب إنهمارهم إلى الدين المسيحي وهو الدافع الذي جعل هيغل يولي أهمية قصوى لإصلاح الدين المسيحي ليصبح أساسا وعملا للرقى والتقدم وبالتالي يساعد الجرمان على انبثاق الروح الحرة بدل أن يكون معول هدم وانحطاط .

#### هـ- بين هيغل وروسو وكانط :

بداية يجب أن نؤكد على أن للترعة المثالية الألمانية -بأسرها- وشائج قري تربطها بالحركة الرومنسية، تلك الحركة التي نجدها عند روسو تعبيرا عن تدمير الناس وقد سئموا العقل . وتحجر القوانين إلى جانب صرامة المنهج العلمي الذي سيطر على كل مناحي البحث والتفكير واخترق حتى المجالات التي كانت من قبل محرمة عليه (مثل الدين) وهو الأمر الذي دفع بروسو إلى استبداله

بالقلب أو ما أطلق عليه هيغل (الروح)، بمعنى أن كلا من روسو وهيغل قد حاولا إيجاد مبادئ وأسس جديدة للمعرفة وهي أسس ذاتية بدل تلك التي نادى بها كل من لوك وهيوم،...

إن تلك النزعة الذاتية التي حاول من خلالها -الفلاسفة الألمان- إنقاد المعرفة هي أكثر إكتمالا وإقناعا عند كانط وذلك من خلال نقد المعرفة كوسيلة للوصول إلى حقائق فلسفية ففرق بين ملكتين (الفكر أو العقل أو ما يطلق عليه هيغل الروح) والذهن وهي ما يقابل المادة أو ما يعبر عنه هيغل (العقل في حالة اغتراب في الطبيعة)، وهو الذي تأثر بمبادئ روسو وبأسلوبه خاصة في قوله بمناشدة القلب ضد العقل النظري البارد.

لقد نشأ كانط على التقوى وتعاليم اللاهوت وقد تعاطف مع الثورة الفرنسية وآمن بمبادئها وهو القائل: لا شيء أبغض من أن تكون أفعال الإنسان خاضعة لإرادة الآخرين " 28

يرى كانط بأنه قام بثورة كوبرنيقية في الفلسفة حيث يرى أن العالم الخارجي يعطينا مادة الإحساس فقط، لكن العقل هو الذي يتولى تنظيم تلك المادة في المكان والزمان ويزودنا بالتصورات (القبلية) التي تفهم بمقتضاها التجربة .

لقد استمد هيغل من كانط قوله أن العقل هو الذي يؤسس العالم وبينه، وأنه مرتبط به لأنه من إنتاجه وأن العقول الشخصية إن هي إلا أجزاء في العقل الكلي أو " المطلق"، وهكذا استمد هيغل الفكرة الجوهرية والدعامة الرئيسية لفلسفته وهي " المطلق" وعلاقته بـ " الطبيعة" أي علاقة اللامتناهي بالمتناهي في فكر كانط. 29

28- بتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ص 316.

29- عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص 194.

و- بين هيغل وفولتير: يعد فولتير المفكر الذي عبّر بعمق عن روح عصر التنوير من خلال التزعين العقلية والعلمانية المتحررة من القيود الدينية للكنيسة، إنه محصلة عصر الأنوار بتطوره العلمي والفلسفي وسقوط الخرافة والدين المزيف.

لقد اعتبر فولتير دراسة التاريخ هي اللبنة لفهم وتفعيل الحاضر وهي النظرة التي كانت وراء قلب الأوضاع والثورة الفرنسية، تلك الثورة التي كان يرى فيها هيغل حلم بلاده وصدى أفكار القومية الألمانية، قبل إنحرافها عن خط مبادئها.

إن مسار التاريخ تجليات لنشاط وإبداع الإنسان الذي هو محور كل حضارة، والقوة المحركة لكل رقي أو تقدم، وعليه فالعبقرية الإنسانية هي الأجدر بالدراسات التاريخية لا الحروب وأخبار الساسة والملوك.... ومن نالت حياة الشعوب إهتمام فولتير ذلك أنه رأى ضرورة أن تشمل الدراسات التاريخية كافة الشعوب بدلا من النظرة الضيقة التي كرسها بعض الفلاسفة الأوروبيين والعبرانيين مثلما هو الحال عند أوغسطين وفيكو وعليه إنتقد فولتير العهد القديم كأساس للتنظير .

#### ي- بين هيغل وكوندراسيه وهردر:

لقد إهتم كوندراسيه بدراسة ماضي الأحداث الإنسانية بغية تحديد مسار تطورها من الماضي وحتى المستقبل من خلال الوقوف على منجزات العقل البشري، وعليه فهو يذهب مثل هيغل إلى أن التاريخ هو مسار العقل وتعبير عن منجزاته ومقدار تمتعه بالوعي والحريّة في كل مرحلة، وعليه ذهب كوندراسيه مثل هيغل، إلى أن الإنسانية كانت تعيش في تخلف وهمجية حتى المرحلة الرابعة وهي المرحلة التي تلي إختراع الكتابة وبالتالي تميزت بالتلوين وتقسيم العلوم، ورغم إعتراف كوندراسيه باستفادة اليونان من تراث الشرق، فإنه يرى -مثل هيغل- أن الخطوات الأولى

في تقدم الفكر البشري بدأت من اليونان مبررا ذلك بتمتع اليونانيين بالحرية وانعدام الكهان الذين يحتكرون العلم مثلما هو الحال في بلاد الشرق مثلما ذهب إلى ذلك هيغل .

إن المسار الذي رسمه للتاريخ، كل من : هيغل وكوندرسيه وهردر هو خط يتجه من أسفل إلى أعلى حيث يرى هردر أنه لا تتساوى في التاريخ لحظتان كما لا تتساوى لدى الصوفي ومضتان بمعنى أن مسار التاريخ ذو اتجاه تقدمي وأن كل مرحلة تعلقو على سابقتها وهو زحف له أسسه العلمية والطبيعية المتركرة أساسا على الحرية والوعي، لكن تلك الحرية وذلك الوعي يتجهان ليحققا غاية التاريخ .

# الفصل الخامس

## دور العظام في حركة التاريخ



## أولا - دور الأفراد في التاريخ عند هيغل:

في مسيرة الروح الكلية ينهض كل طرف من أطراف الشعب بمهمته فالدول والشعوب والأفراد كل يقوم بوظيفته من أجل تحريك عجلة التاريخ، فالتأمل في حركية التاريخ الهيجلي يدرك أن هناك طاقة كامنة في الأفراد والمجتمعات والدول ولدى العظماء، تقوم بدور المحرك، وهم في نهاية المطاف أدوات ووسائل من أجل تحقيق هذه الطاقة التي هي الروح، ولهذا نسمي القادة الذين يبادرون بالأعمال الجليلة -بهدف تحقيق غاية الروح- ندعوهم أبطالاً أو عظماء أو شخصيات مهمة بارزة عبر مراحل التاريخ المختلفة.

إن دور الأفراد في التاريخ عبارة عن أدوات غير واعية ولحظات لفعاليات حركية التاريخ، غير أن الشراح تنبهوا إلى أن هيغل لم يهتم في الفصول الخمسة الأولى من كتابه: (الفينومينولوجيا) بالتطور التاريخي للبشرية، ولكنه اقتصر في تحليله لعناصر التجربة على تعاقب المراحل الجدلية، لإرتقاء الوعي البشري، وكأنه يريد أن يقدم لنا صورة أولية عن الإنسان المجرد والخارج-تماما- عن علاقات المجتمع عن الإنسان (الأداة) حتى يفصل بين الشخصية العظيمة الحكيمة، القائدة وباقي الأشخاص.

فالإنسان الذي يقصده هيغل هو الذي يجبا ضمن الجماعة ولكن دون أن يكون إجتماعيا بمعنى الكلمة، وكان وجوده الواقعي تحوّل إلى وجود سياسي لأنه يعمل في نطاق الدولة، ويحقق من الأفعال ما يخلق التاريخ يعني أن هذا الإنسان يساهم في حركية التاريخ من حيث لا يدري، هذا التاريخ البشري الكلي لأنه مهما كانت الأحداث فسوف ترتبط بالتاريخ الكلي .

نلاحظ هنا: أن هيغل يقصد الدولة الغربية التي تأملها في ذهنه وتمنى أن تكون ألمانيا (بروسيا) هي هذه الدولة، لأن المقاطعات الألمانية في عصره كانت جامدة وقد أعطانا مثالا ببرلمان نورمبرغ.

والغريب أن هيغل ينظر إلى الدول الشرقية التي تحدث عنها بأنها دول جامدة منذ مئات السنين وأنه لا حركية فيها وأن الفرد الشرقي يذوب في أسرته كما يذوب في إمبراطوريته فليست لديه لا حرية ولا إرادة، ولا شخصية مستقلة لأن شخصيات الأفراد تذوب في أسرهم وفي إمبراطورياتهم.

إذن: فهو يتحدث عن الإنسان المواطن في نشاطه الاجتماعي والسياسي ابتداء من المدينة اليونانية القديمة حتى عصر نابليون، والإمبراطورية الفرنسية، وانتهى - ولو بالتأمل - إلى الشعب الألماني الذي رأى فيه أرقى درجات العقل المطلق حيث يقول: "إن دهاء العقل يحرك دوافع الأفراد الخاصة لكي يتحرك التاريخ" ويصنف هيغل هؤلاء الأفراد في أربعة أصناف :

أ- المواطن: هو الإنسان العادي الذي تتفق إرادته مع إرادة الدولة فهو يتكيف مع الأخلاق السائدة في مجتمعه. كما أن هذا المواطن ليس له إرادة مستقلة، فهو لم يدرك وجوده الذاتي ولم يع حرته، نلاحظ: أن تعريف المواطن عند هيغل لا ينسحب على المواطن الشرقي الذي لا يتمتع بالإرادة ولا بالحرية ولا بالشخصية الذاتية!

ب- الشخص: هو الذي يمكن أن يتجاوز أخلاق مجتمعه ويتصرف بحسب وعيه بحريته الذاتية، فقيمه وأخلاقه تعارض ما هو سائد في مجتمعه من قيم وأخلاق ولهذا يضرب لنا مثالا بسقراط الذي رفض الأخلاقيات السائدة في مجتمعه على الرغم من أنه قد استمر في أداء واجباته كمواطن<sup>1</sup> بحسب هيغل هذا النموذج لا وجود له في العالم الشرقي.

ج- البطل: إن التاريخ هو حركة دياكتيكية تتداول عليها الأمم، والعبقريات هي أدوات بيد المطلق. فعظماء التاريخ ليسوا بمنتجي المستقبل بمقدار ما هم منقادين، وما يخرجون به يتبناه روح العصر فالعبقري يضع حجرا على كومة من الحجارة التي كدسها السابقون عليه، ومن أمثلة

<sup>1</sup> - هيغل: مبادئ فلسفة الحق، ترجمة تيسير شيخ الأرض، ص 365.

هؤلاء الأبطال عنده، الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون بونابارت، وعظمة هذا الأخير عند هيغل لم تكن في غزو ألمانيا فحسب وإنما في تأسيس الدولة الحديثة الأولى في العالم.

إذن: فهو الأمل الذي سيقضي على النظام الإقطاعي في ألمانيا مثلما قضى عليه في فرنسا.

وهكذا يرى هيغل أن أبطال التاريخ هم رجال عمل وسياسة وليسوا من نوع الفلاسفة والفنانين وليس لديهم طاقة على تأمل الفكرة التي يعملون على تحقيقها، ولكن لديهم حدس واستبصار ولديهم الشجاعة لتحقيق ما يفرضه العقل والتاريخ.

**د - الضحية:** وهو الذي تحركه ظروفه الخاصة، فلا يتبع إرادة مجتمعه إن هدفه ينحصر في نجاحه وسعادته الخاصة وهؤلاء الأشخاص التاريخيين الذين كان دورهم - وسطاء لروح العالم - كان مصيرهم بائسا جدا، فحياتهم كلها كانت عمل وجد واجتهاد وعناء، وعندما يبلغون مقصدهم يسقطون كما تسقط أوراق الأشجار في فصل الخريف لأنهما تكون قد وصلت إلى وقت الأfol بعد أن أدت دورها كما يجب.

- فالإسكندر الأكبر، بعد أن انتصر على الفرس مات.

- ويوليوس القيصر، غدر به في مجلس النواب بعد أن عاد من حروبه منتصرا.

- ونابليون مات في منفاه (سانت هيلانة) كئيبا حزينا وحيدا رغم ما حققه للإمبراطورية الفرنسية من مناطق نفوذ وإعادة تجديد هياكل الدولة وتحديث نظمها وطرق تسييرها، ورغم ذلك تنكر له الفرنسيون ونفوه<sup>2</sup>.

والسؤال المطروح هل البطل انطلاقا من خلفية التكوين الذي تلقاه في المجتمع، يعتبر مدينا لمجتمعه الذي رفعه إلى المراتب العليا. أم أنه هو الذي رفع مجتمعه لكي يتصدر أحداث العالم ذلك أن الحضارة في صميمها ماهي إلا تاريخ العظماء وما أنجزوه؟ إن كل ما تم إنجازه في العالم إنما هو

<sup>2</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 101.

الحصيلة المادية الخارجية والتحقق العملي والتجسيد الحي لأفكار عاشت في عقول عظماء عاشوا في هذا العالم إنهم روح التاريخ، إنهم روح التاريخ العالمي كله!؟؟"<sup>3</sup>.

### ثانيا - نظرية الحتمية الاجتماعية في البطولة :

يعد هيغل من القائلين بنظرية الحتمية الاجتماعية، وأهم حادثة وقعت له مع البطولة هي رؤيته لنابليون قرب مدينته بينا وحينها قال : "إني أرى روح العالم على ظهر حصان"، ومؤدى هذه النظرية هي القناعة الموجودة لديه بأنه لو لم يكن هناك نابليون لكان من الضروري أن تعبر الروح الميتافيزيقية عن حركيتها بظهور شخص آخر ينفذ تعاليم "دهاء العقل" إن المسار الديالكتيكي لفكرة الحرية هو الذي يقود رجال الفكر والأبطال والعظماء ويحدد لكل منهم دوره، وأن العظيم يستطيع أن يدرك بوعيه حركية التاريخ في زمانه وفي محيطه الضيق أي مجتمعه والمحيط القريب منه وكذلك في بقية أنحاء العالم لذلك فإن فعله سيكون تجسيدا لإرادة الروح، حين تستدعيه اللحظات الحاسمة التي تمثل الفترات الانتقالية في تاريخ الجنس البشري ويتوفر لديه إدراك حدسي غامض. مما سيكون عليه النظام العالمي أو نظام مجتمعه المحلي ووفقا لحدوسه يترجم ما ينبغي فعله سياسيا أو عسكريا أو اقتصاديا .

ويضيف هيغل أن هذا العظيم قد يكون غير واع بأهداف الروح ولكن دهاء العقل الذي يتبطن مسار التاريخ يجعل البطل يحقق بأفعاله أهداف الروح ومقاصدها النهائية.

لأن الرجل العظيم في نظر هيغل نطفة كامنة في رحم الزمان قذفت بها الروح الباطنية، ليحدث ميلاده تغييرا شاملا في كل ما حوله.<sup>4</sup>

<sup>3</sup> - توماس كارليل: في الأبطال وعبادة البطولة، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دمشق، 1970، ص 21.

<sup>4</sup> - Hegel : Lecture on the philosophies of history, eng, transl, by sibree, P 36.

يبدو من خلال ما سبق أن الرجل العظيم لا يظهر إلا حينما تكون الحاجة إليه ماسة، وإن كان ذلك لا يعني تحديد شخصه أو أفعاله أو آرائه ولكن العبرة بالنتائج المترتبة على هذه الآراء، والأعمال لابد أن تساعد على تحرير القوة الإنتاجية وتسد حاجات المجتمع.

إن نظرية الحتمية الاجتماعية عند هيغل تؤكد أن ظهور شخص دون غيره في زمن محدد وفي بلد بالذات ليست "مخط صدفة" لأنه حتى لو قضى على ذلك الشخص بالعجز والموت أو الاختفاء فستظل حاجة المجتمع ماسة وملحة إلى بديل عنه في المدين المتوسط والبعيد .

إن هيغل المعجب بمبادئ الثورة الفرنسية سرعان ما لام القائمين عليها بسبب التجاوزات الكثيرة التي وقعوا فيها وأرواح الأبرياء التي سقطت بدون أي ذنب اقترفته لذلك فقد أطلق على هذه الفترة التي أعقبت قيام الثورة الفرنسية بفترة الإرهاب وكتيجة لإنهاك قوى الطرفين المتصارعين تحتم ظهور نابليون ولكن الحتمية تؤكد أنه حتى لو لم يبرز ذلك الرجل الكورسيكي لظهر نابليون آخر، ذلك أن الظروف القائمة وقتذاك كانت تحتم قيام الثورة ضد الملك فبوصول الحكم إلى المأزق أصبحت الحاجة ماسة إليه أو إلى غيره، ولكن ليس من الضروري أن يكون البديل نسخة طبق الأصل ولكن الحتمية تقتضي أن الآثار التي ترتبت على تصرفات نابليون كانت ستقع كنتيجة لتصرفات البديل لأن إزالة التناقضات الاجتماعية والسياسية والإقتصادية حتمية تاريخية ولا بد أن تتم على أيدي أفراد من البشر !.

إن ظهور العظيم هو محصلة قوى إجتماعية وفكرية وروحية، هذه قضية لا جدال فيها، ولكن أصحاب النظريات الحتمية كانت تحدهم نظريات مسبقة -مثل فكرة الروح عند هيغل - مما جعل نظريته تتسق مع مذهبه في فلسفة التاريخ ولكنها جعلت العظيم أسير قوى حتمية وغائية في المجتمع لذلك بدا دوره غير متناسب مع الأحداث -التي عادة ما تحمل طابع الزعامة والعظمة- علما أن نظرية هيغل في البطولة لم تضع في اعتبارها الاحتمية كأن تتدخل عناصر أخرى بحيث تؤثر في المسار العالمي للأحداث وخاصة القوى الموجودة في طي النسيان. إلا

أن النظرة الموضوعية لتقدير دور البطل أو الزعيم التاريخي إن له وإن عليه توجب مراعاة اعتبارين أساسيتين :

1- تجنب الإدانة الشديدة لأفعال الرجل العظيم، إذ يقول المثل الصيني "الرجل العظيم مصيبة عامة، لأن الأبطال قد شقوا طريقهم إلى العظمة وصدارة الأحداث بالحرب وبالقتل وسفك الدماء"<sup>5</sup>.

مثال ذلك: أن نابليون الذي يعتز به هيغل قد تسبب في قتل نصف مليون فرنسي في الحملة على روسيا، ثم اعترف فيما بعد بأن تلك الحملة كانت من أكبر أخطائه وما يقال عن نابليون ينسحب على عظيم ألمانيا النازية (هتلر) الذي أراد تطبيق فلسفات متطرفة مثل فلسفة هيغل ومنتشه وغيرهم... حيث تسبب في مقتل أكثر من عشرة ملايين ألماني وتقسيم ألمانيا إلى عدة أقسام، وقد اعترف هتلر بخطئه الإستراتيجي في توزيع قواته وأنتحر، وما يقال عنهما ينسحب أيضا على صدام حسين المغرر به في خطط الإمبريالية العالمية، لذلك يمكن أن نعتبر الملوك والساسة والعسكريين قد عرقلوا تطور الحضارة، لكن رغم هذه الإدانة الصارخة فإن السؤال مازال قائما: هل كان يمكن تجنب المآسي البشرية لو لم يظهر هؤلاء العظماء؟

ثم ومن ناحية أخرى، هل كان يمكن لعجلة التاريخ أن تدور دون ظهور مثل هؤلاء؟ ودون أن تدفع البشرية ثمن دورها مآسي وكوارث وقتلى ومعطوبين؟ .

هل ما يقره هيغل وما هو واقع بالفعل يؤيد مقولة هيرقليطس "الحرب أب الأشياء جميعا وملكها، وأن التنازع - لو زال بين البشر - لتوقفت الحياة وسكن الوجود؟"

<sup>5</sup> - سيدني هوك: البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، ص 227.

أكان كانط على حق عندما قال : إن عدوان الإنسان وحروبه التي تبدو ظواهر لا اجتماعية ولا أخلاقية تكشف آخر الأمر عن وجود نظام قانوني؟<sup>6</sup> علما أن مقولة كانط لا يعني بها أنه مع الحرب ولكنها على الأقل تخفف من الأحكام القاسية على القادة سواء العسكريين أو السياسيين، وفي الوقت ذاته مجارة للنظرية الاقتصادية اليونانية التي ترى بأن العلاقة بين نمو الموارد الاقتصادية وتزايد عدد السكان هي علاقة عكسية بحيث أن الموارد الاقتصادية تزيد بمتواليه حسابية 1، 2، 3، 4... الخ. وعدد السكان يزيد بمتواليه هندسية : 2، 4، 8، 16، 32... الخ.

أي أنه مهما تزايد النمو الاقتصادي فإن النمو الديمغرافي سيكون ازدياده بوتيرة أسرع إذن: كلما تحسنت الظروف الاقتصادية أدى ذلك إلى سرعة في النمو السكاني وهو ما يحول دائما دون تحقيق الأمن الغذائي والاكتفاء الذاتي في الإنتاج الزراعي والصناعي وهو ما سيؤدي إلى كوارث، كالمجاعات، والحروب... .

إذن : كأن هذه المآسي التي ستقص من عدد السكان حتمية لإحداث التوازن بين القوى المنتجة والموارد الطبيعية، فكأن العناية الإلهية هي التي تتدخل لتنظيم العلاقة بين عدد السكان والإنتاج الاقتصادي ولهذا، فإن هيرقليطس عندما أكد على ضرورة الحرب انطلق من هذه الفكرة. لكن هل من الضروري أن ننتظر حدوث الكوارث بدل القيام بتنظيم المواليد - مثلا - والتحكم في زيادة الإنتاج ليتناسب طرديا مع عدد السكان؟!!

من الواضح أن مضمون تلك النظرية لا يصدقه الواقع، فعدد السكان آنذاك كان ضئيلا جدا، وإمكانية زيادة الإنتاج كانت ممكنة التحقيق، غير أن هذه النظرية قد اختارت الحل الأسهل، وهو قتل البشر بدلا من إحيائهم وهو ما قامت به الرأسمالية الغربية سواء نحو الأفراد كعمال داخل أوروبا أو كعدول عملت على استغلال ثرواتها التي ارتكزت على أفكار استعمارية تسلطية من

<sup>6</sup> - Kant : Critique de la raison pratique in : œuvres philosophiques des prolégomènes aux écrits de 1971, Gallimard, Paris, 1985, PP 610-643.

طرف الآخر. الفرد الذي يتصور جوعا نتيجة لعجزه في مجال الصناعات التحويلية وإنتاج ما يستهلك وقد عملت (الدول الاستعمارية) على تحويل البنية الاقتصادية للآخر لخدمة النظام الرأسمالي الإستعماري، مثلما وقع في الجزائر<sup>7</sup> حيث كانت -ومنذ الاستعمار الروماني- تعتبر من أغنى البلدان في إنتاج القمح واللحوم والخضروات والفواكه،... ولم تقم زراعة الكروم لصنع الخمر إلا مع مجيء الاستعمار الفرنسي الذي غير البنية الاقتصادية للمجتمع الجزائري لتخدم مصالحه، فغير نمط الزراعة من إنتاج الحبوب (التي هي الغذاء الأساسي للسكان) إلى إنتاج الكروم لصناعة الخمر الموجهة أساسا للمجتمع الأوروبي، ولهذا فقد أصبح الجزائري يجوع لأن الخمر لا تنسجم مع عقيدته، وأرضه تحولت بفعل تسلط الأنا الغربي إلى أرض تنتج لغيره، فقد حوّلها الاستعمار باعتباره الأنا المتفوق، دون مراعاة لطبيعة الآخر ولا لعقيدته ولا لعاداته الاستهلاكية.

### ثالثا- الحرب كأداة مساعدة للتغيير عند هيغل :

يطرح هيغل موضوع "الحرب" في كتاباته السياسية والتاريخية كإحدى وسائل التقدم للروح في التاريخ وكإحدى وسائل التغيير وتنمية العقل البشري وتحقيق الروح لذاتها. ومادام المنهج الجدلي الهيجلي يقوم على فكرة أن السلب هو أساس الإيجاب فهل يمكن إعتبار الحرب ظاهرة إجتماعية صحية بالنسبة للشعوب بدل ركودها واستسلامها؟

فهل الحرب وسيلة سلبية لإحداث نتائج إيجابية؟

هل هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لحل التزاغات وهل تهون نتائجها الوخيمة على الإنسانية

أمام ما تحدثه من تغيرات؟

هل ثمة التغيير دائما هي التقدم والرخاء أم أن نتائج الحرب يمكن أن تكون انتحار

ودمار؟

<sup>7</sup> عبد الله بوقرن : الهوية في الفكر الجزائري الحديث ، رسالة ماجستير مخطوطة، ص 8-9.



ثم إذا وضعنا مبدأ العنف والحرب في ميزان الشعور الأخلاقي الإنساني، أي الكفتين سوف ترتفع، المؤيدة للحرب أو الداعية للسلام؟

ترى كيف سيؤسس هيغل آراءه ونظريته حول الحرب!

إن الحرب من ناحية الإثارة هي أعظم الظواهر الإجتماعية لفتا للأنظار واستقطابا للإهتمام طالما أن الظواهر الإجتماعية تاريخ مفهوم من وجهة نظر خاصة، قد يمكن الزعم بأن الحرب أنجبت التاريخ<sup>8</sup>، وأنه يمكن إعتبار التاريخ الإنساني برمته هو تاريخ الصراع المسلح، وأنه ليس من المحتمل أن يكون في المستقبل غير ذلك، إن الحروب هي أشد علامات التاريخ وضوحا فوق خريطة العالم وأهمها رسما للحدود وللتحولات العظيمة التي شهدتها الإنسانية عبر العصور، ففي طريق الحرب أفلت حضارات عريقة ولم يبق منها سوى آثار دالة عليها فاسحة المجال لظهور حضارات أخرى<sup>9</sup> جديدة ومن خلالها أيضا تأكد التفوق الذي أقام لفترة طويلة أو قصيرة نمطا من المجتمعات على رأس البشرية.<sup>10</sup>

وهذا إقرار على أن ظاهرة الحرب إحدى عوامل حركة التاريخ من منظور أنها تبيد حضارات فاسحة المجال لظهور أخرى، وبهذا المعنى هل يمكن اعتبار الحرب ظاهرة بشرية طبيعية وإيجابية عند هيغل؟

قبل التعرض إلى الحرب عند قدماء اليونان - وهي الفترة التي تأثر بها هيغل كثيرا -، تطل على الميتولوجيا الصينية حول الحرب والسلام.

من المؤكد ومنذ كونفوشيوس فإن الفكرة الغالبة على الفكر الصيني والهندي هو تفضيلهم للسلام على الحرب، إلا أنه قبل فترة كونفوشيوس قد سادت خرافات تحكى عن معارك طاحنة

<sup>8</sup> - Hegel : La raison dans l'histoire : trad. K. Paraissonoi, coll.10.18, Paris, 1985, PP 107-110.

<sup>9</sup> - Hegel : Principes de la philosophie du droit, trad. France, Ed Gallimard, 1967, P 332.

<sup>10</sup> - غاستون بوتول : الحرب والمجتمع، ترجمة عباس الشريبي، مراجعة وتقديم، د. محمد علي محمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1973، ص19.

كانت قد جرت بين الآلهة والشياطين والمردة والتي يشارك فيها الناس في بعض الأحيان وكذا بعض الحيوانات كالقردة وغيرها، وفي كتاب (الفيدا) *vidas* تخصيص لملاحم هذه الحروب، مثل ملحمة (الرميانا) وهي تروي كيفية إجراء الحفلات الدينية حيث تطغى عليها المعارك وتنتهي بمصارعة الخير للشر وإما أن يصاب ممثل الخير بجروح ليسدل الستار على الحفل في انتظار التهيؤ لحفل آخر ومعركة أخرى وهكذا دواليك، والشيء نفسه تعبر عنه المعابد الهندية حيث الملاحم التي تجسد الصراعات بين الآلهة (أمدار) و(مترا) و(فارونا) ثم (براهما) و(فسنو) و(سيفا) والربة (كالتى) ليتصارعوا في صخب فوق عرباتهم الحربية.<sup>11</sup>

إذن المستخلص من هذه الأساطير الشرقية القديمة هو: الإقرار بأن الإنسان البدائي كان أشبه الحيوانات من حيث إتجائه للعنف لافتكاك حاجياته الأساسية بخلاف النظرية التي تقول أن الإنسان البدائي لم يكن يلجأ إلى العنف والحروب من أجل ضرورات العيش وإنما وقوع العنف يرجع لأسباب كامنة في النفس البشرية كحب التملك والاستحواذ والسيطرة... إلى أن نصل إلى الاستعباد حيث سنوضح جدلية السيد والعبد عند هيغل .

بعد استعراضنا بإيجاز لما كان سائدا في الحضارات الشرقية وتحديدًا (الصينية والهندية) يمكن الحديث عن الحرب في الميثولوجيا اليونانية وبالتالي الأساطير التي كانت تتحدث عن آلهة الحرب في المدن اليونانية! .

الحقيقة أن مدن اليونان قد عاشت حروبا مستمرة رغم المعاهدات التي كانت تبرم بينها، بين الفينة والأخرى لإحلال السلام وفض الخلافات إلا أن الحروب لا تلبث أن تشتعل مرة أخرى، لهذا فإن اليونان قد إعتبروا الحرب (حالة طبيعية)<sup>12</sup> وقبلوها بإعتبارها جانبا هاما من قانون الطبيعة علما أن الميثولوجيا اليونانية أخذت الأساطير المتعلقة بالآلهة وقصة صراعهم مع العمالقة

<sup>11</sup> - المرجع السابق، ص 24.

<sup>12</sup> - أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية، قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ط، 1954، ص 177.

عن قصيدة (تيوغونيا) = (أصل الآلهة) للشاعر هيزيود، كما نقلت بعض هذه الروايات عن ملحمة هوميروس (الإليادة والأوديسيا) وعن قصيدة (ميتاماروفوز) = (مسخ الكائنات) للشاعر الروماني (أوغيدي)<sup>13</sup> لأن هذه الميثولوجيا قد إستمرت حتى العصر الروماني مع الأخذ في الإعتبار المدارس الفلسفية اليونانية التي بقيت حتى فترة حكم الرومان للمنطقة وخاصة الفترة السابقة على إعتناق الإمبراطور للمسيحية .

لقد ربط اليونان توالد الآلهة بالطبيعة كالظلام الدامس والأرض الشاسعة، والشمس المشرقة والقمر النير والفجر اللازردى ثم من بقية النجوم ومن إتجاهات الرياح ومن السحاب والرعد والمطر،... الخ من مظاهر الطبيعة.

كما أنجبت الأرض أيضا العمالقة والجبابرة الذين يتميزون بعين واحدة في الجبين ناهيك عن المردة العظام الذين تكون أجسامهم وأعضاؤهم مغايرة لأجسام الآلهة والبشر ذلك أن عدد رؤوس المارد الواحد قد يناهز الخمسين وأذرعته تناهز المائة وبهذه الطريقة تقع الصراعات والصدامات بين الإلهة (Zeus)، وتضيف الأسطورة أنه نتيجة لغدر أحد الأبناء بأبيه فقد ولدت آلهة الظلمة جمعا غفيرا من الآلهة المروعين: تانات (إله الموت) أيريد (الفوضى)، أباي (الخداع)، كير (الدمار)، وهيجنوس (النوم المصحوب بأسراب الكوابيس الثقيلة الرهيبة)، ونيميسيدا، التي لاتعرف الرحمة، ربة الانتقام والجرائم، وغيرهم كثيرون، وهكذا فقد حمل هؤلاء الآلهة الرعب والفوضى والخداع، والصراع والتعاسة الذين كان أبوهم المغدور به يحتل هذا العرش<sup>14</sup> ، وكما أشرت سابقا فإن الميثولوجيا اليونانية تهيمن عليها فكرة الصراع والحرب ولا ننسى أن هيغل تأثر كثيرا بثقافة اليونان، لذلك فإنه يعتبر الحرب جزء من المجتمع أي أنه ليس مجرد حادثة عفوية أو صدفة جوفاء، وإنما هناك أسباب كثيرة، قد تؤدي إلى قيام حروب طاحنة، في أي مجتمع.

<sup>13</sup> - عماد حاتم: أساطير اليونان، دار الشرق العربي، بيروت، ط2، 1994، ص ص53-54.

<sup>14</sup> - المرجع نفسه، ص 55.

أ- الحرب حتمية اجتماعية عند هيغل : "إن وجود الشر في التاريخ ضرورة كونية... والشر المقصود هنا هو الشر الموضوعي، أو الألم الناجم عن الحروب والخراب والإنقلابات العشوائية، ويعزو (هيغل) إلى هذه الشرور وتلك الآلام أهمية كبرى أولية باعتبارها توجه سير التاريخ، فالتقدم -في نظر هيغل ذا وجه عابس، صارم، قاس بالضرورة، والسير في التاريخ يكون وراء مطلب (الحرية) الذي يجب أن يتحقق، والحرية نفسها التي لا بد أن تظهر، وتبزغ".<sup>15</sup> والحرب تبعا لذلك هي أكثر الظواهر الاجتماعية إحداثا للتغيير وأسرع السبل للتحول، الذي يقيم هيغل أساسه النظري على منهجه الجدلي القائم على مبدأ صراع الأضداد من أجل الوصول إلى مرحلة التركيب أو المطلق، فالحرب ليست نتيجة كراهية شعب لشعب آخر بل أن دورها الأساسي تحريك التاريخ من خلال تحريك حياة الشعوب، بحيث لا تتركها تتكاسل وتستكين "إن الحرب هي التجربة الأعظم في تاريخ وحياة الشعوب فهي تظهر في الخارج ما عليه الشعب في الداخل كما أنها تؤكد حرية الشعب أو تسلبه إياها، كذلك فالحرب ترفع من الروح المعنوية للأفراد حين يشاركون في الدفاع عن وطنهم فيتجاوزون مصلحتهم الخاصة وأنانيتهم الشخصية، فيتحدون مع الكل/ ويبحث المؤرخون عادة عن أسباب مختلفة لهذه الحروب التي تنشب بين الشعوب بعضها مع بعض".<sup>16</sup>

ب- الحرب وتطور التاريخ: وحسب هيغل يوجد في التاريخ أسباب منطقية معقولة لتبرير الحروب التي بالإضافة إلى أنها ظاهرة ضرورية فإنها "ظاهرة صحية" بالنسبة للشعوب الأخلاقية".<sup>17</sup> ويبرر صحة الحرب ويبرز إيجابياتها فيقول : "إن صحة الدولة بصفة عامة لا تكتشف بقوة في هدوء السلم بقدر ما تنكشف في لهيب الحرب، لأن السلم هو حالة الاستمتاع والنشاط في

<sup>15</sup> - عبد الفتاح الديدي: نوايغ الفكر الغربي في القرن 20، هيغل، دار المعارف، مصر، 1968، ص ص 107-108.

<sup>16</sup> - كامل محمد محمد عويضة: الأعلام من الفلاسفة، هيغل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 85.

<sup>17</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات في الفلسفة السياسية عند هيغل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الكويت، 1993،

عزلة، لا سيما إن كانت الحكومة أبوية منتصرة عاقلة لا تتطلب من رعاياها سوى مطالب عادية فحسب ، أما في حالة الحرب فإن قوة الترابط التي تجمع أفراد المجتمع في كل واحد تصبح واضحة".<sup>18</sup>

إذن : الحرب أحد أسباب تطور الروح وتقدم الوعي نحو الحرية، وهو ينفي أن تكون أوقات السلام والرخاء عصورا تاريخية، لأنها أزمدة تخلد فيها الروح إلى الخنوع والسكينة لأن هيغل يرى أن جوهر التاريخ والروح هو الحركة والتغير.

إن الحرب تجربة عظمى في تاريخ وحياة الشعوب وهي تُظهر في الخارج ما عليه الشعب في الداخل، كما أنها تؤكد حرية الشعب أو تسلبه إياها.<sup>19</sup> إن ما يهم هيغل ويصبو إليه من خلال الحرب هو تكاتف الأفراد وتوحدتهم حول غاية واحدة هي الدفاع عن الجماعة التي هي (الدولة) . "إن المصير الذي تصبح بواسطته حقوق الأفراد وإهتماماتهم مرحلة زائلة هو في الوقت نفسه اللحظة الإيجابية التي تقرر فرديتهم المطلقة لا الفردية المعارضة العابرة، ومن ثمة فإن هذه العلاقة والإعتراف بالواجب الجوهرى للفرد، فواجبه إستقلال الدولة وسيادتها بتقبل المخاطرة والتضحية بالملكية والحياة وكذلك التضحية بالرأي وبكل شيء آخر يمت بطبيعته إلى مجرى الحياة".<sup>20</sup>

إذن: ترتبط ضرورة مشاركة الفرد في الحرب من خلال إظهار -هيغل- للعلاقة الوطيدة التي تربط بين الدولة والفرد وهي علاقة متبادلة التأثير فكما أن للدولة واجب حماية حقوق مواطنيها فإن من واجب الفرد أن يهب للإستماتة والدفاع عن الدولة وحمايتها لأن زوالها يهدده هو نفسه بالزوال من خلال فقدانه لحقوقه وأملاكه.

<sup>18</sup> - المرجع السابق ، ص 40.

<sup>19</sup> - كامل محمد محمد عويضة: الأعلام من الفلاسفة، ص 85.

<sup>20</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات في الفلسفة السياسية عند هيغل، ص 77.

كما أن كل "أمة ترغب في الظهور إلى الوجود عليها أن تؤكد فرديتها وروحها بالظهور على مسرح التاريخ (وهو يعني بكل تأكيد بأن ذلك لا يتسنى إلا) بأن تقاتل الأمم الأخرى".<sup>21</sup>

إن الإلتزام الوحيد للدولة تجاه الدول الأخرى ذات السيادة هو : أمنها ورفاهيتها ومنافعها الخاصة، وإن مُسّت هذه العناصر فليس أمام الدولة سبيل سوى الحرب ذلك أن الحرب تصبح ضرورة طبيعية شأنها شأن الرياح التي قد تعصف لتهدم مياها البحر فينتفض ويرمي بما لحقه من أجسام غريبة - فوق الشاطئ!

وهكذا يصبح للحرب دور إيجابي هو " بمثابة القوة المحركة لتطور الطبيعة ".<sup>22</sup>

وبالتالي فإن هيغل -حسب كارل بوبر- قد تراجع عند مسانده لمبادئ الثورة الفرنسية وأعاد إكتشافه لأفكار هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو المعارضة لها ويعني بذلك أفكارا ضد العقل والحرية،...

وبالتالي فإن هيغل قد أعاد إكتشاف مبادئ أخرى إستمدتها من عمق التراث اليوناني الذي مجده أكثر من أي شيء آخر . مستلهما مبدأ (القوة) معتبرا إياها المحرك للعالم كله بما فيه الحياة الاجتماعية للإنسان، ومن هنا كانت القوة هي الحق، وكانت "الصحة الأخلاقية للشعوب هي نشاطها الحربي وإستعدادها للقتال"<sup>23</sup>!

والدولة في علاقتها بالدول الأخرى معفاة من الأخلاق فعلاقتها لا أخلاقية ومن ثم فإن علينا أن نتوقع أن الحرب ليست شرا أخلاقيا...."<sup>24</sup>

<sup>21</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات هيغلية، ص139.

<sup>22</sup> - المرجع نفسه، ص 140.

<sup>23</sup> - **K.R. Popper** : « the open society and its enemies » vol1 routhedge began , paul, London 1968, p64.

<sup>24</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات في هيغلية ، ص140.

ويرى هيغل أن أبطال التاريخ أو الفاتحين الكبار من أمثال الإسكندر المقدوني أو يوليوس قيصر أو نابليون قد دمروا كثيرا وقتلوا الآلاف من البشر في معاركهم ولكن ذلك كان ضروريا لكي يتوصل البشر إلى الحقيقة والنور، وبالتالي فإذا كان كل ما هو واقعي عقلائي فهل أن ما يحصل في التاريخ من مجازر وحروب وآلام هل هو شيء ضروري وعقلائي؟<sup>25</sup>

#### رابعا - دهاء العقل:

العقل عند هيغل هو في الواقع جوهر التاريخ يسوس العالم وأن كل شيء جرى في التاريخ قد جرى بصورة عقلية، فالتاريخ هو تطور لمنطق محايت لا تشكل فيه الشخصيات التاريخية الكبرى سوى أدواته اللاواعية، إذ تجرهم أهواؤهم ويحققون مصالحهم، ولكن "تتحقق في الوقت نفسه غاية أكثر بعدا لا يعنونها (لا يقصدونها) ولم تكن في نيتهم".<sup>26</sup> وهذا هو ما يسميه هيغل "دهاء العقل".

يقصد هيغل بـ "دهاء العقل" الفكرة الكلية المستترة وراء الأفكار الجزئية المتعارضة والمتصارعة التي تعبر عن المصالح الفردية التي يعمل بعضها على تحطيم البعض الآخر محققا في النهاية الهدف الغائي للتاريخ الذي هو المطلق والذي هو في النهاية (العقل) باعتبار أن العقل عنده "أنا متكثرت في نحن ونحن مؤتلف في أنا".<sup>27</sup>

<sup>25</sup>- إيزي إيرلين: الحرية وحياتها، الناشر شيليكو لندن، 2003، ص181.

<sup>26</sup>- رونيه سيرو: هيغل والهيغلية، ترجمة أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، ط1993، ص40.

<sup>27</sup>- هيغل: فينومينولوجيا الفكر، ترجمة وتعليق مصطفى صفوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981،

إن الفرد أو الجزئي لا قيمة له بجانب الكلي فالأفراد كأفراد يذهبون ضحايا إما موتاً أو نبذاً وشقاءً، ويقابل هذا السقوط إثبات الفكرة العامة ورسوخها لدى الشعب الذي يحملها في علو وافتخار ومن أجلها يتصدى لكل العقبات ويقاوم كل الغزوات محافظاً عليها".<sup>28</sup>

وفي بعض الحقبات تتحطم " بنية الروح لدى شعب من الشعوب " لأنها تكون قد تأكلت وفرغت من جوهرها، غير أن التاريخ الكلي يتابع سيره إلى الأمام، عند ذلك تحصل الصدمات الكبرى بين المؤسسات القائمة حتى ذلك الوقت والإمكانات المعارضة لهذا المنتظم فتقوضه، ولكن هذه الصدمات مضمونا يبدو جيداً، بل وضرورياً، لذلك تصبح هذه الإمكانات تاريخية، إذ أنها تنطوي على أساس كلي يختلف عن الأساس الذي كانت تقوم عليه البنية الراهنة لهذا الشعب أو تلك الدولة، هذا الكلي إنما يستولي عليه عظماء التاريخ ويجعلون منه غايتهم الخاصة، وإذا يحققون مطامعهم فإنهم يحققون في الوقت نفسه الغاية التي تتناسب مع المفهوم الأعلى للروح، وهكذا يظهر دياكتيك التاريخ، وإن ما يحقق تقدم البشرية هو التناقضات والصدمات التي تؤدي إلى إحالة الأشياء إلى حقيقتها، أما الحقبات السعيدة، أي تلك التي يسود فيها الإنسجام وتغيب فيها التناقضات، فليست حقبات تاريخية".<sup>29</sup>

إن هيجل يستعيز بمبدأ القوة عن السلم والتآخي والمساواة، ويرجع إلى تاريخ الفترتين اليونانية ثم الرومانية التي يمجدهما كثيراً وبالتالي يعتبرها القدوة لتحقيق الدولة الجرمانية الحديثة كيف ذلك؟

لقد أعلنت اليونان القديمة ديمقراطية محدودة أي أن بعض الناس كانوا أحراراً لأن أغلب السكان كانوا عبيداً ولم يكن من حقهم حتى لقب " مواطن " .

<sup>28</sup>- ريمون روية: نقد المجتمع المعاصر، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط 1978، ص 111.

<sup>29</sup>- رينه سيرو: هيجل والهيجلية، ص 41.



وهكذا إكتشفت أئنا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين بالمناظرة التاريخية بين العبيد والسيادة حيث تنتهي إلى تشتت المجتمع حسب تضارب المصالح والتزعات الطبقية للمجتمع، لكن بعد قيام روما فقد أعلنت مبدأ عاما هو مبدأ "الشخصية العالمية".<sup>30</sup>

إن الشخصية العالمية هي الإمبراطورية الرومانية التي كانت تعتنق المسيحية ومن ثم مكنت على أرض الواقع للإتحاد بين مملكة اللاهوت السماوية ومملكة الناسوت وهي الدولة التي هي تحريد غير حقيقي ولا معنى له إذا لم يتحقق ذلك بتعاون الأفراد جميعا وبأفكار مشتركة في خدمة الدولة ولتوضيح ذلك أكثر يقول هيغل: "الحرب هي حالة تعالج على نحو جاد تفاهة الخيرات الزمانية والأشياء العابرة، وهي تفاهة كانت في أوقات أخرى موضوعا شائعا للمواعظ المنمقة - وهذا ما يجعلها تمثل اللحظة التي تبلغ فيها مثالية الجزئي حقها وتوجد بالفعل فالحرب ذلك المغزى الرفيع، إذ بفضل فاعليتها تحافظ الشعوب على صحتها الأخلاقية حين تقف موقف اللامبالاة من المؤسسات المتناهية تماما مثل هبوب الرياح يحفظ ماء البحر من التلوث الذي يأتي نتيجة فترة طويلة من السكون والركود.... كذلك فإن فساد الأمم يوجد نتيجة لفترة طويلة من السلام، دع عنك السلام الدائم".<sup>31</sup>

\* إن "هانز كوهن hanskohen" قام بتنفيذ هذا الرأي وكشف عما فيه من مبالغة خاطئة، حيث يقول: "إن هيغل يقارن بين الحرب في أهميتها وبين الصحة الأخلاقية للشعوب والرياح التي تهب فتحفظ ماء البحر من التلوث والفساد لو مرت عليها فترة طويلة من السكون والركود، هيغل يقول ذلك عام 1802 أي قبل عشر سنوات من حرب التحرير".<sup>32</sup>

<sup>30</sup> - عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 24.

<sup>31</sup> - هيغل: أصول فلسفة الحق، ص 210.

<sup>32</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات في الفلسفة السياسية عند هيغل، ص 143-144.

إذن : يرى كوهن أن هيغل قد كون آراءه قبل حرب التحرير، وذلك يعني أن لآرائه أثرها في إندلاع تلك الحرب .

\* يرى رودولف هيم أن هيغل ذا فكر رجعي وأنه كان من دعاة الملكية البروسية وموحيا بالدعوة إلى القوة التي ترى في الحرب وسيلة لا غنى عنها للدولة في نموها".<sup>33</sup>

-أما كارل بوبر فإنه يرى أن هيغل قد كان الفاشي الأول وأن النازية قد استمدت من هيغل مبررات قيامها وهو نفس الراي الذي ذهب إليه (ميسكون) و(هيلير) أن هيغل كان رائدا لسياسة القوة التي دعا إليها بسمارك وهي السياسة التي كانت بعيدة كل البعد عن الديمقراطية بالمعنى المعروف لكلمة ديمقراطية.

وليس بعيد عن هذا المعنى ما جاء في كتاب ميهوس في النظرية الميتافيزيقية للدولة قوله: " لقد شاهدت لتوي الغارة الجوية على لندن نتيجة لمذهب باطل شرير توجد أسسه على ما أعتقد، في هذا الكتاب الموجود أمامي (ظاهريات الروح لهيغل) في هذا العمل بدأت أعمق المؤثرات العقلية التي قضت على تأثير التزعة الإنسانية العقلانية عند هيغل يوجد كل ما رايته أمامي بصورة كامنة".<sup>34</sup>

إن من أكثر ما منح هيغل ذيوغاً وشهرة هو فلسفة التاريخ " أو التاريخ الفلسفي الذي يتحكم بالأحداث من وجهة نظر كلية و لا زمانية، فالعقل بالنسبة لهيغل هو في الواقع جوهر التاريخ بالذات.<sup>35</sup>

<sup>33</sup> - عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ص 593.

<sup>34</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات في الفلسفة السياسية عند هيغل، ص 140.

<sup>35</sup> - رنيه سيرو: هيغل والهيغلية، ص 40.

وعليه ومن خلال آراء النقاد الذين رأوا في هيغل التحيز ومجانبة الصواب في دعوته إلى الحرب، رغم أن هيغل يدعي إعتقاد العقل والروح والمثالية في الفلسفة والتاريخ، فأى عقل أو روح أو مثالية التي إدعاها هيغل، أي مثالية يمكن أن تسمو فوق الواقع الذي لم يكتف بتبريره بل وتعداه إلى الدعوة إلى غرائز العنف والموت والدمار وهي غرائز لا تمت إلى مبادئ العقل بصلة ولا تستسيغها مشاعر النفس الإنسانية إن أبسط ما يمكن نعتها به أنها ربما تعبر عن علاقات مجتمع الحيوان في الغابة إن كان في ذلك ذرة من العقل والمثالية! .

إذا كانت الحداثة الغربية والتقدم الصناعي قد أفرزا إلى الوجود فكرا علمانيا لبراليا، فكر أغرته ملامح التطور العلمي والمادي لدرجة أثرت سلبا على الجانب الأخلاقي والديني الذي أخذ يتراجع أثره أمام الفلسفات المادية التي أخذت تتغلغل في كل مناحي الحياة، الإقتصادية والإجتماعية والسياسية على وجه الخصوص، تلك الفلسفات التي تغدت من الأيديولوجيات المختلفة والتي أبرزها (المركزية الغربية) وهي النظرة الإستعمارية التي زادت في تعميق أسس الخلاف بين الشرق والغرب، من خلال تطلعاتها المادية والمحاولات الدائمة من الغرب إلى إستعمار وإستعباد الآخر، الشرقي العربي الإسلامي، فإذا كان الغرب لم يجد سوى القوة كأساس لإذلال الآخر ولم يرى سوى الحرب كأداة للتفاهم، وحسم الخلافات -وهي وسيلة اضرارها ابلغ من منافعها للجانبين- فكيف كان موقف الحركات الدفاعية في صد الهجومات ومقاومة الإستعمار والحروب هل كانت الردود دائما هي نفس اللغة التي إستعملها الغرب، أم أن في تاريخ الصدام بين الشرق والغرب دروسا وعبرا حاول الإنسان الشرقي تلقينها لنظيره الغربي لأنه أدرك بأن وقعها سوف يكون أشد بلاغة وأعمق أثرا!

#### خامسا - غاندي وفلسفة السلم:

إذا كانت فلسفة الغرب تقوم على أن الغاية تبرر الوسيلة وأن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم واستخدام العنف أو القوة وكل ما يتبع ذلك من غرائز الموت والدمار، فإن غاندي قد

قلب ذلك الميزان وعكس النظرية محاولاً أن يلحق الغرب المتشدد بالتطور والتحضر أن غريزة العنف والقوة والمخالب هي غريزة الحيوانات في غاباتها، أما الإنسان المجهول على العقل والمؤهل للتطور والتحضر فيإمكانه أن يستحدث وسائل تتماشى والعصر الحديث الذي يعيش فيه من أجل الحفاظ على مكتسباته المختلفة عبر العصور ووسائل وأساليب تمكنه من الدفاع عن حقوقه واسترجاع ما سلب منه، دون اللجوء إلى القوة ودون أن يتناقض مع القيم الدينية والإنسانية الفاضلة القائمة على العقل والحكمة ليثبت عكس ما كان رائجا وهو أن ما أخذ بالقوة يمكن أن يسترجع بالاقوة!

ما هي أسس فلسفة اللاعنفي في نضال غاندي السياسي ؟

إذا كانت فكرة (اللاعنف) فكرة قديمة قدم الديانة المسيحية والهندوسية والبوذية... فإنها لم تتعدى أن تكون مجرد أفكار عقائدية روحية وهي إن وجدت من يؤمن بها على المستوى النظري فإن غاندي أشهر من حاول إعطاءها أهميتها الواقعية كسلوك دفاعي في الميدان السياسي أثناء تحرير بلاده عندما تعرضت الهند إلى الإستعمار الإنجليزي .

أ - الإستعمار البريطاني في الهند :

"في حين زحفت البلاد الغربية نحو البلاد الإسلامية وتوالت على البلاد تلو الأخرى، إهزم المسلمون أمام سيوفها أولاً، ثم إستسلموا بعد ذلك لثقافتها وحضارتها وفلسفتها (...). فالسيطرة السياسية كانت تتحكم في الأجساد فقط، أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت في العقول والأذهان"<sup>36</sup>.

وهكذا اجتهدت بريطانيا بكل ما تحمله من نوايا استدمارية من تفكيك مختلف البنى الوطنية والقومية للهند ودفن خصائصها ومميزاتها الحضارية سواء من خلال فرضها للتعليم الغربي

<sup>36</sup> - محمد عمارة: أبو الأعلى المودودي والصحة الإسلامية، دار الشرق، القاهرة، بيروت، ط 1991، ص 556.

وتعطيلها لأنواع التعليم التي كانت سائدة، أو من خلال سيطرتها على القطاعين الصناعي والزراعي مما نتج عنه الضعف الإقتصادي وانتشار الفقر والمرض والجهل، وما زاد هذه الأوضاع ترددا هو النزاعات الطائفية المشحونة بالأحقاد والتي أشعل فتيلها الإستعمار البريطاني في مختلف طوائف المجتمع وخاصة بين الهندوس والمسلمين .

ب - نبذة عن حياة موهنداس كرمشاند غاندي **gandhi mohandas karmachand**

ومصادر ثقافته :

ولد ببلدة بورباندرا الهندية في الثاني أكتوبر 1869 تزوج وعمره إثنا عشر سنة في سبتمبر من عام 1880 سافر إلى بريطانيا حيث تابع دراسته في القانون في الجامعة في 1891 عاد إلى الهند وعمل محاميا لمدة وجيزة.<sup>37</sup>

في 1893 سافر إلى جنوب إفريقيا للعمل غير أنه تفرغ للدفاع عن حقوق الجالية الهندية هناك ضد قوانين التفرقة العنصرية، نجح في إلغاء تلك القوانين التعسفية عام 1914م بعد مظاهرات نظمها إنطلاقا من عام 1911، عاد إلى الهند سنة 1915 للنضال من أجل تحرير الهند وطالب بإلغاء طبقة المنبوذين ادعى إلى تحرير المرأة والعودة إلى النظام التعليمي القديم وكان يرى أنه بالتربية الأخلاقية والدينية تتخلص من الكوارث الإجتماعية.<sup>38</sup>

كان هندوسيا مسالما أعجب كثيرا بـ ليون تولستوي الروسي الذي دعا إلى المقاومة السلبية ونبذ العنف والثورات الدموية وخاصة أعجب بكتابه " مملكة الله توجد في داخلك " كما تأثر بـ(ثوريو) الذي كان يوصي بالعصيان المدني ويتنسك بين أحضان الطبيعة، إهتم بما جاء في

<sup>37</sup> - المهاتما غاندي: قصة تجاري مع الحقيقة ، ترجمة منير العلبكي دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1981، ص 16.

<sup>38</sup> - روزنتال يودين: الموسوعة الفلسفية، ص 318.

الملحمة الهندوسية (بغافادة جينا) وهي ملحمة شعرية طوباوية كتبت في القرن الثالث ق.م الذي  
إعتبرها بمثابة قاموسه الروحي الذي يستلهم منه أفكاره.<sup>39</sup>

قرأ العهد الجديد وعبر عن ذلك بقوله : " لكن العهد الجديد ترك في نفسي إنطباعات  
مختلفة وبخاصة (الموعظة على الجبل) التي نفذت إلى قلبي مباشرة وقارنتها بالجيتا".<sup>40</sup>

حيث أعجب بالآية: وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن  
فأدر له الآخر أيضا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا".<sup>41</sup>

وهكذا تشبع غاندي بمبدأ الحب وليس العقل - كطريق موصل إلى الله أعجب غاندي  
بالدين الإسلامي وبقوله تعالى: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، إدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي  
بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم".<sup>42</sup>

كما كان من أشد المعجبين بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث قال : " قرأت  
الفصل الموسوم بالبطل على صورة نبي فتعرفت إلى عظمة الرسول العربي وشجاعته وحياته  
الصارمة".<sup>43</sup>

### ج- من أهم الأعمال التي تركها:

- كتاب: قصة تجاربي مع الحقيقة، الذي يعبر عن مختلف تجاربه.

- كتاب: اللاعنف في جنوب إفريقيا: وهو كتاب يعكس كفاحه لمدة 20 سنة في جنوب

إفريقيا.

<sup>39</sup>- راغها فان: تقديم الهندن ت عبد الحق بن شجاعت علي، دار الطبع انراباستا ايستيت دلهي الجديدة، د ط، ص86.

<sup>40</sup>- المهاتما غاندي: قصة تجاربي مع الحقيقة، ص89.

<sup>41</sup>- انجيل متى : الإصحاح الخامس، آ 40 و 41.

<sup>42</sup>- سورة فصلت، الآية 34.

<sup>43</sup>- المهاتما غاندي: قصة تجاربي مع الحقيقة، ص89.

- حضارتهم وخلصنا 1908.

-الحكم الذاتي 1908.

-منغال برايهات (يشرح فيه معنى الندور في أوقات الصلاة)... إلخ

#### د - مذهب غاندي :

من المصادر الثقافية والفلسفية لغاندي نستخلص أنه نهل من المصادر الدينية والأخلاقية وهو ما جعله ميثاليا بمبادئه كما إنخرط في الحياة السياسية والاجتماعية ونذر نفسه للدفاع عن طبقة المنبوذين والضعفاء، وهو الأمر الذي جعله إجتماعيا وواقعا يستلهم المبادئ الروحية السامية من خلال البحث الدائب عن الحقيقة.<sup>44</sup>

بالإضافة إلى ذلك فقد درس القانون وإطلع على أن : " حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين" وهذه القاعدة الذهبية (الغربية) للديمقراطية -حتى وإن شرعها الغرب ووضع بنودها- فإنه على ما يبدو لم يجد طريقا إلى تطبيقها على أرض الواقع، خاصة أمام المغريات المادية للثروات والخيرات التي تزخر بها بلدان الشرق، لكن (غاندي) الذي تشبعت روحه وصقلت عقلته على المبادئ الدينية السمحة قد أهتمته القناعة والجرأة على عدم السماح لنفسه بالتعدي على الآخر ولو كان ذلك من باب الدفاع ورد الظلم عن نفسه والدود عن أهله وأبناء وطنه وهي القناعة التي أهتمته فكرة التركيز على إثارة الضمير والأخلاق لدى الخصم، ذلك أن فضيحة الظلم تفتح العيون والقلوب وتربك المتحكم وتفقده قوته".<sup>45</sup>

إن "اللاعنف" بما يكتسيه من قوة معنوية مستمدة من مشروعية الأهداف والمبادئ ونبليها يجعل قوة السلاح بدون أثر أو صدى، ومن ثمة فالخصم في فلسفة "اللاعنف" ليس عدو ينبغي

<sup>44</sup> - روزنتال يودين: الموسوعة الفلسفية، ص 319.

<sup>45</sup> - عبد الوهاب الكيالي: موسوعة الفلسفة، ج4، ص 385.

القضاء عليه وذلك من منطلق تمجيدها لإنسانية الإنسان التي لا يجب الإعتداء عليها مهما كانت الأسباب والأخطاء، لذلك فالقاعدة الذهنية لللاعنف هو إخضاع الخصم لهزة شعورية تثير ضميره الأخلاقي النائم فيستيقظ، ذلك أن الإنسان خاضع للشر والحكمة تقتضي أن لا نعالج الشر بشر آخر فالعنف مقابل العنف مأساة لا تنتهي، كما أن اللاعنف ليس مجرد حل سهل يركن إليه الإنسان بعدما سدت أمامه كل المنافذ بقدر ماهو التفكير العميق والتحضير الدقيق، إنه فعل ايجابي يتطلب الشجاعة المعنوية<sup>46</sup> ويتوخى نتائج إيجابية وهو سلوك تتحكم فيه وتوجهه القدرة الداخلية والروحية التي تتمتع بها الذات.

واللاعنف أو الساتياغراها : مركبة من (ساتيا : satya) ومعناها = الحب (آغراها agraha) ومعناها : القوة (أي القوة المستلهمة من الحقيقة أو الحب.<sup>47</sup>

وبهذا المعنى فإن: الساتيا غراها تقوم على مبدأ الحرية والمسؤولية، باعتبارهما من المقدسات الأخلاقية والدينية للذات لا يخضعان بأي شكل من الأشكال للحياة الظرفية أو للحتمية التاريخية كما هو الشأن عند (هيجل) لأن منيع التقديس هو الدين وليس الفرد الذي يقدر ما يشاء وينفي هذه الصفة عما يشاء ومتى أراد.

إن سلبية العنف عند غاندي تستمد من المبادئ الغير مشروعة التي ترصد للدفاع عنها أفتك الأسلحة محاولة إيهام الخصم بقوة الموقف من خلال قوة السلاح خلاف ما يراه هيجل حول العنف وما يعلق عليه من أهداف!

**هـ- مبادئ اللاعنف :** ليس سلاح الضعيف ولا الخيار السهل في الموقف المأزق لأنه كما رأينا أن فكرة "اللاعنف" تقوم على الفهم العميق للموقف والتميز الواضح والعدل للحقوق بالإضافة إلى أنها حركة تنبذ البغض وتقدر إنسانية الإنسان ولا تسمح لنفسها بالدوس عليها لأنها

<sup>46</sup>- المرجع السابق ، ص 387.

<sup>47</sup>- المهاتما غاندي: قصة اللاعنف في جنوب إفريقيا، ترجمة منير البعلبكي ،دار العلم للملايين، بيروت، ص126.



تستلهم سلوكياتها وتستشير بالشرع الإلهي في مختلف مواقفها لذلك يقول غاندي: "يجرم إصطناع القوة المادية في الساتيا غراها، حتى في أنسب الظروف وأكثرها مواتاة".<sup>48</sup>

وعليه: فإن اللاعنف هو نبذ استخدام القوة في الدفاع أو إسترجاع الحقوق، أي أنه قهر للقوة البدنية (ليس بقوة بدنية أو مادية أخرى) بل بقوة الحق المدعمة بقوة الإرادة والروح.<sup>49</sup>

يقول غاندي: الساتيا غراها: قوة روحية خالصة، كلما كثرت المحاولات لإصطناع السلاح أو القوة البهيمية قلت إمكانية إصطناع القوة الروحية".<sup>50</sup>

إذن: الساتيا غراها هي سلاح الأقوياء وليس الضعفاء، والأقوياء الذين يقصدهم غاندي أقوياء روحيا وعقليا حيث يقول: "إن ثمة فرقا كبيرا وجوهريا بين الإثنين (المقاومة السلبية والساتيا غراها) وعدم التمييز بينهما يؤدي إلى نتائج مشؤومة".<sup>51</sup>

إذن: اللاعنف ليس علامة ضعف وعجز بل هو عمل بطولي دعامته الأساسية قوة الروح والعقل بالمبادئ الفاضلة بدل العنف الذي أساسه قوة العضلات والأبدان.

#### و - أساليب ومظاهر سياسة اللاعنف عند غاندي :

كما سبق وقلنا أن وظيفة اللاعنف تكمن في تذكير الخصم بأخطائه ومسؤولياته، وهذا التفكير قد يكون بالقول وقد يكون قبول أصناف التعذيب التي قد تمارس عليه، مثل السجن، وقد يكون بالإضراب عن العمل أو عن الطعام أو مقاطعة المستعمر ورفض التعاون معه، وقد يصل إلى العصيان المدني للقوانين التي تسنها السلطة الطاغية.<sup>52</sup>

<sup>48</sup> - المرجع السابق، ص 162.

<sup>49</sup> - قادر قلججي: غاندي ابو الهند.

<sup>50</sup> - المهاتما غاندي: قصة اللاعنف في جنوب إفريقيا، ص 161.

<sup>51</sup> - المرجع نفسه، ص 161.

<sup>52</sup> - ابابا نيت : قيس من فلسفة غاندي، مجلة الفكر المعاصر، المجلد 6، ص 9-10.

- لكن هل من الممكن أن يبقى الإنسان متمسكا بالسلم والصبر أمام ظلم وطغيان الخصم؟ بمعنى هل من نتائج إيجابية لهذا الأسلوب؟! .

رغم أن اللاعنف لا يمكن الإعتماد عليه كقاعدة مطلقة، لأنه قد يتجاهل ولا يصغى إليه خاصة إذا كان الخصم هو ممن لا يفقهون مغزى هذه اللغة، وكان ممن ختم الله على قلوبهم، كما أن هذه السياسة قد تكون نتائجها طويلة المدى وغير أكيدة المردود، إلا أنه لا يمكن إغفال قيمتها الأخلاقية ذلك أن غاية الوجود الإنساني هو التفاهم لا المجاهدة والإستخلاق لا الإستدمار.

كما أن القاعدة التي أقام عليها غاندي سياسته وإيمانه بأن النفس الإنسانية تخبئ الكثير من الطيبة قاعدة تعبر عن عمق الوعي وصفاء النفس والمنابع الروحية لغاندي، وهي القاعدة التي ساندها (جاك مارتان) قائلا: " هناك صفتان مختلفتان على جانبي طبيعتنا البشرية وأن تكون النعمات التي تخرج منها مختلطة دائما، مقاومة الشر بالهجوم والإكراه... ومقاومة الشر بالألم والصبر... تلك هي وسائل الصراع الروحي وهي من خصائص الشجاعة في التحمل، وتوازي الفعل الأساسي لفضيلة الثبات فهي ميزة أقوى الأقوياء كما قال غاندي".<sup>53</sup>

وعليه: مهما كانت مبالغة غاندي ومثاليته السياسية التي دعا إليها ورغم الإخفاقات التي قد تلقاها على الصعيد الواقعي والتطبيقي فيكفي أن أساليبه في الدفاع نظيفة وبعيدة عن التهيب لأن الهدف الذي كان يصبو إليه هو حسن إختيار الوسيلة، ذلك أنه يغير التريث والوسائل السلمية الطيبة يكون الهدف منقوص الشرعية بعيدا عن الحق .

إن التطور الذي شهدته أوروبا في عصر التنوير، قد كانت له آثار إيجابية في التقدم التقني الذي إنعكس بدوره على التطور الصناعي، وكان حافزا لتغيير نمط الحياة في بلدانها، وإذا كانت الخطوة الأولى على طريق -الحداثة الغربية- هو تطوير الآلة إلى أقصى حدود الممكن، وإعتمادها

في سوق العمل والإستغناء الواسع عن الإنسان فإن الخطوة الثانية - وهي تابعة وناجئة عنها- وتتمثل في تكديس الإنتاج مما إستدعى إمداد الآلة بمواد أولية أوفر وذلك لن يكون إلا بالغزو خارج أوروبا من أجل خلق مجال حيوي أوسع....

وأمام هذا التقدم المادي إتهارت القيم الإجتماعية والروحية وخضعت أوروبا إلى الغرائز المادية والنفعية كسلطة محرقة وفاعلة وفقد بذلك الإنسان التوازن النفسي وصبغت سمة التبادل النفعي والمصلحي كل العلاقات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية،... إلخ.

وتحولت بذلك مفاهيم " القيمة" فلم يعد الإنسان ذا قيمة بإنسانيته المجردة، بل بما يعادله بميزان المادة والعملة!

أمام هذا الضغط المتزايد من عالم الأشياء على عالم الأفكار تراجعت القيم الروحية كنتيجة لفقدان القاعدة الدينية وهو الأمر الذي جعل الحضارة الغربية تسير برجل واحدة .

وهو الأمر الذي جعل أغلب المفكرين يتنبأ بتعثرها أمام هذه الحركة الغير متوازنة لعالم المادة وعالم الروح.

#### سادسا - منهج التغيير عند مالك بن نبي:

أمام هذه النظرة الفاحصة للحضارة الغربية من طرف المفكر الجزائري المسلم (مالك بن نبي) وجد أن العلاج للركود الحضاري للعالم العربي والإسلامي لن يكون بالتأكيد العيادة الغربية ذلك أن اللقاح يجب أن يحضر في إطار الشروط وخصوصيات القيم والمفاهيم لإنسان هذا المجتمع، وأن كل تقليد لدواء من الغرب قد تكون عواقبه وخيمة وعليه إقتنع ابن نبي أن: " مشكلة أيّ شعب هي مشكلة حضارية ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"<sup>54</sup> ويضيف: " أن

البحث عن المستقبل الأفضل لن يتحقق إلا بتفحص الماضي الحضاري للأمم لفهم عوامل قيامها باعتبار هذا الماضي تيار متدفق يصب دائما في الحاضر ويرفده بكل مكوناته الأساسية ويدفعه نحو المستقبل<sup>55</sup> وهكذا إقتنع مالك ابن نبي أن عامل التغيير لن يكون القوة ولن يكون الحرب ولا حتى الثورة السياسية مؤكدا أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية ذلك أن " الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعا ومنهاجا".<sup>56</sup>

وهكذا فإن النظرة الثاقبة الشاملة لتاريخنا وموازن القوى فيه، قد ارجعها مالك ابن نبي إلى كتاب المسلمين، لأنه الجدير بإعطاء تاريخنا تفسيره وهو المؤهل وحده لأن يعطينا منطق حتميته فهو أمام الأمة منار نهضة ودليل يسري، ومنبع كل محاولة لإلغاء الإستغلال والإحتكار والسيطرة. وإذا كان للأنساق والمذاهب الغربية أهميتها في تحرير الفهم التاريخي من اسر الكنيسة والسياسة التي سيطرت عليه أمدا طويلا، وحصرته في مدارها، حيث الخطوة التقدمية التي منحتها آياه في المنهجية التاريخية بعد أن كانت كتابة التاريخ في جملتها، مجرد جمع للأخبار والمرويات والآثار، وسرد زمني لتتابع الأحداث ودورها في فلك السياسة الحاكمة، بمعزل عن الإنسان كحامل للوجدان والدين وبما له من أثر نافذ في توجيه التاريخ من الدرجة الأولى.

لقد أغفل فلاسفة الغرب دور الفرد وفاعليته في عملية التحضر واستخلصوا -بخطأ منهم- أن الآلة كانت وراء التطور الذي حدث في أوروبا غير أن الحقيقة غير ذلك إذ يرى مالك ابن نبي أن أي حضارة في العالم كان الفكر والدين وراء تحريك دوافع الإنسان وتهذيب غرائزه وبالتالي: " لا يختلف تطور الحضارة المسيحية عن تطور الحضارة الإسلامية، إذ هما ينطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص وتوجهه نحو غايات سامية".<sup>57</sup>

<sup>55</sup> - المرجع السابق ، ص 36.

<sup>56</sup> - المرجع نفسه، ص 61.

<sup>57</sup> - المرجع نفسه ، ص 62.

ويؤكد هرمان ذي كسلنج رأي مالك ابن نبي بقوله: "إن الروح المسيحية ومبدؤها الخلقى هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوروبا سيادتها التاريخية".<sup>58</sup>

إذن: الحضارة الغربية ترجع نهضتها إلى الفكرة الدينية "الإصلاح الديني"، حيث تحررت من سيطرة الكنيسة وقد تم ذلك مع الاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية التي كان لها دور بارز في المحافظة على التراث الإنساني عامة واليونان الروماني خاصة، حيث قامت بحركة واسعة للترجمة، والتي شملت أغلب التراث المذكور، وبهذه الكيفية استفاد الغرب من تلك الترجمات حتى في فهم العقيدة المسيحية سواء من خلال شروح الفلاسفة العرب أو الغربيين مثل: أفلوطين، وأوغسطين، غير أن تطور العلوم في القرون الأخيرة قد زعزع الشعور الديني في النفوس لكن ذلك حدث بعد الإقلاع الحضاري، ورغم ذلك فإننا اليوم نرى أن التطور في الغرب يسير بخطى غير متكافئة بين ما يشهده المحيط المادي بالقياس إلى تطوره الروحي وهو ما نتج عنه أمراض خطيرة تشهدها أوروبا وهو كفيل بأن يقودها إلى نقطة المأزق والإنهيار!

وعليه يقول مالك ابن نبي: "إن مشكلة الحضارة في العصر الحاضر لا تخص الشعوب الإسلامية فقط، بل إنها تخص أيضا الشعوب المتقدمة نفسها، التي تهدد فيها مدينتها بالفناء".<sup>59</sup>

#### أ- الفكرة الدينية بدلا من الحرب:

إذن: إن ثبات خطى الحركة التاريخية تحتاج إلى الفكرة الدينية سواء في انبعاثها أو في حفظ مسارها - بعد ذلك - بما قد يعترضها ويوقعها في الزلل والانحراف عن المسار الحقيقي للتاريخ وهو مسار السنن الكونية التي وضعتها عناية الخالق عز وجل في ابلغ الصور ووجهتها نحو أسنى الغايات وهي التوحيد والاستقامة وتحقيق الإستخلاف في أبداع مظاهره تحقيقا للفضيلة ونشرا للعدل، إنطلاقا من قوله تعالى: " ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم، قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم

<sup>58</sup> - سليمان الخطيب: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ص 69.

<sup>59</sup> - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 69.

لا يعلمهم إلا الله، جاءهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا: إنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون".<sup>60</sup>

إذن : إن المنطق الحر والواسع الذي يتميز به القرآن الكريم هو وحده الذي يستوعب كل العوامل المؤثرة والفاعلة في الحضارة الإنسانية وتحريك التاريخ دون الإنقاص من شأن أي عامل على حساب عامل آخر... إن رحابة منطق الكتاب الكريم ومنذ القرن الهجري الأول إستطاعت حضارته أن تستوعب شعوبا مختلفة الأصول والألسنة والثقافة والأمزجة، وانصهر ميراث الحضارات العريقة في بوتقة واحدة، كيف كان ذلك؟! .

يرى مالك بن نبي " أننا نستطيع أن نفسر هذه الحركة بالعوامل النفسية باعتبارها شرطا لها والتي حفزت القوة الروحية في المجتمع، وبذلك نجد الضمير المسلم قد وضع بين حدي الوعد والوعيد....."<sup>61</sup>

معنى ذلك أن الفكرة الدينية تلزم الإنسان بالفعل الإيجابي الخير إن رغبة في الثواب أو الإبتعاد عن العقاب اللذان يعتبران الحدان الأساسيان في توجيه نوعية الفعل والأثر الإنساني.

بهذه الكيفية تمسك "مالك بن نبي" بالقرآن الكريم وكان ذلك دافعا وراء كتابته (للظاهرة القرآنية) الظاهرة التي حققت معجزة الحضارة العربية الإسلامية في بلاد صحراوية لا يعرف أهلها سوى الرعي وقول الشعر، فأخرجهم من الفيافي إلى المدن ومن الجهل إلى النور، لقد كان للقرآن عمل التغيير والثورة " في أدق ما في هذه الكلمة من معنى، وأن الثورة لا تستطيع الوصول إلى

<sup>60</sup> - سورة إبراهيم، الآية 9 و 11.

<sup>61</sup> - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 25.

أهدافها إذا لم تغير الإنسان بطريقة لا رجعة فيها من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته ونمط حياته وإستهلاكه...<sup>62</sup>

### ب - التغيير يبدأ بالإنسان:

ولهذا قال مالك ابن نبي: " أن أي ثورة تتوخى لنفسها النجاح لابد لها أن تسير طبقا للقانون الاجتماعي الذي تشير إليه الآية الكريمة: "ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".<sup>63</sup>

وقوله تعالى: " إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".<sup>64</sup>

وهكذا فإن أولى خطوات التغيير في المجتمع الفاسد يكون انطلاقا من إصلاح سبب الخلل وبواعث الخمول والكساد، إنها عملية إعادة بعث وإحياء في الخلايا التي لحقها العطب والكسل، وهذه الخلية في جسم الإنسان هو العقل، وفي جسد المجتمع هو " الإنسان " والإنسان وفكره كل متكامل والمرض الاجتماعي لا يخرج عن أربعة عوامل: إما أنه ينشأ من خلل في عالم الأشخاص أو خلل في عالم الأفكار، أو خلل في عالم الأشياء أو خلل في شبكة العلاقات الاجتماعية.<sup>65</sup>

لهذا كان الإصلاح -حسب مالك بن نبي- بإعادة بناء المجتمع من خلال بناء "الإنسان المسلم". بمعنى أن إعادة بناء الإنسان وشرط إصلاحه وصلاحه هو " الدين الإسلامي " ومالك بن نبي لا يركز في مشروعه على الإنسان النخبوي أو البطل بل الفرد البسيط حيث يقول: "إننا حينما نحلل الطاقات الاجتماعية عامة، نرى أنها تتضمن أولا وقبل كل شيء الفرد أداة وهدفا،

<sup>62</sup> - عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة، ط1، 1984، ص91-92.

<sup>63</sup> - سورة الأنفال: الآية 53.

<sup>64</sup> - سورة الرعد: الآية 11.

<sup>65</sup> - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 43.

فالطاقات الاجتماعية تنبع من الفرد وتعود إليه، فالفرد الصالح حينما يشارك في بناء المجتمع فإن عمله هنا يعود إليه في صورة ضمانات اجتماعية تكفل له توجيه طاقاته الفردية".<sup>66</sup>

- كما يؤكد على دور الترابط الاجتماعي كأداة ضرورية لتكوين الفرد الفعال حيث يعتبر البناء الاجتماعي حصيلة تفاعل الفرد مع الجماعة، إذ يمدها بالفعالية كما يأخذ فعاليتها منها، ويضرب لنا مثالا عن هذه الفكرة ودورها في نبوغ الإنسان فيقول حول شخصية ابن سينا: "... حيث كان حقيقة كامنة في كروموزوم متمثل في الأوضاع العامة للمجتمع المسلم في زمانه، إن هذه الأوضاع هي التي جعلت منه حقيقة واقعية في التاريخ".<sup>67</sup>

### ج- الإنسان المتوازن:

إن أهم ما يصبغ الفكر الإصلاحية عند مالك ابن نبي، أنه قائم على مبدأ التوازن بين الفردية والجماعية وبين مطالب الإنسان المادية والروحية وذلك إنعكاس لتأثر مالك ابن نبي بالفكر الديني وإهتمامه بالتراث الإسلامي، كأساس للإقلاع الحضاري من خلال الفهم الجيد للدين والتراث من أجل تلبية الحاجات الراهنة وإحداث التغيير الاجتماعي وذلك لا يكون إلا بأخذ الأفكار الفعالة والإيجابية والإبتعاد عن الأفكار القاتلة، فقبل تحقيق التغيير بالمحيط يجب أن يتم أولا في أنفسنا حيث يقول: " إذا كان منهج الرسالة - رسالة المسلم في القرن العشرين - يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغيير ما في النفوس أولا....عندما يجب على المسلم أن يحقق بمفرده شروط ثلاثة:

- أن يُعرف نفسه.

- أن يعرف الآخرين.

<sup>66</sup> - مالك بن نبي : تأملات ، دار الفكر ، الجزائر ، ط5 ، 1991 ، ص 25.

<sup>67</sup> - مصطفى شكيب : الفكر الاجتماعي عند مالك بن نبي، جريدة العالم السياسي، العدد 7-1-1995، ص 19.



- أن يعرف الآخرين بنفسه.<sup>68</sup>

إذن: بالفكرة الدينية المستمدة من القرآن كخطاب إلهي صادق ومتوازن يكون الأساس التربوي للأفراد بتحديد كيان المسلم طبقاً للتعاليم الإسلامية الحقة.

حيث يقول مالك ابن نبي: " نحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية وتوجيهها، وأول ما يصادفنا في هذا السبيل هو أنه يجب تنظيم تعليم (القرآن) تنظيمًا (يوحي) معه من جديد إلى الضمير المسلم (الحقيقة القرآنية، كما لو كانت جديدة نازلة من فورها من السماء، على هذا الضمير " .<sup>69</sup>

حيث يرى مالك ابن نبي أن " الدين يخلق نظاماً اجتماعياً يستحيل فيه الفرد إلى أفراد كثيرين، وأن درجة التطور الاجتماعي تزداد كلما زادت درجة الفاعلية الاجتماعية في العلاقة الدينية.<sup>70</sup>

إذن: الدين أساس التنظيم النفسي للدوافع والقواعد التي تضبط سلوكيات الفرد وتوجه الطاقة الحيوية في اتجاهها الصحيح " إنها الفكرة المشحونة بالرؤية الكونية، وبالقدرة العلوية، إنها الطريق الشرعي الفطري والمنطقي لبناء الحضارة الإنسانية".<sup>71</sup>

إن مالك بن نبي بتركيزه على الفكرة الدينية وتأكيده على دورها الأساسي والفعال في صقل نفسية الفرد وحسن توجيه طاقاته الكامنة، وتهذيبها، يأتي من فهمه العميق لمبادئ الدين الإسلامي المحفزة، والتي تشبع بها من بيئته المحافظة والواعية المستلهمة للنواميس الربانية من نبعها الصحيح الصافي القرآن والسنة، ذلك النبع الذي ندعو كل شباب اليوم إلى الاعتراف منه

<sup>68</sup> - مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، ط5، 1986، ص19.

<sup>69</sup> - المرجع نفسه، ص 23.

<sup>70</sup> - المرجع نفسه، ص 144.

<sup>71</sup> - عبد الحليم عويس : الوظيفة الحضارية لأفكار مالك ابن نبي، ص 42.

والاستنارة بهديه في كل صغيرة وكبيرة، لأنه سبحانه لم يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ووضع لها الدواء.

فديننا الحنيف هو العروة الوثقى التي إن استمسكنا بها لن نتفرق ولن تضعف ريجنا أبدا وليس دين تعبد وانزواء وإنما هو دين إيمان واجتهاد، وفي ذات الوقت دين كد ونشاط ونفع وتوكل ويكفي أنه دين عدم الغلو دين العقل والمنطق الذي يرتكز على أساس متين، ألا وهو "اللاإفراط ولا تفريط، وأفضل الأمور أوسطها"<sup>72</sup> علما أن وسطية الإسلام تختلف عن وسطية أرسطو أو الفكر الهيجلي فيما بعد.

# الفصل السادس

## دور العقل والحريّة في تجليات الروح

## أولا - العقل:

## أ - تعريفه:

وتستخدم الكلمة الألمانية VERSTAND ترجمة للكلمة اللاتينية INTELLERTUS غير أن إشتقاقات هيغل من هذه الكلمة {على خلاف كلمة الفهم} هي INTELLKTUALITAI (العقلانية) و"العالم العقلي" والمعقول أو الواضح هو الذي يرتبط بالعالم المعقول عند أفلاطون ، وعند الأفلاطونية الحديثة، وليبنتر ( Laypnitz ) في مقابل عالم الظواهر والإستثناء هو كلمة INTELLIGENZ التي تشير إلى الذهن الفاهم بصفة عامة بما في ذلك الذاكرة والخيال لكن كثيرا ما تستبعد الإرادة.

ويسلم الفلاسفة بوجود ملكتين فعند أفلاطون نجد DIANOIS (العقل الإستطراذي) الذي يقع بين الإدراك الحسي والنوس (Naous) (الذهن.العقل) فالعقل الإستطراذي يعالج الرياضيات. أما النوس أو (العقل الحدسي) فهو يعالج الفلسفة، وعند أتباع خلفاء أفلاطون أصبحت كلمة (النوس) تعني "الملكة العليا" في مقابل الفهم، والعقل المنفعل في مقابل العقل الفعال عند أرسطو، والملكة العليا كثيرا ما تنسب إلى الله أو الآلهة وإلى الجزء المقدس والإلهي في الإنسان في حين أن الملكة الأدنى تخص البشر بـ "النوس" يمكننا الإتصال بالنظام العقلي والنوس الكوني أو العالم المعقول<sup>1</sup>.

وقد أخذ كانط بهذه التفرقة : فأصبح الفهم عنده ملكة التصورات والأحكام أما العقل فهو ملكة الإستدلال، غير أن للعقل أيضا دورا أعلى فهو ملكة الأفكار ومصدر التصورات الميتافيزيقية.

<sup>1</sup> - ميخائيل أنورد: معجم مصطلحات هيغل، ص 454.

وقد ساهم " غونه " أيضا في تشكيل هذه التفرقة: فالفهم يعمل على حل المشكلات الصغيرة في حين أن العقل يدرس الأضداد ويوفق بينهما<sup>2</sup> أما تصور هيغل للفهم والعقل فهو ينطوي على عناصر من كل وجهات النظر هذه حيث يرى بأن الفهم وبصفة أخص العقل بأتهما عملية مباطنة للتصورات أي ينظر إليهما كسمات داخلية للكائنات ويضيف هيغل أن العقل والفهم مسألتان أساسيتان وجوهريتان في المثالية فعلينا في المعرفة أن نتبع الجدل الباطن للتصورات أو الموضوعات والمسارات، وعلينا في حياتنا العملية أن نتوافق مع العقلانية الداخلية لمجتمعنا، مع الواقع الفعلي والسمات اللاعقلانية الظاهرة في العالمين الطبيعي والاجتماعي والتي هي في الواقع عناصر أساسية في عقلانية تتجاوز ذلك كله متحدة مع مملكة الروح وذلك لأن للروح تاريخا تطوريا<sup>3</sup>.

والعقل يختلف عن الفهم من حيث كونه يمثل مرحلة من مراحل تطور الروح، التي يظهر فيها قانون الجمع بين الأضداد، ففي المرحلة السابقة للعقل ألا وهي مرحلة الفهم نجد أن المقولات ساكنة جامدة لا حياة فيها. أما إذا انتقلنا إلى مرحلة العقل فإن المقولة عندئذ ستصبح ديناميكية محطمة للقيود ينساب بعضها في بعض كما أنه من المستحيل استخراج مقولة من مقولة أخرى انطلاقا من المبدأ الصلب الذي لا يلين : ( إما ... أو ) فالحقيقة في عدم التناقض إما أن تكون: " أ " أو " لا أ " فالشيء إما أن يكون أولا يكون هذا هو مبدأ عدم التناقض إذن فالحقيقة تتبع أحد الطرفين : فإما الوجود أو عدمه .

إن الفهم مرحلة من مراحل الروح حين تبحث عن الدقة في جميع الأشياء وذلك عامل ضروري ومنهج واضح في الفلسفة إذ من غير وضوح الفكر. يمكن أن نتيه في غياهب الغموض<sup>4</sup>.

<sup>2</sup> - المرجع السابق، ص 455.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 457.

<sup>4</sup> - ولترستيس: فلسفة هيغل، ص 156 - 157.

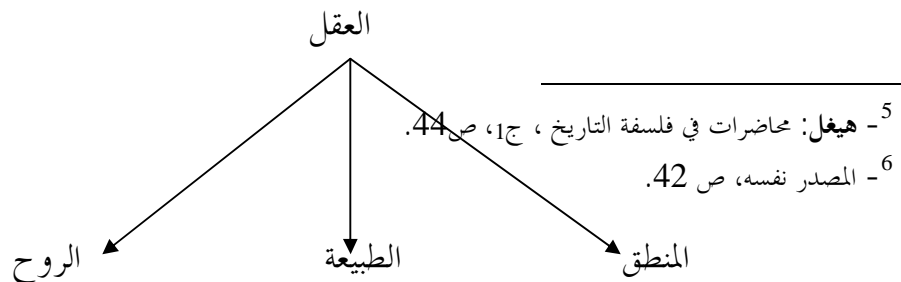
لذلك فإن هيجل يقول: "إن العقل هو اليقين الموجود لدى الوعي، فهو يمثل الحقيقة بأسرها<sup>5</sup> وكانت نقطة الإنطلاق التاريخية لظهور العقل هي عصر النهضة حين سقطت سلطات رجال الدين التي كانت تهيمن على كل مجالات البحث والمعرفة العلمية وخاصة في عصر الأنوار حيث تعالت أصوات الفلاسفة وخفت الدين في أوروبا.

يعرف هيجل العقل في الموسوعة الفلسفية بأنه: "الحقيقة في ذاتها ولذاتها" في حين أن الفلاسفة السابقين على هيجل قد جعلوا من المثالية المجردة نظرية فلسفية أو مذهب فلسفي، نجد أن هيجل لا يلتقي بالمثالية إلا عن طريق وعي التاريخ البشري في تطوره الروحي المستمر فالمثالية الهيجلية خبرة عنها الوعي حين استطاع أن يرتفع بنفسه إلى مستوى العقل.

العقل الذي لا يخلو من صبغة الكلية ولكنه في هذه الحالة ما يزال ملكا لفردية خاصة فهو لم يصل بعد إلى مستوى العقل الذي يقول عنه هيجل إنه هو نفسه عالم أو هو نفسه روح.

### ب - العقل يحرك التاريخ:

إن الفكرة الوحيدة التي تستخلصها الفلسفة وهي تنظر إلى تاريخ الإنسانية هي تلك الفكرة البسيطة التي تستخرجها عن العقل والتي تقول: "إن العقل يسيطر على العالم، وإن تاريخ العالم يمثل أمامنا بوصفه مساراً عقلياً"<sup>6</sup> والواقع أن فكرة العقل تحتل في فلسفة هيجل مكانة أساسية حتى أن مواضع فلسفته هو العقل بتعدد مجالاته.



فإذا نظرنا إلى العلاقة بين المنطق وفلسفة الروح ندرك أن الفلسفة لم تقدم إلى الدراسات التاريخية سوى فكرة واحدة هي أن "العقل يحكم التاريخ" وفي هذا السياق يقول هيغل: "إنه حتى هذه الفكرة ليست جديدة على الفلسفة بل هي قديمة قدم الفلسفة اليونانية وشائعة شيوع الدين وبهذه الكيفية يقدم هيغل صورتين لهذه الفكرة - فلسفية ودينية".

- الأولى : هي الصورة الفلسفية التي قال بها الفيلسوف اليوناني "أنكساغوراس" في عبارته الشهيرة أن "النوس" يحكم العالم وهو يعني أن الطبيعة تجسّد للعقل ويقال أن سقراط فرح فرحا شديدا حين اطلع على هذه الفكرة في كتاب انكساجوراس إلا أن هذا الأخير لم يفسر لنا كيف يحكم العقل الطبيعة وراح يرد الطبيعة إلى علل مادية كالهواء والماء ولهذا نجد انفصاما عند انكساغوراس في هذه الصورة الفلسفية عن العقل الذي يحكم العالم أي بين الفكرة وبين تجسيدها في الواقع .

- أما الثانية فهي : الصورة الدينية المعروفة لنا جيدا وهي التي نقول : " أن أحداث العالم لم تترك للمصادفة وإنما هناك " عناية إلهية" توجه العالم<sup>7</sup> وبالتالي فإن كل ما يحدث في العالم يحدث طبقا لخطة إلهية<sup>8</sup>. إن هذا التقسيم للعقل عند هيغل يجعلنا نفهم في فلسفة التاريخ أن هناك محاولة للتوفيق بين النوس كما جاء عند الفيلسوف اليوناني "انكساغوراس" وهو إطار يجعل من إمكانيات العقل الإنساني في تطور مستمر وأن سيطرته على الطبيعة في حدود الممكن كما أن قصوره النسبي يؤيد وجود العناية الإلهية إذن، فهناك الفلسفة والدين معا وهو الموقف التوفيقى الذي أكدته الفلاسفة المسلمون.

لكن هيغل لم يتوقف عند هذه النقطة بل استخدم جدليته المعروفة بالصورة التركيبية عن مسار التاريخ، حيث يبدأ بتحديد ثلاثة عناصر أساسية حتى يفسر لنا ماذا يعني بمقولته - السالفة الذكر - " إن العقل يحكم التاريخ".

(1) ماهية العقل : ما المقصود بالعقل:

(2) الطرق التي يستخدمها العقل لكي يتحقق.

(3) الصورة التي يتحقق فيها العقل في النهاية.

علينا في البداية أن نكون على وعي من أن الإنسان جزء من الطبيعة وأنه - إذا كان التاريخ تجسيد للروح - فإن الطبيعة الفيزيائية تلعب دورا في تاريخ العالم ، ولهذا تظل هي الأساس الأول للتاريخ فالإنسان بوصفه كائنا طبيعيا مقيد بالظروف الطبيعية تأثيرا وتأثرا<sup>9</sup>.

نلاحظ : من خلال هذه الصور التركيبية عن مسار التاريخ تأثر هيغل بالفكر اليوناني في هذا المجال خاصة بنظرية الكيوف الطبيعية عند أرسطو، والتي كان قد تطرق إليها المؤرخون

<sup>7</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلي عند هيغل، دار المعارف بمصر 1969 ص ص 79-80.

<sup>8</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ ، ج1، ص ص 44-46.

<sup>9</sup> المصدر نفسه، ص48.



المسلمون : كالمسعودي، المقدسي، البيروني ولا ننسى ابن خلدون الذي أكد على أهمية العوامل الطبيعية والجغرافية فإذا أردنا أن نعوص في الجدل الهيجلي حول ماهيات العقل والحرية وطبيعة الروح علينا أن نبحت عن ماهية العقل عنده ؟

الجواب : هو أن طبيعة الروح هي عكس طبيعة المادة، فإذا كانت ماهية المادة هي الثقل فإن ماهية العقل هي الحرية.

ملاحظة : التعريف نفسه ينسحب على الروح باعتبار أن المادة تميل إلى المركز فإن خاصيتها الأساسية هي الثقل أو أنها تخضع لقانون الجاذبية، أما الروح فإنها شيء معنوي مرتبط بالحرية والواقع أن هيغل، يقصد بالحرية (التعين الذاتي أو التحديد الذاتي أو الاستقلال) فأنت حر بمقدار ما تكون غير مرتبط بأي شيء خارجا عنك ولا تعتمد في حياتك على شيء آخر، فالروح عند ما تكون حرة حقيقية عليها أن تكون هي الذات المعرفة وفي الوقت نفسه هي الموضوع المعرف، وهذا يطابق تماما مقولة هيغل (الوعي الذاتي، وفي هذا السياق يضيف هيغل أن : تاريخ العالم كله عبارة عن تسابق من أجل تحقيق هذه الغاية. أعني عندما تستحوذ الروح على العالم وتتعرف عليه على أنه ملك لها.

إذن : فالمسار التاريخي هو تقدم الوعي بالحرية وأول مرحلة يتدئ منها هيغل هي الحضارات الشرقية كالصينية والهندية والفارسية والبابلية والمصرية، وهي جميعا لم يعرف شعوبها معنى للحرية ، بل كانوا جميعا عبيدا للحاكم لذلك فقد أقصاهم هيغل من المسار العالمي للتاريخ من أجل أن تبلغ الروح غايتها وباعتبارهم يمثلون الآخر فراح مبتدئا التاريخ الإنساني باليونان الذين عرفوا الحرية ولو يشكل جزئي ، فما هي الحرية إذن ؟

بعد أن أوضحنا مناهج التاريخ عند هيغل خلصنا إلى نتيجة وهي " أن العقل يحكم العالم وبالتالي يحكم تاريخ العالم"<sup>10</sup>.

<sup>10</sup> - هيغل: محاضرات، ج1، ص 95.

إذن : كل شيء في هذا العالم يخضع للعقل ويتبعه ويعمل في خدمته وهو وسيلة لتطورة والدولة - باعتبارها تجسيد للنظام العقلي وفي إطارها يتم تصور الحرية - فمن خلال دراسة هيغل للسياسة والأخلاق والتاريخ - الذي هو موضوعنا - لا يوجد أكثر من هذه العناصر إثارة للجدل وأكثر تعقيدا من أي جانب آخر فهيجل بجدليته وتناقضاته - كما سبق وأوضح - فهو مثالي من حيث المبدأ لكن واقعي من حيث ما انتهى إليه (نهاية التاريخ) فهو نظريا متدين وعمليا وهمي.

ففي العلاقة بين الفلسفة والتاريخ، الفيلسوف عنده لا يزاحم المؤرخ التجريبي.

### ج - مستويات العقل:

- إن العقل يسيطر على العالم، وإن تاريخ العالم يمثل أمامنا بوصفه مساراً عقلياً، والعقل ثلاثة مستويات :

- العقل الخالص في المنطق.

- العقل في حالة اغتراب في الطبيعة.

- العقل حين يعود إلى نفسه في فلسفة الروح<sup>11</sup>.

فإذا كان العقل هو جوهر الطبيعة فهو جوهر التاريخ البشري وذلك لأن الوعي الذاتي

قاصر على الإنسان وحده ، فعندما نتساءل ماذا نعني بالحرية؟<sup>12</sup>

- يجيب هيغل : من المؤكد أنني لا أعني الإباحية!

إن حياة هيغل العملية تتناقض تماماً مع ما صرح به على المستوى النظري، كيف لا وهو

الذي انجذب طفلاً غير شرعي من خادمة، والمؤكد أن أكثر الناس تمرداً لا يرون - من الناحية

العقلية - أنه من الجيد التورط في مثل هذه المواقف، إن مصطلح حرية يقصد به حرية الإرادة لأن

<sup>11</sup> - المصدر نفسه، ص 42.

<sup>12</sup> - اليود سبينسر : هيغل، ص 108.

حرية frei fraheit بمعنى حر" يشير إلى حرية الإرادة و إلى الحرية بكل معانيها الاجتماعية والسياسية. " فالحرية " تقابل (العبودية)، و (التبعية) و(القهر)، وتحكم الأهواء والغرائز بصاحبها.

### ثانيا - الحرية:

#### أ - تعريف الحرية:

يحاول هيغل أن يربط بين هذه المعان المتنوعة، والفكرة الأساسية في الحرية حيث : يكون الشخص حرا إذا كان مستقلا ومتحدا مع ذاته، وتكون علاقة التحديد صارمة باستبعاد أحد الحدين. فأتحرر مثلا من الرق أو السجن بإخلاء السبيل، أو بطريقة تصورية أصل إلى الحرية بموتى. إن هناك علاقة بين الفرد عندما يكون صغيرا وأسرته وبيئته ومجتمعه والمرء يستطيع بما يحيط به من ثقافة وحياة أخلاقية أن تكوّن في داخله مثلا أعلى مستوحى من تلك البيئة الاجتماعية .

والنموذج - حسب هيغل - لمثل هذا الامتداد للذات حتى تشمل المجتمع " أو العكس إختصاص ذات المرء داخل مجتمعه.<sup>13</sup> الذي هو الحياة الأخلاقية عند اليونان، التي توصلت إلى تحقيق الحرية الموضوعية وأهملت الحرية الذاتية.

- نلاحظ: أن هيغل يقر بحقيقة علمية ثابتة في الإنسان (علاقته وارتباطه بمحيطه) منذ الحضارات القديمة مرورا باليونان والرومان وصولا إلى المجتمعات الحديثة والمعاصرة، ولكنه عندما يتعرض للحرية لدى المجتمعات الشرقية يعيب على أفراد المجتمع ارتباطهم بالأسرة والقبيلة والإمبراطورية!.

ويدرس هيغل أنواعا متعددة من الحرية، فالعبودية مثلا، هي : نموذج للحرية الاجتماعية والسياسية وقد تم إلغاؤها ببساطة لأنها تتعارض مع ماهية الإنسان، ومن تم فإن هيغل عندما يفكر في نوع من الحرية يتخذ المسار التالي : محاولة تمزيق علاقة المرء " أنا " باللا " أنا " الذي يقيد ويجبر عن طريق تجاهله (كما هو الحال عند الرواقية) أو بإلغائه ( بطرق مختلفة كما هو الحال في مذهب

<sup>13</sup> - ميخائيل أنوود: معجم مصطلحات هيغل، ص 219.

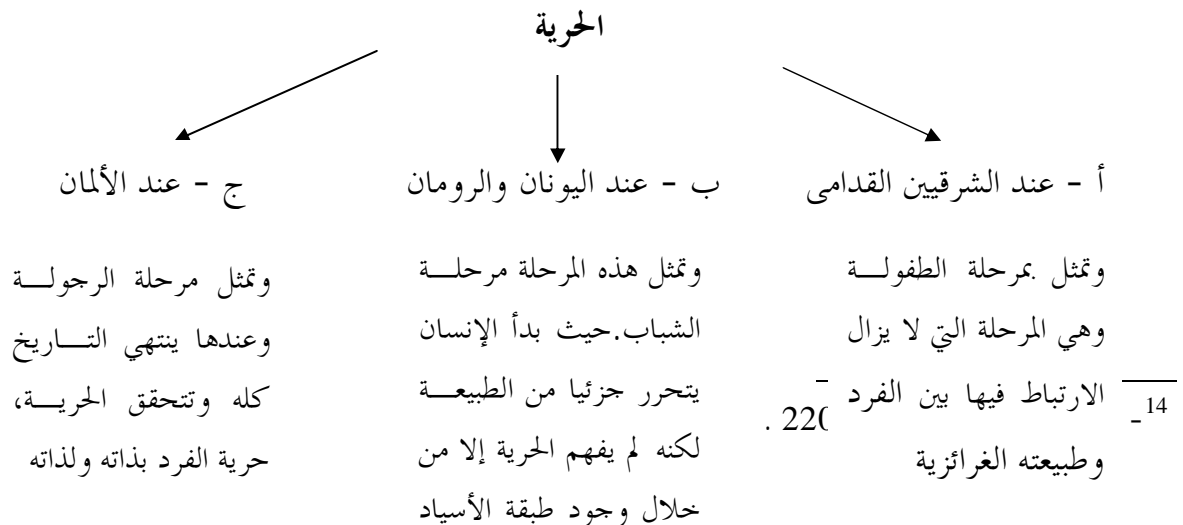
الشك)، وعند (اليعاقبة) إبان الثورة الفرنسية، وهي محاولات فاشلة غير أنها كانت ثمرة من الناحية التاريخية.

فالحرية إذن تكمن في هوية الذات، لكن الهوية تقتضي أن لا تكون هوية مغلقة على نحو ما كانت عليه في دولة المدينة. عند اليونان، بل هوية متميزة، كما في الدولة الحديثة حيث تجمع بين عناصر الحلول المرفوضة وتتكيف معها مثل الفكر النقدي والسعي وراء المصلحة الذاتية<sup>14</sup>.

وتحدث هذه العمليات عبر التاريخ، وهي عند هيغل تحقق للحرية ما دام الوعي الذاتي يطابق بين الذات والآخر، لأنه بهذه الكيفية ينتعش تصور المرء عن ذاته وتتقدم الحرية انطلاقاً من وعي الأنا لذاته، وينعكس ذلك على الدولة ومجموع مؤسساتها.

نستنتج مما سبق: أن هيغل أراد تثبيت الحرية كغاية قصوى لكل حركة تطويرية في التاريخ، وأن الروح يهب الحرية للبشر وبهذه الكيفية تعبر الروح عن ذاتها بانبثاقها، وأن الحرية في مفهومه متضمنة في المجال الباطني للروح.

ب- الحرية السلبية عند الشرق والغرب: هيغل استعمل هذا المفهوم وأعلن بأن انبثاق الروح يعني إعلان حضارة ما عن ميلادها وبأن بروزها نتاج تضمينها في الحرية وحتى يقصي الحضارات الشرقية القديمة ولا يعترف بأي دور لها في مسار التاريخ العالمي عمداً إلى اصطناع مفهوم الحرية السلبية.



إن الشرق - حسب اعتقاده- رغم حضاراته العظيمة لم يكن يمثل شيئا في سلم الارتقاء والتطور ولم يكن شيئا غير طفولة الإنسانية.

إن مسار التاريخ عند هيغل هو عرض لحركة الروح، الروح الحرة و من ثم كان مسار التاريخ عنده هو تقدم الوعي بالحرية/ لكنها ليست حرية فردية سلبية حرية الشرق، لكن - حسب سياقه - أن للتاريخ غاية فكل ما يقع من أحداث له معنى معين وله ما يبرره، والغاية هنا هي الجانب الموضوعي الذي يمثل الضرورة في هذا المسار، لكن الضرورة أو الجانب الموضوعي لا تعمل وحدها فهناك الجانب الذاتي الحر للأفراد الذي يتفاعل معها، إن هيغل عندما يتعرض للأفراد العظماء في الغرب - ورغم الأخطاء التي كانوا قد ارتكبوها - مثل الإسكندر وسيزار و نابليون يتغاضى عن أخطائهم ويعتبرهم ضحايا القدر بينما عند ما يتطرق لقادة الشرق وأباطرته وملوكه فإنه يحاسبهم بدقة ويعتبر هفواتهم مطبات وأخطاء فادحة لا تغتفر، إنه يرى بأن حكام الشرق قد مارسوا الحرية المطلقة إلى حد تحولت معه تلك الحرية إلى ملجم وعبودية، بمعنى أن أولئك الحكام خضعوا لتزواتهم وأهوائهم حتى أصبحوا عبادا منقادين لها... وبما أن الرغبة والخضوع لها تختلف بين الكبير والصغير وبين الكبار فيما بينهم نتيجة الوعي أو عدمه، لذلك فإن الشرق لم يعرف إلا شخصا واحدا حرا ثم أن حرته تلك لم تكن سوى حرية سلبية - لأنها كما قلنا تحكمها الغرائز، وبما أن مسار التاريخ هو السعي نحو بلوغ الحرية فإن اليونان ومن بعدهم الرومان قد سلكوا منهجا موصلا إلى الحرية الحقيقية حيث استخلصوا "العقل" في جميع مجالات الحياة وهذا المنهج

يسمح بالمشاركة في حياة اجتماعية واسعة هي "الدولة"، ففيها يكون للإنسان وجود عاقل (سنتعرض للدولة ومكوناتها لاحقاً).

الحرية ليست مفهوماً سلبياً وإنما ينبغي أن ترتبط ببناء قانون ما، وهو ما يمكن أن نتفق فيه مع هيغل، لكن لا يترتب على ذلك أنه حيث ما يوجد القانون توجد الحرية (القانون الذي يقصده هيغل كلي يعبر عن العقل وليس جزئي يعبر عن إرادة الحاكم)<sup>15</sup>.

نلاحظ هنا تناقض هيغل مع ذاته مرة أخرى، إذ يعيب على حكام الشرق ويصفهم بالاستبداد في الحكم والتعسف في استخدام الحرية التي عملوا على حرمان المواطنين منها من خلال حرمانهم من التمثيل النيابي والمشاركة في الحكم مع العلم أن نفس الأمر كان يجري في المدن البروسية، لأن المجالس المنتخبة لم تكن تجتمع إلا مرة كل ثلاثين سنة وبعدها تجتمع فهي لا تفعل ذلك سوى من أجل تحقيق مصلحة شخصيته للحاكم لا غير، وفي هذا الصدد يقول هايم Heym: "إن هيغل أذان موقف الدوق حاكم نتربورغ الذي دعا مجلس الطبقات إلى الإنعقاد كمجلس نيابي لأول مرة منذ فترة طويلة استمرت جيلاً كاملاً وعندما دعاه فإنه فعل ذلك بهدف واحد وهو أن يستخدم المجلس في تحقيق أغراضه الخاصة."<sup>16</sup>

لقد تحدث هيغل عن التاريخ العالمي مبتدئاً إياه من الشرق منذ الفترة التي كانت لازالت لم تكتشف فيها الدول بعد في هذا العالم لأن انتشار اللغة وتكوين الأجناس يقعان خارج حدود التاريخ على ما يبدو، فالتاريخ هو الواقع، والواقع الذي يقصده هيغل هو فقط الحضارة اليونانية أما ما يتناول تاريخ الشرق فإنه يعتبره مجرد أساطير والأساطير طبعاً لا ترقى إلى مرتبة الكتابة التاريخية، وهو يستخدم هذه الحجة لكل ما له علاقة بالشرق، وكأن الإمبراطورية الصينية لم تكن لها دولة ولها حكومة مركزية قوية إلى درجة أنها توصلت إلى بناء (الصور العظيم) من أجل حماية

<sup>15</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 94.

<sup>16</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات هيغلية، ص 109-110.

حدودها من أطماع العزاة، وسوف نرى عندما نتعرض لفلسفه الحرب عند هيغل مدى الدور الذي يوليه لها في يقظة الدولة واستنفار المواطنين للدفاع عن مكاسبها وحدودها.

فالصين - ولاشك - قد شهدت ومنذ أقدم العصور قدرا ضخما من التاريخ المكتوب الذي تدور أحداثه حول الطبقات الحاكمة وصراعاتها ولكن لم يتجل فيها إلا القليل من التأمل حول مسار التاريخ وكان الاهتمام في تلك الكتب كله منصبا على الماضي والحاضر<sup>17</sup>.

إن التأمل لمبادئ هيغل التي تتحكم بمسار التاريخ نجد أنها تنهافت، لأن الصين ومنذ القديم كانت دولة، وكانت ذات قانون يحكمها كما كان لها دستور مشهور قام بتحريره فيلسوفها المعروف (كونفشيوس) وكانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم واضحة بمقتضى ذلك الدستور، غير أن هيغل تجاهل هذا الأمر رغم ما أخبر به بعض الرحالة الذين كانوا يجولون الشرق الأقصى... يبدو أن هيغل قد تأثر بمقولة الفيلسفة اليونانية القديمة التي كانت أن السلب يسبق الإيجاب، وأنه حتى يطبق هذه المقولة، فقد وجب عليه أن يعتبر المرحلة السابقة لليونان سلبية... لذلك يقول أن مسار التاريخ يشكل حلقات متتابعة، وأن مراحلها الأولى تغيرات ناقصة (وهو يقصد بها المرحلة الشرقية) تماما لما سوف تجسده المراحل المتأخرة التي سوف يجعلها أكثر كفاية وأكثر إقناعا.

يقصد بها الغرب وبالضبط انطلاقا من اليونان فالجرمان مرورا بالرومان والروح في كل مرحلة من هذه المراحل تتجسد فيما يطلق عليه هيغل (روح الشعب) وهي فكرة لا تتضمن أية نظرية خاصة عن ذات مجتمع أعلى من الفرد بل إن (روح الشعب) هي الثقافة والحضارة التاريخية منظورا إليها على أنها تجسيد للروح، فروخ الشعب يعني العقل الكلي الشاري في حضارة معينة — وهو ما أكده مردر— وقبله المسعودي، بحيث نجد أن الفلسفة التي يعبر عنها التنظيم السياسي هي نفسها التي يصورها الفن في إنجازاته المختلفة، وهي ذاتها المتمثلة في الدين السائد فالعقليتين واحدة في كل ما تنتجه الروح من أنشطة في هذا المجتمع علما وأنه ليست هناك غاية نهائية إلا مع

<sup>17</sup> - ألبان ويدفري قريقوري : التاريخ وكيف يفسرونه، ص 4 ، ص 8.

انتهاء التاريخ البشري نفسه، وعلى الرغم من أن كل مرحلة تنظر إلى نفسها على أنها هاتية — لكن هيغل يقول: "إن التاريخ ينتهي في الحاضر لا في المستقبل وهذا الحاضر صادف وأن عاش فيه الفيلسوف".<sup>18</sup> والحاضر باستمرار هو القمة التي يبلغها تطور الروح، والغرض النهائي للروح هو وعيها بحريتها وأن تجعل من العالم متفقاً مع ذاتها، وفي هذا السياق يرى أغلبية النقاد أن هيغل وقع في تناقض آخر، بالنسبة لتفسيره لمسار التاريخ العالمي فهو من جهة قد تأثر بفكرة (المركزية الغربية) وسقط في فخ المعجزة الإفريقية لذلك فقد تصور البداية من اليونان والنهاية عند الجرمان وبين مقولات: إمانويل كانط حول التاريخ العالمي ومحاوله المواءمة بين الجهود الإنسانية والعناية الإلهية في صنع أحداث التاريخ، لذلك فهو في هذا السياق يقول: "كل ما يحدث في التاريخ له ما يبرره أو هو الخطة الإلهية للعام".<sup>19</sup>

غير أن هذه العناية لا تكون واضحة في البداية بل ضمنية أو في ذاتها... أو بالقوة كما يقول أرسطو — فهي أشبه بالبذرة التي تحمل في جوفها طبيعة النبتة حيث يقول هيغل: "يبدأ تاريخ العالم بغاية عامة لكنها ضمنية تتحقق عن طريق الانفعالات والمصالح الجزئية، فالمجموعة الهائلة من الإيرادات والمصالح من الأدوات والوسائل التي تستخدمها الروح لبلوغ هدفها".<sup>20</sup>

النص السابق يؤكد لنا بأن التاريخ تحكمه المصالح الضيقة والخاصة وتقنعنا أن هذه الحاجات والانفعالات والمصالح هي المصادر الوحيدة للسلوك ومجمل القول: أن هيغل يجبرنا على قبول فكرة أن محرك التاريخ هو إشباع الرغبات الأنانية.

نلاحظ تناقض هيغل في هذا المجال أيضاً، عندما ينتقد إنصراف حكام الشرق نحو تحقيق أغراضهم الخاصة وفي الوقت ذاته يعتبر ذلك أهم دافع لحركة التاريخ، وفي هذا السياق يقول ماركيز: "إن إشباع الرغبات والحاجات الخاصة كثيراً ما تعترضه مناصر كئيبة، وظواهر مخيفة،

<sup>18</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 55.

<sup>19</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 82 ص 83.

<sup>20</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 50.



وذلك لأن الانفعالات والعايات الخاصة ليس لها حد، ويمكن أن يتحايل أصحابها على القانون والأخلاق — ورغم ذلك يعتبرها هيغل الأساس المحرك للتاريخ.<sup>21</sup>

### ج- الحرية عند اليونان والرومان:

في هاتين الحضارتين يقول هيغل أن نطاق الحرية قد اتسع كما كان عليه عند الأمم الشرقية فاليونان - وكذلك الرومان - عرفوا أن البعض أحرارا، وهذا البعض (هو المواطن اليوناني أو الروماني) أما المواطنون في الأمم الأخرى فقد كانوا ينظرون إليهم على أنهم عبيد أو أنهم برابرة وهمج لا يصلحون لتقبل الحضارة وأن اليونانيين قد خلقوا من عناصر تختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى وأهمهم وحدهم كاملو الإنسانية وقد زدوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة على حين أن الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية ومجردة من هذه القوى وهي لا تزيد كثيرا عن هذه الأنعام وقد عبر عن ذلك كبير فلاسفتهم أرسطو: "أن الآلهة قد خلقت فصيلتين من الناس، فصيلة زدتها بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونان وقد فطرهما على هذا التقويم الكامل لتكون خليفتهما في الأرض وسيدة على سائر الخلق. وفصيلة لم تزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل إتصالا مباشرا بالعضلات وهؤلاء هم البرابرة وقد فطرهما الآلهة على هذه الشاكلة ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة اليونانية المختارة."<sup>22</sup>

إنطلاقا من هذه النظرة تفتح أبواب استغلال العبيد وإهانتهم وإذلالهم إلى درجة أنهم كانوا يرمون أحياء إلى الحيوانات المفترسة سواء أثناء الحضارة اليونانية أو الرومانية.

إن هيغل قد تأثر كثيرا بهذه النظرة معتبرا اليونان سادة العالم ثم الجرمان من بعدهم وهذا من باب تأثره بأرسطو في هذا المعنى يقول: إمام عبد الفتاح إمام نقلا عن بعض المؤرخين: أن عدد العبيد في أثينا كان كبيرا مقارنة له بالجموع الكلي للسكان البالغ عددهم أربعين ألفا نسمة،

<sup>21</sup> - ماركيز هيربرت: العقل والثورة، ص 229.

<sup>22</sup> - أرسطو: في السياسية، ص 04 - 06.

حيث كان عدد العبيد أكثر من النصف أي خمسة وعشرون ألف نسمة وقد كان هؤلاء العبيد مجردين من كافة الحقوق المدنية والسياسية لذلك فلا عجب أن نجد عمالقة الفكر الفلسفي من ذو القيم الإنسانية يشبه العبد في المنزل بأي أداة يستخدمه صاحب المنزل ويفعل معه كما يفعل مع الأداة الجامدة.

نلاحظ أنه على الرغم من عدم المساواة التي كانت سائدة في المجتمعين اليوناني والروماني فإن هيغل قد اعتبرهما مرحلة أولى في الوعي بالحرية وفي المرحلة الثانية ينتقل إلى الرومان ليؤكد أن الوعي بالحرية أكثر انتشارا لديهم لهذا اعتبر فترتهم، كهولة الإنسانية، ويقفز على الحضارة العربية الإسلامية وما حققته من تجسيد للحريات وتحرير للعبيد وما شرعته لإعلاء قيمة الإنسان وإعطاء المرأة مكانتها المنوطة بها، ومساواتها مع الرجل وهو الأمر الذي تخلقت عنه الحضارة الأوربية لسنين كثيرة، ثم ينتقل إلى مرحلة الجرمان ليقرر جزافا بأنها شهدت الحرية ذروتها القصوى لدى الأمم الجرمانية، وهيغل عندما يتحدث عن هذه المرحلة فإنه يعتبرها نهاية التاريخ متأثرا بالتزعة الرومنطقية التي كانت سائدة لدى فلاسفة التاريخ الألمان السابقين عليه مثل: هردر كانط، شلنج فخته،... إلخ.

يجدر التذكير أن هيغل قد وقع في تناقض في هذه النقطة بالذات لأنه هو وسابقه من فلاسفة التاريخ الألمان قد كانوا معجبين كثيرا بالثورة الفرنسية وما نتج عنها من مبادئ كما كانوا مولعين بالملكية المقيدة في إنجلترا. وكم كانوا يتمنون أن تنتشر الحريات العامة وأن تقيد السلطات الألمانية الملكية مثلما هو الشأن عند الفرنسيين والإنجليز، بمعنى أن ألمانيا لم تصل بعد إلى تحقيق أحلامهم.

د - الدولة كتجسيد لفكرة الحرية:

الدولة عند هيغل، مركب من الفرد والأسرة والمجتمع المدني، فهي التحقق الفكري للحرية وبالتالي للفكرة الأخلاقية بوصفها إرادة جوهرية تتجلى أمام ذاتها وتعرف نفسها (وتعقلن ذاتها)<sup>23</sup>. إن الدولة عند هيغل هي الفكرة المعتبرة عن المطلق والمجسدة على أرض الواقع وتسيج لروح الشعب محققة لذاتها بذاتها في صورة موضوعية.

إذن : فإن الدولة هي تجسيد للروح في الإفصاح الخارجي عن الإرادة الإنسانية وإذا كان الفرد يعتبر عنصراً مهماً في الخلية الأساسية للمجتمع وهي "الأسرة" التي تعتبر من عناصر الفكرة الكلية، فإن المجتمع المدني عنصر آخر وهو الجزئية" فإن الذي ينتج عنهما وهو عنصر "الفردية" الذي هو مركب "الكلية" و "الجزئية" فالدولة كائن حي يميز نفسه بنفسه باعتبارها تشكل حياة الكل التي تظهر في جميع الأجزاء. والدولة هي الكلي الموجود بالفعل وبالتالي فهي الفرد وقد تحقق بالفعل و قد تموضع ، وبناءاً على ذلك فسوف تبدو علاقة الدولة بالفرد علاقة مزدوجة فالفرد سوف يشعر أن الدولة شيء خارجي عنه أي شيء يحده، وقد يجبره أو يلزمه بأفعال معينة ذلك لأن الدولة لا بد أن تعلق على جميع المصالح الذاتية والمنافع الخاصة ،ولا بد أن تكون لها القدرة على إعادة تشكيل العوامل الموجودة بداخلها، فهي الضامنة للحقوق والحريات لأن أي عضو من أعضاء هذه الدولة قد يلجأ إليها لحمايته والدفاع عنه<sup>24</sup> ضد عضو آخر، إنها الحكم الأعلى، ولهذا فهي يتمتع بالحق والفرد من ناحية أخرى لا بد أن يعي أن الدولة ليست غريبة عنه لكنها التعبير والتحقق للمبدأ العقلي الذي يمثله وتحت ظلال سلطتها وحدها يحقق الفرد فرديته<sup>25</sup>.

إن ما تعارضه الدولة وما تعمل على قهره هو أهواء الفرد ونزواته، أما إرادته الحقيقية الأصلية فهي تعمل على تحررها الكامل في ظل الدولة والتنظيمات التي تحتويها يصبح الفرد كلياً ويحقق غاياته وأغراضه في إطار القانون ومن خلال النظام الاجتماعي يستطيع بلوغ هذه الغايات

<sup>23</sup> - هيغل: أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة، 1981، ص 45.

<sup>24</sup> - المصدر السابق، ص 47.

<sup>25</sup> - برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ص 46.

وتحقيقها تحقيقاً كاملاً وبهذه الكيفية يحقق ذاته في إطار المجتمع الذي يعيش فيه، إلا إذا خالف السياق العام لمجتمعه فإن مصالح الدولة عندئذ تلجأ إلى قهره أي إلى الحد من أهواء الفرد ونزواته المتجاوزة للإرادة الحقيقية، والدولة عند هيغل: "ضرورة خارجية وقوة أسمى في مقابل دوائر الحق الخاصة للأسرة والمجتمع المدني التي بطبيعتها تلحق قوانينها ومصالحها التي تتعلق بها".<sup>26</sup>

سئل أحد الفلاسفة الفيتاغوريين مرة عن أحسن الطرق لتربية ابنه فقال: "أن تجعله مواطناً صالحاً لدولة ذات قوانين صالحة"<sup>27</sup>.

بهذا المعنى فإن الحرية عند هيغل لا يمكن أن توجد وأن يعبر عنها بغير القانون، فهي الحرية لا تتحقق على المستوى الغرائزي ولا توجد ما لم يتنازل الإنسان عن أنانيته وفرديته.

مجمل القول: أن الحرية عنده تستلزم الوعي بحدود القدرة الإنسانية ومعرفة القوانين التي تتحكم في تشكيل الظروف الموضوعية للعامل الإنساني، ففي هذه النقطة يتوافق هيغل مع روسو صاحب نظرية العقد الاجتماعي "ويصبح كل طرف ملزم بواجبات في مقابل الحقوق داخل هذا العقد. والدولة عليها واجب تربية مواطنيها وتثقيفهم.

في الماضي كان اليونان يقيمون حياتهم من أجل الدولة بحيث لم يكن لهم مجال للتفكير في المصلحة الفردية ولكن بعد الثورة الفرنسية ظهر مبدأ الأخذ بالمصلحة الفردية لأن هذه الثورة مالت على مسارها وأكدت على حقوق الفرد وهدمت الملكية الفردية وأكدت على مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، لكن الدولة البروسية حاولت التوفيق بين الحضارة اليونانية والثورة الفرنسية والتاريخ يؤكد هذه المسألة وأساس ذلك يمكن تلخيصه في مجموع القوانين والعادات التي تكونت عبر الزمن وشكلتها العوامل الطبيعية والجغرافية ومن جهة أخرى يمكن للدولة أن يتكون لديها وعي بالحرية إذا ما ألزم جميع أفرادها القوانين التي منها يتألف كيانهم السياسي والروحي.

<sup>26</sup> - هيغل: مبادئ فلسفة الحق، ص 280.

<sup>27</sup> - عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، ص 592.

وفي المعنى ذاته يؤكد هيغل على أن الأمم الحقيقية هي التي تؤمن بإنسانية الإنسان وبأنه حر بما هو إنسان ولكن النظم السياسية لم تخضع في أول الأمر إلى هذا المبدأ، وطوال العصور الوسطى، وإنما بدأت في ممارسة الوعي بالحرية في عصر الإصلاح الديني، وهذا يعد بمثابة الثورة الجرمانية في مقابل الثورة الفرنسية.

هكذا أصبح الإنسان يستخدم عقله مما جعل الفعل مشرقاً رائعاً للشمس<sup>28</sup>.

نلاحظ أن هيغل من خلال النص، أغفل ما كان يجري لدى اليونان والرومان من امتحان للإنسان واستعباد له إلى درجة أن أكثر من نصف عدد سكان المدينة عبيد وهو الشيء الذي ينسحب على فترة الرومان ورغم ذلك لم يتطرق إليها هيغل في مسألة كرامة الإنسان، بل وتطرق بإيجاز إلى العصور الوسطى الأوربية مذكراً بالإصلاح الديني في ألمانيا في مقابل الثورة الفرنسية التي انعكست نتائجها على أغلب الدول فقيدت سلطات الملوك وساعدت الأوروبيين في الحصول على حقوقهم وحريةهم — وعلى الرغم مما سبق فقد انقسم اتباع هيغل فيما يخص هذه المسألة إلى فريقين، فريق اليمين الهيجلي وهم الذين اتجهوا نحو المحافظة، وفريق اليسار وهم الذين اتجهوا اتجاهاً ثورياً.

والدولة كتجسيد للمطلق لا بد لها أولاً من دستور كتنظيم داخلي كما لا بد لها في توضيح علاقتها ببقية الدول، كما أن تطور العقل في العالم، وهو التطور الذي تصبح فيه كل دولة جزئية مجرد حلقة بسيطة في التاريخ العام.

أما التنظيم السياسي الذي يحقق الحرية فهو مبدأ الفصل بين السلطات لأن الحاكم المستبد الذي يجمع في يده السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية لا بد وأن يتعسف بحيث يشرع ويقرر كما يريد ووفقاً لرغباته وغرائزه<sup>29</sup>.

<sup>28</sup> - أميرة حلمي مطر: الفلسفة السياسية، ص 88.

<sup>29</sup> - هيغل: مبادئ فلسفة الحق، إمام عبد الفتاح إمام، ص 48.

نلاحظ أن هيغل في هذه النقطة يركز على الحكم الديمقراطي الذي يحقق الحريات في أوروبا ويناقضه بالحكم المستبد الذي يمكن الحاكم من الجمع بين كل السلطات في يده، وهذا يمثلته الحاكم الشرقي، متجاوزا فترات مهمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وخاصة فترة دولة المدينة بقيادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفترة الخلفاء الراشدين.

### ثالثا - فلسفة الروح عند هيغل:

أ - مفهوم الروح عنده: ويأتي القسم الثالث والأخير من فلسفة هيغل ألا وهو فلسفة الروح. وفلسفة هيغل برمتها في حقيقة الأمر ما هي كما يقول هودفنج إلا " فلسفة الروح من البداية للنهاية. فهذه الفلسفة ما هي إلا محاولة لجعل علم الروح علما مطلقا" إذ أن هيغل يقرر بأن " كل شيء روح والروح هي كل شيء"

الفكرة بعد أن كانت تجريد محض في المنطق. وبعد أن تخرجت على شكل طبيعة، تعود مرة ثانية لتصبح فكرة مطلقة ثرية بالروح غنية بما اكتسبته في طوافها بين العقل والطبيعة وبما كسبته من معاني الكلية والشمول والإطلاق.

يعالج هيغل في الجزء الأخير من فلسفة الطبيعة الخبرات الثقافية التي تقع في متناول الإنسان مثل علم النفس والقانون والتاريخ والفن والأخلاق والفلسفة، ويقسم هذا الجزء إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الأول ويسميه بالروح الذاتية ومجالها علم النفس أي الحياة العقلية الداخلية للأفراد ونقيض الروح الذاتية هو الروح الموضوعية ومجالها الحقوق المجردة للأشخاص والأخلاقيات الذاتية والأخلاق الموضوعية أو الاجتماعية.

والقسم الثالث الذي يجمع بين الروح الذاتية والروح الموضوعية في وحدة أعلى وأشمل يسميه الروح المطلقة ومجالها الفن والدين والفلسفة<sup>30</sup>.

<sup>30</sup> - حسن محمد الكلاي: فلسفة التقدم، دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفعالة في التاريخ، مركز الإسكندرية للكتاب الإسكندرية، 1977، ص 105.

## ب- أقسام الروح عند هيغل:

أ- الجزء الأول الخاص بالروح الذاتية فيقسمه هيغل إلى ثلاثة أقسام هي :

الأنثروبولوجية والفينومولوجيا وعلم النفس.

" الأنثروبولوجية تعالج النفس في حالة اتحادها بالجسم وتناقش علاقة النفس بالجوامد. وأجناس الإنسانية واختلاف الأعمار... أما علم النفس فهو يعالج الأشياء المختلفة للحياة العقلية نظرية كانت أم عملية مثل الانتباه والذاكرة والرغبة والإرادة ".

ب- أما الجزء الثاني الخاص بالروح الموضوعية فهو نقيض الروح الذاتية وهو أجمل أجزاء

فلسفة هيغل. كما يقول رايت ويقسمه إلى ثلاثة أجزاء هي :

أ- فلسفة الحق : بمعنى الحق الجزء للأشخاص ويحددها هيغل، بأن تكون إنسانا وإن تختص

الآخرين كإنسانيين، ويقسم هيغل هذا الجزء إلى ثلاثة أقسام هي :

1- الملكية : فكل إنسان له الحق في أن يمتلك الأشياء

2- التعاقد : الذي يحمي الأفراد

3- الجريمة : أو الخطأ الذي يترتب على الاهتمام بالملكية بدون وجه حق وبدون اكتراث

لحرية الآخرين هذا ويقرر لودفنج بأن فلسفة هيغل عن الحق لها قيمة كبيرة في تأكيد الترابط بين حياة المنظمات والشخصية التاريخية للدولة ككل.

ب- الأخلاقيات الذاتية : وهي تقوم كنقيض للحق المجرد أو لفلسفة الحق الأطروحة

الأولى وهي تعالج:

1- حق الفعل المجرد والمحوري وهو ذلك الحق الذي يحمل محتوياته إلى الخارج...

2- المظهر الخاص للفعل وهو محتواه الداخلي...

ج- لأخلاق الموضوعية أو الاجتماعية: <sup>31</sup>

وهي فكرة من الحق المجرد والأخلاقيات الذاتية ويقسمها هيغل إلى ثلاثة أقسام هي:

هـ- الأسرة: وهي المؤسسة الاجتماعية الأولى وهي ليست حسية أو تعاقدية وإنما هي

"وحدة أخلاقية" وتقوم على دعائم ثلاث وهي "الزواج... الملكية... وتعليم الأطفال".

الأطروحة الأولى أو المجتمع المتحضر وهو يقوم على الحاجات الاقتصادية المتمثلة في الزراعة

والصناعة والتجارة والطبقات الحاكمة .

و- الدولة: هي الفكرة المركبة والوحدة العليا للأسرة والمجتمع المتحضر " فهي غايتهمما

وحقيقتهمما" وتمثل حقيقة الفكرة الأخلاقية<sup>32</sup>.

لقد أعطى هيغل الدولة أرفع اعتبار. إذ في الدولة فقط يتمتع المواطن بالحرية المطلقة ويمتلك

الحقوق التي توضع. ومع ذلك فالدولة أهم بكثير من أي شخص.

ولقد تعرض هيغل وهو بصدد دراسة الدولة إلى فلسفة التاريخ<sup>33</sup> وذهب إلى أن هناك

مراحل أربعة.

الأولى: مرحلة العالم الشرقي.

الثانية: مرحلة العالم الإغريقي.

الثالثة: مرحلة العالم الروماني.

الرابعة (الأخيرة) مرحلة العالم الألماني.

<sup>31</sup>- Edmond Husserl : La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale, PP 110-111.

<sup>32</sup>- Ibid, P 112.

<sup>33</sup>- حسن محمد الكلاي: فلسفة التقدم، ص 207.



ويبدأ هيغل فلسفته بدراسة الصين فيقول : وبالإمبراطورية الصينية يبدأ التاريخ.

وتتقدم الروح الغيبية والسحرية في الصين والعالم الشرقي لكي تصبح محاطة بالطبيعة وبالآلهة عند الإغريق ثم لكي تصبح أكثر تحديدا وتخلصا من الآلهة عند الرومان وأخيرا تصبح حقيقة مطلقة عند الألمان وهنا تمثل الروح الألمانية روح العالم الجديد.

ويرى هيغل أن تاريخ العالم بكل أشكاله المتغيرة التي تمنهاها ما هو إلا عملية تقدم وتحقق للروح.

أما عن الدولة فيرى هيغل أن الدولة تكون سليمة الكيان قوية البنين إذا اتفقت المصلحة الخاصة لمواطنيها مع الصالح المشترك للدولة ومن ثم فيجب أن تنصهر الإرادات الفردية في ثنايا الدولة إذ يجب على الإرادات الفردية أن تعمل داخل إطارها<sup>34</sup>.

وأما الجزء الثالث الخاص بالروح المطلق فهو المركب من الروح الذاتية والروح الموضوعية. ويتكون من هذه الثلاثية:

أ- الفن : ويتكون من جوانب ثلاثة : الرمزي والكلاسيكي والروماني المسيحي<sup>35</sup> .

وبالفن أحرز الإنسان أول انتصار على المادة قبل أن ينتصر عليها انتصارا كلياً بالعلم. فالفن إنزال للفكرة في المادة وتشكيلها على مثالها، ولكن مطاوعة المادة متفاوتة. وهذا أصل تعدد الفنون الجميلة حيث تدرج من المادية إلى الروحية وهي توزع على طائفتين: طائفة الفن الموضوعي تشمل العمارة والنحت والتصوير. وطائفة الفن الذاتي تشمل الموسيقى والشعر<sup>36</sup>.

<sup>34</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص122.

<sup>35</sup> - حسن محمد الكلاي: فلسفة التقدم، ص 208.

<sup>36</sup> - Hegel : Esthétique, premier volume, trad S. Jank Elévitch, Ed Flammarion, 1979 PP 26-27.

في العمارة نجد الفكرة وصورها متميزين جد التمايز لعصيان المادة ومردّها فإن المادة ههنا أغلظ مواد الطبيعة. لذا كانت العمارة فنا رمزيا بجنتا يدل على الفكر ولا يعبر عنها (المادة) تعبيراً مباشراً. إن الهرم والمعبد الهندي والمعبد اليوناني والكاتدرائية المسيحية رموز جميلة. ولكن المسافة بينهما وبين ما نرّمز إليه بعيدة بعد السماء عن الأرض. تشبه العمارة السماء ذات الأبعاد الهائلة والعظمة الساحقة، فإنها تترجم عن القوة الرابطة واللائهائية الدائمة، ولكنها عاجزة عن تأدية حركة الحياة.

في النحت تتقارب الصورة مع الفكرة إلى حد ما. إن هذا الفن ينفخ روحاً في المادة الغليظة. كاللجر والرّخام والنحاس ويبقى عاجزاً عن التعبير عن النفس ذاتها كما تبدو للناظر. التصوير يحقق هذا التقدم لأنه يستخدم مواد أكثر لطافة ويقتصر على رسم سطح الجسم، ويوحى بالعمق بواسطة السطح، لكنه لا يعبر إلا عن وقت من أوقات الحياة، يتنبه في المادة وهذه خاصية مشتركة بينه وبين النحت والعمارة لذا كانت هذه الفنون متلازمة تأتلف في أنحاء كثيرة مع الموسيقى فتبلغ إلى الفن الذاتي إنها ترجمة عن انفعالات النفس وألوانها المختلفة إلى غير نهاية، تستخدم الصوت وهو شيء لطيف ولكن الصوت فيها رمز كالبناء في العمارة فهو مبهم غامض كالانفعالات التي يترجم عنها. ولهذا السبب تحمل القطعة الموسيقية تأويلات عدة في الشعر ويصل الصوت إلى درجة الكمال.

إن في الصوت قول معقول ونطق يعرب عن كل شيء، عن الطبيعة والإنسان وأحداث التاريخ، يطاوع الفكر في جميع ثناياه فيبني وينحت ويصور<sup>37</sup>، ويغني ويروي، فهو مجتمع الفنون. وهو من ثمة الفن الكامل. الملحمة تمثل الفنون الموضوعية الخلافة تصور الطبيعة وآياتها والتاريخ وأمجاده. ولكنها تمثل طفولة الشعر وهي ثرثرة طويلة كالسنين الأولى من بدء الحياة. وفيرة الصور زاخرة بالعجائب والغرائب كمخيلة الأطفال. والشعر الغنائي يقابل الموسيقى يأوي إلى

<sup>37</sup> - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، ص 283.

العالم غير المنظور المدعو بالنفس الإنسانية ولا يتعداه. فهو محدود ناقص. والشعر الدرامي. أكمل أنواع الشعر وهو يجمع بين العالمين الظاهر والباطن. فيمثل التاريخ والطبيعة والنفس ولا يزدهر إلا في أرقى الشعوب حضارة.

وللفن على العموم، ولكل فن على الخصوص، تاريخ في ثلاثة عصور، فالفن الشرقي رمزي يستخدم الأمثلة ويستلزم التأويل الذي يحتمل وجوها عدة - لا يقوى بعد على إخضاع المادة. فيزدري الصورة الخارجية ولا يعنى بإمدادها - يجب الكبر والعظمة والالاهية ويعلو فيها. أما الفن اليوناني فيصطنع التعبير المباشر بدل الرمز فتجئ مصنوعاته مفسرة نفسها بأنفسها. لأنه يتزل الفكرة كلها في الصورة غير أن هذا الكمال يورثه نقصا فإن تمام حلول الفكرة في المادة يفنيها فيها وضحي بها في سبيل الصورة الظاهرة والجمال المحسوس.

المسيحية تتلافى هذا النقص : فإنها ترفع الفن من العالم المنظور حيث ضل وضاع إلى العالم المعقول موطنه الحق. وتستبد بالجمال الحسي الجمال المعنوي وتعبد العذراء مثال الطهارة والقداسة بدل الزهرة. ولكن أنى للصورة المادية أن تطابق المثل الأعلى. لذا كان الفنان المسيحي عديم الرضا عن آياته الفنية مهما تبلغ من إتقان إن العذراء التي يتخيلها والمنازل الأبدية التي يرنو إليها والألحان السماوية التي يرهن لها سمع نفسه، والحياة الإلهية التي يحاول الإعراب عنها، كل ذلك أرفع وأجمل من أن يوضع في المادة فييأس من قدرته ويعود إلى ازدراء الصورة والغلو في الروحانية<sup>38</sup>.

ب - الدين : ويتكون من الدين الطبيعي والدين الروحي ثم دين الروح المطلق وهو تركيب الدينين لمتقدمين ويرى هيغل أن واجب فلسفة الدين هو إيجاد حل للتناقض بين العقيدة من جهة والعقل أو الشعور الذاتي من جهة أخرى<sup>39</sup>.

<sup>38</sup> - المرجع السابق، ص 284.

<sup>39</sup> - Gaston Fessard : Hegel le christianisme et h'histoire, P.U.F, Paris, P 140.

إن موضوع الدين هو المثل الأعلى أو اللامتناهي مدر كما في الباطن وموضوع الفن التعبير عنه في الظواهر. فالدين بما هو كذلك منحدر من الفن وإن يكن الفن محاولة دينية أولى — الوثنية أداة الوصل بين الفن والدين ولها مراحل ثلاثة هي.

**المرحلة الأولى : السحر الذي يقوى القوى الطبيعية العاطلة من الشعور.**

**المرحلة الثانية : البوذية التي تعبد إلهها روحيا ولكنها تتصوره عاطلا من الشعور كذلك**

**المرحلة الثالثة : الزادشتية التي تقول بإله مجرد تسميه النور يحاول إثبات ذاته بإزاء الظلمة**

التي هي نفي وسلب هذه الأديان الشرقية تعتبر الله موجودا كليا غير ذي شخصية فتعارضها أديان " الشخصية الروحية" وهي : الموسوية التي تمثل الإثبات والديانة اليونانية التي تمثل النفي والديانة الرومانية التي تمثل المركب من النفي والإثبات .

الموسوية أدركت استحالة التعبير عن اللامتناهي، فحظرت تصويره بأي شكل كان ونبذت الأوثان، ولكنها لم تحظر تصوره. فتصورته موجودا شخصيا مفارقا للعالم ففيها وفي سائر الديانات الشرقية اللاهائية هي الغالبة، إله الشرق شبيه بملوك الشرق هو المتصرف الأوحد يجي ويميت، يرفع ويضع يريد ويفعل. وما على الإنسان إلا التسليم وبقدر ما كان الشرق متدنيا كان اليونان شغوفين بالطبيعة وبالأرضيات فتصوروا الله على مثال الإنسان، أي أنهم في الواقع عبدوا الإنسان بعقله وجماله وقوته. ولكنهم لم يتحرروا من العقلية القديمة تمام التحرر، فقد نصبوا القدر فوق البشر وفوق الألهة أنفسهم وهذا القدر هو اللامتناهي، يتهددهم الشر في كل وقت وينغص حياتهم ويشعرهم بأنهم عدم<sup>40</sup>.

أما الرومان فكانوا أهل جد وصرامة، فوضعوا الأخلاق الصارمة قانونا للحياة، وعادوا إلى روحانية الألوهية معتبرين الآلهة معينين على تحقيق أوامر الضمير الإنساني، هاتان الصورتان المتعارضتان اللاشخصية والشخصية تأتلفان في المسيحية القائمة على أن المسيح إله وإنسان معا،

<sup>40</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 146.

فتتصور اللامتناهي يترل من عرشه ويدخل في منطق المتناهي، فيحيا حياتنا ويتألم ويموت ثم يبعث فيعود إلى مجده . ففيها إثبات ونفي وتركيب وهي تختصر الأديان وتصفيها وتكملها . كما يختصر الشعر الفنون الجميلة فهي الدين المطلق.

**ج - الفلسفة:** وهي التركيب النهائي في نسق هيغل ومن خلالها يكشف الإنسان المطلق في كل مراحل الجدل، أي يصبح الإنسان عن طريق الفلسفة جدليا وحائزا للشعور الذاتي ويقدر مركزه الخالص في ذلك العلم العضوي والعقلي.

إن المسيحية نفسها ليست القمة التي ينتهي عندها تطور الروح فإن الفن والدين يؤديان إلى الفلسفة ويأتلفان فيها إن كل شيء صادر عن روح لا متناه ولكن الفن والدين وليدا العاطفة والمخيلة، أما الفلسفة فتحقيق ما يرمزان له وهي انتصار العقل الخالص يفهم الوجود فيتحرر منه كانت الطبيعة وقواها والدولة ومؤسساتها تبدو كأنها أشياء خارجية مفروضة على الإنسان والآن نرى الفلسفة في أفعال الطبيعة أفعال العقل أي أفعال الإنسان وفي المؤسسات الاجتماعية صورة السلطة الأخلاقية التي يحملها في نفسه . فليست ترمي الفلسفة إلى محو المعاني الدينية ، بل إلى إحالتها إلى معان عقلية، وفي الفلسفة فقط يتحقق الروح المطلق أو الله تمام التحقق لأن فيها تصل الثقافة الإنسانية إلى أقصاها وما المذاهب الفلسفية التي يشهدها التاريخ إلا حلقات في سلسلة التقدم نحو هذا النصر النهائي، أي أهما درجات متفاوتة لفلسفة واحدة وجود بارمنيدس وصرورة هرقليدس ائتلفا في مذهب أرسطو والأمثلة كثيرة على مثل هذا الانتلاف، ومن جهة عامة كانت الفلسفة اليونانية عبارة عن دراسة المادة، فجاءت فلسفة العصر الوسيط عبارة عن فلسفة الروح، فألفت الفلسفة الحديثة بينهما في وحدة عليا، وكانت الفلسفة الهيجلية آخر وأكمل صورها (طبعا) حيث ينتهي الروح المطلق إلى تمام الشعور بذاته ويجمع في تركيب أعلى، وأخيرا بين الأضداد التي صادفها في تطوره منذ كان وجودا ولا وجودا في آن واحد، إن الفلسفة في آخر زمانها سوف تكون ثمرة جميع الفلسفات السابقة ويجب أن تنضم مبادئ هذه الفلسفات جميعا في

"الكل" حيث تبقى الأجزاء متميزة عن "الله" باعتبارها أوفانا في نيار التطور وحيث تتلاشى باعتبارها مظاهر "الله" كما تقتضي وحدة الوجود.

ماذا نقول وسذاجة الفلاسفة لا حد لها؟ نقول مع ذلك أن هيغل قد أفلح في إقامة فلسفة فسيحة الأرجاء رفيعة العماد قائمة على فكرة رئيسية واحدة مطبقة بمنهج واحد وأن تأثيره كان عميقا في جميع النواحي. إن الفلسفة الخالصة هي في السياسة والأخلاق والدين والفن والتاريخ<sup>41</sup> غير أن منهجه مصطنع وثلاثياته مفتعلة إن نفي ما لا يعطينا معنى جديدا واستنباط المعاني الأساسية ظاهري والحقيقة أن الفيلسوف يطالعها في الواقع ويحاول الربط فيما بينها بشيء كثير من التعسف ثم إن الانتقال من المنطق إلى الفلسفة الطبيعية لا يتم بموجب ضرورة جدلية، بل لأن الفيلسوف يمد المعنى المجرد الذي بني عليه المنطق ويعود صراحة إلى التجربة التي استمد منها المعاني المجردة لذا دعيت فلسفته الطبيعية بالجزء الخجلان في مذهبه، والانتقال من الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة الروحية يتم بمحو جديد هو محو صورة الخارجية التي اتخذها الروح في الطبيعة فيحل الشعور محل المادة ونحن نطالع في أنفسنا والدرجات الثلاث في الطبيعة لا يجدها الفيلسوف في الروح إلا لأنه وجدها في الواقع فلسنا هنا بإزاء استنباط حقيقي .

ويقال مثل ذلك في كل انتقال من حد إلى آخر في مختلف الثلاثيات فنخرج بأن هيغل قد أخفق في بيان إمكان معرفة الوجود معرفة أولية كما يحتم مذهب وحدة الوجود وكان لا بد أن يخفق إذ أن الطبيعة إحدى الصور الممكنة للوجود فرفعها هو إلى مقام الصورة الضرورية وأنى لمنهج كائنا ما كان أن يقلب الممكن ضروريا؟!!

#### رابعا- دور الروح في حركية التاريخ :

أ- الطبيعة : الروح المطلق يباين نفسه فتظهر الطبيعة فهي إذن مظهره الخارجي الذي يعارضه وهي تتطور وفقا للمنهج الثلاثي : فهناك أولا الطبيعة في ذاتها المثلة في الميكانيكا أي جملة

<sup>41</sup> - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ص 285-286.

القوانين الآلية التي تعبر عن مطلق الجسميه أو الواجهه الكمييه في الأجسام وثانيا الطبيعة لداها أي جملة القوى الكميائية التي تعبر عن الوجهه الكيفيه وثالثا الطبيعة في ذاتها أي جسم الكائن الحي، والعقل الخالق، كالعقل المتصور في الإنسان حيث يبدأ بما هو أكثر تجردا وأقل إدراكا، أي بالمكان والمادة، المكان موجود وغير موجود، والمادة شيء وليست شيئا، مثلهما مثل الوجود الذي في رأس المنطق هذا التناقض هو مبدأ التطور الطبيعي والقوة الدافعة وهو ينحل في "الحركة" التي تقسم المادة إلى وحدات متمايزة وتكون منها السماء، إن تكوين الأجرام السماوية بمثابة الخطوة الأولى التي تخطوها الطبيعة في طريق التشخص، توزع المادة وانتظامها في السماء بمثلان مقولات الكم والتزوع المنسب في الطبيعة الذي يبدو في الجاذبية التي تحقق فكرة التناسب وتجعل من العالم جسما حيا، السماء مجتمع ابتدائي يشبه من بعيد المجتمع الإنساني، وتنوع المادة تنوعا كفييا، فيظهر النور، تعارضه الحرارة فينحل هذا التعارض في الكهرباء فيظهر من الكهرباء الكيمياء بعناصرها المتقابلة فتتفاعل هذه العناصر ثم تأتلف في المركبات فعلما الطبيعة والكيمياء يدرسان الاستحالة الباطنية والتغير الجوهرية<sup>42</sup>.

ثم تظهر من القوى الفيزيقية والكيميائية الكائنات الحية التي هي مجاميع مركزة لا بمعنى أنها وليدة المادة والآلية فحسب ولكنها وليدة تطور المثال أو الروح بواسطة المادة ويلقى الكائن الحي معارضه من الطبيعة الخارجية، فيتثبت فرديته أو يحقق مثاله بالتمثيل المتصل والتنفس والحركة الحرة، وأدنى صور الحياة النبات وهو بدن ناقص، هو عبارة عن أعضاء كل منها فرد، فهو ضرب من تبيد الحياة في هذه الحياة الإبتدائية المنفصلة المتجانسة إلى حد كبير الحاصل كل منها على قوة الحياة على حدة، ثم تتحقق الفردية في الحيوان فإن أجزاءه أعضاء بمعنى الكلمة أي خدام الوحدة المركزية وهي عبارة عن أنظمة متنوعة كالنظام العصبي والدموي وما إليها وهنا أيضا درجات فإن الحيوانية ترتقي بالتدرج على رسم واحد إلى أن يصل الروح الخالق إلى جسم الإنسان، فيقف عنده من حيث المادة ويغدق عليه الكنوز الروحية، وفي كل هذا الوصف يستخدم هيغل المعارف

<sup>42</sup> - Gaston Fessard : Op.cit, P 146.

العلمية من وقت<sup>43</sup> أرسطو إلى وقته ولا يصنع أكثر من أن يربتها الترتيب الثلاثي كما يقتضي منهجه ويسلسل بعضها مع بعض كما يقتضي مذهبه الأحادي.

ب- الإنسان والمجتمع: بعد أن يعارض الروح المطلق نفسه بالطبيعة. يميل ضرورة إلى التغلب على هذا التعارض بأن يستعيد نفسه بمعرفة نفسه وهنا أيضا يبدو تطوره ثلاثيا: فأولا: نجد الروح في ذاته أو الروح الذاتي، أي الفرد مقر الظواهر الشعورية التي يدرسها علم النفس، وثانيا: الروح لذاته أو الروح الموضوعي أي المجتمع وثالثا: الروح في ذاته ولذاته، أي الاتحاد الأعلى للروح الذاتي والروح الموضوعي وهما جملة الحياة الروحية للوجود متجلية في الفن و الدين والفلسفة.

ماهية الإنسان روح، أي شعور وحرية ولكن الشعور والحرية على درجات ثلاث: في الدرجة السفلى الروح مقترن بالجسم، ينمو وينضج ويشيخ وله احساسات غامضة يقابلها انفعالات غامضة وهذه "جسمية الروح" (التي يسميها علم النفس الآن بالاشعور، ثم يظهر الشعور الواضح، فيدرك الإنسان ذاته ويدرك الأشياء، وهذان الإدراكان متعارضان، يوفق بينهما "الفهم" الذي وظيفته إدراج الإحساس تحت قوانينه الأولية وجعل مدركات الشعور موضوعية ووضع الحقيقة وفق جسمية الروح والشعور الواضح بالفهم حيث العقل الذي يؤلف بينهما إذ يجعل من قوانين الشعور قوانين الحياة فالنظر ينقلب عمليا حين يتخذ الروح ذاته موضوعا لإرادته، كما قال كانط، فيتفق النظر والعمل، فالروح الذاتي حين يقر بالحقيقة والقانون، يقر بسمو الروح الموضوعي ويقدمه على نفسه، للروح الموضوعي مظاهر ثلاث تقوم بإزاء المظاهر الذاتية الثلاثة وهي: الحق والواجب<sup>44</sup> والمؤسسات الاجتماعية التي تمثل الأسرة والمجتمع المدني والدولة. ففي (الحق والواجب) في الحالة الطبيعية تسيطر على الفرد الأنانية الحيوانية وفي حال الاجتماع تنتظم هذه الأنانية بالحق والقانون، لأن الفرد يدرك بعقله أن الآخرين نظراؤه وأن العقل والحرية والروحية (وهي مترادفات) خيرهم المشترك، فيتخذ حرية أخيه الإنسان قانونا لحرية هو أي حدا لها وهذا

<sup>43</sup> - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ص 278-279.

<sup>44</sup> - هيغل: ظاهريات الروح، ص ص 243 - 245.



أصل التعاقد، ويبدو الحق في التملك حيث يتناول الفرد شيئاً خارجياً عاطلاً من الإرادة فيجعل له شيئته الخاص وينفذ فيه إرادته ولكن الحرية المضمونة بالحق بالنسبة إلى الأشياء الخارجية هي حرية ناقصة إذ أنها لا تعن بالبحث الباطني، فتخلق مجالاً للصراع بين الروح الذاتي والموضوعي ويزول هذا الصراع بأن يصير احترام الحق إرادياً فتصير المطابقة للقانون " خلقية" حيث ينظم الضمير الحياة الباطنة ، على حين أن الحق لا ينظم سوى المنافع المادية، على أن الفرد ميال للانانية وللشر، فهو عاجز بمفرده عن تحقيق المثل الأعلى الأخلاقي، فيجد المعونة في المجتمع الذي يحرره من نفسه ويوفر له وسائل العمل الصالح.

المؤسسة الاجتماعية الأساسية هي الأسرة تنظم غريزة التناسل بالزواج والزواج بوحدة يكفي ويجب حسن تربية البنين إذ على الأسرة يقوم المجتمع المدني وتقوم الدولة، فلا يعتبر الزواج أمراً عاطفياً فحسب ولكنه واجب مقدس ويجب أن يصدر عن الشعور بالواجب أي أن يعقد لأجل المجتمع والدولة وحينئذ يعد عملاً خلقياً، لذا كان الطلاق منكر مبدئياً ولا ينبغي أن يسمح به إلا في حالات استثنائية يعيها القانون، والمجتمع المدني يتكون من الأسر ولكنه لم يبق بصنعها أو بصنع الأفراد بحيث تكون الحكومة مسئولة أمامهم، إنه مرحلة في تطور الروح المطلق، فهو طبيعي لا عرفي والغرض منه صيانة الحقوق وحماية المصالح الفردية وبهذا الاعتبار يمكن للمجتمع المدني أن يتكون من قوميات مختلفة، مثلما يشاهد في سويسرا، فهو ينظم غريزة الانتقام إذ يصنع القصاص المدني أو القانون الجنائي وينظم الأنانية في الحياة الاقتصادية وليس القصاص المدني انتقاماً أو إصلاحاً خلقياً ولكنه جزاء عدل يمكن أن يذهب إلى حد الإعدام. أما غرض الدولة فيزيد على ما تقدم تحقيق الروح المطلقة، والتضحية بالمصالح الخاصة في سبيله فهي قومية لها لغتها ودينها وأخلاقها وأفكارها. غايتها إقامة الوحدة لا يقف منها الفرد موقف الخصم باسم النقد الشخصي، والأسرة والمجتمع المدني وسيلتها حيث تستوعبهما في وحدة عليا هي الروح المطلق محققاً بتمامه وجودها دليل " سير الله على الأرض" ويجب احترامها كما يحترم إله الأرض. نظامها ملزم من طبيعتها التاريخية ولا يفرض عليها من خارج نظام منقطع الصلة بها ولو كان صادراً عن العقل

ليست الجمهورية أكمل أنظمة الحكم ، سواء أكانت شعبية أم أرستقراطية، الجمهورية نسرف في تقدير الفرد وتضحى بالمثل الأعلى في سبيله أو في سبيل الأسرة أو الطبقة، لذا اضمحلت الجمهوريات القديمة، النظام الطبيعي هو الملكية لأنها تشخص الدولة والفكرة القومية في زعيم واحد هو محل سلطائها ورمز تقاليدھا<sup>45</sup> هو العقل للاشخصي وقد صار عقلا واعيا. هو الإرادة الكلية وقد صارت إرادة شخصية يستنير برأي مجلس تشريعي مكون من خير ممثلي القوى القومي وبخاصة القوى العقلية. ولكن هذا الرأي استشاري بحث، وسلطة الزعيم مطلقة وحكمة الروح المطلق مؤيدة فتجنبه الانحراف إلى الأناية والطغيان!.

كيف تكون العلاقات بين الدول؟ :

كان كانط<sup>46</sup> قد ارتأى أن كل دولة هي بمثابة شخصية أدبية مستقلة في الداخل خاضعة لقواعد الحق وأن الحالة الراهنة التي تعتبر فيها الحرب الوسيلة الوحيدة لفض المنازعات وتنظيم العلاقات الدولية هي حالة وحشية يجب العمل على الخروج منها بإيجاد "جمعية أمم" تنظم إليها كل أمة بملء حريتها وتشارك جميعا في تسوية الخلافات طبقا لمبادئ العدالة الدولية. وبناءا على ذلك كان كانط قد وضع في 1795 "مشروعا لسلم دائم" حيث يعين بالعقل الصرف عشر مواد هي الشروط الضرورية لتحقيق هذه الغاية ولكن هيغل يرى أن ليس من شأن الفلسفة أن تفترض قوانينها على الوجود، وإنما شأنها أن تدرك القانون الذي يجعل الوجود معقولا من حيث أن كل وجود هو معقول وكل معقول هو وجود، وليس يوجد في الواقع التاريخي جمعية أمم، وإنما تبدو الدولة دائما كأنها المرحلة القصوى لتطور الروح المطلق تطورا موضوعيا. فيجب أن يستمد حل الأشكال من هذا التطور نفسه، إن التاريخ يظهرنا على أنه توجد في كل عصر من عصوره دولة

<sup>45</sup> - ماركيز هربرت: العقل و الثورة، ص ص 129-131.

<sup>46</sup> - كانط إمانويل: نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي، ترجمة عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب النقد التاريخي، دار النهضة

العربية، القاهرة، 1970، ص ص 281-295.

مهياة لأن تنزعم سائر الدول ونفرض عليها ما بلغت إليه من تقدم في الحضارة هذه الدولة واجبتها الفتح وانتصارها يبرر حروبها.

الدولة الغالبة خير من الدولة المغلوبة بدليل غلبتها نفسها التي يجب أن تعتبر حكم الله، و"جدل التاريخ" يعرض علينا هيغل ثلاث مراحل كبرى: الأولى ابتداء هي الدول الأسيوية الضخمة. والثانية سيادة أتينا القائمة على الحرية والديمقراطية والثالثة التي تتفق فيها هاتان التزعتان المتعارضتان وهي الحضارة المسيحية التي تعد الجرمانية خير ممثل لها. وبواسطتها سيتحقق الانتصار النهائي في التاريخ! وهكذا يعارض هيغل الفردية الحديثة التي ترى في الفرد موجودا قائما برأسه وفي الدولة نتيجة تعاقد بين أنانيات مختلفة. إن للأسرة والمجتمع المدني والدولة شروطها. إذا دعيت، برزت أمام الفرد واجبات ضرورية. وهذا صحيح كل الصحة، وهو أساس النظام والرقي الخلقي في حين أن الفردية مصدر فوضى وانحطاط، ولكن هيغل لا يرجع بنظامه إلى مبدأ أعلى يتجلى في العقل بل يقدر الواقع فيخضع الفرد للدولة إخضاعا تاما. وينكر عليه حق الانتقاد والإصلاح، ويعود من حيث لا يدري إلى تكريس أدهى ضروب الاستبداد وهو الاستبداد الذي يزعم بأنه حق إلهي<sup>47</sup>.

إذا كان هيغل يطبق المنهج الجدلي على جوانب فلسفته كلها فيجب ألا يغيب عن ذهننا "أن الموطن الأصلي للديالكتيك هو المنطق...".

والمنطق هو دراسة للحياة الباطنية للعقل فإذا كان الجدل "هو جوهر المنهج الذي يقوم على الحوار...". كما يقول جوبلو... فإننا نستطيع أن نقول مع كرونر "أن المنهج الجدلي عند هيغل هو حوار العقل مع نفسه"، أو هو مناقشة الروح لنفسها كما يقول ميور، فالفكر يعني الحوار سواء أكان هذا الحوار حوار المفكر مع نفسه أو مع شخص آخر ولذا فالمنهج الجدلي عند هيغل يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة العقل أو الروح، بحيث يمكن أن يقال إننا لن نستطيع أن نفهم ما يعنيه هيغل

<sup>47</sup> - زكريا إبراهيم: هيغل أو المثالية المطلقة، ص 227.

بهذا المنهج دون أن نفهم ما يعنيه بهذه الفكرة.<sup>48</sup> لكن ينبغي ألا نظن أن التاريخ يحكمه قوة العمياء الغاشمة، بل على العكس أن العقل هو الذي يحكم التاريخ!.

يقول هيغل بوضوح أن : تاريخ العالم ليس هو حكم القوة المحض أعني الضرورة المجردة غير العقلية لقدر أعمى بل على العكس ما دامت الروح هي ضمناً وفعالياً هي العقل.

---

<sup>48</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلي عند هيغل، ص ص 37-38.

---

وهذا العقل الكلي يتجسد في كل حقيقة في التاريخ كأن يتجسد في شعب معين فيتقدم على الشعوب الأخرى ويسير في مقدمة ركب الحضارة، وهو الذي اختار في حقب مختلفة، المصريين والأشوريين والإغريق والرومان والفرنسيين... إلخ وهي شعوب تتجمع في معبد التاريخ حول الروح اللامتناهي كما تلتف الملائكة حول العرش!<sup>49</sup>

---

<sup>49</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات هيغلية، ص 85.



<sup>50</sup> - Hegel : phénoménologie de l'esprit, Gallimard, Paris, 1993, P P 90-91.

عندما يتكلم هيغل عن الشرق، يرجع إلى مبدأ في الطبيعة وهو أن "الشروق" وبداية اليوم يكون من الشرق وبالتالي فإن بزوغ الحضارة الإنسانية كان الشرق، لكن ما يحدث أنه في حديثه عن تلك الحضارات يصفها بأنها: "طفولة الإنسانية"، وهو يعني التأكيد من خلال عقده لهذه الموازنة أن الشرق همجي وقاصر مثلما هي الطفولة غير ناضجة وعملية التمييز لديها قاصرة، أما الحرية فهي منعدمة لديها، لأنه يرى بأن حرية الشرق حرية تعسفية وفردية مما يجعلها تنقلب إلى (اللاحرية).

أما عن الديانة، فإنها لا تمتلك سوى درجة بسيطة من الدين يطلق عليه (الدين الطبيعي) وعليه فكل ما يصف به هيغل الشرق هو: التخلف والتعسف والجمود والاستبداد.. لكن ما يثير استغرابنا، هل الهند والصين هما كل الشرق؟ أين شبه الجزيرة العربية، أين بلاد الشام؟ وما محل الحضارة العربية الإسلامية من مسار التاريخ، من منظور هيغل؟.

- في مجال الروح : أو المصير الجوهري للعقل في العالم، أي في ماهية الخطة النهائية للعالم لم يتحدث هيغل عن الفلسفة والفن والدين، وعندما نتعرض إلى قارتي آسيا وإفريقيا، فإنه وصفهما بالسكون والجمود وعدم المساهمة في الحضارة العالمية وأن الإنسان في هذه المناطق قد بقي مرتبطا بالطبيعة غير متمكن من الانفصال عنها لأنه لم يتمتع لا بالحرية ولا بالديمقراطية .

- في الفلسفة: يستبعد هيغل الأصل الشرقي للفلسفة قائلا: "لا بد من شطب الفكر الشرقي من تاريخ الفلسفة"<sup>51</sup>.

وعليه : فإنه يجعل من طاليس، اليوناني<sup>52</sup> الأب الأول لكل بداية تفكير فلسفي فبظهور هذا الفيلسوف فقط قد عرف - الإنسانية - ولأول مرة - معنى التفلسف، وبفضله تمكنت الإنسانية

<sup>51</sup> - حسين مروة: الترععات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، 1985، ص 122.

<sup>52</sup> - Martin Heidegger : Hegel et les grecs, Gallimard, 1968, P P 112-113.

من وضع اللبنة الأولى في هذا المجال العقلي المتميز، ثم بعد الفترة اليونانية يقفز هيغل على حضارة عظيمة ناكرا المجهودات الضخمة التي قامت بها وقدمت ثمراتها للإنسانية كافة وللحضارة الأوروبية الحديثة خاصة الفلسفة، والطب، الرياضيات، الجغرافيا، العمران، التاريخ ألا وهي: الحضارة العربية الإسلامية التي يتعمد هيغل تجاهلها لخلفيته الأيديولوجية القائمة على نفي وإلغاء الآخر مقابل إثبات الأنا لأن الغرب الأوربي تفوق حول ذاته فترة من الزمن بعد هزيمته الشنعاء في الحروب الصليبية التي دارت رحاها على أرض الشرق، حيث بدأ بالإصلاح الديني والنهضة العلمية الشاملة والثورة السياسية وبدأ يؤسس لنفسه في كل المجالات إلى أن وصل إلى التاريخ حيث كان لعصر النهضة الإسهام الرئيسي في إعادة قراءة التاريخ الغربي ضمن التاريخ العام للإنسانية والخروج بنتيجة: أن الغرب هو المؤسس للحضارة، وذلك من خلال النموذج اليوناني الروماني أولاً ثم النموذج الأوروبي الناشئ ثانياً، لينتهي عند الجرمان أو الفرنسيين أو الإنجليز عوضاً عنهم الأمريكيين حالياً أو حتى عند الإسبان والبرتغاليين والهولنديين سابقاً!

وهي الإمبراطوريات المنبثقة عن الأنا الغربي السيد المتفوق والذي ابتدأ بالانتقام من الحضارة العربية الإسلامية بطرد مسلمي الأندلس وتأسيس محاكم التفتيش والحرق والتي أتت على الأخضر واليابس بعد العبث في مؤلفات العلوم والتراث بدون استثناء قبل حرق كل إنسان تنبعت منه رائحة العروبة والإسلام، ثم ملاحظته إلى سواحل إفريقيا والقيام باستعمارها وفرض الثقافة الأحادية عليه عنوة والتي هي النموذج الأوربي وهو نفس ما تحاول أمريكا فعله في أيامنا هذه في مجال آخر.

إذن: "أسطورة المعجزة اليونانية" التي دشنت بداية تاريخ العقل الغربي جعلت الرؤيا الغربية للتاريخ تقلب التصورات السليمة والتسلسل المنطقي في القضايا الإنسانية للحضارة، ذلك أن كل حضارة تأخذ لتنهض ثم تعطي مثلما وقع للحضارة العربية الإسلامية التي استفادت من الحضارات الشرقية القديمة واليونانية، ثم أعطت الحضارة الغربية وهذا باعتراف أحد معاصري هيغل هو



(عونه) وهو الأمر الذي أكدته المستشرفة الكاتبة المعاصرة سعريد هونكه صاحبة كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب".

ثم ألم يتلمذ فطاحلة الغرب مثل أفلاطون، وأفلوطين! وحتى طاليس على يد أساتذة مصريين واستفادوا من مكتبة الإسكندر؟ أنسي هيغل فلاسفة الشرق العظماء، ككنفشوس وبوذا الذين أثرت مبادئهم في الإنسانية اللاحقة جمعاء؟ ثم هل هناك من يجهل درجة العلوم التي بلغتها الحضارات الشرقية كفكرة (التحنيط) التي بلغتها الحضارة المصرية... إلخ<sup>53</sup>.

لقد أحدثت النظرة الأوربية الضيقة للتاريخ فراغا بين البداية الأولى من الحضارات الشرقية وصولا إلى الحضارة اليونانية والبداية الثانية بعد أفول نجم الحضارة اليونانية وسقوط روما في يد الهمج الرومان وبزوغ فجر الحضارة العربية الإسلامية كبداية ثانية وأساس جديد للحضارة الإنسانية القائمة على العدل والإخاء والمساواة<sup>54</sup> قبل مبادئ الثورة الفرنسية .

وهكذا وبنوع من الإنتقائية التي تدخل في التاريخ ما ينسجم مع خط عقلانيتها قد فسر هيغل — التاريخ العالمي وفق الخطة التي وضعها بعقله أولا، وأسقطها على المسار العالمي للتاريخ ثانيا، كما سنوضح ذلك لاحقا، فحذف ما وجدته غير مستجم مع أطروحته، وهكذا اصطدمت رؤياه برؤيتين أخرتين إحداهما : كانت تدافع عن نفسها ولم تلق سلاحها إلا بعد أن تطور العلم، والثانية بقيت إلى عصرنا كامنة تتربص من يجرؤ على الإفصاح عنها مثلما فعل هيغل.

- أما الأولى فهي تجسد الرؤية الدينية الغربية للكنيسة المسيحية التي ترى في التاريخ اتجاهها واحدا يبدأ بولادة المسيح كنتيجة لتراكم الأخطاء والانحرافات الإنسانية - في الحقيقة كنتيجة لانحراف اليهود عن ديانتهم وذلك في حياة موسى عليه السلام حيث انصرفوا لعبادة العجل تاركين موسى وحده ومنذ ذلك الوقت واليهود تاركين لكل ما هو ديني لاهثين وراء كل ما هو

<sup>53</sup> - أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، دار المعارف المصرية، ط2، 1994 م، ص ص 27-34.

<sup>54</sup> - عز الدين عبد المولى: في الرؤيا الغربية لتاريخ الحداثة، مجلة إسلامية المعرفة، عدد رقم 4، ص 103.

مادي - لذلك نزل المسيح عليه السلام بتعاليم فيها من التسامح ونبذ التعصب والمادة ما يكفي لتقويم اعوجاجهم ، لكنهم رفضوا تعاليمه وصلبوه، وفي اعتقادهم أنهم قتلوه حتى يبقوا منغمسين في عاداتهم، ولكن التفسير المسيحي للتاريخ يتعمد إغفال العلاقة الوطيدة بين العهدين، القديم والجديد رغم أنهما يكملان بعضهما البعض فييقون ( اليهود ) على الخطيئة والأمل في عودة المسيح لينتهي تاريخ الإنسان<sup>55</sup>.

أما النقطة الثانية فهي التي ترى أن الحضارة بناء إنساني توالى على إقامته وقيادته ثقافات مختلفة وهذه النقطة لا يرى فيها الوعي التاريخي الغربي إلا حلقة من الظلام وعصورا من التخلف والبربرية. وهذا ما وقع فيه هيغل بخلاف المؤرخ وفيلسوف التاريخ الإنجليزي المشهور أرنولد توينبي الذي يعترف في مجموعة من كتبه عن دور الحضارات الشرقية القديمة في الحضارة الإنسانية، وكذا بدور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية الحديثة وخاصة في كونها أم المعجزات لأن المنطقة التي ولدت فيها جرداء الأرض غير خصبة ولا مياه بها ورغم ذلك في فترة وجيزة لا تكاد تتعدى الأربعين سنة حتى تبوأ مكانة عظيمة في سلم رقي الإنسانية آنذاك. وذلك كان بفضل الفكرة الدينية التي قامت على تعظيم الإنسان وتمجيده إلى درجة أنه اعتبر "خليفة الله في الأرض" يدعو للأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر ويتعامل مع الطبيعة باعتبارها المجال المكمل له لا العدو - مثلما فعلت الحضارة الغربية الحديثة - التي انتهت إلى مآزق كبرى في البيئة والمناخ والأمراض بسبب تطرف الحضارة الغربية، وغلوها في الكثير من الأحيان رغم كل هذه الأدلة، فإن هيغل يؤكد على هذه النتائج:

- أنه لم يكن هناك وفي جميع العصور سوى فلسفة واحدة هي فلسفة اليونان وهذا راجع إلى تأثر هيغل - منذ صغره - بالتراث اليوناني الذي استوعبه وهو في مرحلة الطفولة<sup>56</sup>.

<sup>55</sup> - المرجع السابق، ص 104.

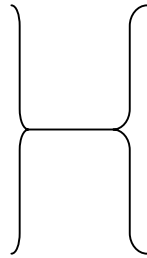
<sup>56</sup> - Martin Heidegger : Hegel et les grecs, P 47.

- تعاقب المذاهب الفلسفية لا يرجع إلى الصدفة، وإنما يمثل سلسلة مترابطة وضرورية لمراحل تطور العلم (يعني من اليونان إلى الجرمان).

- إن الفلسفة الأخيرة في مرحلة من المراحل، تعتبر النتيجة المنطقية لهذا التطور، ومن ثم فإن الحقيقة في أسمى تجلياتها - تمثل الوعي الذاتي للروح التي تنبثق عن نفسها لذلك فإننا نجد أن آخر فلسفة تتضمن بالضرورة الفلسفات التي سبقتها لأنها تشمل في جوفها جميع المراحل السابقة.

إن هيغل يستمر في نفي أي دور لثقافة الآخر، لقد أشرت سابقا إلى أن معلومات مهمة قد نشرت بمختلف اللغات الأوروبية عن ابن خلدون وباللاتينية التي يعرفها، وأيضا قد ترجمت كتب ابن خلدون إلى لغته الأم وهو في مرحلة الشباب.

الفن : ويرى هيغل أنه في المرحلة الأولى بدأت الفنون والأديان بسيطة مرتبطة بالطبيعة، لأنها لم توفق في التعبير عن المضمون الروحي للعالم، (في الشرق تبدأ التأملات الساذجة في الدين والأفكار البسيطة غير الواعية في الفن، لأن الفن عند الشرقيين بدأ بتخبطاته وألغازه الرمزية التي لا تهدف إلى شيء معين بمقدار ما تعبر عن عجز الإنسان ووجومه وتخبطه وعدم قدرته على التعبير عما يريد الإفصاح عنه لأن الوعي الفلسفي المتمثل في :



2- في التساؤل واستخدام العقل للتأمل كان هيغل

3 - في الشروع بالبحث عن السؤال

قد أقصى منها الآخر الشرقي

يربطها هيغل باليونان مسقطا فكرة الأسطورة والخرافة على كل ما هو شرقي نافيا صيغة التفكير المنهجي والمنطقي عنه.

وبما أن الإنسان الشرقي قد عبد مظاهر الطبيعة المختلفة فقد اتخذ هيغل من ذلك دريعة ليقول بأن الإنسان الشرقي قد ارتبط بالطبيعة ولم تكن لديه قدرة الانفصال والتعالي على محسوسية الأشياء وبالتالي لم يكن قادرا ليستخلص منها فكرة أو مفهوما وذلك لعجزه وبساطته من الناحية العقلية، فظل أسيرا لخبراته الحسية المباشرة في فنونه التي جاءت تعبيرا عن أفكاره البسيطة غير الواعية وكان تبعا لذلك فنه بسيطا لم يتجاوز طفولة الإنسان عقليا وحضاريا - فهو جنس يتصف بالبساطة.

هذا ما يذكره هيغل عن فن الآخر الشرقي، رغم أن فن الشرق القديم قد كان في عصر هيغل ولا يزال إلى اليوم حلم أي أوروبي وخاصة أن يمتلك أداة من أدواته الفنية التقليدية، أو أن يستمع إلى موسيقاه الحاملة الهادئة كالهندية، والمتأثرة بالطبيعة الشرقية العذراء، فلا أحد غير هيغل سبق له وطعن في الذوق الجمالي الشرقي وفي مختلف مناحي حياة الرجل الشرقي فالحرير الصيني وألوانه الزاهية وتوابل الهند ومصوغاتها ورقص الإنسان الشرقي وباقي فنونه المختلفة قد كانت هاجس الأوروبي في التمتع بها على مر الزمان. ولعل إنكباب علماء الآثار على التنقيب في الفرعونية يدخل في هذا المعنى، كل ذلك غاب عن هيغل لأنه كما يبدو قد درس التاريخ بخلفية إيديولوجية ترى قلة شأن الآخر الشرقي بصفة عامة، مقارنة له باليونان منبع الدين والفلسفة والفن... .

ولهذا: فقد وصف الشرق بالعجز والدونية حيث يقول: "أنه عندما لم يتمكن (الإنسان الشرقي) من الانفصال عن الطبيعة انتقلت الروح من مدينة (طيبا) في مصر إلى (أثينا) باليونان حيث آلهة (الأولمب) وحيث الإنسان اليوناني ذو العقل النير وهناك أصبح الفن مرتبطا بالوعى والحرية فالجنس اليوناني يمثل مرحلة أسمى وبالتالي فإن المهمة التي تحملها اليونانيين هي المهمة التي أخفق فيها الشرقيون حيث أقاموا وأبلوا فيها بلاء حسنا لأنهم قد تمكنوا من إحداث الانفصال بين الإنسان والطبيعة فتنقل العملية على أيديهم إلى المرحلة الموضوعية وعندئذ ستظهر الفنون الحقيقية المعبرة عن المضمون بإتزان يماثل درجة وعي الإنسان لأن اليونان سيتمكن من إدراك معنى الحرية الحقيقية وبهذه الكيفية سيظهر ولأول مرة — كما قال هيغل من قبل — التفكير الفلسفي السليم المرتبط بالعقل وستظهر الفنون المختلفة من شعر ومسرح وملاحم... إلخ بشكل أسمى بكثير مما كان سائدا في الشرق وسوف يكون من حظ الرومان ورثه هذه التركة المتنوعة ويتمكنون من الدفع بها إلى درجة أعلى من التنظيم في شكل تصورات وتجليات مرتبطة بواقعهم في مؤسستي الدولة والمجتمع، وبعد الرومان يأتي دور الجرمان باعتبار أن الإمبراطورية البروسية هي الوريث الشرعي لروما لأنه بعد سقوط روما انتقلت الحضارة إلى الجرمان تحت تسمية الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد اشترك الغرب كافة في هذا الجهد وعلى رأسهم الجرمان، حيث يأخذ الفن معناه لأن المضمون الإنساني للحياة حل محل التناقضات والتعارضات وللانقسامات التي كانت سائدة. وعلى هذا الأساس فإن هيغل يركز كل شيء في عقله الخاص وبعد الحرية الجزئية عند اليونان والرومان والفن بتجلياته المختلفة يصل إلى المطلق في محيط خاص هو الأمة الجرمانية خلال القرن التاسع عشر (19).

بهذه الطريقة يصل هيغل بالفن الرومنطقي إلى أسمى تجلياته عند الجرمان أما بالنسبة للدين: فقد تأثر هيغل كثيرا بالعقيدة المسيحية رغم انتقاده أحيانا لها وتفضيل آلهة اليونان وفلاسفتها على العقيدة المسيحية حيث حدث وفضل أحد فلاسفة اليونان (سقراط) على ياسوع وقد كان لرغبة والديه في أن يصبح راعيا رسوليا في الكنيسة وإرساله من أجل ذلك إلى معهد توبنجن الديني، دور

كبير في أن يكون هيغل من أكبر المدافعين عن العقيدة المسيحية في تاريخ الفلسفة العربية الحديثة والمعاصرة. وهو ما يجعله يتأثر تأثراً كبيراً بالقدّيس أوغستين كما بينت ذلك، وفي تعرضه "لفلسفة الأديان" يتعرض إلى الديانات البسيطة في الشرق بينما يربط اليهودية بالرومان (باعتبار أنّها الفترة الثانية التي يمجدها في تاريخ الغرب ويتجاهل تماماً الإسلام كديانة سماوية ويتعمد إقصاءه من مسرح التاريخ، ولكنه يتعصب كثيراً تجاه الديانة المسيحية والكنيسة مما دفع البعض إلى وصفه بأنه صاحب فلسفة اللاهوت لا فلسفة الأديان كما يدعي.<sup>57</sup> وقد أكد على ذلك الفيلسوف الغربي روجي غارودي حين تساءل حول إذا ما كانت فلسفة هيغل لاهوتاً أم مذهباً فلسفياً؟<sup>58</sup>.

يبدأ هيغل التاريخ من الشرق لكن ليس ليؤسس له ولكن لكي يبلغه وحتى في الدين يعتبر الديانات الشرقية طبيعية سطحية وساذجة ويتهم الإنسان الشرقي بعدم التمكن من الاستقلال عن الطبيعة وبأنه قد بقي مرتبطاً بها وكأنه يشبه الشرق بالطفل في مرحلة الطفولة الأولى حيث تتصف باللاتمايز، فهو يسقط هذه الفرضية على الحضارات الشرقية القديمة فيقرر ما يشاء ويفترض من تلقاء نفسه بأن الروح - في هذه الفترة - لا تزال داخل سيطرة الطبيعة<sup>59</sup> فهو يتحدث عن الديانات السحرية التي لا تميز بين الله ومخلوقاته ثم يتحدث عن الألوهية الشاملة ويقسم هذا المذهب إلى ثلاث مراحل هي: الديانات الصينية القديمة والهندوسية والبوذية التي لا تصف الله بالحكمة وإنما تطلق عليه صفة القوة العمياء المطلقة ثم يتعرض إلى الديانات الانتقادية من الطبيعي إلى الفردي الروحي وهي: الزادشتية والديانات السورية والمصرية القديمة التي تشترك في أن الله ليس روحاً حقيقياً وفي هذه الفترة يرى هيغل بأن التفكير يذهب وينصب على الجوهر أكثر مما يهتم بالروح المطلق. يؤكد هيغل أن فكرة الروح في الديانات الطبيعية المذكورة تظهر متأثرة ومبعثرة فضلاً عن أنّها لم تتصور الروح بشكل واضح ولذلك فهي ما تزال غارقة في تبعيتها

<sup>57</sup> - حسن حنفي: مقدمة في علم الإستغراب الدار الفنية القاهرة، 1991، ص 183 و ما بعدها.

<sup>58</sup> - روجيه غارودي: النظرية المادية في المعرفة، ترجمة إبراهيم قريط، دار دمشق، ص 11.

<sup>59</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 37.

للطبيعة، ويرى بأن العقليه الشرقيه عاجزة عن تصور الجوهر ولذلك فقد بقي الجوهر مجرد تعبير عن سلب المتناهي، وظلت الحقيقة الإلاهية في نظرها مجرد صورة من صور "الإستبدادية الشرقية".

نلاحظ أن هيغل يصطنع المعوقات السيكولوجية والإبستمولوجية التي تجعل الإنسان الشرقي عبدا ذليلا لا يرى المطلق إلا في سيده المتجبر وحاكمه المستبد وهو دائما لا حول له ولا قوة ولذلك فإن الآسيويين والأفارقة لم يكونوا أبدا أحرارا في تصور هيغل لأن أوضاعهم الدينية لم تتمخض عن فكرة الإنسان المنفصل عن الطبيعة ولهذا فإن دياناتهم كانت ولا تزال حبيسة ذاتها والروح عندهم محكومة بعلاقة مع الطبيعة<sup>60</sup> والإله منغمس في المادة والمحسوس.

ومجمل القول: أن هيغل يرمي الشرقيين بالعجز عن إدراك الروح مما جعل دياناتهم ترتبط بالظواهر الطبيعية وهو ما أفضى إلى عدم بلوغهم مرحلة الحرية ورشح العبودية الفردية والتفافهم حول رجل طاغية خاضع دوما لتزواته وطيشه وبالتالي انعدام كلي للحرية!.

وحتى يؤسس هيغل للبداية من اليونان يربط الديانة الفردية الروحية بمرحلة الوعي بالذات وبهذه الكيفية تحول فكرة الله من كونها جوهرًا إلى روح ويعد الديانات الفردية الروحية ديانات متسمة بالحرية ولهذا فإن الروح البشري يكون عرضا من أعراضها لأن الله يظهر فيها على أنه روح أي أنها ذلك الكل الذي يسمح للجزء بأن يخرج منه ويتخذ لنفسه وجودا حرا مستقلا، ويمكن حصر ثلاثة أنواع من الديانات التي تندرج ضمن الديانة الفردية الروحية وهي نقطتان :

- أولا : الديانة اليهودية التي حددت الله بأنه شخص، لكن الروح فيها لم تفهم بعد بوصفها روحا عينيا يتفرع ويستخرج من داخل ذاته ويعني بذلك أن هذه الشخصية عبارة عن واحد لا ينفصل وعليه فإن الله عند اليهود واحد هو " يهوه" ويهوه هو الحقيقة لذلك فكل شيء وجد ليمجد أمرا جوهريا هو الله وفي هذه الحالة فإن العلاقة التي تربط الإنسان بالله مبنية على الخوف والخشوع إذن فالمؤمن في هذه الديانة خادِم مطيع للسيد إنه ليس حرا، لأن شعب الله قد

<sup>60</sup> - روجي غارودي: فكر هيغل، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، 1983، ص ص 229-231.

أخذت عليه عهود ومواثيق تحتم عليه خشية الله وخدمته فما دام الله روحا فهو يعلو ويسمو، ولا توجد له أية صورة حسية إنه روح فحسب<sup>61</sup>.

نلاحظ: أن تأثر هيغل باليونان وبآلهتهم وتشبعه بالديانة المسيحية والتراث الكنسي من بين الأسباب التي جعلته يعيب على اليهود فكرة توحيدهم (ليهوه) واصفا طاعة الإنسان لربه - في هذه الديانة - بالعبودية معتبرا ديانة اليونان من أفضل الديانات السابقة للمسيحية واصفا أياها بأنها ديانة (الجمال) لأنها تتصور الله في صورة إنسان وهي سابقة للتجسيد المسيحي - وفي هذه الحالة تعبر الآلهة عن قوى الإنسان والطبيعة معا ذلك أنه في تشخيص الطبيعة والجمع بينها وبين الروح انتظام في علاقة خضوع الإنسان لقوى روحه، فالآلهة عند اليونان من صنع الخيال أو من عمل (المثالين) - لم يلاحظ هيغل التجسيد الموجود في الديانات الشرقية كالبودية والهندوسية التي تنطلق من تعاليم شخص مجسد وتنحت له تماثيل بمختلف الأشكال ثم تتخذ طابعا رمزيا مبنيا على فلسفة روحية خالصة، تسمو بالروح الإنسانية وترفع على الرغبات المادية التي تلهت الحضارة الغربية الحديثة على اقتنائها - نعود إلى نظرة هيغل حول الديانة اليونانية التي يرى أنها مؤسسة على أربعة حقائق هي :

1- أن الروح ضرورة أساسية.

2- أن الفكرة ليست عنصرا في الفكر بل مجرد مثال.

3- انحصار الطبيعة وهيمنة الروح عليها.

4- اكتشاف الصور لا الحقائق.

<sup>61</sup> - ولترستيس: فلسفة هيغل، ص 706.



ولهذه الأسباب يرى هيغل " أن الشعب اليوناني ، هو الشعب الوحيد الذي عاش سعيدا في التاريخ البشري، وذلك لأنه الشعب الوحيد الذي حقق في ذاته الوحدة بين العنصر البشري والعنصر الإلهي ".<sup>62</sup> هذا يوافق تماما فكرة اللاهوت والناسوت وتوحيدهما ولأول مرة في شخص المسيح عليه السلام. وهذه من الأغاليط المشهورة التي تجسد الأب والإبن والروح القدس في شخص المسيح، إلا أن هيغل يعتبر آلهة اليونان صديقة للبشر، ولهذا كانت ديانتهم ديانة مرح وبهجة ومتعة، فالدين يعبر عنه بالألعاب والاحتفالات والأغاني والمسرحيات، حيث يخلط الفن بالدين والآلهة هم مؤسسوا الدولة وحماة القانون.

نلاحظ : أن هذه المقولات من أن مدن اليونان قد بناها آلهة مثلما ساد فيما بعد عند الرومان وأن روما قد بناها الآلهة أيضا وهي مقولات سادت لفترة طويلة من الزمن في الحضارتين قد أسقطها عصر الأنوار بإشعاعاته في الفلسفة والعلم والفنون المختلفة .فبإعلانه لقيمة الإنسان والاعتراف له بدوره في إنتاج ثقافته وصنع تاريخه، كما تعبر عنه الحوارة البسيطة بين هوميروس وأسخيلوس، حيث قارنت الإنسان بالكائنات الدنيا، والحيوانات، وخلصت إلى نتيجة: التأكيد على تفوق الإنسان لتمتعه بقدرات مختلفة تميزه عن الحيوان، وهما العقل والإبداع، وعند مقارنته بالآلهة تبين ضعفه ولكنه أحسن من بقية الكائنات.

إذن : الإنسان على الأقل قادر على تجسيد قدرته في تأسيس المدن وتكوين ثقافته وإبداعها لذلك: فإن التصور الأسطوري للآلهة باعتبارها حاملة الثقافة وناقلتها إلى الإنسان يتقهقر إلى الوراء مع النهضة والأنوار لتحل محله وجهة نظر تؤكد حرية الإنسان من منطلق أنه هو مبدع تاريخه الخاص والذاتي وهذا يتفق تماما مع فلسفة التاريخ التي تؤكد دور الإنسان في صنع تاريخه وإبداع ثقافته، وهذا ينسجم أيضا مع الطرح الإسلامي للتاريخ فالله كرم الإنسان بأن جعله خليفة له في الأرض، وبين له الحلال والحرام من خلال الرسائل السماوية وجعل له عقلا للتمييز وإرادة

للإختيار، ومسؤولية يحاسب بمقتضاها عن أفعاله بالتواب والعقاب وبالتالي فقد حرره الإسلام، قبل النهضة والأنوار وهيغل.

إن هيغل يعالج مملكة الرب بوصفها فكرة شاملة والله\* - عنده - له ثلاث جوانب، الله بما أنه كلي فهو الأب، والكلي يخرج منه الجزئي أي أن الله بوصفه أب يخرج الله منه بوصفه ابنا وهو من ذاته وبذاته ومن أجل ذاته أي أن الروح القدس المشترك بين هذه الذوات جميعا.

إن الفكرة واحدة غير أنها تتضمن ثلاث لحظات: في عقيدة التثليث الله واحد ومع ذلك فالله ثلاثة أشخاص، لكن الإبن والروح القدس غير مختلفين عن الأب، لهذا فالله عنده يساوي الروح، وهيغل يتحدث عن مملكة الروح التي هي المطلق والتي بفضلها استوعب الجرمان الحرية ووصلوا إلى أسمى تجليات العقل في الدولة الجرمانية، لذلك فإن هيغل يصنع المسيحية في نهاية سلم ترتيب الأديان ويعتبرها الديانة المطلقة التي هي خلاصة الأديان السابقة وهو نوع من الحكم على أنها الديانة الأفضل وغايتها في ذلك كما يقول ، حسن حنفي : الدفاع عن المسيحية مقابل الأديان الأخرى فإذا عرفنا أن الدين المطلق عنده هو دين الوحي فهذا معناه أنه مجرد الديانات الأخرى من الوحي أي من أصولها السماوية<sup>63</sup> حيث يلصق الديانة الطبيعية البدائية بالشعوب الشرقية والديانة الفردية الروحية يخص بها اليونان والرومان وهي فترة أسمى - عنده - من الديانة الطبيعية عند الشرقيين وعندما يتعرض للديانة المطلقة فإنه يستثني حتى اليهودية باعتبارها توحيدية ويربطها بروما، ويسقط في خزعبلات المطلق عند المسيحية كما تجلت في الغرب، وهنا يخلط هيغل بين الحضارة الغربية الحديثة والديانة المسيحية ويعتبرهما كلا متكاملًا .

إن ربط هيغل بين الأديان والفنون والفلسفات وربط ذلك بالحضارة اليونانية ثم بالرومان، حيث تتغرب المسيحية باعتناق الإمبراطور الروماني الأول لها وبما أن الأمة الجرمانية هي الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية، فإن المسيحية تحتوي على أفضل ما في تراث الإنسانية بالإضافة إلى

<sup>63</sup> - حسن حنفي: في الفكر الغربي المعاصر المؤسسة الجامعية، بيروت، 1990، ص178.

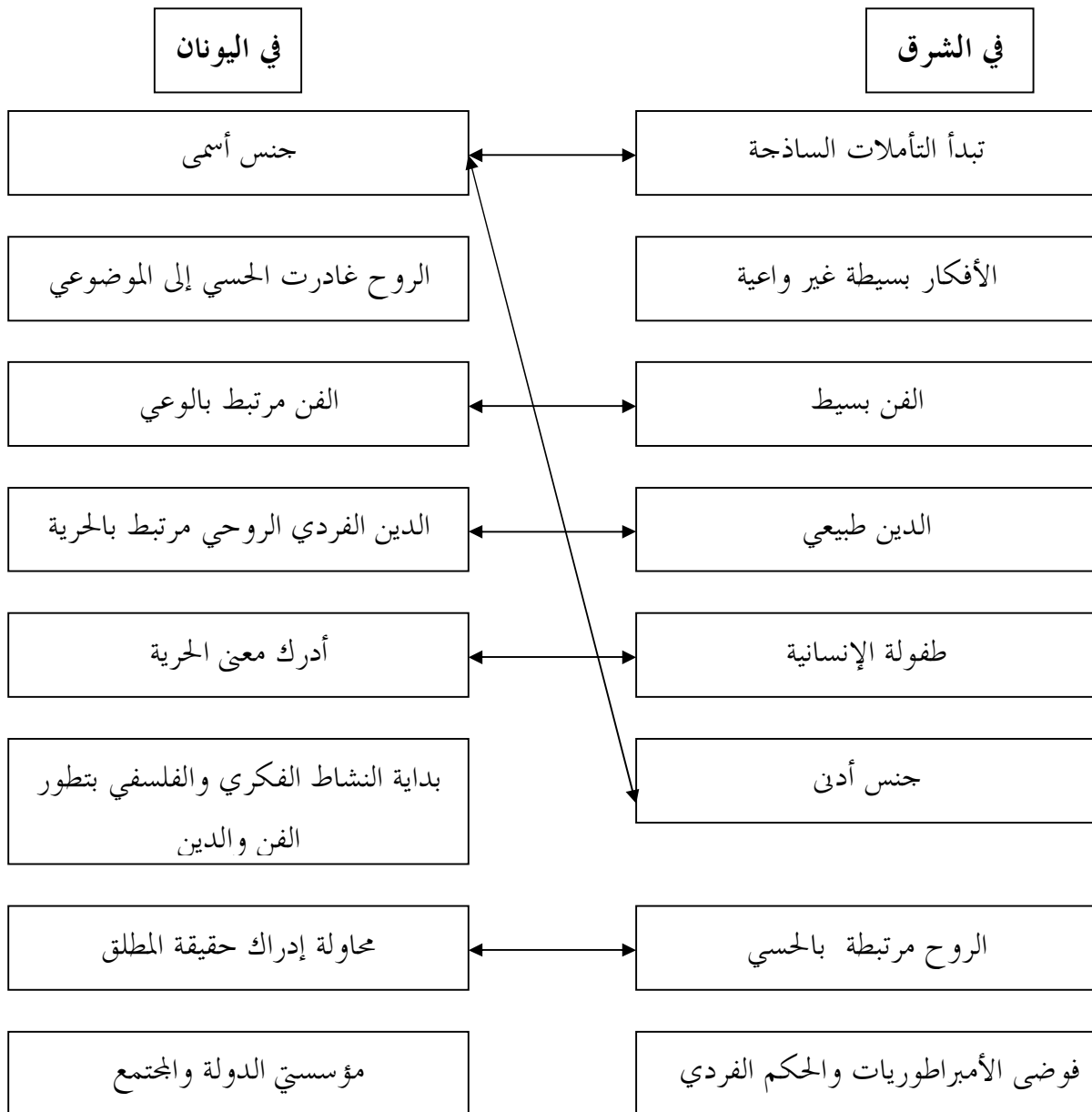
وجهها الرباني الثابت لذلك فعندما نصل إلى الجرمان يتحقق المطلق وينتهي التاريخ فالأمة الجرمانية بوصيتها على تاريخ وتراث الرومان وكذلك اليونان وباحتضانها للمسيحية ينتهي عندها المركب

## الفصل السادس

### دور العقل والحرية في تجليات الروح

الثلاثي المكون : من مملكة الأب ومملكة الإبن ومملكة الروح، والواقع أن الخطاب اللاهوتي الهيجلي مشبع بالترجسية والتعالي والتسلط خاصة على الآخر الشرقي وبالخصوص على العربي الإسلامي، وهو ما يعبر لنا عن لا موضوعية هيغل من خلال : دراساته لديانات الشرق وإهماله بالتحديد للدين الإسلامي باعتباره ديانة سماوية تعترف بالديانات السماوية السابقة عليها وتعتبر نفسها مكملة لها، وسيأتي توضيه ذلك لاحقا .

#### الدين والفن بين الشرق واليونان



هذا الشكل يوضح تطور مفهومي الدين والفن بين الشرق واليونان

بعد استعراضنا للنسق العام لفلسفه التاريخ "عند هيغل، وخصوصا المحرك الرمزي للمسار التاريخي أي العقل والحرية والروح يجدر بنا التذكير بأن هيغل عندما يتعرض للعقل أو الحرية أو الروح في الحضارات الشرقية القديمة فإنه يقوم بذلك بهدف إلغاء الشرق وليس التأسيس له. وعندما نتساءل عن ماهية ومكانة الآخر الشرقي عموما والعربي الإسلامي على وجه الخصوص في مرآة الأنا الغربي وانسحاب ذلك على الرؤى الفلسفية عموما وفلسفة التاريخ الهيجلية تحديدا، نتبين كيف أن هذه الرؤى تهيء الجو لثقافة الهيمنة عن طريق زرع فكرة احتقار واستصغار شأن الآخر، كما لاحظنا لدى هيغل وخصوصا في جدلية ( السيد والعبد) فإنه يؤسس للإستعمار ففي صراع السيد والعبد يتصور شخصين وقد دخلا حلبة الصراع، أحدهما قد غامر والثاني خاف، ولهذا تغلب المغامر على الخائف وعض أن يقتل الغالب المغلوب — بعدما فكر — قرر أن يتركه حيا حتى يرى من خلاله قوته أي أنه تركه كمرآة يرى من خلالها قوته، وهكذا يستعبده، يعني أن يصبح المغلوب أداة طبيعة في خدمة الغالب خاصة بعد أن منّ عليه بكرمه وتركه حيا.

خلاصة القول حول هذا الصراع أنه انبثق من فلسفة ترجع إلى أرسطو وتقوم على حقيقة قوة الأنا الغربي المنتقم بعد أن استفاد مما قدمته له الحضارة العربية الإسلامية عن طريق الوسائط المعروفة: كالأندلس، وقبرص ومالطا.

من منطلق النظرة المتعالية فإن هيغل Hegel يعتبر السيطرة حقا مطلقا للإنسان الغربي الأبيض<sup>64</sup> تحت غطاء أن دوره تحضير الآخر الشرقي بصفة عامة والغربي الإسلامي خصوصا الذي لم يذق — حسبه — طعم الحرية ولم يعرف أبدا مبادئ الديمقراطية لا نظريا ولا عمليا، وقد تعمّد إنكار كل ما هو شرقي أو عربي إسلامي. والدليل على ذلك أن أحد الذين كانوا معاصرين له (وهو الشاعر المفكر غوته) كان شديد الإعجاب بنظام الشورى في الإسلام، وهيغل يحدثنا عن هذا

<sup>64</sup> - Hegel : La raison dans l'histoire, Gallimard, Paris, 1965, P 232.

المفكر في عدة مناسبات — مما يعني أنه يعرفه، غير أنه مع ذلك كان متجاهلاً للإسلام وعلى الأقل غير آبه لآراء زميله!

أما الحجّة الثانية: أنه - وفي سياق احتقاره للآخر - يذكّرنا بعدم استجابة الزوج للحضارة، وأن استعبادهم من طرف الغرب " أحسن من تركهم يواجهون مصيرهم المجهول المشؤوم في بلادهم"<sup>65</sup> ولكنه في المقابل يعترف — وفي هذه القضية بالذات " على عجز الأوربيين في تحضير الزوج نظراً لخلفياتهم القائمة على احتقار واستسغار الآخر، لا لعب لدى الزوج لانه يستدرك ويقول بأن الإسلام قد قام بدور عظيم في تغيير سلوك الزوج الهمجي وإدخالهم في الحضارة"<sup>66</sup>.

#### نقد وتقييم المذهب المثالي والهيغلي:

إن الوعي بضرورة " فلسفة التاريخ: لتنظير وتجسيد مشروع حضاري من خلال دراسة المبادئ والأسس مهمة نبيلة وطموحة ، ذلك أن الرؤية الفلسفية للتاريخ من حيث هي رؤية نقدية مرتبطة بالمراجعات المستمرة التي تبلغها تطورات المجتمعات من جهة، ومكتسبات العلوم الإنسانية من جهة أخرى ، هذه المراجعات ضرورية لتصحيح المفاهيم وإدراك الواقع ومن ثم إعادة برمجة الطرق والوسائل لتحديد منهج جديد للعمل والممارسة لتغيير الواقع، ومن ثم فإن العقلانية والرؤية التاريخية الشاملة هي أساس كل صياغة فلسفية للتاريخ، ذلك أن تقدم الشعوب وانحطاطها لا يكون من خلال الأفراد وحدهم (الملوك والأبطال والغطاء).

إن هيغل قد تصور - على ما يبدو - حركة التاريخ ونظر لها بالنسبة للأهداف التي رسمها مسبقاً، وهذه النظرة المسبقة وهذه الأهداف التي تصورها لا سبيل لها لكي تمتلك صفة الموضوعية لأنها من نسيج عقل هيغل لوحده.

<sup>65</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص178.

<sup>66</sup> - المصدر نفسه ص 174.

إن مسار هيغل في بحثه في التاريخ ومراحلہ وأججاهه ومعناه لم يكن مساراً اميريقياً مثلما فعل ابن خلدون والمسعودي... فهو لم ينفك يتحرك من أمام ركام الكتب والوثائق التي كانت بجوزته ومن تم كانت كل مفاهيمه وقيمه تنطلق من أطر مثالية (خيالية يوتوبية) مثل الروح المطلق والبطل،... وغير ذلك من الأفكار المتعالية، ولعل ما يشوه تعالي هذه الأفكار ويفسد شرعيتها كونها ذات تعالي بشري إيديولوجي، حاول هيغل من خلاله أن يعرف حركة التاريخ مستقبلاً بالقياس على ما حدث في الماضي، إن معرفة الأحداث المستقبلية يكون على ضوء ما حدث في الماضي وفق مبدأ السببية غير أن هيغل عندما تنبأ بنهاية التاريخ والدولة الجرمانية لم يخضعها لهذا المنهج بل فرضها بطريقة غير مبررة، لماذا لا تكون نهاية التاريخ عند انتصار العالم الإسلامي؟.

ثم أن هناك مشكلة إستيمولوجية وقع فيها هيغل حيث جعل تاريخ العالم موضوعاً في خدمة المنهج الجدلي الذي استحدثه واصطنعه كلباس على مقياس المراحل التي يبلغها الروح من خلال مبدأ التناقض، غير أن الصحيح علمياً هو وجوب خضوع المنهج للموضوع الذي يتغير تبعاً لتغير المراحل التي يسلكها وليس العكس كما فعل هيغل.

#### أ - نقد مبدأ التناقض:

صحيح أنه لا يمكن صياغه رؤية عقلانية في التاريخ إلا باتخاذ موقع من التاريخ والنظر إليه ككل، فهذه النظرة إلى التاريخ من أعلى هي التي تمكن فيلسوف التاريخ من النظر إلى الحوادث في ترابطها وتمكنه من إسقاط العلاقات السببية بين الحوادث في المستقبل، كما فعل هيغل في هذه العملية وليس ذلك فقط لأنه قد تجاوز حدود توقع المستقبل وانتهى إلى طرح مشكلة غاية التاريخ أو (نهاية التاريخ)، إن هذه النظرة في صياغه فلسفة التاريخ من طرف هيغل أي طرح مشكلة نهاية التاريخ وغايته لا يمكن لها أن تمتلك صفة التعالي الحقيقي، وبالقدر الذي منحه هيغل، لفكره وخياله حيث ذهب بعيداً في ذلك، لأن فكرته تلك تتهاوى بدون أن تجد لها دعامة شرعية تمنعها

من السقوط، وهي تكشف عن نيته الدفينة ومشاربه العنصرية والإحياز إلى المركزيه العريبه التي تشم رائحتها بوضوح من خلال قوله بنهاية التاريخ عند الجرمان .

ثم أننا لو أخضعنا نظرية هيغل إلى اختيار علمي بسيط للتحقق من موضوعيتها سوف ننتهي إلى السلبية ذلك " أن كل معرفة علمية هي جواب على سؤال، فإذا لم يكن هناك سؤال أصلا فلا وجود لمعرفة علمية" كما يرى غاستون باشلار Gaston Bachlar إذ كيف استطاع هيغل تصور (نهاية التاريخ ، فوق التاريخ). هل أن فكر هيغل قد تميز بصفاء البصيرة وسمع هو الآخر نداء روح العالم الذي يتصف به عقل البطل الذي قال به هو نفسه، أم أن هيغل لم يرد على أنه فعل كمن حاول أن يقفز فوق ظله وحاول أن يسبقه؟!

وعليه فالمسألة المطروحة: ما هي المقومات الإبستمولوجية التي تسمح للفكر بتأمل التاريخ من أعلى، أي من خارج التاريخ والتحليق فوق حركته فيكتشف فيلسوف التاريخ مصدرها ومعناها ونهايتها؟ إن الفكر غير المرتبط بالتعالى بدون شك هو فكر مستغرق في الزمان الوقي أو الحاضر للفيلسوف وبالتالي قصوره عن وعي نفسه خارج التاريخ.

إن القول بعلاقة الفكر بالتعالى في مجال التنظير لفلسفة التاريخ لا يعني أن الفكر يتعالى على التاريخ بالمعنى الكلي لهذه الكلمة وإنما يكتسب المصدر المتعالى حقيقة في هذه المسألة من خلال اعتماده على مصدر متعالى وهو (الوحي) ومع ذلك فإن كل ما يمكن أن يتوصل إليه فيلسوف التاريخ في هذه الحالة هو إعطاء معنى للتاريخ والنظر إليه نظرة كلية(نسيبا) ذلك أن تأويل النص الشرعي أو الآيات يحتاج إلى بعد نظر وإمام واسع بالثقافة الدينية وهي مسألة ليست بالهينة، والنظرة العلمية إلى التاريخ في هذه الحالة لا تتناقض مع مبدأ التعالى أو السنن الإلهية التي تؤثر في سير التاريخ البشري والتي هي مرجع وأصل كل نظرة مستقبلية تسعى إلى تخلي الإنسان من تأليه المفاهيم " كالعقل في التاريخ" عند هيغل.



إن مبدأ العلاقة — بهذا المعنى — بين التعالي والتاريخ ليست مجرد علاقة منهجية إستيمولوجية بل هي بالإضافة إلى ذلك مبدأ تحرري فعلاقة التعالي بالتاريخ تنتج عنها عملية تسريع لحركة التاريخ من خلال تفجير الطاقات الكامنة في الإنسان بدل الاستسلام وجعل التاريخ هو الذي يحرّكه بدل العكس.

لقد تناول هيغل مسألة الحرية وخضوع الروح أو العقل في تحقّقه واقعيًا لها بنظرة تقريرية تخبر فيها عن المراحل التي تجلت فيها تاريخيًا والتي أرجع أول بداياتها إلى اليونان لكن ذلك لم يقمه على أسس منطقية معقولة، - لأنه كما أوضحنا - ساد الحكم في بروسيا من الفساد والإستبداد والتعسف حدًا يفوق ما ساد في العالم الشرقي رغم الفارق الزمني بين العالمين، علما أن الروح يتجه إلى أعلى ويخطو - حسب هيغل - خطواته دومًا نحو الأمام، في حين أن التاريخ يؤكد عكس هذه الفرضية ذلك أن التاريخ ليس فقط تقدم وتطور، فقد يشهد انتكاسات وكبوات، ثم أن قول هيغل بروح عام وحيد تأكيد آخر على أن الفكر الغربي لا يعترف بحق الاختلاف، إذ ما المانع من وجود عقول، مختلفة؟! إن هيغل بتأثير من إديولوجية المركزية الغربية لم يعترف بحق ممارسة الحرية النابعة من ثقافة الشعوب الإسلامية ودينها .

إن هذه الخلفية التي ينطلق منها الفكر الغربي هي التي تشكل غشاوة وعائقًا إستيمولوجيا يقف بين هذا المفكر وبين الحقيقة التاريخية التي لم يكلف نفسه عناء التقصي عنها، وبالتالي كانت معظم آرائه تجاه الآخر إنفعالية تعكس رفضه المطلق واللامشروط للآخر، بدوت تبرير واقعي كأني بهيغل، وهو يتحدث عن غاية التاريخ، ويعتبرها غاية إلهية من جهة وينهي التاريخ عند الجرمان من جهة أخرى، فكأنه أخذ عن اليهود فكرهم وأهم شعب الله المختار؟! حيث يرى هيغل أن الصيرورة التاريخية ليست متروكة للمصادفة والأسباب العارضة بل أن هنالك (إرادة مخططة) وراءها، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق إنما هو تطوير (روح العالم) التي يتجه دائمًا نحو غايتها، ألا وهي (تحقيق الذات) حيث يقول " إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائمًا

صيرورة عقلية (أي حركة فكرية متقدمة نحو الأعلى)، وأن هذا التاريخ قد أُنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم... تلك الروح التي طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم، لذا " فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير، وأن الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرضها تلك العواطف والعبقریات والقوى الفعالة، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بصورة عامة بخطة المشيئة العليا"<sup>67</sup>.

إن هيغل وحسب تصريحه لا يعترف بدور الإنسان البسيط (العبد مثلاً) رغم أنه في تفسيره لهذه القضية قد جعل السيد (رغم منزلته النبيلة) لا دور له ولا تأثير إلا من خلال العبد الذي يمتلكه، في حين أنه على المستوى الواقعي التاريخي يحط من قيمة الحضارات الشرقية ويعتبرها مجرد طفولة غير واعية، وهذا تناقض آخر بين بعض الأفكار التي يؤمن بها في قرارة نفسه وبين المبادئ التي يصرح بها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن هيغل مثل أستاذه أرسطو لا يهتم في القضية سوى عدم تناقض الفكر مع نفسه لأنه من مقاييس ذاتية وطبقها على مسار التاريخ الذي يضحض ويفند مزاعمه ويكذب علوه المبني على فكرة أن الجنس الآري المتعالي على الآخر الذي يرفض أن يكون صورة طبق الأصل منه، حتى ولو كانت صورته (في الحقيقة) هي أفضل من صورة الأنا الغربي، ذلك حيث يعبر هيغل عن هذا المعنى من خلال قوله: " بل أنه لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى... وحتى المقدسة منها بدون اكتراث، وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى تأنيب الضمير، ولكن بهذا الشكل والقوة الكبيرة لا بد أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويحطم الكثير من الأشياء التي تقف في طريقه " هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير، وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي"<sup>68</sup>.

<sup>67</sup> - عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، بدون نشر، ص 25.

<sup>68</sup> - المرجع نفسه، ص 27.

إن المتمعن في قول هيغل وبين الآية القرآنية التي تؤنب الرسول الكريم لجرد أنه أدار وجهه عن الشخص الأعمى في قوله تعالى : " عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى."<sup>69</sup>

إن المقارنة البسيطة تطلعنا على أن العظيم في الإسلام وليكن " محمد صلى الله عليه وسلم " والعظيم في نظر هيغل (الذي قد يدوس على الكثير من الأبرياء في طريقه) بينهما تناقضا واضحا يضعنا أمام التساؤل: ما هي صفات العظيم؟ أم أن كلمة "عظيم" هي وصف غير مؤسس على مبادئ أخلاقية بقدر ارتباطه بتحقيق جملة من الغايات المشتركة التي هي في النهاية إقامة الدولة الجرمانية ، ولا يهم في الأخير إن كانت تلك الدولة قد قامت على أشلاء الكثير من الأثرياء والأتقياء!.

الفصل السابع

الشرق الأقصى الصين والهند

قسم هيغل العالم إلى قسمين رئيسيين: العالم القديم والحديد، أما القديم فيتوسطه البحر الأبيض المتوسط لذلك فإن المناطق المحيطة به تعتبر مركز العالم خاصة وأن هيغل يعتبر البحار والأنهار مناطق تواصل بين الشعوب، لأن البحر في العادة يعطينا فكرة اللامتعين واللامحدود واللامتناهي، وعندما يشعر الإنسان بلا تناهيه الخاص في ذلك اللامتناهي الذي يجده في البحر وبالتالي يشكل هذا الأخير حافزا مشجعا إلى تجاوز نطاق الحدود<sup>1</sup>.

#### أ - التقسيم الجغرافي للعالم عند هيغل:

يتكلم هيغل عن ثلاثة أقسام رئيسية للكرة الأرضية؛ القسم الأول وهو الأرض المرتفعة المتمثلة في سهوب وسط آسيا وصحارى العرب والبربر، وصحارى بارغواي في أمريكا الجنوبية، يقول هيغل عن هذه المناطق أنها تجمع كل التناقضات والتي يختصرها في كونها "منطقة بداية التاريخ بظهوره وانهياره"<sup>2</sup>.

فهيغل يستبعد هذه المناطق من زخم التاريخ ويعتبرها خارجة عن سياق حركة التاريخ وذلك لأن إنسان هذه المناطق عاجز عن تسيير أموره بنفسه، فهو في الغالب الأعم يشتغل بالرعي ولا يستغل الأرض بكيفية علمية، لذلك فإن ريعها لا يغطي حاجاته والإنسان في هذه المناطق يعيش معاناة مريرة حيث يقوم بعض السكان ببذل مجهودات جبارة لكن المردود الذي يحصلون عليه لا قيمة له بالنسبة للجهد المبذول علما أن الحرف المنتشرة في هذه المناطق كالرعي وزراعة الحبوب تعتبران من أبسط النشاطات الفلاحية، ولعل ما جعل هيغل يصف هؤلاء السكان بالكسل والإهمال هو أنهم لا يخزنون الأعلاف لحيواناتهم وقت الشتاء، لهذا فإن أغلبية القطيع سيموت جوعا في موسم البرد<sup>3</sup>.

كما أكد أنه لا توجد علاقات قانونية بين هؤلاء السكان<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 170.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ج2، ص 168.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص 169.

<sup>4</sup> - المصدر السابق، ص 169.

نلاحظ أن هيغل يتحدث عن سكان الأرض المرتفعة بصحاريها وسهوبها الواسعة محددًا

نشاطها الاقتصادي في الرعي نافية عنها أي تنظيمي اجتماعي أو اقتصادي غير الفلاحة والرعي!

في الحقيقة أن هيغل كتب عن هذه المناطق عن بعد وعن خلفية إيديولوجية فهو لم يتأكد

من طبيعة حرفة الرعي في هذه المناطق التي تقوم أساسًا على الترحال والتنقل من أجل إيجاد الكلاً

والماء وذلك بحسب طبيعة المناخ والإقليم الجغرافي، أما عن التنظيم الاجتماعي فإن الكثير من

الباحثين الغربيين أكدوا على أهمية التنظيم القبلي وعلاقته بالسلطة المركزية سواء في الصين أو شبه

القارة الهندية فإن للقبيلة في هذه المناطق تنظيماتها الخاصة والتي ترتبط بالنظام السياسي المركزي

فيما يخص الحقوق والواجبات حيث تقابلها الجباية أو الهدايا المتبادلة بين القبيلة والإمبراطور أو

التنازل عن ولايته في إحدى الأقاليم لصالح أفراد القبيلة، أما عن نظام الملكية فإن هيغل - كما يبدو

لي - ينطلق من محيطه الضيق أوروبا الذي يتمتع بنظام الملكية العقارية جاهلاً بالنظام المشاعي المنتشر

في هذه الصحاري الشاسعة في ذلك الوقت ثم إن طبيعة معاشهم المرتبط بالظروف المناخية جعلهم

ينتقلون بقطعاتهم طلباً للماء والكلاً، أما عن الصحاري الجليدية فإن سكانها لا يعودون إليها إلا

عندما يذوب الجليد حيث يكثر العشب ويتوفر الماء.

لقد كيف هؤلاء السكان حياتهم ومعاشهم وفقاً لنشاطهم الاقتصادي ولطبيعة المناخ،

فبالعكس عما ذهب إليه هيغل فهم أذكياء في التعامل مع الطبيعة والمناخ، وفي ذلك لعمرى تحكم

وتدبير. فقد حاولوا التكيف مع المناخ والطبيعة واتصفوا بالذكاء في التعامل مع ظروف بيئتهم ومع

المناخ حيث يغيرون مناطق العيش مع تقلبات الفصول وهدفهم في النهاية اقتصادي أي أنهم

يذهبون للعشب المشاعي دون أن تكون لديهم حاجة لتوفير الأعلاف وتخزينها لوقت البرد، فيكفي

أن يرحلوا إلى مناطق أخرى فيحصلون على العلف والماء لقطعاتهم.

وهيغل يصفهم بالخمول والكسل لأن النشاط الرعوي - حسبه - عمل بسيط وغير ذي

قيمة لكنه في الحقيقة عمل شاق حيث يتطلب خيرة بأحوال الماشية تغذية وتكاثرًا وتطبيياً، ثم إن

هيجل يتكلم عن سكان هذه المناطق التي تشمل بعضها الإسلام وعرفت تنظيمات حكومية لها شرائع وقوانين مضبوطة تراعي أسس المعاملات الاقتصادية والاجتماعية، وربما تكلم هيجل أو قصد ما فعله المغول والتتار ولكنه من المفروض ألا يعمم!

يتكلم هيجل عن الجبال التي تعتبر موانع وعوائق في وجه التواصل البشري فيلحق الجبال بالصحاري الشاسعة باعتبارها مناطق تحد من التواصل بخلاف الماء الذي يعتبره أداة اتصال حيث يرى أنه يعطينا اللامتناهي لذلك فإن البحر يدعو الإنسان إلى الغزو والفتح، كذلك إلى النهب والقرصنة - هذه الأخيرة كانت سائدة في عهده بكثرة - كما هو عامل مساعد على نشاط التجارة والصيد وصناعة السفن كأسباب للكسب الشريف. ويعد ركوب أمواج البحار والمحيطات أكبر مخاطرة عرفها الإنسان والتي لولاها لما توصل الأوروبيون إلى اكتشاف العالم الجديد.

نلاحظ أن هيجل عندما تطرق إلى صحاري وسهوب آسيا وإفريقيا تعرض إلى إنسانها بالذم دون أن يتطرق إلى صعوبة المناخ وقساوته وتأثيره على مختلف مناحي الحياة إنسانا وحيوانا ونباتا وعلى الرغم من ذلك فإنه يؤكد على أن الإنسان والطبيعة كانا عاملان مساعدان على إنتاج روح الشعب تحت مقولتي الزمان والمكان، فهو عندما يتطرق إلى مناخ أيونيا المعتدل يتحدث عن دوره في إضفاء الصفاء والرقّة على أشعار هوميروس لكنه وعلى النقيض من ذلك وحتى ينقص من شأن الإسلام فإنه أكد أن فترة حكم الأتراك (العثمانيين) لمنطقة اليونان لم يظهر فيها شعراء في مستوى هوميروس<sup>5</sup>.

بحسب رأي هيجل فإن الفترة المزدهرة في الإسلام منحطة لأن مقياسه أوروبا وليس غير فالعصور المظلمة الأوربية تنسحب على الفترة الإسلامية ولو كانت مزدهرة.

ثم يشرع في استبعاد آسيا العليا من مسرح التاريخ العالمي لكونها عبارة عن صحاري مرتفعة إما قاحلة وإما متجمدة وبالتالي فهي تحمل الخاصيتين المناخيتين المستبعدتين من التاريخ

<sup>5</sup> - المصدر السابق، ص ص 157-158.

العالمي. أما عن السكان فإنها تتشكل من المغول والتتار اللذين يمثلان الآخر البربري المتوحش وبالتالي فهو مستبعد من أية مساهمة في التاريخ العالمي، وكما أوضحنا في الفصل الثالث فإن هيغل يربط بداية التاريخ العالمي بالكتابة لأن المشافهة والأساطير يقعان عنده خارج التاريخ، والحكم نفسه ينسحب على منطقة سيبيريا باعتبارها سهولا متجمدة وبالتالي فإن شعبها لم يظهر على مسرح التاريخ العالمي، كما يعتمد هيغل على الجغرافيا أو التضاريس لتحديد الحيز الحضاري فيقسم الشرق الأقصى - البعيد عن أوروبا - إلى منطقتين كبيرتين تمثلان سهول الأنهار التي تغمرها المياه قليلا أو كثيرا ويعترف هيغل أن هاتين المنطقتين تمتدان على مساحات واسعة من الأراضي الخصبة المتمتعة بوفرة المياه ولكنه يعيب عليها أنها تختلف عن الأنهار الأوروبية من حيث أنها لا تشكل وديانا في أوروبا، وإنما هي تكون سهولا نهرية - نلاحظ أن هيغل - يتطرق حتى إلى بعض الخصائص الطبيعية الخاصة بالشرق الأقصى مقارنة بما هو موجود في أوروبا مفضلا ما هو موجود لدى الأنا الأوربي مقارنة بما هو موجود لدى الآخر الآسيوي ومن هذا النوع سهل الوادي الصيني الذي شكله نهر " هونجهو " " وهر " يانج تسي كيانج " " اللذان يشكلان فيما بعد النهران الأزرق والأصفر تليها سهول الهند التي شكلها نهر " الكنج " " ويقل عن ذلك أهمية وادي السند في الشمال والذي يصب في باكستان الحالية وبالتالي يجري في الجنوب من خلال سهول رملية فسيحة، كما في المنطقة الشمالية التي تتشعب بمياه الأمطار إلى درجة أن سهولها تتحول إلى مجاري مائية في موسم الأمطار وتضر بالمزروعات وبالتالي فإن شعوبها تعاني من الجوع رغم كثرة المياه!! لا من افتقادها لها. كما هو الشأن بالصحراء الإفريقية، وهذا ما يستدعي في نظر هيغل وعي الإنسان وتدخله في مثل هذه الحالات حيث يقتضي الأمر تنظيم مجاري المياه بإقامة السدود وتنويع المزروعات من أجل استغلال المياه الكثيرة التي غالبا ما تكون نقمة على السكان.



إن لهيغل في هذه النقطة بالذات الحق دعى إليه إنسان هذه المناطق، فمثال على تدخل الإنسان وتحكمه في كثرة المياه واستغلالها في مختلف مجالات الحياة وإلى أقصى الحدود ما وقع للأراضي المنخفضة الأوربية وهي ما تعرف حالياً بهولندا والتي تنتمي إلى العالم الجرمانى وهم يعتبرونها المثل الأعلى في تنظيم مجارى المياه واستغلالها للاستعمال المتري والفلاحي والملاحي والصناعي والسياحي وتوليد للطاقة الكهربائية.

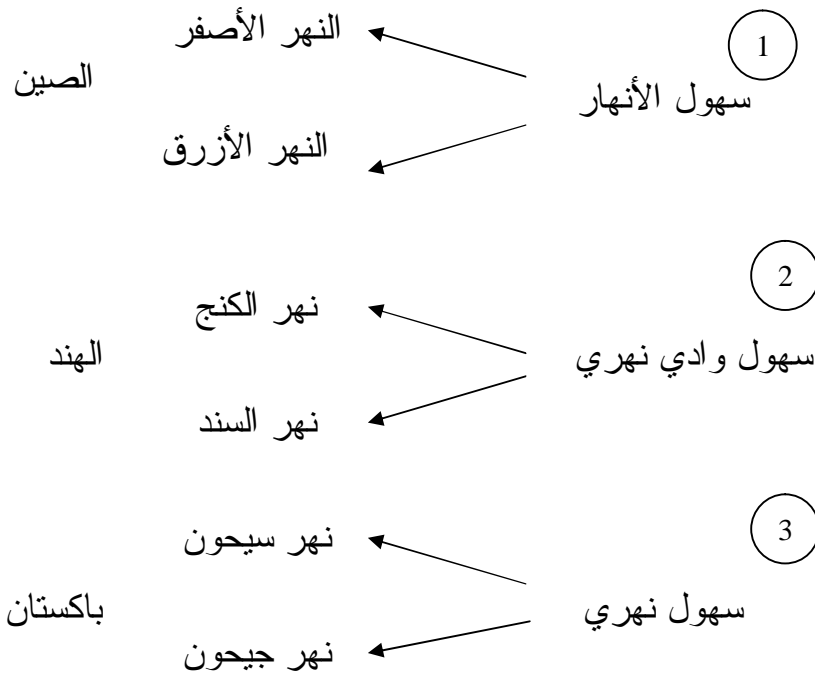
نلاحظ أن الإمكانيات التي استطاع بفضلها الهولنديون استغلال كثرة المياه لا تتوفر في دولة فقيرة مثل بنغلادش الحالية التي تعاني من التخلف والجوع ناهيك عن عدم الاستقرار السياسي الذي زاد الطين بلة ومجمل القول أحكام هيغل حول الشرق مبنية في أغلبها على فكرة مسبقة لذلك فهو يصنف سكانه كما يلي:

أ - سكان المناطق المرتفعة	ب - سكان سهول الوديان
الوظيفة الأساسية	الوظيفة الأساسية
*تربية الماشية (جمال، أغنام، خيل...)	*الزراعة والصناعة
*النظام الاجتماعي البيطرياركي	*الملكية الخاصة (علاقة السيد بالعبد)
*دائمي الحركة	*حرفة الزراعة والاستقرار
*عدم معرفة الاستقرار	*أهمية الملكية الخاصة والجهد المنتج
*التناقض في الشخصيات	*الصين والهند

على الرغم من اعتراف هيغل بأن بداية التاريخ يمكن أن ترد إلى شعوب الصين وآسيا وبابل أي سكان السهول الوديانية إلا أنه يعيب عليهم جمودهم مصدراً حكمه (إن هذه المناطق لم يكن ممكناً أن تكون لها علاقة ببقية " التاريخ " إلا من خلال بحث الآخرين عنهم ودراساتهم

لشخصياتهم<sup>7</sup>. يقصد ذهاب الأوروبيين إلى الشرق لجلب السلع وذلك بتأسيس ما يسميه بشركات الهند الشرقية والهند الغربية والتي جابت مختلف أنحاء الشرق الأقصى وباستغلال المعلومات المتوفرة ونشاط المستشرقين تحولت هذه العملية إلى الاستعمار الإسباني البرتغالي للعالم الجديد والهولندي ثم الانجليزي والفرنسي لمختلف أنحاء الآخر العالم الجديد وآسيا وإفريقيا.

رسم توضيحي لسهول الأنهار:



رسم توضيحي لأهم سهول الوديان حسب تصنيف هيجل والخاصة بالصين وشبه القارة الهندية

أولا - الصين:

يبدأ التاريخ البشري في نظر هيغل بالإمبراطورية الصينية والمبدأ الذي يحكمها هو الوحدة الجوهرية قديما وحديثا والتاريخ بالمفهوم الهيجلي هو ذلك التغيير والجدل الجامع بين المتناقضات أما الصين فتاريخهما ليس حقيقي لأنها لازالت رغم هذه السنين خارج العالم ساكنة ثابتة. والمبدأ الجوهرية في النهاية هو المسيطر على الصين<sup>8</sup> لكن ليس باعتباره استعداد أخلاقي بل استبداد للحاكم.

يواصل هيغل تحليله للصين ويعتبر أن لبعض الشعوب الآسيوية تراث قديم لكن لا يدخل في جانب التاريخ كما هو الحال بالنسبة للصين التي نتعرف عليها من خلال تاريخ الصينيين ودستورهم، ويرى هيغل أن أهم مصادر التاريخ والمعرفة عندهم هو كتاب " الملوك "، " تشوكينغ "، " وي كينغ " بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى التي لا تقل أهمية عن الأولى، وهذه الكتب هي أساس تاريخ الصين وقوانينها وعاداتها، وهذا ما لفت أنظار الأوروبيين بحيث زارها ماركو بولو واعتبرت تقاريره خرافية في القرن الثالث عشر الميلادي (13م) ثم أثبتت صحتها بعد ذلك بسنوات ويبحث هيغل على بعض الخصائص الجغرافية لشعب الصين و عن الإحصائيات المختلفة والزيادة الهائلة للسكان كما اهتم بالموقع الجغرافي للصين ويذكر أن ما أدهش الأوروبيين هو دقة ما قدمه المؤرخين الصينيون لتاريخ بلادهم حتى إن بعضهم قد يسجل يوميات الحاكم والأعرب من ذلك أنه سجل حتى أتفه الأمور مثل الأكل والشرب والكلام غير أن المهم هو تلك أن الفترات الأسطورية وعصور ما قبل التاريخ التي تعد عصور تاريخية تماما.

يبدأ تاريخ الصين حسب هيغل من زاوية الشمال الغربي وبالتحديد من سلسلة الجبال من نهر " هونج هو " حتى نهر " يانج تسي كياج " وظهرت شخصية يدعى فوهي FOHI يرجع لها الفضل في كيفية بناء البيوت وكيفية الأكل واللباس والزواج.

ومعنى هذا هولفت الأنظار للتغيير، والتاريخ يبدأ من هذه الثقافات ويتقدم نحو الجنوب وبالتالي بداية الدولة والحكومة التي سرعان ما تفككت إلى مقاطعات التي كان يعاد بناؤها من جديد في كل مرة بعد صراع وحروب ونظرا التوالي الأسر الحاكمة فلقد استقر الحكم على الأسرة 22.

بعد " فوهي " FOHI جاء "تشي هوانج تي " Shi Hoangti الذي قسم الإمبراطورية إلى 36 مقاطعة. وأشتهر بحملاته المعادية الدراسات التاريخية والأدبية الخاصة بالأسر الحاكمة قبله بحيث بلغ به الأمر إلى سرق كل الأعمال والكتب التاريخية ومن نطق سيلقى نفس المصير.

لقد تم أول اتصال بين الصين والغرب عام 64 بعد الميلاد حيث أرسل إمبراطورية الصين سفراء لزيادة حكماء الغرب وبعد 20 عاما وصل جنرال صيني إلى فلسطين كما يقال أن أول اتصال غربي بالصين هو وصول المسيحيين الأوائل في بداية القرن 16م وكان لغزوا التيار على الصين عدد نتائج منها استقرار. بما نتشو Montohov في الصين واستيلاء هذه الأسرة على الحكم بعد هذه اللمحات البسيطة عن تاريخ الصين تنتقل إلى فحص وتأمل روح المجتمع انطلاقا من الوحدة المباشرة التي تجمع بين الروح الجوهري والروح الفردي المتمثل في روح العائلة الذي يمتد ليشمل أكثر البلاد كثافة من حيث السكان في العالم.

#### أ - الأسرة والمجتمع في الصين:

الصينيون ينظرون إلى الأسرة باعتبارها الوحدة الأساسية في المجتمع، الوحدة الجوهريه فيه فالأبناء سواء كانوا ذكورا أو إناثا يحترمون الأب بشكل مطلق، فهم يندمجون ضمن نظام الإمبراطورية الذي يقوم على الواجبات المتبادلة بين الشعب الصيني كله و الإمبراطور، وبين الآباء

وأبنائهم، ثم بين الإخوة الكبار، والإخوة الصغار وخاصة بين الزوج وزوجته وكذلك بين الأصدقاء فيما بينهم<sup>9</sup>.

1- واجبات متبادلة بين الإمبراطور والشعب.

2- واجبات متبادلة بين الآباء والأبناء.

3- واجبات متبادلة بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر.

4- واجبات متبادلة بين الزوج وزوجته.

5- واجبات متبادلة بين الصديق والصديقة.

والرمز 5 مقدس كما هو الحال للعدد 3 لدى المسيحيين حيث ترمز خمسة إلى، الهواء، الماء، الأرض، المعادن، الخشب، والواجبات المذكورة سابقا محددة ومنظمة بقانون حيث أنه لا يحق للأبن أن يبدأ بالكلام حين يدخل أبوه عليه الغرفة، وليس له الحق في الانصراف دون إذنه، وإذا مات الأب يعلن الحداد لمدة 3 سنوات، يمتنع فيها عن كل الأعمال والشهوات بما في ذلك الإمبراطورية<sup>10</sup>، وكذلك الأم لا بد أن تحترم من طرف ابنها فتظل المستشار الأول والدائم له وتعلن جميع المراسيم الخاصة بالأسرة باسمها والإمبراطور في حالة التماس الشرف لأحد وزرائه يصدر مرسومًا كقولته: " لقد كانت الإمبراطورية على حافة الخراب، لكن والدك حماها وصانها وجازف بحياته فيما له من ولاء وإخلاص " وبالتالي يبلغ الشرف للجدود والآباء والأسلاف بفضل أبنائهم.

نلاحظ مما سبق - وكما يقول هيغل - عن الأسرة الصينية والإمبراطورية اللتين يحكمهما مبدأ عام هو الوحدة المباشرة للروح الجوهري "روح الشعب" وللروح الفردي الذي هو روح العائلة الذي يمتد ليشمل أكثر في العالم من حيث الكثافة السكانية، منذ عصر هيغل وحتى

<sup>9</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص 17.

<sup>10</sup> - المصدر نفسه، ص 72.

اليوم، معنى ذلك أن الروح الفردي أو لحظة الذاتية، كانا مدججين في جوف الروح الجوهري هذه الروح التي تمارس نشاطها بدون قيود، وذلك من خلال إرادة الأفراد دون أن تكون هذه الإرادات واعية لنفسها، حسب تعبير هيغل الذي تعمد نفي الحرية عن الآخر الشرقي حتى ينفي عنه الفاعلية الحضارية، وبالتالي يعتبره خارجا عن التاريخ.

لو كان هيغل حيا إلى اليوم لأدرك أن تماسك الأسرة الصينية ومحافظتها على موروثها الثقافي والحضاري الذي ينتقل من الأباء إلى الأبناء هو<sup>11</sup> أهم ما أبقى على المجتمع الصيني موحدا ومتميزا رغم العواصف التي تعرض لها، والأفكار الغربية اليهودية التي انتشرت في كافة أنحاء المعمورة ووصلت حتى الصين ولكنها لم تغير في الصفة الشرقية للمجتمع الصيني شيئا بل فقد استطاع هذا العملاق أن يستوعب أفكار العرب وأن يطورها حسب خصوصيته، وبهذه الكيفية كان مسيرا لروح العصر، وفي الوقت ذاته متمسكا بأصالته وهذا وفقا للمبدأ القائل: " الأصالة والمعاصرة " وهذا ما أكد عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي.

ويضيف هيغل: أن الدولة في الصين تعتمد أولا على ولاء الفرد للأسرة، ثم على ولاءه للدولة، وفي الحالتين تسيطر روح " الأسرة أو العائلة " فالصينيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ينتمون إلى أسرهم وأنهم أبناء لدولتهم، فالأسرة هي التي حافظت على التراث الأخلاقي جيلا بعد جيل، كما أسلفت ذكره حتى أصبح هذا التراث بمثابة الحكومة الخفية للمجتمع الصيني، مما سبق يستنتج هيغل أن الصينيين ليست لهم شخصيات فردية مستقلة، لا داخل ولا خارج الأسرة والوحدة الجوهريّة هنا هي وحدة الدم، ولما كانت الدولة عندهم أسرة كبيرة أو هي امتداد لأسرهم الصغيرة...، فإن هيغل يعمد إلى إصدار حكم على الآخر بدون تخصيص مفاده: انعدام وجود الشخصية المستقلة عند الشرقيين كافة، لأن هذه الشخصية تتطلب وجود الوعي الذاتي الذي يعني أن الشخص يعي ذاته أولا ثم يميز ذاته عن الآخر ثانيا، هذه الشخصية موجودة عند

<sup>11</sup> - Hegel : Leçons sur l'histoire de la philosophie, PP 77-78.

اليونان والرومان وخصوصا عند الجرمان أما عند الشرقيين فلا تجدها إطلاقا، لأن العلاقات السائدة في المجتمعات الشرقية هي علاقات بترياركتة (أي أن الأب هو كل شيء والأبناء لا شيء) بمعنى أن سلطة الأب في المجتمع الشرقي مطلقة وعلى جميع أفراد الأسرة وينسحب ذلك على كيان الدولة بحيث يعتبر الشعب كله ابنا للإمبراطور الذي يظهر على أنه أب الجميع. معنى ذلك أنه لا وجود لعنصر الذاتية أو لا انعكاس لإرادة الفردية على ذاتها في معارضته للجوهر بوصفه القوة التي تضم بداخلها جميع الإرادات الفردية مشكلة إرادة كلية وهذه بدورها تتحكم مباشرة بما ينبغي على الفرد أن يفكر، وهذا الأخير يذعن ويطيع بلا تفكير ولا انتظار، لأنه إذا لم يطع انفصل عن الجوهر، وهو بذلك يعرض نفسه للعقاب، ولما كانت علاقة الأخلاق تتسم بالضغوط الخارجية فستكون العقوبة خارجية أيضا غالبا ما تحدد القوانين الردعية لكل جرم عقوبته والشائع عندهم هو ما يعرف عند الشرقيين بصفة عامة بـ (الفلقة)<sup>12</sup> يعني أن يجلس الشخص الخاضع للعقوبة ممدا رجليه ثم يقوم الشخص المساعد برفع أحد أرجله وعندئذ يقوم الشخص المكلف بتنفيذ العقوبة بضربه (مئة ضربة مثلا) على أن يتم حساب عدد الضربات، وهذه العقوبة البدنية تجري في الأسرة مثلما تقع في المدرسة أو في الشارع أو في مؤسسة تابعة للدولة.

إن مبدأ العقوبات في أي قانون ينطلق من مقولة: أن لا جرم بدون نص. بمعنى أن النصوص القانونية تحدد مسبقا الجريمة وتتبعها بنوعية العقوبة وهذا هو المعمول به في أوروبا مثلما هو معمول به في الصين، فلماذا ينتقده هيغل هذا النظام خاصة وأنه نظام يهدف إلى ضبط العلاقات بين أفراد المجتمع بحيث تتم حماية الضعفاء من جبروت الأقوياء ثم تحصين كافة أفراد المجتمع بفضل الصرامة في تنفيذ العقوبة وهذا ما أدى إلى تماسك الأسرة ومحافظة الصين على خصوصيتها منذ القرن السادس قبل الميلاد، وإلى يومنا هذا وعلى الرغم من ذلك فإن هيغل يؤكد على أن المجتمع الصيني منغلق وليس فيه سوى الواجبات فقط.

<sup>12</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص ص 23-24.

إن النظام الأبوي يمثل الصورة العامة للعلاقات الاجتماعية والسياسية، فالإمبراطورية الصينية القديمة ابتداء من الأسرة الصغيرة إلى العائلة الكبيرة إلى النظام السياسي في الدولة فليس ثمة - على الإطلاق - سوى شخصية واحدة أدمجت فيها جميع الشخصيات الفردية وتلك هي شخصية الأب المسيطر سيطرة مطلقة والذي ينسجم أيضا مع الإمبراطور.

نلاحظ أن هيغل يقول عن هذا النظام، أنه تنعدم معه الحريات الأساسية إنه لا مجال للاعتراف أو الحديث عن أي نوع من الحقوق سواء السياسية أو الاجتماعية... إلخ إنما الحديث باستمرار عن الواجبات لأن رب العائلة له سلطة أخلاقية على أفراد عائلته كما للإمبراطور سلطة أخلاقية على أفراد شعبه ، لذلك فالطاعة عمياء وطريق الواجبات هو ذو اتجاه واحد ولا يعكس من أسفل إلى أعلى، ومن الوضع إلى النبيل ،ومن الصغير إلى الكبير ومن الابن إلى أبيه ومن الأخ الصغير إلى أخيه الكبير،ومن الرعايا إلى الملك.

ولأن المبدأ المنظم للعلاقات داخل المجتمع هو مبدأ أخلاقي لأن هناك واجب واحد هو " الطاعة والإذعان " حيث جاء في كتاب شوكيلغ بعد التذكر براتب الواجبات، لا يعادل الاخوة أحد، فالاخوة يتشاجرون بين الجدران، ولكنهم يقفون متحدين ضد أي إهانة من الخارج، بينما خير الأصدقاء برغم كثرتهم لن يحارب من أحلك وفي هذا المعنى يقول كونفوشيوس: " إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم " لذلك فإن هيغل يتعرض لواجبات الأسرة الشرقية بالتفصيل مركزا على علاقة الأب بأبنائه، فهي النموذج النمطي الأول الذي يتكرر فيما بعد في النظام السياسي وهذا ما أزعج هيغل لأنه يرفض المجتمعات السكونية المنطوية على نفسها ويفضل عنها المجتمعات الديناميكية كما أوضحت ذلك سابقا ،ومن هنا نجد: أن الأسرة تعترف للأب بسلطة وهيبة تفوقان الحدود المألوفة بل تبلغ أحيانا حد (التقديس) إذ لا يجوز الكلام في حضرته ولا الانصراف بدون أخذ الإذن منه، أما التحية فيجب أن تكون بالانحناء ثم خفض العينين إلى



أسفل، بل لا يجوز للابن أو الصغير أن ينظر في وجه الأب أو الكبير ولا أكل الطعام في حضرته... الخ.

### ب - جنة الذكور:

في مثل هذا النظام البترياركي لا مكان للمرأة فيه فرب الأسرة وأبناؤه الذكور لهم وضع خاص في المجتمع الصيني حتى أطلق عليه بعض المؤرخين جنة الذكور<sup>13</sup>.

فالآباء يدعون في صلواتهم أن يرزقوا أبناء ذكورا لأنه من أكثر أسباب المذله والمهانة والإحتقار للنساء اللاتي ليس لديهن أبناء ذكور وذلك لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل، وأثبت منهن جنانا في ميدان القتال كما كانت العادات المتبعة تقتضي أن لا يسمح لغير الذكور بتقديم القرابين إلى الآباء والأسلاف أما البنات فهن في الغالب عبئا ثقيلًا على آبائهن وأسرهن، فالأب يقوم بالتربية والصبر على المشاق ثم يبعث بهن بعد ذلك متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء لأسر أخرى، لذلك فقد سادت عادات غير إنسانية في هذا المجال حيث إذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها تركتهن الأسرة في الحقول والفيافي ليقضي عليهن صقيع الليل أو حرارة النهار أو الحيوانات المفترسة، ولهذا فإن هيغل يرى أن تفضيل الذكر عن الأنثى هو الذي ساعد على انتشار عادة تعدد الزوجات، وما يضاف إلى مهانة المرأة هو خوفها من الطلاق لاسيما إذا كانت عاقر أو تنجب البنات فقط، لهذا فكثيرا ما تحث الزوجة الأولى زوجها على الزواج بثانية من أجل إنجاب الذكور، وتروي قصص أن زوجات الأباطرة كن يتفاخرن بقولهن: " لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة لأبحث عن الفتيات الجميلات لأجعلهن خليلات لمولاي ". حسب تعبير هيغل<sup>14</sup> الذي عمل على إظهار كل ما يحط من شخصية الشرقي.

<sup>13</sup> - المصدر السابق، ص ص 72-73.

<sup>14</sup> - المصدر نفسه، ص 113.

## ب - إدارة الإمبراطورية:

الدولة في الصين قائمة على المساواة المطلقة دون وعي بالحرية، والحديث عن الفروق ليس ممكنا إلا عن طريق الإدارة والكفاءة التي يبدونها الأفراد والمصالح والاحتجاجات الجزئية لا معنى لها في الصين نظرا للمساواة، ومن يقوم بإدارة شؤون الدولة هو الإمبراطور يوصفها سلسلة تصاعدية من الموظفين أو الماندرين وهما نوعان: مثقف وعسكري. والمثقف له مرتبة أعلى من العسكري لأن المدني عند الصينيين أفضل من العسكري. ويتعلم موظفو الدولة في المدارس والراغب منهم في منصب أعلى ما عليه إلا اجتياز ثلاثة امتحانات في العادة بنجاح والأخير يحضره الإمبراطور ولمن نجح التقدم إلى أعلى مجلس في الإمبراطورية على أن يكون عارفا لتاريخ الإمبراطورية، وفقه التشريع وعلم العادات وإدارة الحكومة وتنظيمها فضلا على بعض المواهب الأخرى.

ويوجد في الصين 15 ألف مدني و 20 ألف عسكري تابعين للإمبراطور في زمن هيغل وينقسم الموظفون من الماندرين إلى ثماني فئات: الأولى تصاحب الإمبراطور، والثانية التي تليها نواب الإمبراطور وهكذا... إلخ.

ويعتبر المجلس الإمبراطوري أعلى مؤسسة إدارية تضم أعلى رجال الثقافة وبوجد في أجزاء الإمبراطورية المختلفة رقيب يسمى " كوتاو " يرفع للإمبراطور تقريرا عن كل شيء. وللرقيب الحق في توجيه اللوم للإمبراطور. لأن الرقيب له روح نبيلة وشجاعة وهذا ما يرويه تاريخ الصين حيث يحكى أن أحد الرقباء " مستشري الإمبراطور " أبدى بعض الملاحظات ضد حاكم طاغية فطرده ذلك الحاكم شر طردة، لكنه رغم ذلك أعاد الكرة في اليوم الموالي مع إحضاره للتأبوت الذي يود أن يدفن فيه<sup>15</sup>.

والماندرين مسؤولون عن الواجبات المهمة في الظروف القاهرة كالمجاعات والحروب مثلا، ومنهم من يخصص للإشراف على الطريق، ومنهم من هو مخصص للإشراف على الأنهار

والشواطئ وبالتالي كانت الإدارة منظمة بدقة بالغة. والحرك الأول والأخير وروح اليقظة والنشاط هو رأس الدولة لذلك فرخاء البلاد وسعادة الناس تعتمدان أن عليه. وهذا إذا كان يتصف بالجدية أما إذا لم يكن كذلك تصاب الدولة بالشلل من القمة إلى القدم ومثال على ذلك كان الإمبراطور رجل دمث الأخلاق، وديعا ودودا تراخت عنان الحكومة في يده، وكانت النتيجة أن حل الاضطراب والفوضى في البلاد وانتهى الأمر باستدعاء المانشو. واضطر الإمبراطور أن يقتل نفسه حتى يتجنب السقوط في أيدي أعدائه وكذلك فعلت حاشيته.

إن نظام التشريع الذي ينظر إلى الرعايا على أنهم قاصرين وبالتالي فالتشريع مصدره من أعلى إلى أسفل، ولذا طمس إحساس الفرد بحريته.

ويمكن تلخيص مبدأ التشريع في النقاط التالية:

1- مبدأ التشريع مصدره من أعلى، وينظر إلى الرعايا على أنهم قصر ولذلك صودرت حريتهم.

2- سطحية العلاقات الأسرية بحيث تتحول العلاقة بين أفراد الأسرة إلى علاقة عبودية لأن كل فرد بإمكانه بيع نفسه وأبناءه، وأما الزواج فالزوجة الأولى فقط تتمتع بالحرية.

3- العقوبات بدنية لأن الصينيين يتولد لديهم إحساس بالكرامة فهم يخضعون للتأديب والتربية أكثر من خضوعهم للعقوبة، وهم يخافون من ارتكاب الفعل خوفاً من العقوبة وليس الشعور بالإثم، ولذا فجميع الجرائم مهما كانت نوعيتها أسرية أو في حق الدولة يعاقب عليها بطريقة خارجية، فإذا اشتكى الأخ الصغير من أخيه الأكبر كان جزاؤه مئة ضربة بالعصا إذا كان معه حق وإلا شنق وإذا رفع الابن يده على والده كان جزاؤه تمزيق جسده بمشكاة محماة بالنار.

العلاقات الزوجية تقدر تقديرا عاليا أما بقية الموظفين فتطبق عليهم نفس العقوبات حتى ولو كانوا أصحاب مناصب رفيعة لأنهم لا يبدون أي تأثير لهذه المعاملة، وإذا أحس أي شخص

منهم بالمهانة قتل نفسه بدلا من قتل خصمه، لأنه في الحالتين سيموت، ولأنه لا ملجأ لمن قتل من غير قصد، إذ تتجاهل كل حرية ذاتية وكل حضور أخلاقي عند الفعل.

أما ما يتعلق بالعلاقات القانونية في الصين فهناك تغيرات كثيرة في حقوق الملكية لأن الملك " تشي هونج ني " تسلط على أرض الصين<sup>16</sup> وكذا البلدان التي غزاها فأصبحت من ممتلكاته غير أن بقية الرعية ليس لهم حق التملك، وبما أن الشعور السائد هو الإذلال والمهانة فقد تحول إلى الشعور بالضعف والانحطاط وهذا ما أدى إلى ظهور التصرفات اللاأخلاقية مثل الخداع والغش والنصب والاحتيال، ولذا يجب على الأوروبيين الاحتراس منهم وما يؤكد ذلك هو انتشار ديانة "فو" FO التي تنظر إلى العدم الخالص على أنه وجود إلى أعلى وتنظر إلى احتضار الفردية على أنه أعلى ألوان الكمال.

لتوضيح الدين عند الصينيين أكثر يعقد هيغل مقارنة بين الدين المسيحي والدين الصيني إذ يرى أن الديانة الصينية لا ترقى إلى مستوى الإيمان الحقيقي إلا حينما يكون وجود الأفراد في ذاتهم ولذاتهم مستقلين عن أي سلطة خارجية لكن الصينيين يفتقرون إلى هذه الاستقلالية حتى في مجال الدين، فالإمبراطور هو المشرع في الأرض وهو المشرع في السماء ويعتقد الصينيون أن الإمبراطور روح حارسة في كل مقاطعاته التي تخضع لأوامره وإذا خالفته عزلها.

ويرى هيغل أن الصينيين يؤمنون بعدد لا حصر له من الخرافات حتى أنهم لا يقدمون على أي أمر إلا إذا استشاروا العرافين ويتجلى في كتابهم (Y.King) ي. كينغ الذي سمي بكتاب الأقدار وهذا نظرا لعدم استقلالهم الذاتي<sup>17</sup>.

لقي العلم تشجيعا كبيرا من طرف الناس والدولة ذلك أن كبار الموظفين و(هم الماندرين) في تقاريرهم ورسائلهم يجب أن تكون لديهم هناك مطابقة بين الشكل والمضمون كما أنه في

<sup>16</sup> Hegel : leçon sue l'histoire de la philosophie p p79-80.

<sup>17</sup> ibid , p p 82-84.

بمجال الطباعة من يكتب أخطاء يعاقب بقسوة من طرف الإمبراطور لكن هذا العلم ليس بالعلم الحقيقي لأنه يفتقد إلى الأساس الحر للذاتية والجانب الفكري الحر فالعلم في نهاية المطاف من الدولة وإلى الدولة وكان للصينيين لغة مكتوبة وأخرى منطوقة نالت إعجاب الكثير من المفكرين أمثال لينيتز Leibniz أما بالنسبة لعلم التاريخ فهو لا يشمل إلا وقائع محددة دون الحكم عليها أو الاستنتاج منها. وهكذا بالنسبة لعلم التشريع ولعلم الأخلاق. أما الفلسفة فإننا نعرفها من خلال كتاب " ي. كينغ " (Y.Kikg) كتاب الأقدار وهي تشبه فلسفة " فيثاغورس " في المواضيع التي تناولتها كالبداية والنهاية والوحدة والثنائية تقومان على مبدأ " التاو " " Tao " ويعتبر العلم الأقصى هو التعرف على جميع أشكال " Tao " التاو. وقد نار كونفوشيوس لاوسي Laotse في القرن السادس ق م وهناك فرقة عرفت بميلها إلى العزلة، وتدين الصين لكونفوشيوس بعدة مؤلفات مثل كتاب Lingo وكثيرا من كتب الأخلاق التي تشكل أساس العادات والسلوك عند الصينيين.

أما بالنسبة لبقية العلوم - الرياضيات - فيزياء - طب ، فلك، رغم أن للصينيين السبق في معرفة الكثير من العلوم، إلا أنهم لم يتقدموا خطوة واحدة في سبيل استغلال هذه المكتشفات فهم مثلا أول من اكتشف حجر المغناطيس وأول من اخترع فن الطباعة لكنهم لم يعرفوا شيئا عن حروفها ولقد زعموا أنهم اخترعوا البارود قبل الأوروبيين غير أن اليسوعيين كانوا أول من علمهم صنع المدافع.

كما عرفوا علم الفلك وأفضل شاهد على وضع علم الفلك عند الصينيين هو واقعه أن بعض الأوروبيين حيث كانوا يعملون بالتقويم " الصيني " مند مئات عديدة من السنين ومنذ العصور الأولى عندما كان علماء الفلك الصينيون يقومون بدراسة طريقة التقويم حيث ذكرت بيانات خاطئة عن كسوف الشمس وخسوف القمر مما نتج عنه إعدام المؤلفين كما درس الصينيون الطب لكن من ناحية التجريب فقط كما أنهم عرفوا الفنون كالرسم... إلخ

كانت الشخصية الصينية تتميز بعدة مهارات تجاوزت ذكاء وفهم الذين عجزوا عن منافسة الأوروبيين الصينيين في المهارات الصناعية الفنية.

تلك هي شخصية الشعب الصيني في جوانبها المختلفة غير أن هيغل يرى بأنه السمة التي يتميز بها أنه كان بعيدا عن كل ما يتعلق بالروح. وعن الأخلاقيات الحرة، الذاتية منها أو الموضوعية وعن الوجدان وعن الجانب الباطني للدين والعلم والفن الجديرة بتحقيق الحرية والشعور العميق بها.

كانت نظرة هيغل للصينيين والهنود نظرة احتقار حيث قارنهم بالشعوب الأوروبية، لازدراهم ووضعهم في المرتبة الدنيا بالنسبة لهم إذ يعتبرهم كائنا بدون إحساس بالكرامة إلى درجة أنهم ينظرون إلى العقوبة على أنها مجرد تأديب وتربية.

#### ثانيا - شبه القارة الهندية:

ظلت الهند ساكنة محافظة يجمع طبقاتها تناغم فسيفسائي غريب، لذلك لطالما اعتبرت بلد الشوق والحنين ووصفت ببلاد العجائب وتعايش المتناقضات، إنها عالم سحري جذاب بالنسبة للكثيرين. إنها بلد الخيال والعاطفة بالرغم من التمايز الطبقي الذي يميز مجتمعا، أدنى طبقة فيه هم: (السيخ) هذه الطبقة المغلوبة على أمرها المكابدة لمرارة العيش وآلام الحياة ... .

ينطلق هيغل من لوحة للرسام الألماني ( سو كوريل)<sup>18</sup> الذي تكتسي لوحاته مسحة جمالية جذابة، وهو الذي جعل من العذراء - وهي في حالة الموت - تشابها في قسماتها العامة مع المرأة الهندية، ولأن العذراء في موتها يرتفع روحها إلى الدرجات العليا من السماء كان لزاما على (الروح) في الهند أن تخلق وتنتقل إلى بلاد الفرس، عليها تجد هناك من يأخذ بيدها ويطورها لأن النظرة الهندية إلى الأشياء هي وحدة وجود عامة وهي كذلك قوة الخيال التي تغطي على العقل

<sup>18</sup> - سو كوريل: رسام ألماني 1562/1495 درس في نورمبرغ، أهتم باللوحات الدينية زار فلسطين وروها، وعاد إلى ألمانيا فقام يرسم أشهر لوحاته (العذراء والطفل) بالإضافة إلى لوحته: (الحج إلى الأراضي المقدسة).

والتفكير المنطقي، وهما في حالتها الأولية الخام يمكن أن يتحولا إلى دائرة (الكلي)، ولكن من الجانب الثاني لا يمكن قياس العقل لأن قوته لم يتم تحريرها بواسطة القوة الحرة للروح إلى شكل جميل، بحيث يكون لهما طبيعة مثالية في الروح، وأنها الموضوع الحسي الذي يمتد إلى ما يمكن قياسه، وما هو غير محدود وبذلك يصبح الإلهي غريب وشاذ ومضحك، وتصبح الأحلام مجرد حكايات خرافية، وألعاب تحركها قوة التخيل، فتصبح الروح - لذلك - مجرد أشباح تحوم هنا وهناك تبعا لتعدد الأرباب والآلهة، ومن ثم فالمجتمع الهندي الذي يقدر الشمس والقمر والنجوم، ونهري الكونغ - السند، والحيوانات من زواحف... ويقدر الزهور... كل شيء بالنسبة للروح إله، وفي هذه الدوامة من الخرافة والخزعبلات والأساطير، يستحيل تكون تصور عقلي عن الأشياء وفي هذا السياق فإن الإلهي - نظرا لأنه لذاته متغير وغير ثابت فإنه بواسطة هذا الشكل المنحط - الذي يتخذه - يصبح مشوها تماما وملونا أو دنسا ولغوا باطلا<sup>19</sup>.

وبهذه الطريقة فإن عملية التأليه لكل ما هو متناهي تؤدي إلى الإنحطاط الإلهي، ما دامت فكرة الإله تنطبق على البغاء والبقرة والقرود والأفعى... وهو ما يحصر الإلهي في صورة ذات جود مادي هنا نلاحظ أن هيغل يحاول أن يسقط مسيحته على المجتمع الهندي، ولذلك فهو يصدر حكمه على الإنسان الهندي وينعته بالعابث والمنحط والحقير، ثم يعطينا وجهة النظر الهندية عن الكون والله والأشياء، حيث أنها تخلو تماما من المعقولة، إرتباط العلة بالمعلول، كما يخلوا إنسانها من الشعور بالوجود الحر من أجل الذات، وبالتالي من الشخصية، فهو داخل في استعباد واستبداد بعضه للبعض، ثم يضيف هيغل: أن الشعب الهندي لم يقم بأية فتوحات خارجية لكنه هو نفسه كان ميدانا للغزو الخارجي باستمرار<sup>20</sup>.

<sup>19</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 100.

<sup>20</sup> - المصدر نفسه، ص 101.

لم ينكر هيغل الرغبة في الغزو والتي راودت جل الأوروبيين باعتبار الهند من المناطق المرغوب فيها، فكل أفراد الأمم ومنذ أقدم العصور كانت تحدها الرغبة بالظفر بمنفذ إلى كنوز هذه البلاد التي هي: بلاد العجائب، تلك الكنوز التي هي من أعلى ما أنجبت الأرض من الماس ولؤلؤ وعطور ورحيق الورود وأفيال وأسود...<sup>21</sup>

هيغل لم يكتف بالكنوز الطبيعية بل تعداها إلى كنوز الحكمة أيضا كما يعترف بأن انتقال هذه الكنوز إلى الأنا الغربي لعب دورا أساسيا في التاريخ العالمي، ثم يشير إلى اقتسام هذه الرقعة بين أمم الشرق والغرب، حيث نجح الإسكندر الأكبر في الوصول إلى الهند برا، كما استطاع الأوروبيون في العصور الحديثة أن يدخلوا بلاد العجائب من الخلف مستخدمين البحر الذي يعتبره هيغل أداة تواصل بين الشعوب، ويعتبر مجيء الإنجليز والهولنديين والغربيين عامة، إلى بلاد الهند حتمية من أجل تحضير هذه المناطق التي يرى أنها قد أحرزت تقدما جوهريا، بعد الغزو، غير أنه ينتقد طريقة التقدم تلك لأنها كانت جوفاء بإهمالها " حرية النفس " وهي لم تمس عمق المجتمع الذي بقي منقسما إلى طبقات (مقفلة)، حيث الطبقة المقفلة تعني أن كل طائفة لا يمكن لأعضائها الانتقال (صعودا أو نزولا) إلى طبقة أخرى مهما فعلوا، وحتى الزواج لا يمكنهم في غير طائفتهم، وإن حدث وفعلوا أصبحوا من المنبوذين وحرموا من الانضمام مجددا إلى طائفتهم الأصلية عقابا لهم.

وعلى ذلك فإن التقسيم الهندي للطوائف الدينية والطبقات الاجتماعية تقسيم طبيعي يتم بالمولد والتنشئة وهو أربعة طوائف رئيسية:

- 1- البراهما: وهم الكهنة والمعلمين وأصحاب الإمتيازات الكبرى.
- 2- الكشاتريا: وهم المحاربون، لهم سلطان على الميدان الفكري والسياسي.
- 3- الفيزيا: وهم الرعاة.



4- الشوذرا: تمثل أدنى طبقة ولا تقل عنها (الباريا) وهم المنبوذون في مختلف الطوائف، وهذا التقسيم الأبدي للمجتمع يوضع كيف أن هذا البلد لم يبلغ درجة مناقشة الحرية والأخلاق الباطنية في المجتمع.

ولنشأة هذه الطوائف خلفية أسطورية تقول: " إن طائفة البراهما: El Brahma خرجت من فم (الإله) وخرجت طبقة المقاتلين من ذراعيه، أما الرعاة فمن حاصرته، والطائفة الخادمة من قدميه"<sup>22</sup>... الخ.

يسخر هيغل من تاريخ الشرق سخريته من هذه الأسطورة فيعتبرها من اختلاف فئة رجال الدين في الهند (البراهمة) وذلك بغرض السيادة على باقي لطبقات وهو الأمر الذي يرجح أن تكون أسطورة النشأة هذه محض خرافة كبرى.

لكن ما نسجله على هيغل، هو السخرية من ثقافة الآخر في حين أنه لا يفعل ذلك مع أرسطو الذي شبه الدولة بالجسم البشري واعتبر أن الرأس: يرمز للفلاسفة الذين من شأنهم إدارة شؤون الدولة

- السواعد أو العضلات: تمثل الجند.

- العبيد والعمال: فيقابلهم بقية أجزاء الجسم<sup>23</sup>.

إن هيغل يعيب على تقسيم الكهنة البراهمة تفضيل أنفسهم على بقية الطبقات، علما أن (البرهمي) يفضل في كل شيء، فحتى في الطريق يجب على أفراد الطبقات الأدنى أن تفسخ أمام البرهمي المجال ويمكنه أن يطرح أي فرد جانبا من الطبقات الدنيا لا يفسح له الطريق أن هيغل في هذه النقطة يلاحظ: أنه لا يمكن لأمة أن تكون جميعها كهنة بدون زراع ولا جنود ولا حرفيين، كما لا يمكن للطبقات أن تتواجد من الخارج، كما هو الحال في الهند - لكنها تتفاعل (أي الطبقات) مع بعضها داخل المجتمع، ويقع تقسيم العمل حسب قدرات كل فرد كما هو

<sup>22</sup> - هيغل: المصدر السابق، ص 108.

<sup>23</sup> - Hegel : Leçons sur l'histoire de la philosophie, P P 101-103.

جاري العمل في أوروبا، أما عند الآخر الشرقي فإن هذه التميزات تعزي إلى الطبيعة ، وتلك نتيجة ضرورية لمفهوم الفكرة التي يجسدها الشرق بصفة عامة ، لأنه إذا كانت الذات، ينبغي أن تكون حقا مؤهلة لأختيار مهمتها وعملها فإنه في الشرق على العكس من ذلك لا يعترف بعد بالذاتية الداخلية على أنها أمر مستقل، وإذا كانت التميزات تحدد طريقها للظهور، فإن الإعراف بها يصاحبه الاعتقاد بأن الفرد لا يختارها لنفسه وبنفسه.

بما أن هيغل ينفي أن تكون للإنسان الشرقي حرية وبالتالي ينفي عنه إرادة الإختيار، فإنه يقول بأن مصدر إختيار الإنسان الهندي هو الطبيعة وليس العقل، الطبيعة هي التي تفرض على الشرقي توجهها معيناً.

إنطلاقاً من هذه الرؤية يفرق هيغل بين الهند والصين مادحا الأخيرة في هذا الجانب لأن المجتمع الصيني يقوم على عدم التمايز الطبقي، كما تستند درجات الرقي عنده على القوانين والقرارات الأخلاقية التي يصدرها الإمبراطور، وبالتالي فهي تعتمد على إرادة بشرية بحيث تراعي الكفاية والإستحقاق، وهذا ما يتوافق حسب هيغل مع ما جاء في نظرية أفلاطون من أن التميزات أو الفروق في الوظائف والأعمال تتم وفق رغبة الهيئة الحاكمة وبالتالي فإن في العملية قوة روحية أخلاقية، مما جعله يعتقد أنه ينسحب على فترة العصور الوسطى الأوربية، حيث الأفراد مرتبطون بطبقة معينة، لكن هناك فارق يخص الشيء الأعلى بالنسبة للمجتمع، حيث تمتع الجميع بالحرية في الانتقال إلى الطبقة الروحية<sup>24</sup>.

أ- الطبقة الروحية: يقصد بها رجال الدين المسيحيين حيث كان والدا هيغل يتمنيان أن يصبح ولدهما هيغل راعياً رسولياً في الكنيسة - باعتبار أن هذه الفرصة متاحة للجميع، وهنا نلاحظ: أن هيغل انتقل من موقف أفلاطون إلى المسيحية مقارناً أيهما بالكهنة في الديانة البرهيمية المغلقة على نفسها والتي لا تسمح على الإطلاق لفرد ينتمي للطبقات الدنيا، أن ينتسب إليها حتى

يصل في النهاية إلى أن الدين المسيحي يتخذ موقف واحدا لكل الناس على الرغم من أن العرف يقتضي أن تنتقل الحرف أو الصنائع اليدوية من الأباء إلى أبنائهم - حيث يصبح ابن النجار نجارا وأبن الفلاح فلاحا،... معنى ذلك أن الظروف الاجتماعية تقيد الأفراد وتشكل ضغطا على توجهاتهم،... لكن العنصر الديني يقف موقفا واحدا من الجميع، ويضفي الدين على كل الناس قيمة مطلقة.

نلاحظ أن: هيغل يقصد الدين المسيحي الغربي دون أدنى إشارة إلى سماحة دين الإسلام وقيامته على مبدأ المساواة، وهو ينتشر في أغلب مناطق الهند، بل يخضع له أكثر من نصف المجتمع الهندي، غير أن هيغل لم يتطرق له على الإطلاق ولم يربطه بشبه القارة الهندية، وهذا تقصير لا محالة من طرف فيلسوف كهيغل، الذي قام بدراسة هذا المجتمع،... ويركز بدلا من الغالبية التي تدين بالإسلام على الجزء الذي يعتنق البراهمية رغم أن مصدرها أسطوري وليس الوحي كما يذهب إلى ذلك هو نفسه - ويتجاهل المبادئ السامحة للإسلام. بمعنى أنه يركز على العيوب رغم قلتها ويهمل المناقب رغم كثرتها.

إذا كان الدين هو المجال الأعلى الذي يستمتع فيه الكل بضوء الشمس - كما يدعي هيغل - فإن المساواة أمام القانون في الحقوق الشخصية والملكية مكفولة لكل الطبقات، لكن هيغل يستثني رغم ذلك بلاد الهند من هذه القاعدة على اعتبار أنها تفتقد الحرية، كما أنه يذهب إلى أن (الروح) لا يتموضع فيها وهو السبب الذي يراه هيغل انعدام الأخلاق والعدالة،... الخ وهذه مغالطة أخرى قصد من خلالها هيغل الحط من قيمة الرجل الهندي.

يضيف هيغل معددا بعض المغالطات بهدف الإنقاص دائما من شأن الإنسان الهندي فيقرر أن:

-الجمود والتحجر يسيطران على الهندي، لذلك فالأخلاق والكرامة

البشرية مجهولة لديهم. فإذا كنا نحن الأوروبيين نقول: " الشجاعة فضيلة " <sup>25</sup>.

فإن الهنود يقولون على العكس: " الشجاعة هي فضيلة طبقة الكشترية ". مكفولة لكل الطبقات لكن رغم ذلك فإن هيغل يستثني بلاد الهند من هذه القاعدة على اعتبار أنها تفتقد للحرية ، كما يذهب إلى أن الروح لا يتموضع فيها، وهو السبب الذي يرى هيغل أنه وراء انعدام الأخلاق والعدالة ،..... وهذه مجرد مغالطة قصد من ورائها هيغل الحط من قيمة الإنسان الهندي الذي وصفه بالجمود والتحجر وانعدام الشعور بالكرامة حيث يقول إذا كنا نحن الأوروبيين نقول الشجاعة فضيلة " فإن الهنود يقولون على العكس منا : " الشجاعة هي فضيلة طبقة الكشترية"<sup>26</sup> .

كذلك الواجب البشري وشعوره لا وجود لهما عند الهنود ثم يضيف واصفا الشخصية الهندية بأسوأ وأحط الصفات فيقول : "وتلعب الأهواء الشريرة دورها كاملا، وتهم الروح في عالم الأحلام، وأعلى حالة لها هي حالة الفناء والانعدام"<sup>27</sup> .

ثم يتطرق إلى أنواع الدين وأنواع الآلهة فيقول: "إن هناك ثلاثة آلهة هم: براهما المذكور، وفشنو أو كريشنا الذي يتجسد في أشكال كثيرة لا نهاية لها، وشيفا وهم يشكلون ثلوثا مرتبطين لكن براهما يبقى هو الأعلى ثم يأتي الآخرون بالإضافة إلى الشمس والهواء،... الخ من مظاهر الطبيعة حيث تؤدي لهم الصلوات كما تقدم لهم القرابين، ويعتبر براهما الوحدة الجوهرية للكل، ولكن نظرا لأن براهما هو أعلى مرتبة للإنسان الهندي، وبما أن طبقة البراهما مغلقة على نفسها فإن الطبقات الدنيا محكوم عليها بالخضوع لطبقة البراهما وطاعتهم إلى ما لا نهاية ويكتسب البراهمي صفة الاتصال بما هو إلا هي بفضل مولده ومن ثم فإن بقية الطبقات إذا أرادت الإتصال بما هو إلا هي عليها أن تقوم بممارسة " اليوقا "

و" اليوقا " " yoga " كلمة سنسكريتية ومعناها " الاتحاد " كما تطلق على المتصوفة من الهندوكيين وهي عبارة عن حركات رياضية يقوم بها المتصوف بهدف الترفع فوق العالم الحسي ليتحد مع روح الكون، ويلجأ أتباع هذا المذهب إلى التدريب لتسهيل الاتحاد بالنفس الكلية عن

<sup>26</sup> - المصدر نفسه، ص 110 .

<sup>27</sup> - المصدر نفسه، ص 110 .

طريق نوع من الرياضة كما تقوم على مبدأ تقديم القرابين ويؤمن أصحابها بتناسخ الأرواح حسب مبدأ الكرامة "فإن حياة الإنسان تتخللها أفعال سيئة لهذا وجب الخضوع لولادات متتالية تكون في صور مختلفة، إنسانية كانت أو حيوانية ويرى أتباع هذا المبدأ على أن أصحاب الأفعال الحسنة قد تعجل له أعماله تلك بالاتحاد النهائي<sup>28</sup> مع الإله وقد نقل هيغل عن أحد الإنجليز، أن أحد من الطبقات الدنيا أراد الالتحاق بالبراهما غير أنه بقي 12 سنة واقفا على قدميه بدون أن يجلس أو يرقد على الإطلاق، أما المرحلة الثانية فقد تطلبت منه أن يضع يديه متشابكتين على رأسه اثنتي عشر سنة متتالية، ولقد كادت أظافره أن تنمو في داخل يديه أما المرحلة الثالثة فهي لا تتم بطريقة واحدة، فهناك التأرجح على النار، ثم الدفن حيا وواقفا، وإذا نجح من هذه الامتحانات يبلغ في النهاية درجة القوة الباطنية للبراهمي.

نلاحظ أن: هذه المخاطر التي يتحملها الراغب في بلوغ القوة الباطنية للبراهمي دليل على أن هناك إجحاف في حق الطبقات الأدنى، وهذا ما جعل الكثير من الطبقات في المجتمع الهندي تعتنق الديانة الإسلامية كما تشير إلى ذلك الكثير من المصادر إلا فيلسوفنا الكبير هيغل فقد تجاهل تماما هذه الحقيقة ثم يتعرض للحديث عن الطاعة العمياء التي يوليها الهنود من درجة دنيا اتجاه البراهما، وذلك بالرغم من هزالهم وجوعهم، فمن الواضح أنهم لا يترددون في تقديم أنفسهم كقرابين للفتنة الأعلى فالواحد من هؤلاء لا يتوانى في أن يعرض نفسه للهلاك من أجل إحترام ذوي المرتبات العليا، وهناك مسألة تكلم عنها هيغل ألا وهي: عادة إحراق الزوجات لأنفسهن، عقب وفات أزواجهن حيث لو أن امرأة واحدة خرجت عن هذه العادة المتوازنة لنبذها المجتمع وطردها بعيدا لتعيش في عزلة. لأن هذه العادة سادت في المجتمع الهندي قبل الإحتلال البريطاني وقبل أن يعتنق الهنود الإسلام وهي العادة تسمى باللغة السنسكريتية (سوتي) وتقضي بأن الزوجة المخلصة لأسرتها والحبة لزوجها يجب ألا تتوانى عن الإلقاء بنفسها في أحيج النار الملتهبة، تأكيدا منها على

<sup>28</sup>-هيغل : محاضرات فلسفة التاريخ، تعليق وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، ج2، ص 111.

الحب والإخلاص الذي كان يربطها بزوجها وقد ظلت هذه العادة قائمة حتى وقت الاحتلال حيث وضع الإنجليز لها حدا وذلك بعد عناء كبير وتحكى القصص أن النساء تنتحرن بعد وفاة أزواجهن بطرق مختلفة، فإذا لم يكن بالاحترق فبالغرق في نهر (الكنغ) هذا النهر المقدس الذي يعد الموت فيه عبور نحو الفردوس — حسب الاعتقاد الهندي<sup>29</sup>.

إن هيغل يقلل من شأن التدين بالنسبة للإنسان الهندي من منظور إفتقاده للأخلاق والحرية، لأن هيغل يصنع شرطا للدين والأخلاق واعتبار علاقتهما بالسلوك البشري يتطلبان وجود حرية الإرادة وهو ما يفتقده الهندي، لذلك ففيه يتجسد أكثر ألوان الإستبداد والفساد والإنحطاط.

في هذه المسألة يضيف بلاد فارس وتركيا وآسيا لمن تبقى آسيا على حد تعبيره<sup>30</sup> "هي مسرح للإستبداد والطغيان. بمعناه السيئ أي أنه غير معتاد على التنظيم السليم للأشياء ويستتجر الدين والوعي الأخلاق عند الأفراد"<sup>31</sup>.

---

<sup>29</sup>المصدر السابق، ص 113.

<sup>30</sup> - المصدر نفسه، ص 128.

<sup>31</sup> - المصدر نفسه، ص 128.

نلاحظ: أن هيغل يخلط بين ممارسات فئة البراهما ويعتمد إسقاطها على الإنسان الآسيوي بصفة عامة - مهما كانت ديانتته سواء أكانت هندوسية او بوذية أو إسلامية أو مسيحية. فإن هيغل يدرس فئة محدودة في المجتمع الهندي ثم يعمم أحكامه على الجميع.

ثم يضيف: وليس غريبا أن تسمع في هذه المجتمعات وتقريبا وحتى اليوم عن هذا النوع من الخطاب الذي يتردد في هذه المجتمعات: " ألا ما أتعس حظ المرأة"<sup>32</sup>

إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب كأنهم آلهة سقطت من السماء.

أما البنت فإن أحدا لا يسر بمولدها، ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئا ولا يبكيها أحد إذا فارقت الحياة، فالمجتمع الشرقي هو مجتمع الذكور لا الإناث، ولا يزال يحمل هذه السمة حتى الآن رغم حضارة القرن الواحد والعشرين وللعداء والأعراف التقليدية دور كبير في هذه التوجهات فالصينيون يتمنون أن يكون لهم أبناء ذكور لكي يشرفوهم في الجنازات ويحترمون ذكراهم بعد الموت ويزينون لهم قبورهم".

الغريب أنه حتى اليوم، رغم سن الحكومات الصينية لقانون يمنع الأسر من تجاوز طفلين فإن بعض الصينيين يلجئون إلى الإجهاض كلما كان المولود أنثى.

وفي الهند ألغيت الطريقة العلمية التي يفضلها. يمكن معرفة جنس الجنين بعد فترة لكثرة الإجهاض كلما عرفت الأم أن الجنين أنثى لذلك فقد أصدرت الحكومة الهندية قرار يمنع استخدام التصوير بجهاز الموجات فوق الصوتية (l'écographie) .

ج-رجال الدين: ويشبههم بالرهبان الكاثوليك المتسولين الذين يعيشون على الصدقات التي يقدمها لهم الآخرون، و يجعلون هدفهم في الحياة هو الوصول إلى درجة قصوى من التجرد من

ملذات الحياة الدنيا وبالتالي استشراف النقطة التي منها يتم الانتقال إلى الفناء الجسدي في أقرب وقت ممكن .

يلاحظ هيغل أن هذا السمو الذي لا يبلغه الكاثوليكي أو غير البراهمي إلا بشق الأنفس يتلقاه البراهمي بالمولد بالوراثة، ومن ثم وجب على الرجل الهندي الذي ينتمي إلى الطبقات الأخرى أن يحترم البراهمي وأن يجعله كإله، وأن يخز له راعا وهو يقول: " أنت الله".

إذن: البراهمي هو الإله الحاضر غير أن روحانيته لم تنعكس داخليا وتنحصر وظيفة البراهمي في قراءة الفيديا " le vedas " فهم وحدهم الذين يحق لهم قراءتها، أما بقية الطبقات وخاصة ( الشوذار) فلا يسمح لهم بقراءة الكتاب المقدس ومن ضبط يسمع للبراهمي وهو يقرأ " الفيديا " تكون عقوبته شديدة حيث يصب الزيت المغلي في أذنيه مثلما يعاقب الصينيون بالضرب على الأرجل " الفلقة "33.

وهذا النوع من العقاب حقيقة واقعة في المجتمعات الشرقية غير أن هيغل يركز عليها كثيرا وهو يتعرض للكثير من العادات التافهة ذات الصلة بالمعتقدات والتقاليد كأن يتميز البراهمي باللباس الأبيض وأن يمسك بيده عصا ويضع في أذنه قرطا ذهبيا، وأنه إذا التقى برجل من طائفة دنيا يعود أدراجه لكي لا يقترب منه فكأن ملاقاته لطائفة أدنى نجاسة كما يحرم عليه أن يخطو فوق حبل مربوط به عجل أو أن ينظر إلى زوجته وهي تأكل أو تعطس أو تتشاءب.

ثم يضيف هيغل إلى ما سبق بعض التوجيهات أي يجب على البراهميين مراعاتها عند القيام بتلبية الغرائز، ولا يجب عليهم ممارسة ذلك في الطريق العام، أو فوق رماد أو فوق أرض محروثة أو فوق جبل أو عش نمل أبيض أو فوق خشب مخصص للوقود أو على ضفة نهر أو فوق قبر إن ماشيا أو واقفا،... إلخ كما لا يجب عليهم أن ينظروا إلى الشمس أو إلى الماء أو إلى الحيوانات، فإذا

<sup>33</sup>-وهي نوع من العقوبة كانت تمارس في الجزائر، في الكتابات القرآنية كما مورس أثناء ثورة التحرير المباركة كنوع من

العقوبة تصدرها محاكم الثورة ويقوم الأعوان بتنفيذها



كانت ا أثناء الليل يجب أن يتوجهوا نحو الجنوب أما أثناء النهار فيتوجهون صوب الشمال أما إذا كانوا في الظل فلهم أن يلتفتوا إلى أية ناحية شاؤوا... إلخ<sup>34</sup>.

إلى آخره من التفاهات التي يركز عليها هيغل من أجل الحظ من شخصية الهندي وفي هذا السياق ينفي وجود الأخلاق والآداب والصدق والزعة الإنسانية في المجتمع الهندي حيث يقول: " ما هي الصفات التي يتميز الهندي عن غيره ". ويحيب "أن الخداع والمكر هما الخاصيتان الأساسيتان للرجل الهندي فالغش والسرقه والسلب والاعتيال هي بالنسبة للشخص الهندي أمور عادية مألوفة ، تكمن في عاداته ، فهو يحمي رأسه في مذلة ومهانة أمام المنتصر وأمام السيد ، وهو متوحش وقاس تماما لا يبالي بشيء إزاء المغلوب وإزاء من هو أدنى منة ، وصفة الإنسانية عند الرجل الهندي تتخلص في المحافظة على الحيوان لا سيما البقر والقردة والثعابين ويهمل المرض والعجزة بسبب الشيخوخة من الطبقات الدنيا رغم أنهم لا يدوسون النمل وهذا بالنسبة الحيوان ولكنهم لا يكثرثون تماما بالأرواح البشرية"<sup>35</sup> ( أي الشيوخ والمرضى).

وحسب التقارير التي اعتمد عليها هيغل وهي للمستعمر الإنجليزي فإن الهنود لا يعرفون شيئا سوى الأكل والنوم، فهم طماعون ومخادعون وشهوانيون ثم تنطرق هذه التقارير إلى ناحية أخرى وهي الخلية الأساسية في المجتمع الهندي ألا وهي الأسرة حيث يقول أحدهم: " إنني لم أجد بينهم رجلا شريفا فالأطفال عندهم لا يجترمون آباءهم ، والأبناء يسيئون معاملة أمهاتهم"<sup>36</sup>.

### ج - نقد وتقييم:

النصان السابقان يبينان أن الفيلسوف الألماني الكبير هيغل يسقط الأوصاف السيئة على الإنسان الشرقي بصفة عامة والهندي بصفة خاصة، ثم أنه في المجتمع الهندي نفسه لم يفرق بين الهندي البراهمي أو الهندوكي أو الذي تعتنق منهم دين الإسلام، حيث يضعهم في سلة واحدة غير مكترت بالتعاليم الدينية المختلفة لكل فئة منهم خاصة تلك التي تعتنق الديانة الإسلامية التي تقوم العلاقات الأسرية فيها على الإحترام ونبذ الغش، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم منفرا منه: " من غشنا فليس منا"<sup>37</sup> وما يقال عن الغش ينسحب عن السرقه والسلب والخداع التي

<sup>34</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 115.

<sup>35</sup> - المرجع نفسه، ص 124.

<sup>36</sup> - المرجع نفسه، ص 125.

<sup>37</sup> حديث شريف.

وضع لها الإسلام حدوداً رديعية - كما تقول الآية "ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب"<sup>38</sup> فكل المنكرات التي ركز عليها هيغل تحاربها الديانة الإسلامية ديانة الفطرة كما تشتمز منها النفس البشرية السوية. ثم أنه رغم الدين ورغم الأخلاق والعادات التي تنبذ تلك الصفات فإن ذلك لا يمنع أن تنتشر مثل تلك الآفات في مختلف المجتمعات فتزيد أو تنقص حسب طبيعة مسيبتها في المجتمع إلا أن المعروف لدى الإنسان الشرقي المتدين أنه ينبذ مثل هذه الأعمال ويسجنها وإذا كانت موجودة لدى البعض فإن هذا البعض يصبح شاذاً عن القاعدة الاجتماعية والشاذ كما هو معروف يحفظ ولا يقاس عليه.

أما تركيزه على عدم احترام أفراد الأسرة لبعضهم البعض وخاصة الأبناء لآبائهم وأمهاتهم فهذا تجني آخر على الأسرة الشرقية مثل ما فعل مع الأسرة الصينية التي يرى أنها تنبذ الإناث فهو يقول عن الأسرة الهندية بما ظلم هذا في تقديمها الأطفال الذكور كقرايين وإحراق الزوجة نفسها وهو تقليد قائم في الأسرة الشرقية القديمة يعثر عن الوفاء بالعهد، إضافة إلى أن الأسرة المسلمة تجعل من إحترام الأبناء لآبائهم ليس عملاً أخلاقياً فحسب بل عبادة، لأن "الجنة تحت أقدام الأمهات"<sup>39</sup> كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، أما عن قوله بأن الهنود يحترمون الحيوانات إلى حد التقديس (البقر) مهملين البشر المرضى والعجزة المسنين من الطبقات الدنيا فإن هذا أيضاً مردود على هيغل، لأن للأسرة الشرقية تقاليداً الخاصة في المحافظة على التماسك الاجتماعي، إذ غالباً ما يتزوج الذكور من الأبناء وهم تحت رعاية آبائهم حيث ينشأ الأحفاد تحت كفالة الأجداد، وتبقى الأسرة متماسكة رغم كثرة عدد أفرادها. علماً أن ظاهرة البيوت الخاصة بالعجزة والمسنين من إنتاج المجتمع الغربي الأناني الذي بدأت أسرته في التفكك غداة اتضاح معالم النظام الرأسمالي القائم على الفردانية بالإضافة إلى التطبيق الواسع العلمانية واستيعاد كل ماله عملة بالدين في الحياة العملية للإنسان الأوروبي وهو ما أثر سلباً على العلاقات الاجتماعية والأسرة على وجه الخصوص حيث يستغني الأبناء عن آبائهم في وقت مبكر وغالباً ما يهجر أحد الزوجين بيت

<sup>38</sup> سورة البقرة، الآية 197.

<sup>39</sup> حديث شريف.

الزوجية، وهو ما يؤثر سلبا على باقي أفراد الأسرة، الذين ينصرفون إلى تربية مختلف أنواع الحيوان (قطط، كلاب،...) وكل ذلك من أجل تعويض الحنان الناقص أو المفقود داخل خلية الأسرة، ولذلك ظهرت مؤسسات تهتم بشؤون هذه الحيوانات: (تغذية وعلاج،...).

علما أن الإنسان الغربي ينفق على تربية هذه الحيوانات أموالا طائلة، وهناك حتى من يورث هذه الحيوانات، وتعرض شاشات القنوات العالمية صوراً لمآسي الشعوب التي تحاول أن تقاوم الغزو الغربي فلا يكثر منهم أحد بل يموت الألاف من البشر في فلسطين، العراق، أفغانستان وقبل ذلك في كبودياو الفيتنام،... وغيرها في المناطق المحتلة التي تبطش بمواطنيها الخصومات نتيجة لأطماع الأنا الغربي التوسعية على حساب الآخر الضعيف،... كل ذلك يقع والأنا الغربي منشغل بطرق حلالة الكلاب وأنواع الأغذية والأدوية المنتجة حديثا والموجهة لهذه الحيوانات!.

أين سخرية هيغل من الهنود في تقديس الحيوان بينما الإنسان الغربي ينفق الأموال الطائلة على الحيوان ويمتنع على أن يفعل ذلك لأجل أولئك الذين يقتلهم الجوع والمرض والفقر في أنحاء مختلفة من العالم.

أين انتقادات هيغل للممارسات العدوانية للاعتداءات المنهجية للإنسان الغربي على الطبيعة حيث تسببت صناعاته الكيماوية في تلوث البيئة وثقب طبقة الأوزون وزيادة حرارة الأرض،... مع التهرب من تحمل المسؤولية أمام تنامي الأخطار الأيكولوجية التي أصبحت تهدد الإنسان نفسه بالإنذار؟ إن دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية تتهرب من دفع مستحقاتها للمنظمات العالمية ذات البرامج المدافعة عن البيئة وتبدد أموالا طائلة في الإنفاق على تطوير قدراتها العسكرية وإنتاج الأسلحة لتدمير الشعوب وانتهاك حرمة إنسانية الإنسان؟

إن ادعاء الأنا الغربي والأمريكي تحديدا من أنه مصدر الديمقراطية ومعلم حقوق الإنسان للشعوب، وهو الذي ترصد جرائمه وانتهاكاته في قنوات العالم المختلفة في العراق، وأفغانستان أين

هي قيم الديمقراطية والحريات والأخلاق (الروح) التي يرى هيغل أنها غادرت بلاد الشرق إلى الغرب الذي يتمتع بالوعي والحرية والعقل؟ في الوقت الذي اكتسحت محضوات الشرق المختلفة بلاد الآخر منذ عصر النهضة فهذا كتاب الفيدا يجلب مع الرحالة وهو مكتوب على سعف النخيل قبل إكتشاف الورق، يدرس ويترجم، وقد حققه أحد أصدقاء هيغل وهو (شليجل) المجلدين الأول والثاني<sup>40</sup> غير أن هيغل يرى بأن هذا الكتاب ليس له أهمية فهل يحق لهيغل نتيجة التمايز الطبقي والنظرة البراهمية أن ينفي عن الهندي بصفة عامة الفاعلية وحركية الروح ثم هل أن الإعتداء على الغير بالغزو والحروب يأخذه أساسا لقياس تطور الدول وتقدمها وحضارتها حيث ينفي عن الهندي حركية الروح لذلك السبب فيقول: "إنها الدولة الساكنة التي لم تقم بأي غزو"<sup>41</sup>.

محمل القول: أن هيغل أراد الحط من شأن شخصية الهندي لذلك يتهمك على معتقداته وينتقد سلوكاته متناسيا ما كان سائدا في عصر النهضة حول الشرق بصفة عامة والهند والصين بصفة أخص، حيث كان الإنسان الغربي يحلم بكنوز الهند. وسلع المتنوعة والمتقنة الصنع، فكان بلوغ الشرق الأقصى هو حلم الأوروبيين جميعا لهذا فإن هيغل عندما يتعرض للفن والعلم الهنديين فإنه يتصور أن إثارتهما من طرف الرحالة الغربيين شئ مبالغ فيه، ولا يعترف لهم سوى ببعض الكتب الدينية (كالفيدا) التي تشتمل على أقسام كثيرة، خاصة قسمها الرابع، وقد انتقلت بعض المخطوطات إلى أوروبا منسوخة على الورق قل أن يكتشف الأوروبيون الورق.

وقد حقق أحد أصدقاء هيغل وهو (شليجل) المجلدين (الأول والثاني) من أسفار الفيدا أي أن هذه المخطوطات نشرت وترجمت وأطلع عليها هيغل ورغم كل ذلك فإنه لم ينصفها انطلاقا من النظرة البراهمية للتمايز الطبقي، وحتى ينفي عن الهنود أية فاعلية حضارية فإنه يقول أيضا: " أن الحرية بوصفها حرية ذاتية - حرية المهراجا لا وجود لها لأن مبدأ الدولة هو مبدأ الحرية، ففي

<sup>40</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص101.

<sup>41</sup> - المصدر نفسه، ص101.

الشرق لا وجود لها لأنه لا يتمتع بها سوى شخص واحد وبما أنه غير محكوم بدستور فإنه سيصبح عبدا لتزواته وطموحاته الغريزية إلى أن تنتقي الحرية لديه " ومن ثم فإن الوجود السياسي الهندي يجعلنا نتأكد من وجود شعب فحسب بدون دولة وفي المقابل يعترف هيغل بوجود دولة قوية في الصين لكنها مستبدة إلى درجة أن كل شعب الصين يصبح أسرة واحدة ربها هو الإمبراطور، الذي يصنع ما يشاء.

نلاحظ أن هيغل ينفي وجود الحرية عند الإنسان الصيني، وفي الوقت نفسه يرفض مقولة أن الإنسان يولد حرا التي أكدها الخليفة عمر بن الخطاب: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " .

فهيغل يعتبر الحرية مكسبا اجتماعيا يسعى الإنسان إلى تحصيله تدريجيا، لأنه يعتبر الحالة الطبيعية التي يولد عليها الإنسان حالة همجية تسودها الأهواء ويغلب عليها الظلم والجور لذلك فإن الحد من التزوات الشخصية هو شرط لازم للتحرر وعليه فإن هيغل يعتبر المجتمع والدولة مؤسستهما الدستورية هما الشرطان الأساسيان لتحقيق الحرية من خلال ممارسة القانون والأخلاق، علما أن تحقق الحرية هو في النهاية غاية الروح وذروتها بتحقيق ذاتها ووعيها، لكن هيغل عندما يتعرض للصين يدرج كتاب (شركينج) وهو عبارة عن مجموعة قوانين تنظم العلاقة بين الإمبراطور وشعبه، ولكنه عندما يتعرض للروح يعتبر الشعب الصيني بعيدا كل البعد عن الأخلاق وعن الجانب الباطني للدين والعلم والفن، وهذا الشعب - حسبه - ولد لكي يجر عربة الإمبراطور ولا شخصية له ولا حرية، ثم عندما يتكلم عن العلاقة بين الأنا الأوربي وبين الآخر الشرقي فإنه يذكرنا دائما بجدلية السيد والعبد وكأنه يريد القول للصينيين: إذا أردتم أن تتذوقوا معنى الحرية يجب عليكم أن تخضعوا للغرب المتحضر لأن الدخول في حلبة الصراع لا يعني أن يقتل الغربي المتحضر الشرقي المتخلف والفاقد للحرية، بل عليه أن يلغيه جدليا<sup>42</sup>. يعني عليه أن يترك له حياته

<sup>42</sup> - Alexandre Kogève : Introduction à la lecture de Hegel, en guise d'introduction, ed, tel, gallir mard.

ووعيه ولا يدمر سوى استقلاليته وعليه ألا يلغيه إلا كمعارض وفاعل ضده وبكلام أدق عليه أن يستبعده وما ينبغي لهذا الوعي الذاتي أن يرقى إلى مرتبة وعي لوضعية الصراع كما هو واضح عند هيغل، وإنما هو نوع من الموت مع البقاء على قيد الحياة وهو أقرب إلى العبودية منه إلى نظام (الفن) الذي عاصره هيغل باعتباره تجربة أوربية.

كما سبق وأن ذكرنا فإن العلاقة بين الأنا الغربي والإمبراطوريات الشرقية الآسيوية فإن هيغل يتكلم عن قضية " القدر المحتوم " لهذه الإمبراطوريات في أن تخضع للأوربيين وسوف تضطر الصين في يوم من الأيام أن تستسلم لهذا المصير<sup>43</sup>.

بهذه الكيفية يعبر هيغل عن الأنا الغربي المتعالي الذي عليه واجب تحضير الآخر الشرقي الذي يزرع تحت نير عبودية الأباطرة والملوك والأكاسرة، ففكرة القدر المحتوم التي تفرض على الإمبراطوريات الآسيوية أن تخضع بتلقائية إلى الغزو الأوربي بحجة أنها منخورة من الداخل بفقدانها لأهم عناصر التطور والتحضر ألا وهو (الحرية) كما تنبأ للصين على وجه الخصوص بأنها سوف تضطر في المستقبل لأن تستسلم لهذا المصير.

الحقيقة أن التاريخ المعاصر قد كذب تكهنات هيغل، ولم تخضع الصين كلية للاستعمار الغربي بل خضعت بعض أجزائها إلى ما سمي بالشركات التجارية الغربية الأصل والشرقية التسمية، فقد خضعت لشركة الهند الشرقية، وتصرف الأوربيون في بعض ثرواتها لوقت قصير ولكن سرعان ما استيقظ العملاق النائم (الصين) وأصبح يهدد الغرب بصفة عامة والولايات المتحدة على الخصوص حيث تخلت هذه الأخيرة عن جيروتها وتكبرها وذهبت تطرق أبواب الصين من أجل التفاهم حول نقاط الصراع المتمثلة في فيتنام وكوريا الشمالية التي أصبحت تخيف الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام إضافة إلى الإنتاج الاقتصادي الصيني في مختلف المجالات والذي غزى الغرب وأصبح يهدده في عقر داره، ثم هناك حجة أخرى وهي التكنولوجيا الغربية التي استوعبتها

اليابان ثم عادت وكيفتها مع حضارتها القديمة وبهذه الكيفية أصبحت تنافس التكنولوجيا الغربية وقد اعترف الغرب عموما والولايات المتحدة خصوصا بالتفوق الياباني أضاف إلى ذلك أن الدول الإسلامية الآسيوية: كمالييزيا وأندونيسيا، هي الأخرى قد استوعبت التكنولوجيا الحديثة، كما أن السلاح النووي قد استوعبته كل من باكستان والهند.

إضافة إلى حديث الساعة المتمثل في وقوف الغرب في طريق امتلاك جمهورية إيران الإسلامية للتكنولوجيا النووية ذات الاستخدامات السلمية: في الزراعة، الصناعة، الصحة، وهو حق تعترف به كل المنظمات الدولية والذي كان من المفروض أن تحت الدول السائرة في طريق النمو على امتلاكه.

إذن: كل هذا دليل قوي وحاسم على قدرة الإمبراطوريات الآسيوية والتي تحولت إلى جمهوريات ديمقراطية في مختلف مجالات الحياة.

#### أ - هيغل والديانة في الهند:

يتعرض هيغل لدراسة الدين في الهند فيقول: " علينا أن نتناول أولا وضع هذه الطوائف، فإذا سألنا عن أصل نشأتها فيجب أن نذكر كيف تحكي الأسطورة ذلك، تقول هذه الأسطورة إن طائفة البراهمة خرجت من فم براهما كما خرجت طبقة المقاتلين من ذراعيه، أما أصحاب الحرف فقد انحدرت من حقويه (أو خاصرته) والطائفة الخادمة من قدميه، ولقد افترض بعض المؤرخين أن طبقة البراهمة تشكل في الأصل شعبا من الكهنة، وأن اختلاق هذه القصة مصدره، بصفة خاصة البراهمة أنفسهم، والواقع أن القول بوجود شعب من الكهنة ليس سوى خرافة كبرى لأننا نعلم أوليا وقبليا أن التفرقة بين الطبقات لا توجد إلا داخل شعب ما، ولا بد أن توجد في كل أمة أعمال الحياة المختلفة، فهي نفسها تعبر عن تموضع للروح ولا بد أن تفترض إحدى الطبقات طبقة أخرى بالضرورة... فلا يمكن لأمة من الكهنة أن توجد بدون الزراع والجنود، ولا يمكن للطبقات

أن تتواجد من الخارج لكنها تتفرع من الداخل فحسب، أعني أنها تظهر من الحياة الداخلية للأمم لا العكس<sup>44</sup>.

نلاحظ إذن: كيف يتعرض هيغل لوضعية الدين في الهند بكثير من السخرية، حيث يرى أن انقسام الهند إلى طوائف دينية ليس سوى نتيجة للأسطورة التي افتعلها (البراهمة) حتى يكونوا سادة على باقي الطبقات، كما يذهب إلى التأكيد أن التفرقة بين الطبقات لا توجد إلا داخل شعب ما، وأنه لا يمكن للطبقات أن تتواجد من الخارج ولكنها - حسب - تتفرع من الداخل فقط، في حين أنه في حالة الاستعمار يمكن للطبقات أن تتواجد من الخارج في الوقت الذي يكون أفراد الشعب سواسية كأसन المشط، وهو الأمر الذي حدث مع الجزائر أثناء الغزو الفرنسي، فبعدها كانت الأمة تجتمع على ملة واحدة هي الإسلام دخلت فرنسا بأفكارها وخططها لتفريق الشعب وخلق التنافر بين أفرادها، من خلال (فرق تسد) وكذلك عملت على تنصير منطقة القبائل... .

إذن يخطئ هيغل بالنسبة إلى هذه النقطة كما تطغى ذاتيته المتعالية حين يقرر أن الدين البراهمي مجرد خرافة وأسطورة ويخطئ أكثر حين لا يتعرض للمسلمين هناك ويكتفي بباقي الطوائف، يستطرد هيغل حديثه عن الديانة في الهند فيقول: "... أما في الهند فإن الطبيعة هي هذه القوة الحاكمة، لكن هذا التجديد الطبيعي لا يستدعي الوصول إلى تلك الدرجة من الانحطاط التي نلاحظها هنا لو كانت التمييزات قاصرة في تحديدها على العمل في جانبه الدنيوي، وعلى تشكيل الروح الموضوعية، وكذلك كان الأفراد في النظام الإقطاعي في العصور الوسطى مرتبطين بطبقة معينة، لكن كان هناك فوق ذلك شيء أعلى بالنسبة للجميع، وكان للجميع الحرية في الانتقال إلى الطبقة الروحية، فالفارق الأعظم هو أن الدين هنا يتخذ موقفا واحدا بالنسبة لكل الناس، فعلى الرغم من أن ابن الصانع اليدوي ينشأ صناعا يدويا، وابن الفلاح ينشأ فلاحا، والاختيار الحر تقيده في الأعم الأغلب، بعض الظروف القاهرة، فإن العنصر الديني يقف على علاقة واحدة مع الجميع،



ويضفي الدين على كل الناس قيمة مطلقة أما في الهند فالوضع على العكس من ذلك تماما، وهناك فارق آخر بين طبقات المجتمع على نحو ما توجد في العالم المسيحي، وطوائف المجتمع الهندي، وهو الكرامة الأخلاقية الموجودة في كل طبقة عندنا، والتي تمثل ما ينبغي أن يمتلكه الإنسان في داخله وبنفسه هو، ومن هذه الزاوية فإن الطبقات العليا تتساوى مع الطبقات الدنيا، وعلى حين أن الدين هو المجال الأعلى الذي يستمتع فيه الكل بضوء الشمس، فإن المساواة أمام القانون والحقوق الشخصية والملكية مكفولة لكل طبقة، لكن نظرا لأن الهند، كما لاحظنا، تعتد فيها الفروق لا لتشمل موضع الروح فحسب بل كذلك ذاتيتها المطلقة، فقد أدى ذلك إلى أن تشمل جميع علاقاتها فلا وجود للأخلاق أو العدالة أو التدين<sup>45</sup>.

إن المتمعن في كلام هيغل عن الدين في الهند يلاحظ أنه يقيم مقارنة بين المجتمع الهندي الحديث والمجتمع الأوروبي الإقطاعي في العصور الوسطى، حيث يرى أن التقسيم الطبقي في الأول ذا أساس ديني بينما في الثاني أنه كان قائما على أساس اقتصادي تتحكم فيه الحرف الموروثة للأبناء عن آبائهم داخل الطبقات، حيث يرى أنه على الرغم من تلك الطبقية والفروقات الاقتصادية إلا أن جميع الطبقات كانت تشترك وتتحد في الدين الذي كان له نفس الموقف إزاء الجميع بدون تفریق.

إن المتمعن في كلام هيغل يلاحظ أنه وقع في لبس ومغالطات منطقية، فهيجل حينما يحدثنا عن الدين يتحدث عن نظرة وعلاقة مختلف الطوائف في الهند فيما بينها وينعت تلك العلاقات بمجموعة من الأوصاف الشخصية المشينة، وحينما يقارنها بالديانة في أوروبا فإنه يقارن تلك العلاقة للطوائف المختلفة بأفراد الديانة الواحدة في أوروبا وهي المسيحية، وكان الصحيح أن يقارن تلك العلاقة لمختلف الطوائف في الهند بعلاقة المسيحيين بغيرهم من الأقليات في أوروبا مثل اليهود والمسلمين... .

يكفي شاهذا للحكم على صدق هيغل - فيما ذهب إليه - أو تكذيبه ما حدث للأقليات المسلمة في إسبانيا وإيطاليا،... والحروب الصليبية خير شاهد، بالإضافة إلى ما لاقاه اليهود في ألمانيا النازية أيام هتلر.

ثم أن منع فرنسا المسلمات المتحجبات من التمدرس بالزي الإسلامي إلى جانب التلاميذ من المسيحيين أكبر دليل، أضف إلى ذلك سخرية بعض وسائل الإعلام الغربية من رموز الدين الإسلامي،... أم أن كل ذلك هو تعبير عن العدالة والنظرة المطلقة تجاه الجميع! ثم أن هيغل في أحكامه بانتفاء الكرامة والأخلاق والتدين عند الإنسان الهندي حكم مبالغ فيه بالقدر الذي بالغ فيه في تغنيه بسيادة العدالة والأخلاق والكرامة والحرية... في أوروبا، ومن جهة نظرنا أن ما رآه هيغل بالنسبة للديانة في الهند هو نفسه ما يمكننا أن نصف به الديانة المسيحية - التي رغم أن هيغل بنفسه - قد تعرض لها بالكثير من الانتقادات إلا أنه تجاه الآخر يلغي كل سلبياتها ولا يظهر منها سوى الإيجابيات، في حين لا يرى في الآخر ومقوماته سوى السلبيات وذلك من خلال حومه بالقشور دون اللب.

ثالثاً - نقد موقف هيغل من الشرق بموقف البيروني من الهند:

يؤمن المؤرخ المسلم بحقائق ثابتة نابعة من صميم عقيدته وأهمها:

- الوجود الإنساني بصفة عامة على أنه خلافة الله على وجه الأرض.

- كل أوجه العمران البشري تعبر عن محاولات الإنسان لحمل الأمانة التي كلفه بها بمقتضى التكريم.

وانطلاقاً من هذه الخلفية يؤسس المفكر المسلم للنظرية التاريخية على وحدة الأصول الإنسانية والرؤية التاريخية عموماً كأساس ثابت، حيث يرى بأن التنوع والاختلاف بين شعوب الأرض ما هم إلا تعدد ظاهري وإثراء وكثرة للوحدة الأولى (نواة آدم وحواء).

انطلاقاً من هذه القاعدة تختفي النزعة العدائية والنظرة الاستعلائية للمسلم تجاه الآخر ويبرز ذلك بكل وضوح من خلال الكلمات والعبارات المعتمدة في الدراسات التاريخية للمؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن الأقوام الأخرى وكانت كتاباتهم أصدق أنباء من تلك التي تضمنتها كتب وضعها أبناء جلدتهم لما اتصفت به من صفاء البصيرة ونقاء السريرة والموضوعية العلمية التي لا تشوبها شائبة.

ومن بين هؤلاء البيروني الذي يقول عنه الأستاذ أحمد أمين: " له نظرات في التاريخ دقيقة تفوق نظرة ابن خلدون في مقدمته "، فهو يرى أن أخبار المتقدمين قد دخلها من العبث والفساد ما يمنع الأخذ بها، وكل ما يروى يجب أن يعرض على محك العقل، فما قبله قبل، وما رفضه رفض، ومع ذلك إذا رويت أشياء ترفضها العادات، ولكن يقبلها العقل، فلا بأس باعتمادها.

ويرى أن الطبيعة تجري على سنن واحدة، وقانون لا يتحول فإذا روى الإسراييليون أن بعض البحور يغور يوم السبت ولا يجري فيه الماء، رفض هذا القول، رفض لأنه ضد قوانين الطبيعة<sup>46</sup>.

أما من ناحية شرحه للمذاهب وتحريره الدقة في عرض الآراء، فقد بلغ من ذلك حداً تطمئن إليه النفس ويغتنب به كل منصف حيث قارنه المستشرق (سخاو) الذي له الفضل الأول في نشر كتاب: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة. ببعض ممن كتبوا عن الهند فقال: "

<sup>46</sup> - البيروني: الفلسفة الهندية، بمراجعة د. عبد الحليم محمود وعثمان عبد المنعم يوسف، منشورات المكتبة المصرية، ص 10.

لقد تناول موضوعه بعقل دربته عليه الدراسات الرياضية والفلسفية: دراسات أرسطو، وأفلاطون وبطلموس وجالينوس".

وكان يفحص كل موضوع بالروح النقدية للعصر الحاضر وبطريقة نال بها إعجاب العلماء المحدثين.

لم يكن فريسة للخرافات، ولقد تفانى في الموضوع الذي يدرسه كل التفاني، ولم يترك جهداً ولا وقتاً إلا بذله في سبيل دراسته وتحقيق القضايا التي كان بصددتها.

ولم يمنعه إسلامه من تقدير الفلاسفة البوذيين واستحسان الكثير من نظرياتهم ...

والبيروني قبل كل شيء يحب الحق، وهو خصم عنيد للكذب وعدم الأمانة، ولم يقحم شخصيته قط في أبحاثه العلمية، بيد أنه لا يتأخر عن الهجوم والعنف، إذا ما رأى الحق في خطر!<sup>47</sup>.

... ولعل أعظم ما يتميز به البيروني، إنما هو روحه العلمية، وإخلاصه للحقيقة، ودعوته إلى إدراك وحدة الأصول الإنسانية والعلمية بين الشعوب في عالم واحد<sup>48</sup>.

يتعرض البيروني لدراسة تاريخ مجتمع وثني دون أن يتعمد إلى الهجوم والتفنيد، فيمضي في وصفه لحضارة الهند وثقافتها، وأسسها العقائدية والعلمية، ومبادئها الفلسفية... كل ذلك من خلال أسس علمية تعمق مفهوم التاريخ الحضاري، وهو ما يجعل أحد المستشرقين يقر بأن جميع ما كتب - قبل البيروني - عن الهند يعد عبثاً أطفالاً إذا ما قورن بتحقيقات هذا المؤرخ العلمية<sup>49</sup>.

ارتكزت الموضوعية العلمية كمنهج تاريخي لدى البيروني بالأخذ بالرواية عما شاهده هو بنفسه أو عما سمعه بأذنه ليزن كل ذلك بميزان عقله من خلال المقارنة بين ما رأى وما سمع وبين

<sup>47</sup> - المرجع السابق، ص 11.

<sup>48</sup> - د. عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص 363.

<sup>49</sup> - المرجع نفسه، ص 363.

ما سبق له واطلع عليه من ألوان الثقافات بدون تعصب يذكر أو تسرع في إطلاق الأحكام التقويمية حيث يقول: " فليس الكتاب حجاجا وجدلا، حتى اشتغل فيه بإبراز حجج الخصوم، ومكاشفة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله، لتتم المقارنة بينهم ... "50.

يتضح من خلال استخدام البيروني لكلمة (حكاية) أنه يقصد بها نقل الأخبار وتقريرها بدون زيادة أو نقصان ولا أحكام عليها بالصحة أو بالبطلان مثلما يفعل عندما يتحدث عن الديانة عند الهنود فيقول: " أنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلية، لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا، وعلى قلة تنازعهم في أمر المذاهب بينهم سوى الجدل والكلام دون الإضرار بالنفس أو البدن أو الخال، ليسوا مع عداهم بهذه الوتيرة، وإنما يسمونه (مليح)، وهو القدر، لا يستجيزون مخالطة في مناكحة ومقاربة، أو مؤاكلة ومجالسة ومشاركة، من جهة النجاسة... وليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم إذا رغب فيهم أو صبا إلى دينهم وهذا مما يفسخ كل وصلة، ويوجب أشد قطيعة "51.

إن المتفحص لما يخبرنا به البيروني عن الهند من أحوال ديانتهم يقف على النقاط التالية:

يقارن بين ديانة الهند وديانة المسلمين يخرج بنتيجة وهي: الاختلاف الكلي بين الديانتين في قواعد الإيمان وأركان التسليم ويردف أن الاختلاف ليس بينهم وبين المسلمين، بل أنهم مقسمين إلى فرق ومذاهب تتجادل فيما بينها دون أن يحتد الجدل إلى درجة العنف وإحداث الأضرار.

غير أن التعصب للدين يصل إلى درجة أن كل ذا صاحب ملة يرى في الإنسان من غير ملته بأنه ناجس وقذر (مليح) ولذلك لا يقيم معه أية علاقات اجتماعية أو أية روابط ودية، فلا

<sup>50</sup> - المرجع السابق، ص 362.

<sup>51</sup> - البيروني: ما للهند من مقولة، ص ص 20-21.

تزاوج بين أطراف من ملل مختلفة ولا مخالطة ولا تقارب،... كل ما يميز علاقتهم هو الازدراء والتنافر والترفع،... وهم لكثرة تعصبهم للملهم لا سبيل إلى إقناعهم بعكس ما درجوا عليه!

ويسترسل البيروني متعجبا: " أن الفرقة المعروفة بـ(الشمسية) على شدة البغضاء منهم للبراهمة، هم أقرب إلى الهند من غيرهم، وقد كانت (خراسان) و(فارس) و(العراق) و(الموصل) إلى حدود الشام، في القدم على دينهم، إلى أن نجم (زرادشت) من أذربيجان، ودعا بـ(بلخ) إلى المجوسية... "52.

من المؤكد أن تحقيق الموضوعية التامة عند المؤرخين على غرار ما هو شائع عند العلماء في مباحث العلوم، أمر بعيد المنال لاستحالة الحيادية المطلقة في ميدان البحث التاريخي، وكون المؤرخ يفهم ويفسر تلك القضايا التي يتعرض لها من خلال خبراته وتجاربه ومطالعته التي تشكل وتبلور ملكة الفهم لديه وهو ما وقع مع البيروني الذي لم يزد على أنه قارن بين ما يسلم به المسلم في إيمانه وبين الهندي ثم بين الهنود واليونانيين الذي اطلع على ديانتهم ودرس ثقافتهم لكن تلك المقارنة لم تتعد حد تقرير الموجود دون أن يعقبها بأحكامه المعيارية سواء على الدين أو على الإنسان الهندي كما فعل هيغل مع الصينيين والهنود والزنوج.

أما فيما يخص العادات والتقاليد فيقول: " أنهم يباينوننا في الرسوم والعادات، حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزينا، وينسبوننا إلى الشيطنة، وإياه إلى عكس الواجب... .

أما في طباعهم فقال: " والحق داء لا دواء له، وذلك أنهم يعتقدون في الأرض أنها أرضهم، وفي الناس أنهم جنسهم، وفي الملوك أنهم رؤسائهم، وفي الدين أنه نحلتهم، وفي العلم أنه ما معهم، فيتفردون وينظرون، ويعجبون بأنفسهم فيجهلون، وفي طباعهم الظن بما يعرفونه، والإفراط في الصيانة له عم غير أهله منهم، فكيف عن غيرهم؟ على أنهم لا يظنون أن في الأرض غير بلادهم،

وفي الناس غير أنهم سكانها، وأن للخلق غيرهم علما، حتى إنهم إن حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس، استجهلوا المخبر ولم يصدقوه، للآفة المذكورة، ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم... وكانوا يعترفون لليونانيين بأن ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم منه، ويكفيك دليلا عليه من مادح نفسه، وهو يقرئك السلام: إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم، وقصوري عما هم فيه من مواضعهم، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين...<sup>53</sup> ويمضي معلقا فيقول: " وأقول، إن اليونانيين أيام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصهم في النظر قريب من خاصتهم، وعامهم في عبادة الأصنام كعامهم، ولهذا استشهد من كلام بعضهم على بعض بسبب الاتفاق وتقارب الأمرين، لا التصحيح، فإن ماعدا الحق زائغ، والكفر ملة واحدة، من أجل الانحراف عنه... .

ولكن اليونانيين فازوا بالفلاسفة الذين كانوا في ناحيتهم، حتى نقحوا لهم الأصول الخاصة دون العامة، لأن قصارى الخواص اتباع البحث والنظر وقصارى العوام التهور واللجاج، إذا خلوا عن الخوف والرهبة، يدل على ذلك سقراط، لما خالف في عبادة الأوثان عامة قومه وانحرف عن تسمية الكواكب آلهة في لفظه، كيف أطبق قضاة أثينا الأحد عشر بالفتيا بقتله دون الثاني عشر، حتى قضى نحيبه غير راجع عن الحق<sup>54</sup>.

يسلك البيروني نفس المنهج الذي يسلكه في حديثه عن الديانة في الهند وهو يتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم فيقارن بين عاداتهم وعادات المسلمين، ثم ديانتهم وعاداتهم بديانة وعادات اليونانيين ويخلص إلى الاختلاف التام بين عادات الهنود وعادات المسلمين والتشابه الذي كان قائما بين الهند واليونان في الفترة (الوثنية) السابقة على اعتناق اليونانيين للنصرانية، سواء بالصفوة

<sup>53</sup> - المرجع السابق، ص 23.

<sup>54</sup> - المرجع نفسه، ص 24.

والمفكرين أو بالعامية، أما بعد انتشار المسيحية فإن الأمر وإن اختلف يبقى الكفر هو الجامع بينهما لا بتعادهما عن التوحيد.

من الواضح أن البيروني يستمر في استخدام منهج المقارنة وينتهي من خلاله إلى تقرير أن ديانة كل من الهنود واليونان هي ديانة بعيدة عن الحق وخلص إلى ذلك من خلال مقارنة كلتا الديانتين بالإسلام ومن المؤكد أن المادة التاريخية التي يعالجها البيروني شديدة الارتباط بالقيم وهي هنا (الدين) الذي ينعت بأنه حق أو باطل، بمعنى أن هذا الموضوع لا يمكن أن يخلو من عنصر القيمة سلبا أو إيجابا وبالتالي لا يمكن وصفها بلغة موضوعية خالصة ومجردة تماما وحسب البيروني هنا أنه لم يبد نفوره الشخصي من أي فئة، ثم أن هذا الحكم الذي أصدره البيروني وهو الكفر والزيف عن الحق، لا يتعارض مع الواقع ولا يمكن أن يؤثر على الموضوعية العلمية أكثر من كون ذلك صبغة ووجهة نظر يمكن أن تصدر من أي إنسان مسلم لإظهار مواقفه من الديانات الأخرى وهي نظرة لا سبيل للتخلص منها لشدة ارتباطها بعقلية المؤرخ كونها تحدد انتماء الجماعي وبالتالي نرى مع طه حسين: " من أنه لو استطاع القدماء أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم، وأن يتناولوا العلم على نحو ما تناوله المحدثون لا يتأثرون في ذلك بقوميته ولا عصبته ولا بما يتصل بهذا كله من الأهواء لتركوا لنا أدب غير الأدب الذي نجده بين أيدينا، ولأراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن، ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها"<sup>55</sup>.

وكما قال البيروني عن نفسه: " أنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاك غير منتقد، إلا عن ضرورة ظاهرة ... "

ترى لو حاولنا قياس موضوعية هذا المؤرخ بموضوعية هيغل في دراستهما لنفس النقطة ونفس المبحث وهو (وضعية الديانة في الهند) أي الكفتين سترجح وأي الآراء أكثر تعبيرا عن الحقيقة أو بعدا عنها؟



وكمحاولة بسيطة لقياس وعي هيغل وحرية الفكرية، وهو الذي وضعنا نحن المسلمين وغير المسلمين أو غيرهم من الشرقيين في بوثة واحدة، كما وضع المسيحيين من الهنود في نفس الحانة مع غيرهم من غير المسيحيين؟

# الفصل الثامن

الشرق الأوسط و الأدنى أو إفريقيا الأوربية

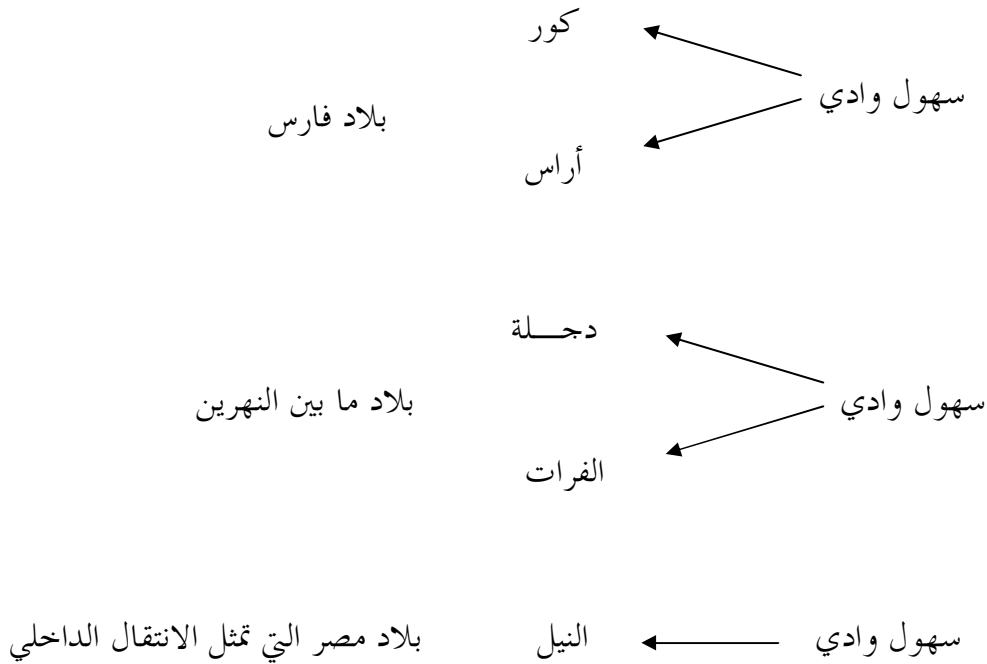
بخلاف الشرق الأقصى الذي يصنفه هيغل ضمن المبدأ الجوهري كما هو الشأن بالنسبة للصين أو العالم الساكن والذي يتمثل في شبه القارة الهندية، فإن هيغل يضيف موقفا خاصا ومتميزا على باقي منطقة الشرق الأوسط حيث يتبدأ ببلاد فارس التي شبهها بالشمس المشرقة على الجميع ملحقا ببلاد ما بين النهرين والشام بالفرس أي أنه اعتبر الهلال الخصيب امتدادا لبلاد فارس معتبرا المنطقة كلها ذات صلة مستمرة بأوربا أي الشام وآسيا الصغرى بما في ذلك تركيا التي ترتبط بالبحر الأبيض المتوسط ففي هذه المنطقة أيضا عل غرار المناطق المرتفعة يقوم السكان بوظيفة الرعي أما وظيفتي الزراعة والصناعة فإنهما تخصان سكان السهول الوديانية إلا أن هناك عاملا مهما جدا يتمثل في الربط بين الوظيفتين وهو الشق الثالث والأخير حيث يقوم سكان المناطق الساحلية بوظيفتي الملاحة والتجارة وهذا منذ الفينيقيين الذين وصلوا إلى إسبانيا والبرتغال أي إلى المحيط الأطلسي شمالا وإلى جنوب البحر الأبيض المتوسط علما أن سكان هذه المناطق يمتازون عن غيرهم بالتمتع بقدر من الحرية الاجتماعية، أما في تربية الماشية فإنهم يهتمون بتربية الأبقار والثيران بالإضافة إلى الخيول والأغنام والجمال وعلى خلاف الإمبراطوريتين السابقتين الهند والصين فإن بلاد فارس بما فيها الهلال الخصيب قد قامت بدور مهم وهو الانتقال الداخلي نحو أوربا.

نلاحظ أن هيغل يعتبر انتهاء الحضارة الفارسية بهذا الشكل انتقالا داخليا نحو أوربا دون أن يشير إلى دور الإسلام في تطهير هذه المنطقة من عبدة النار والأوثان علما أنه استثنى الجزيرة العربية باعتبارها أرض السهول المرتفعة التي تشكل إمبراطورية التعصب<sup>1</sup> حسب زعمه إضافة إلى أنه لم يتطرق إلى دور الإسلام ورغم تمجيده للتجارة التي تعتمد على الملاحة البحرية فإنه لم يتطرق إلى التجارة البرية التي كان يقوم بها عرب الجزيرة العربية بين جنوبها الغربي بأنواع المزروعات المختلفة والمزدهر بحضاراته القديمة كحضارة سبأ التي كانت على رأس حكومتها امرأة وهي بلقيس

<sup>1</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 184.

المشهوره، والتي أهملها هيغل تماما ولم يتطرق إليها، ناهيك عن الشمال سواء شمال الجزيرة العربية التي عرفت حضارات مزدهرة أو بلاد الشام التي تصلها قوافل التجارة كما سيأتي ذكره لاحقا.

عندما يتطرق هيغل إلى السهول الوديانية الخاصة بشمال الشرق الوسط وشمال إفريقيا فإنه يركز فقط على بعض الوديان النهرية التي يمتد مجراها بطول الجبال الفارسية تلك الوديان التي شكلها في الشرق نهر " أو كيس " " Oxus " و " ياكسارتس " " Yaxartes " وفي الغرب نجد الوديان التي شكلها نهر " قورش " " Cyric " و " أراكس " " Araxes " و " كور وأراس " ( Kor et Aras ) وماعدا نهر دجلة والفرات فإنه تجاهل السهول الخصبة الممتدة في بلاد الشام وحتى شمال إفريقيا التي تتمتع بأخصب الأراضي المعروفة عالميا. كما سيأتي ذكره وفي ما يلي رسم توضيحي لسهول أنهار الشرق الأوسط.



يرى هيغل الصين والهند تقعان في آسيا البعيدة لبعدها عن الأنا الأوربي، بينما يصف بلاد فارس والهلل الخصب وتركيا بآسيا القريبة، لقربها من أوربا معتبرا شعوب هذه المنطقة - التي تنتمي إلى الجنس الفارسي - ذات صلة بالغرب مقارنة بشعوب آسيا المنغلقة، ذات الجنس المغولي البعيدة عن أوربا في سماتها وأخلاقها ودينها، يذهب إلى نعتها بالدونية والعبودية والتخلف وعلى النقيض من ذلك يرى بأن شعوب بلاد فارس لا يشعر الأوربي بالغرابة إذا ما حل بها حيث يلتقي بأمرجة أوربية وفضائل وعواطف إنسانية.

يرى هيغل أن الإمبراطورية الفارسية هي أول إمبراطورية زالت بعد أن خضعت لثورات وتطورات تاريخية مستمرة، بمعنى أن بلاد فارس ذات صلة وثيقة بالتاريخ (ففي هذه البلاد يظهر لأول مرة ذلك النور الذي يشرق لذاته ويضيء ما حوله لأن نور زرادوشت ينتمي إلى عالم الوعي - إلى الروح كعلاقة متميزة)<sup>3</sup>.

نشير إلى أن هيغل يدرج تحت لواء إمبراطورية الفرس: أفغانستان الحالية وإيران والعراق وبلاد الشام وحتى مصر وفي ذلك خلط رغم التمايز الواضح لحضارات هذه المنطقة وتطور بعضها على بعض درجات وبلوغ بعضها مرحلة متقدمة من التطور والوصول إلى صياغة دستور يكفل حقوق وواجبات المواطن كما يضمن الحد الأدنى لحقوق المرأة كما هو الشأن في بلاد ما بين النهرين، حيث المشرع والحاكم جمهورابي الذي أسس أول دستور تشريعي ديمقراطي عرفه العالم، وقد وردت أول مادة في الدستور بالصيغة التالية: " إذا وجه إنسان اتهاما إلى شخص آخر وكان الاتهام فيه احتمال وجود خيانة لكنه عجز على إقامة الدليل على ذلك، فلا بد من إعدام الشخص الذي وجه الاتهام"<sup>4</sup>.

<sup>3</sup> - المصدر السابق، ص 145.

<sup>4</sup> - أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ص 95.

إن هذه المادة الصارمة من دستور جمهوري تهدف إلى وضع حد للتهم الباطلة بمقدار ما تحاول أن تكفل العدالة للجميع، كما تحاول أن تحمي المحصنات من النساء والشرفاء من الرجال من اتهامهم بالباطل وفي الوقت ذاته تقضي على التطاول على أعراض وحقوق الغير وتحاول وضع حد للإفراط في المقاضاة وما يخلفه ذلك من ضغائن بين المتنازعين وعدم استقرار المجتمع وهو ما كان شائعا في المدن اليونانية من كثرة تليفيق التهم، ثم القانون الثأري الروماني، غير أن المفارقة تكمن في أن الخلل كان موجودا في الحياة الاجتماعية لدى الجهات التي يعتز بها هيغل ويعتبرها من اللبنة الأساسية للأنا الأوربي المتعالي في مقابل الآخر الشرقي الدوني المختلف، متجاهلا ما بلغته الحضارة الفرعونية من تقدم في مجال العمران (الأهرامات) وفي المجال الديني (أساليب التحنيط)، ورغم ذلك فإن هيغل يغلب على هذه الحضارة حضارة الفرس إلى جانب تجاوزه وإهماله الحديث عن دور الإسلام في تغيير عقليات الناس وتهذيبها بعدما انتشر في هذه البلاد مثل مصر وإيران وفي غيرها من المناطق، يتجاوز هيغل كل ذلك الرقي الحضاري والزخم الفكري الإنساني العميق ويعود إلى الفترة التي كانت فيه منطقة فارس تعبد النار، فيتحدث عن النور باعتباره جوهرًا يضيء الوجود وينعكس على الأفراد فيصبحون أقوياء، وهو يعتبر النار ونور الشمس شيء واحد، ويقف من الظلمة موقف النقيض.

وتظهر علاقة التناقض هذه مع النشاط والحياة، فنور الشمس في النهار وضوء النار في الليل يمنحان للفرد الفارسي طاقة وحيوية وحتى تحررا من الظلمة والتخلف وحين يلخص مبدأ التطور ببلاد فارس يقول: "أما مبدأ التطور فهو يبدأ بتاريخ فارس، ومن ثم فإن ذلك يشكل البداية الحقيقية لتاريخ العالم، لأن الاهتمام العام للروح في التاريخ هو بلوغ المحايقة اللامتناهية للذاتية ووصول النقيض المطلق إلى التوافق أو الانسجام الكامل"<sup>5</sup>.

<sup>5</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص 145.

وبهذه الكيفية فإن عملية الوعي تكسب معنى إيجابيا بحيث تساعد الإنسان على اكتساب الحرية لأن الإنسان عند الفرس ينفصل عن الماهية الكلية فيتعرف على ذاته بوصفه متحدا مع هذه الماهية ومشاركا فيها بخلاف آسيا البعيدة التي لم يكن فيها هذا التمييز قائما لأن الروح عندهم لازالت متضمنة في الطبيعي حيث كانت الحقوق والواجبات في الصين أفقية يعني تنتهي عند الإمبراطور وهناك الوحدة الجوهرية تطغى عليها العلاقة الأبوية، وفي الهند ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقات المختلفة، أما ببلاد فارس فإن المبدأ يرتكز على النور الفيزيقي الكلي الذي يمثل نقاء الروح ومن ثم فإن الروح بالمعنى الفيزيقي يوحى بالارتفاع والتحرر من ما هو طبيعي والذي يمكن أن يصل فيه الكل إلى مرتبة القداسة، وبما أن كل إنسان يشارك بنصيب في هذا المبدأ، فإنه يحقق للمرء قيمة في ذاته.

#### أ-الزرادشتية:

تعددت الأساطير حول حقيقة زرادشت، هل هو شخص طبيعي، أم أنه شخصية رمزية أسطورية! أم أنه شخص صاحب تعاليم تشكلت لكي تكون ديانة الإمبراطورية الفارسية؟ على العموم لقد اختلف العلماء في تاريخ مولده إن كان شخصا طبيعيا ولد في 600 ق.م أو 660 ق.م كما نسجت الكثير من الأساطير حول مولده ونشأته وهناك من قال: " ففي لحظة الميلاد خرج من بطن أمه ضاحكا على غير عادة الصراخ الذي يصاحب ولادة الأطفال العاديين، لأنه نوراني، حيث سيدعو لعبادة النار المقدسة، لذلك فقد تحالفت الشياطين والأرواح الشريرة بهدف تحطيمه حيث ثم تكليف الخادمة المسؤولة عن رعايته بتدبير مجموعة من المؤامرات بهدف القضاء عليه في المهدي، فقد حاولت خنقه عدة مرات كما رمته تحت أرجل الخيل الراكضة وأخيرا وضعته فوق كومة حطب وأشعلت النار بهدف حرقه، ولكنه في كل مرة كان ينجو بأعجوبة من هذه المؤامرات<sup>6</sup> كما قيل عنه أنه كان يطيل التطلع وهو ينظر إلى الأعلى وإلى الأسفل وعن مختلف

<sup>6</sup> - أ.ف.توملين: فلاسفة الشرق، ص ص 148-149.

الجمهات، بمعنى أنه كان يتأمل الأشياء المحيطة به<sup>7</sup> ولما كبر قليلا التف ذات يوم حوله الناس سائلين إياه عن ثلاث: ما هو الشيء الذي يثير اهتمامه؟ وما هو أهم شيء لديه؟ وما هي أهم رغبة ملحة لديه؟ ليجيبهم الشاب زرادشت " أنه الصلاح، الصلاح، الصلاح " ثم تساءل عن الشيء الأول من الكمال والثاني والثالث؟ فرد عليه إلهه: إن سر الكمال هو الأفكار السديدة وثانيها الكلمات الطيبة، وثالثها الأعمال الصالحة<sup>8</sup> في هذا النص يبدو زرادشت كأنه نبي يسأل إلهه (أهورامزدا) ثم يجيب هو المجتمعين من حوله!.

وتصنيف الأسطورة: أن زرادشت كان يرى في منامه إلهه ويتلقى منه التعاليم إلى أن اكتملت في شكل كتاب عرف فيما بعد باسم (الفينديدات)<sup>9</sup> وهي الديانة التي اعتنقها ملك الفرس العظيم قورش كما يؤكد ذلك إكسانوفان.

ملاحظة: إن سكان هذه المنطقة كانوا يسمون بالآريين وهو اسم يرتبط بإيران الحالية وأجزاء كثيرة من الدول المجاورة لها - كما أشرت سابقا - حيث تمتد في جنوب نهر جيحون سلسلة من الجبال في قطرية القديمة التي تبدأ منها السهول المرتفعة والتي لا تبعد كثيرا عن كابول وكشمير، ففي هذه المنطقة استمر شعب الزند، كما يؤكد على ذلك المؤرخ اليوناني الكبير هيرودوث أن هذه المنطقة كانت على قدر كبير من العظمة والبساطة وسلامة المعتقد وكذا نظام الطبقات لم يكن مغلقا كما هو في الهند وما يهمنا كثيرا في هذا الموضوع هو تعاليم زرادشت حيث يقارن هيغل بين الروح البائس المتبلد عند الهنود وبين التصور الفارسي للوجود، فالشعب الفارسي بلغ مرحلة مهمة من الوعي وأن إدراكهم للوجود الكلي قد أصبح بالنسبة لهم موضوعا، وأصبحت روحهم هي الوعي بماهية هذا الوجود الكلي، في حين أن هذه الموضوعية لم تكن عند الهنود سوى موضوعية طبيعية منحصرة في " البراهما ".

<sup>7</sup> - لقد قيل الشيء نفسه على بوذا الصغير عند ولادته.

<sup>8</sup> - المرجع السابق، ص 148.

<sup>9</sup> - المرجع نفسه، ص 153.



أهورامزدا: مركبة من (أهو- را- مزدا) ومعناها جميعا وعلى التوالي في العربية: (أنا- الوجود- خالق) أو: أنا خالق الكون وهي في مقابل أهرمان التي تعني الخبيث أو الماكر أو القوى الشريرة التي تنحرف بالإنسان عن جادة الصواب، لذلك فإن أهرمان في الفارسية يعني: الظلام بينما أهورامزدا: إله النور الذي يخلق كل ما هو جميل ونبييل، وخير في العالم، وهي الأمور التي تتألف منها مملكة الشمس، رمز النور وبهذه الكيفية فإن إله النور يمثل العنصر الممتاز والإيجابي في كل من الوجود الطبيعي والروحي على حد سواء، فالنور عند الفرس هو جسد (أهورامزدا)، وبهذه الكيفية كانت عبادة الفرس للنار باعتبار أن إلههم حاضر في كل ما يرمز للنار والنور والشمس، وقد سأل زرادشت ذات مرة أهورامزدا: من هو؟ فأجاب: "اسمي هو أساس الموجودات كلها ومركزها، هو العلم والحكمة العليا، هو مدمر أمراض العالم كلها، وهو حافظ الكون، وهو الإرادة الخالصة الممتلئة بالغبطة... إلخ"<sup>10</sup>.

إذن: كل ما يصدر عن أهورامزدا يمثل الخير والنور، أما الظلام فهو على العكس من ذلك لأنه يمثل جسد أهرمان، أما النار الدائمة الاشتعال في المعابد فهي بهدف طرده من الأماكن المقدسة، وتضيف التعاليم الزرداشتيية - في السياق نفسه - أن الغاية الرئيسية لوجود كل إنسان هو: النقاء من حوله والطهارة في جسده، حيث تنعكس على أخلاقه لكي تتسم سلوكياته بالرحمة والتسامح والإنسانية، ومن قواعد الطهر هذه، قاعدة أساسية تقول: لو أن شخصا صب عليك سيلا غامرا من الإهانات والشتائم، لكنه ندم وطلب منك العفو، فعليك أن تسامحه وأن تصادقه، هذا يعني العفو عند المقدرة الذي اتسمت به التعاليم الدينية الإسلامية التي تجاهلها هيغل مركزا على عبدة النار في الحضارة الفارسية القديمة، وتصنيف التعاليم الزرداشتيية في موضوع الطهارة، أنه يجب على مقدم العرايين أن يختار حيوانات طاهرة ذات اللحوم الزكية وأن يصحبها بالزهور الندية

والفواكه الطيبة والروائح العطرة لأن الإنسان خلق طاهرا (فهو حدير بالسماء) والكلمه بهذا الشكل قد تشخصت وهي تعني - حسب هيغل - الروح الحي لوجي أهورامزدا كله<sup>11</sup>.

كما نصت التعاليم على سن نظام للعقوبات يذكر الخطايا الأخلاقية بوصفها خطايا (مترا) أي خطايا ضد أحد رموز أهورامزدا أو أحد أبنائه لذلك فإن الشخص الذي لا يفي بالوعد ينال عقوبة ثلاث مائة (300) جلدة، أما في حالة التأكد من السرقة - فهي بالإضافة إلى الجلد - فإن السارق سينال ثلاث مائة سنة عقوبة في جهنم ويبدو أن (مترا) بوصفه رئيس الحياة الداخلية العليا للإنسان وفي مرحلة لاحقة وصف بأنه الوسيط بين الإله والناس.

نلاحظ أن: هيغل يبالغ في وصف أدق التفاصيل حول تعاليم زرادشت ولكنه لا يلتفت إلى الإسلام ولو بمقدار ذرة إلا إذا تعلق الأمر بالقدح - كما سيأتي فيما بعد -.

وحتى المؤرخ اليوناني الكبير (هيرودوت) يذكر أن عبادة (مترا) قد انتشرت في مختلف أنحاء العالم القديم ووصلت حتى روما في عصر متأخر كلونها من العبادة السرية.

كما يجدر التذكير أن هناك ستة أبناء آخرين لأهورامزدا وهم يتولون وظائف مختلفة، كل بحسب المهمة التي كلف بها، وتشير الطقوس في ديانة أهورامزدا إلى أن الناس ينبغي عليهم أن يسلكوا في حياتهم طبقا لمملكة النور - الطهر الجسدي والروحي - كما وجب عليهم أن يحافظوا على الطبيعة، على الكائنات الحية، وأن يكثروا من غرس الأشجار وحفر الآبار واستصلاح الأراضي حتى تتسع الحياة وتمتد، ويكثر الإنجاب.

<sup>11</sup> - المصدر السابق، ص 154.

ولقد تابع الاهتمام بالتقوى والعبادة الخالصة لأهورامزدا وهم في ذلك مخلصون لديانة الزند، كما كان ملوكهم يعيشون ببساطة مما جعل المواطنين يحملون لهم الهدايا في المناسبات كما كان للملك فرقة من الفرسان انتزعوا اعتراف اليونانيين بشجاعتهم عن جدارة واستحقاق.

لقد كانت تربية الأمراء تتم بعناية فائقة لاسيما تربية ولي العهد الذي سيرث العرش علما أن أبناء الملك يبقون في وسط الحرم حتى السن السابعة وابتداء من هذه السن فصاعدا يشرعون في التدريب على الصيد وركوب الخيل والرماية كما يشرف على تربيتهم معلمون أكفاء يقومون بتوجيههم بصرامة كما يقوم أربعة من نبلاء الفرس بالإشراف على تربية ولي العهد كما يوجد من بينهم أفراد من الجوس " Magos " أي رجال الدين الزرادوشتيين.

ماجوس Magos هذه الكلمة أطلقها اليونان على أتباع الديانة الزرادشتية عندما فتح الإسكندر الأكبر بلاد فارس ثم عممت على رجال الدين الشرقيين فيما بعد ومنها جاء في الفرنسية والإنجليزية كلمة الشعوذة والسحر Magic، Magique لكل من يقوم بأعمال خارقة، وقد استعملها اليونان للحط من شأن الديانات الشرقية.

نلاحظ أن هيغل رغم إعجابه بالزرادشتية لم يعلق على هذا التسمية التي ألصقت برجال الدين الشرقيين والتي أصبحت مع مرور الزمن ذم لهم.

نلاحظ أن: هيغل يتعرض للعهد القديم والحديث من الكتاب المقدس أي الديانتين المسيحية واليهودية وبصفة خاصة للعلاقة بين العبرانيين والبابليين لكنه عندما يصل إلى الفترة الإسلامية فإنه إما يتجاهلها وإما يكتفي بإشارات خفيفة فمثلا الملحمة الغنائية المسماة " الشاهنامة " التي كتبها الفردوسي هي ملحمة غنائية تحوي أكثر من 60 ألف بيت، تحكي التراث البطولي لإيران القديمة وقد تمت ترجمتها لكثير من اللغات الأوربية واللاتينية ولأن كاتبها مسلم - وقد عاش خلال القرن 11 ميلادي - فإن هيغل المشبع بالنظرة العدائية التي عبر عنها المستشرقون في

عصره بحاجه الحضارة الإسلامية وفي الوقت ذاته تكشف عن نعصب العرب وأنايته لذلك فإن هيجل لم يعرها اهتماما، ولعل في تجاهل مثل هذه الأعمال الهامة دليل على الخلفية التعصبية لهيجل .

لقد اهتم بأدق التفاصيل فيما يخص تعاليم زرادشت وعبدة النار ولكنه لم يتطرق إلى ملحمة " الشاهنامه " لصاحبها الفردوسي!

### ثانيا - الهلال الخصيب:

يتعرض هيجل إلى سوريا الكبرى أو آسيا السامية الأمامية التي تشكل أحد الأجزاء الأساسية التي تتألف منها الإمبراطورية الفارسية - والتي هي جغرافيا - عبارة عن شريط ساحلي ممتد لغاية بلاد اليونان.

إن هيجل قد دمج الفرس بالفينيقيين وهذه من المغالطات المشهورة في الدراسات الهيجلية التي لا تتحرى الدقة فيما يتعلق بالشرق، حيث اعتمد على فترة سيطرة الفرس على بلاد ما بين النهرين، والشام واعتبرها مقياسا، وبهذه الكيفية أخضع الفينيقيين للفرس معتبرا أن للأسطول الفينيقي أهمية كبرى للإمبراطورية الفارسية وفي الوقت ذاته يتحدث عن الشعب الفينيقي الجسور والذي يتركز في المدن الغنية الفخمة مثل (صور Tyre) و(صيدا Sidon) و(بيبلوس Byblus) و(بيروت Berytus) وهي مدن عظيمة، كانت تزدهر فيها الملاحة والتجارة وهي بعيدة عن التأثير الفارسي وحتى في تجارتها كانت تتجه نحو حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد وصلت هذه المنطقة إلى حضارة راقية مع تفاعل وتواصل مع شعوب البحر الأبيض المتوسط، حيث ازدهرت الكثير من الصناعات كصناعة المعادن والحجارة النفيسة كما توصلوا إلى مكتشفات هامة مثل الزجاج والأرجوان، وقد كتبوا اللغة لأول مرة نظرا للحاجة الملحة للكتابة في التعامل مع الشعوب الأخرى وقد اكتشف الفينيقيون المحيط الأطلنطي، وكانوا أول من أبحر إليه، كما كانت لهم مستوطنات في قبرص وكريت، واكتشفوا معدن الذهب في جزيرة " تابوس "، كما استعمروا إسبانيا واستغلوا مناجم الفضة بها، واستعمروا الشريط الساحلي لشمال إفريقيا، حيث أسسوا مدينة " قرطاجنة "،

كما أبحرت سفنهم بمحاذاة الشاطئ الإفريقي حتى طافوا حول القارة من خلال المحيط الأطلسي فوصلوا إلى بريطانيا وبروسيا - بلاد هيغل - .

بينما لم يتمكن الفرس من تجاوز منطقة اليونان في آسيا الصغرى ورغم ذلك فإن هيغل يضع الآخر الشرقي في سلة واحدة دون تمييز وخاصة في قضية تبعية الهلال الخصيب، وعلى الخصوص سكان الساحل السوري اللبناني من الفينيقيين الذين يعترف لهم بأنهم تخلصوا من الخمول والكسل وكذلك الشجاعة والوحشية اللتان وصفهم بهما أرسطو حيث يقول هيغل: " ولقد استبدل الفينيقيون هذه العادات الذميمة ليحل محلها النشاط في الصناعة وشجاعة التروى أي استخدام العقل من أجل اقتحام الخطر مع التدبر العقلي من أجل السلامة والأمان"<sup>12</sup>.

لأن كل شيء في الوجود يقوم على نشاط الإنسان وشجاعته وذكائه إذن فقد تمكن الفينيقيون من اقتحام المحيط الأطلسي مع صعوبة الملاحه فيه كما عرفوا الكثير من الصناعات واستعملوا اللغة المكتوبة وانتشروا في حوض البحر الأبيض المتوسط ووصلوا إلى بحر البلطيق في الشمال، وبالضبط إلى الإمبراطورية البروسية مرورا بإنجلترا كما أبحروا جنوبا حتى طافوا حول القارة الإفريقية ورغم ذلك فإن هيغل يعتبرهم جزءا من الإمبراطورية الفارسية.

#### أ - ديانة ما بين النهرين والشام:

يقول هيغل لو أننا قارنا تصوراتهم الدينية مع الديانات التي سبق ذكرها في منطقة الشرق الأقصى، فسنجد أن هناك في كل من بابل والقبائل السورية وثنية حسية، فالصينيون واليهود وحتى اليونان مارسوا العبادة الوثنية، كما أن الكاثوليك مجدوا صور القديسين ولكن في مجال الفكر الذي نحن بصدد دراسته فإننا نجد أن قوى الطبيعة المختلفة كانت محل عبادة من طرف هذه الشعوب مما أدى بالأنبياء<sup>13</sup> إلى تقديم صورة غاية في الفظاعة عن هذه العبادات أما أشهر الآلهة فهم: "

<sup>12</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 175.

<sup>13</sup> - المقصود بالأنبياء هنا هم أنبياء اليهود على نحو ما ذكرهم العهد القديم بصفة خاصة.

عشتاروت Ashtarote<sup>14</sup> و"سييل Sybele"<sup>15</sup> و"ديانا Diana"<sup>16</sup> وكانت العبادة نشوة حسية وفجورا وترفا.

إن هيغل يصف ديانة هذه الشعوب بالقسوة والحسية فهم مثلا عندما يشرعون في الاحتفال بأعيادهم يكونون كالمجانين، إن هيغل هاهنا متأثر بالكتاب المقدس وخاصة العهد القديم، حيث ورد في سفر الحكمة حسب الترجمة العربية: "فإنهم إذا فرحوا جنوا... " سفر الحكمة - الإصحاح 28:14 كما ترتبط القسوة بقلّة الوعي وضيق المدارك وهذا مناقض تماما للخصال التي عددها هيغل عن الفينيقيين، أو عن ديانة الفرس النورية والتي لا ترتبط بالأصنام ولا بالأوثان، إلا أن هيغل يتحدث عن الديانة الطبيعية المتعددة الآلهة والتي تمثل "مذهب الشرك" حيث تؤدي إلى تدمير الروح لوعيها، إلا أنه عندما يتعرض للديانات الطبيعية اليونانية وللطقوس والاحتفالات التي يقوم بها اليونان فإنه يعجب بها أيما إعجاب وحتى عندما يتعرض إلى النبي "دانيال Daniyel" والذي تربى في بلاط أحد ملوك بلاد ما بين النهرين فإنه يذكره بشيء من القدسية حيث استطاع أن يتجنب المشاركة في الطقوس الاحتفالية الوثنية وتناول الأطعمة غير الطاهرة.

وهذا تناقض صارخ لأن هيغل عندما تطرق لديانة الفرس وبلاد ما بين النهرين تحدث عن الطهارة في الجسد والطعام وحتى في اللحوم التي تقدم كقرايين بينما هو في هذه الحالة ينقل لنا نصا من العهد القديم معتمدا على ذاكرته فقط، والقصة الصحيحة أنه "عندما هاجم ملك بابل أورشليم وحاصرها أكد كبير خدمه أن يحضر له من بني إسرائيل ومن نسل الملوك ومن الشرفاء فتيانا لا عيب فيهم حسان المنظر حاذقون ذووا حكمة وذووا فهم بالعلم فيعلموهم كتابة

14 - إلهة الخصب والجنس والحب عند الفينيقيين.

15 - إلهة الطبيعة عند شعوب آسيا الصغرى.

16 - إلهة القمر والصيد.

الكلدانيين ولساهم كما تمت العملية وفقا لبرنامج مضبوط كما يطعمون من أطايب الملك ويشربون الخمر ويتناولون الفواكه وذلك لمدة ثلاثة أيام وكان من بينهم النبي دانيال<sup>17</sup>.

لاحظ الأستاذ الإمام عبد الفتاح إمام أن هيغل لا يدقق في نصوصه بل يوردها اعتمادا على ذاكرته لذلك فقد صحح النص مؤكدا أن القصة وما فيها كانت بناء على حلم بنو خضنصر ملك بابل الذي رأى في منامه حلما فلم يقتنع بتفسير حكماء بابل لذلك فقد هاجم أوراشليم - القدس الحالية - وقتل ما قتل من سكانها كما أسر مجموعة من الشباب منهم النبي دانيال<sup>18</sup> الذي كانت وظيفته الرئيسية تفسير أحلام الملك، ولأنه فيه روح الآلهة القدوسيين فقد عامله كبير الخدم معاملة خاصة حيث أعفاه من المشاركة في الاحتفالات الصاخبة الجنونية وأطعمه أطعمة طاهرة.

ثم نجد تناقضا آخر عند هيغل عندما ينقص من شأن الآخر الشرقي ويعلي من شأن الأنا اليوناني ويورد لنا ما يناقض طروحاته حيث يقول: " فهيرودوت يخبرنا أن هرقل Hercules، كان يعبد في مدينة " صور " السورية والذي يعتبر من أشهر الأبطال في أساطير اليونان والرومان، وكانت شجاعته حارقة وقوته جبارة...!"<sup>19</sup>.

نلاحظ هاهنا تأثر اليونان بالكثير الكثير من الفكر الشرقي وكذلك الديانات الشرقية والأساطير الشرقية، لأن هرقل هذا يرفعه اليونان فوق جبال الأولمب Olympus بفضل شجاعته وجسارته.

### ب - اليهودية:

<sup>17</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص 177.

<sup>18</sup> - الكتاب المقدس: العهد القديم الإصحاح الثاني من سفر دانيال.

<sup>19</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص ص 177-178.

يلحق هيغل الشعب اليهودي بالإمبراطورية الفارسية، ويؤكد على تميز هذا الشعب بامتلاكه للكتاب السماوي الأساسي ألا وهو: "العهد القديم" الذي ساعد اليهود على تكوين مبدأ مضاد للديانات المحلية الآشورية أو البابلية أو الفينيقية، حيث مكّنهم هذا المبدأ من الوصول إلى تطوير الجانب الروحي بشكل مخالف للديانات الطبيعية وبالتالي السمو والارتفاع عن الطبيعة، وبهذه الكيفية لا يصبح براهما (كما سبق وذكرت) موضوعاً للوعي كما كان عند الفرس حيث كان تصوراً حسياً في صورة النور، أما عند اليهود فقد تقدمت فكرة النور لتصبح (يهوة) Jehavah أو الواحد الخالص، وهذه المفارقة يعتبرها هيغل النقطة الفاصلة بين الشرق والغرب.

يمكن التذكير أن هيغل قد تجاهل تماماً الدين الإسلامي الذي هو امتداد لليهودية والمسيحية والذي ينتشر بكثرة في هذا الإقليم الجغرافي والذي يركز هيغل على ماضيه الغابر ودياناته الوثنية واليهودية بالدراسة، دون أن يتطرق إلى الإسلام، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على النظرة المتحيزة لهيغل للمجدة للديانات السابقة للإسلام سواء الوثنية منها أو السماوية!

إذن: باعتبار أن الإسلام يمثل الآخر الذي يتعمد هيغل تهميشه فإنه لم يتعرض له في منطقته الجغرافية (بلاد فارس وما بين النهرين والشام) وهذا الإقليم هو الامتداد الطبيعي للجزيرة العربية، والغريب أن هيغل قد نشأ في محيط كان يسيطر فيه اليهود على الجوانب الحيوية (السياسة، الاقتصاد، المال، والثقافة). مما أدى ببعض النخب الألمانية إلى كرههم، وقد ترتب عن ذلك طردهم أو إقامة محتشدات ومحارق لهم، ورغم ذلك فإن هيغل يعجب بالديانة اليهودية ويعتبرها جزءاً من تراث الغرب وهو يقول في هذا المعنى: "فالروح تهبط إلى أعماق وجودها الخاص، وتتعرف على المبدأ الأساسي المجرد بوصفه المبدأ الروحي، كما أن الطبيعة التي كانت تمثل في الشرق الأساسي



والوجود الأول قد هبطت الآن إلى مرتبة المخلوق، وأصبح الروح هو الوجود الأول، ويعرف الله بوصفه الخالق لجميع البشر ولكل الطبيعة<sup>20</sup>.

كما ذكرت فإن هيغل قد ربط بين الوحدانية واليهودية متجاهلا الإسلام حيث يؤكد على أن اليهود هم الشعب الوحيد صاحب الديانة التوحيدية وهو الذي تعرف على الله في صيغة الواحد، كما اعترف له الله، وفي ذلك إشارة إلى ما تزعمه الصهيونية من أن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار ويضيف هيغل كاشفا عن تحيزه لليهود مهمشا الآخر خاصة الديانة الإسلامية حيث يؤكد بأن إله الشعب اليهودي هو نفسه إله إبراهيم ونسله فقط<sup>21</sup>.

ثم يتطرق إلى الآلهة الزائفة وإله اليهود الصحيح، مؤكدا على كثرة الأديان وعلى وجوب التفريق بين الإله الصحيح والآلهة الزائفة ملقيا في ذلك المسؤولية على فلسفة التاريخ التي يجب عليها أن تبحث في أكثر أشكال الآلهة، وخاصة التي تتوفر على العنصر الروحي الذي يوفر الطاقة والحيوية اللتان تمثلان المضمون على خلاف الآلهة الذابلة التي تكمن أهميتها في شكلها فقط.

كما يتعرض إلى تسامح اليهود متناسيا ما قاموا به ضد المسيح عليه السلام والمكائد التي تعرض لها الكثير من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين من طرف اليهود، وهنا يقع هيغل في تناقض آخر عندما يفضل الديانة الطبيعية عند اليونان، غير أنه عندما يتعلق الأمر بالآخر الشرقي سواء الديانة السماوية الإسلامية التي تعترف بالديانات السابقة عليها وتحارب الكفر وتدعو إلى التسامح والمساواة بين كافة أفراد المعمورة، أو الطبيعية عند الفينيقيين والبابليين والآشوريين فإنه يمجتها مفضلا عبادة النار لدى الفرس والتي تطورت في نظره إلى عبادة (يهوه) المجرى عند اليهود على حد زعمه.

<sup>20</sup> - المصدر السابق، ص 180.

<sup>21</sup> - المصدر نفسه، ص 181.

وهيعل يربط بين اليهودية ونسل إبراهيم عليه السلام، وبالتالي يمكن أن تصبح هذه العملية عرقية مثلما هو سائد اليوم من تفضيل الصهيونية للشعب اليهودي على حساب الشعوب الأخرى ودياناتها، وكما تؤكد الوقائع التاريخية أن إبراهيم - عليه السلام - بابلي الأصل وأن ابنه إسماعيل أمه مصرية (سارة) وقد قاما معا (إبراهيم وإسماعيل) ببناء الكعبة التي يحج إليها المسلمون حتى اليوم. علما أن نبي الإسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - يعود أصله إلى إبراهيم وهو قرشي من الجزيرة العربية... .

إذن هذه الحقائق الخافية على هيغل تكذب نقاء العرق اليهودي وفي نفس الوقت تؤكد اختلاط شعوب الشام وبلاد فارس والجزيرة العربية ومصر... كما يؤكد ذلك على تسامح الإسلام وقد ورد في القرآن الكريم " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"<sup>22</sup>.

إن مضمون هذه الآية يؤكد على تتسلسل الأنبياء حيث الذين اشترط الله أن كمال الإيمان وتمامه لا يكون إلا بوضعهم في مرتبة واحدة، وندلل على سماحة الإسلام باعترافه بالديانات السابقة عليه، وتفتحه على البشرية كافة.

### ج- اليهود والدولة:

يتطرق هيغل إلى اليهود باعتبارهم شعب لا يؤمن بخلود النفس لأن الفرد لا قيمة له في هذا المجتمع وعلى النقيض من ذلك فإن الأسرة هي الوحدة الأساسية التي تتمتع بالاستقلال، أما الدولة فهي المؤسسة التي لا تنسجم مع المبدأ اليهودي، لذلك فهي غريبة في التشريع المساوي (نسبة إلى النبي موسى عليه السلام).

يضيف هيغل أن إله اليهود هو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذي أمرهم بالرحيل عن أرض مصر ومنحهم أرض كنعان وهذا سقوط آخر في خرافات الصهيونية العالمية لأن اليهود عندما خرجوا من مصر تاهوا في سيناء مدة أربعين سنة، وبالتالي فقد انتقلوا من الحضارة والمدنية إلى البادية والتخلف - كما يقول ابن خلدون - بخلاف ما ذهب إليه فيكون من اعتبار اليهود ذوي الصفات البشرية المكتملة والمتحضرين على خلاف الأميين ذوي الصفات الغليظة والمتوحشين، والذي أخذ عنه هيغل حيث اعتبر خروجهم من مصر انتقال من مرحلة البداوة البتريارية (الأبوية) إلى مرحلة الزراعة، وهذا مخالف للحقائق التاريخية التي تؤكد أسبقية المصريين في ممارسة الزراعة وتخزين الغلال لوقت الشدة، وهذا ما أكدته الكتب السماوية وخاصة سورة يوسف - عليه السلام - الذي تولى الوزارة في مصر وأشرف على خزائن الغلال وقد حضر اخوته من بلاد الشام من أجل أخذ حاجتهم من المؤونة من مصر "... قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم..."<sup>23</sup> "... وجاء اخوة يوسف... ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المتزئين"<sup>24</sup>.

تفيد الآية الأولى أن فرعون قد أسند وزارة الاقتصاد والتموين والتخزين إلى يوسف عليه السلام، بينما تشير الآية الثانية إلى قدوم اخوة يوسف من الشام من أجل الحصول على نصيب من التموين.

المهم أن الشعب اليهودي قد أنعم الله عليه بأرض كنعان - حسب هيغل - غير أن الحقيقة أن اليهود عندما أخرجوا من مصر وتاهوا في سيناء، ثم دخلوا فلسطين قد استولوا على مدينة أريحا حيث قتلوا كل من فيها من إنسان أو حيوان، ولم ينج من الموت إلا المرأة الزانية وأهلها الذين مهدوا الطريق لجواسيس يشوع<sup>25</sup>.

<sup>23</sup> - سورة يوسف: الآية 55.

<sup>24</sup> - سورة يوسف: الآية 59.

<sup>25</sup> - كتاب العهد القديم، سفر يشوع بالإصحاح السادس.

كما عرف اليهود النظام الملكي إلا أنهم لم يشكلوا دولة أو أمة متماسكة بل ظلوا لفترة طويلة يؤلفون اثني عشر سبطا مستقلا كل منها عن الآخر وكان النظام ليس على أساس الدولة كما هو في الإمبراطورية البابلية أو الآشورية أو الفارسية أو المصرية بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة والقبيلة، وذلك على الرغم من ورود الرغبة الملحة في شريعة موسى بأن يشيد اليهود مملكة قوية يقوم الكهنة باختيار ملكها، والذي من شروطه ألا يكون أجنيا وأن يكون له عددا قليلا من الزوجات وقد سعى كلا من داوود وسليمان وياشوع عليهم السلام ... وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل إلى توحيد اليهود، ولكن طغيان الأنانية وحب الذات، وكثرة الأسباب قد أدى إلى عودة الوثنية، وبهذه الكيفية ساد التشتت مما ساعد الآشوريين والبابليين والفرعنة على غزو اليهود وتقتيلهم باستمرار، وفي هذا المعنى اتخذ داود أورشليم (القدس الحالية) عاصمة له، ثم جاء سليمان فبنى الهيكل بها، وكان الهدف هو أن تتركز عقيدة بني إسرائيل حول الهيكل.

كان الهدف من ذلك هو الوحدة السياسية والمحافظة على الدولة، وفي عام 721 ق.م دخل الآشوريين مملكة إسرائيل ومحوها من الوجود وتشتت شعبها ممن بقي على قيد الحياة، كما ظلت مملكة اليهود تكافح حتى أسقطها البابليون، وبهذه الكيفية فقد تشتت اليهود شرقا نحو مصر وشمال إفريقيا وشمالا نحو آسيا الصغرى وشرقاً نحو الجزيرة وشمالها، كما وصل الملك (قورش) ملك الفرس إلى بلاد بابل ثم امتد سلطانه إلى بقية أراضي الشام وبهذه الكيفية رجع بعض اليهود إلى فلسطين<sup>26</sup>.

### ثالثا - بلاد العرب:

أو إمبراطورية التعصب<sup>27</sup> كما يسميها هيغل وهي عبارة عن صحراء واسعة والتي تتميز بتربية ضروب مختلفة من الماشية كالجمل والأغنام والخيول (لكنها لا تشتهر بتربية الثيران) ولكن

<sup>26</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: تعليق على كتاب هيغل، ص 185.

<sup>27</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 184.

علينا أن نميز بين الحياة الهادئة لقبائل الرعاة والمربطة بنشاطهم الرعوي عن شخصيتهم الوحشية التي تظهر في صفتين: السلب والنهب مع تأكيد هيغل على أن هذه القبائل لم تتمكن من تطوير نفسها في شكل تاريخي حقيقي وبالتالي فإنهم بقوا بدون هوية أو تميز تاريخي إلا أن بداية التاريخ يمكن أن ترد إليهم هنا يشير إلى الشرق الأقصى في الجنوب أو الشمال مركزا على منطقة السهول الوديانية - كما أسلفت ذكره في الفصل السابع وبداية الفصل الحالي - علما أن وسط الجزيرة يخلو من السهول الوديانية مثلما هو شأن آسيا البعيدة، علما أن هيغل لا يذكر من جزيرة العرب إلا مكة والمدينة باعتبارهما مهدا لديانة الإسلام وحينما يتطرق للحديث عن العرب يركز على سلوكهم المتناقض فهم حسبه يتصفون بالكرم وحسن الضيافة من جهة والسلب والنهب والخداع من ناحية أخرى وتكون الصفة الأخيرة أكثر وضوحا حينما يكونون وسط أقوام متحضرة<sup>28</sup>.

يمكن الإشارة إلى أن هيغل التقط العبارة المشهورة لابن خلدون " إذا عربت خربت " علما أن ابن خلدون قصد بهذه العبارة أعراب البادية الذين إذا ما حطوا رحالهم أمام زرع أو شجر أو عمران إلا وأتلفوه، وفي الوقت ذاته فإن هؤلاء الأعراب يمتازون بأخلاق فاضلة في التعامل مع الضيف كحسن الاستقبال والمبالغة في الإكرام ولكنهم يتعاملون مع الغرباء بعيدا عن مضارب خيامهم بشكل مغاير لا يمد بصلة إلى الأخلاق الفاضلة التي يتسمون بها عندما يأتهم الغريب كضيف. علما أن القاعدة الخلدونية تنسحب على سكان البادية الذين ترمقهم جبايات الحاكم، فتتبدل أحوالهم من المتوسط إلى الفقر المدقع - في علاقة الحاكم بالمحكوم - وهو ما يدفعهم إلى السلب والنهب بهدف إشباع حاجاتهم هذا من جهة، ومن جهة ثانية يهدفون إلى إضعاف شوكة الحاكم لأن القوافل التي يهاجمونها إما أن تكون حاملة لسلع الحاكم أو لحاشيته وأعوانه لذلك عندما يقومون بنهبها فإنهم يحققون هدفين في وقت واحد أو عصفورين بحجر واحد كما يقال حيث يشبعون حاجاتهم ويضعفون الحاكم وحاشيته في الوقت نفسه.

إذا فالعملية ندخل ضمن صراع العصب من أجل الاستحواذ على الملك لكن العريب في الأمر أن هيغل تناسى فترة الإقطاع في أوروبا والفوضى التي كانت سائدة بين الأمراء والملوك والملاك من الإقطاعيين، وعلى الرغم من أنه يقر بانتشار الفوضى في المقاطعات البروسية وقلة فعالية النصوص القانونية في المقاطعات السويسرية والإمارات البروسية إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالآخر العربي الإسلامي فإنه يعتبر ذلك عيبا ثقيلًا. ثم هناك جوانب إيجابية جدا جاء بها الإسلام إلا أن هيغل تغاضى عن حكومة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء من بعده والتي عرفت نوعا من النظام فاق بكثير النظام اليوناني حيث ساد الأمن مختلف ربوع الدولة الإسلامية، وتوسع ليشمل الأقليات من أهل الذمة إلى درجة أن أمير المؤمنين يمشي في الأسواق بدون حراس وينام في البستان وحده، وليس له قصر وخدم وإنما كان يقوم بتسيير شؤون الدولة انطلاقا من المسجد الذي يدخله جل الناس، بالإضافة إلى تحقيق العدل وتحرر الناس من كل أشكال العبوديات السابقة مع دخول مبدأ جديد ليشمل الإنسانية جمعاء وهو مبدأ المساواة بين البشر كافة " لا فرق بين عربي وعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى " حديث شريف، علما أن هذه المبادئ لم يتوصل اليونان إلى تطبيقها وهو ما يتضح من خلال اعتبار كتابات أساتذته كأفلاطون وأرسطو حيث يعتبران أن العبودية أمر طبيعي في المجتمع اليوناني - كما أشرت إلى ذلك في الفصل الأول في علاقة الأنا الأوربي بالآخر-.

#### رابعا - مصر:

عندما يتحدث هيغل عن الإمبراطورية الفارسية يدمج معها مصر لاشك أنه وجد ما يجمع بينهما فيما يخص: أصل السكان في بلاد فارس من خلال الهجرات التي وقعت باتجاه أوروبا، وقد أعجب كثيرا بالديانة الزرادشتية (النار والنور) اللذان يتحولان إلى رمز يجسد فيما بعد انتقال الروح الشرقي إلى اليونان عن طريق مصر، فأبو الهول الذي يمثل المعجزة المصرية في كونه يجسد جسم حيوان ورأس إنسان في نفس الوقت يعبر عن هذه الميثولوجيا.

وقد كانت مدينه (طبيه) عاصمه الملوك ثم (منفيس) ثم انتقلت إلى (ساس) وقد امتد نفوذ المصريين إلى السودان والحبشة من جهة الغرب، كما امتد النفوذ إلى سوريا من جهة الشرق، وقد كان الماء هو الرابط بين مختلف الجهات، فالنيل هو عصب الوصل بين السودان والحبشة ومصر، وهي المنطقة الوحيدة في العالم التي مارست ختان الإناث بين هذه المناطق جميعا.

إذن عنصر الربط هو البحر الأحمر والنيل وهذا ما يتوافق مع نظرة هيغل، كما شكّل الخليج بشقيه العربي والفارسي والمحيط الكبير نقطة تواصل بين أطراف هذه المنطقة.

إن النيل والشمس والصحراء والبحر، عناصر ترمز للحياة، وفيضان النيل والعروس التي تقدم كقربان له، واختراع المحراث وتطوير الزراعة كلها عوامل شكلت الخصوصية المصرية، فهيرودوث يتحدث عن آلهة مصر ودورها في تنظيم المجتمع وتقدم الزراعة ويقسمها إلى ثلاث فئات يذكر ضمن الفئة الأولى ثمانية آلهة والفئة الثانية اثني عشرة وفي الفئة الثالثة عدد لا حصر له من الآلهة.

هذا التقسيم فيه تشابه كبير لما كان سائدا عند اليونان والغريب أن هيغل يعجب بالديانة الطبيعية اليونانية واحتفالياتها، ولكنه لا يعير أي اهتمام بما هو مماثل عند الآخر الشرقي فأوزاريس المصري الذي يمثل النيل والشمس واللذان يعتبران رمزان للحياة البشرية، وهذه الثنائية هي رمز ومغزى في آن واحد، ويتحول الرمز إلى مغزى والذي يتحول بدوره إلى رمز، وكل واحد هو الاثنان معا، وهكذا ينشأ تصور جامع للعقيدة والحياة.

إذن فهذه المظاهر المتنوعة ليست سوى مضمون جزئي وواقعي لحقيقة الحياة، فالمصري يرى في النيل الروح الطيبة وبهذا الشكل تتحول التصورات المجردة إلى وقائع عينية باعتبار أن مصر هبة النيل.

يقول هيغل: "إن للمصريين علاقة خاصة بالطبيعة والحيوان كما أن الكهنة المصريون كانوا يطلقون اسم هرمز على جميع مخترعاتهم ولذلك فقد أطلق العالم المشهور أراتوستيتر Eratosthens على كتابه الذي درس فيه العلم في مصر اسم (هرمز) أما عن بعض الآلهة فقد كانت صديقة للبعض الآخر كما هو الحال عند اليونان وقد انعكست هذه الصداقات على البشر حيث يساعدهم الإله أنوبيس على اختراع الكتابة وعلم الفلك وعلم قياس المساحات والموسيقى والطب"<sup>29</sup>. كما ينسب إلى أنوبيس أول تنظيم للزمان حيث قسم السنة إلى اثني عشر (12) وحدة ووضع نظام الأسبوع، وقسم الشهر إلى ثلاثين (30) يوماً، وقسم السنة إلى اثني عشر (12) شهراً، وقد نسب إليه اكتشاف شجرة الزيتون.

المصريون ينسبون هذه الاكتشافات إلى إلههم والذي طور الفنون، لكنه عندما يتجسد طبيعياً ينحط فيمثله رأس كلب ثم يسمو في الرمزية حيث يطلق عليه اسم نجم الكلب Dogstar وبهذه الكيفية نجده محددًا من حيث مضمونه حسياً من حيث وجوده.

فإذا نظرنا إلى الطب مثلاً الذي يهدف إلى علاج الأمراض الجسمية، فإنه يخضع إلى الثنائية نفسها، فقد كان على صلة وثيقة بالتنجيم والسحر L'astrologie.

إذن فعلمي الفلك والطب الحديثين كانا في زمن المصريين عبارة عن السحر وخرافات التنجيم، ولهذا فإن هيغل يرجع العبادة المصرية القديمة إلى الحيوان لكي ترتبط بما هو روحي، ثم تتخذ شكلاً رمزياً آخر عندما ترتبط بما هو طبيعي كالنيل والشمس والبدور،... الخ من مظاهر الطبيعة التي حظيت بالتبجيل، فلقد تصور المصريون في عالم الحيوان ما هو باطني وغير قابل للإدراك فيحكي أن رومانيا قد قتل قطة في الإسكندرية، والمصريون يعتقدون أن القطط والكلاب تحمل أرواحاً شريرة لذلك فهي تتمتع بقدسية خاصة لذلك فقد كان جزاء الروماني



القتل ويصيف هيعل ساخرا من الآخر الشرقي أن المصريين يفضلون موت البشر جوعا على أن يتقربوا من المؤن المخصصة للحيوان.

**ملاحظة:** من أغرب العجائب أن الأنا الأوربي المتطور والذي استفاد من الحضارات الشرقية القديمة وطور تكنولوجيا الإنتاج في مختلف مجالات الحياة قد أصبح اليوم يفضل الحيوان على الآخر (أي على الإنسان الشرقي) فهو ينفق الملايير على تغذية وتربية الحيوانات الأليفة وحتى المتوحشة في المحميات... غاضا الطرف عن ملايين البشر في العالم الإسلامي وإفريقيا والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية التي تموت جوعا ومرضا وجهلا... .

### ب - الحياة الاجتماعية للمصريين:

يقول هيرودوث أن الإيليين Elians قد أطلقوا على المصريين لقب (أحكم حكماء البشر) فهذا مصدر يوناني غربي معاصر للحضارة المصرية يطلق على المصريين هذا اللقب ويعتبر الشعب المصري أول شعب ناقش المسائل الأخلاقية كالخير والشر والصواب والخطأ... والاعتبارات الاجتماعية، كما كان البابليون مفكرين مبدعين، ولكن تأملاتهم الدينية لم ترق إلى مستوى المصريين الذين اهتموا بالأموات وآمنوا بالبعث وقد كان أختاتون أول من فكر في وحدانية الله، كما كانت تقام للموتى محاكم وتدفن معهم شؤونهم الخاصة، وكما سبق وذكرت فإن مصر بلاد المتناقضات وأنها أسست مدنا دينية تمثلت في المعابد والمدافن وهي بآثارها شاهدة على ماضيها حيث تعتبر الأهرامات إحدى عجائب الدنيا السبع.

بالإضافة إلى ما سبق فإن المصريون قد عرفوا كيفية استخدام المعادن واستأنسوا الحيوانات، كما دفنوا موتاهم وقد دفعهم الاعتقاد الراسخ في البعث بعد الموت إلى ذلك، كما استفادوا من تطور العلوم في تحنيط موتاهم، وقد أدى اعتقادهم هذا إلى تطورهم في مختلف مجالات الحياة<sup>30</sup>.

<sup>30</sup> - أ.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ص 30-31.

وقد عرف المصريون تقسيم العمل، إذ في فترات معينة مخرج النساء للعمل خارج البيوت ويبقى الرجال لممارسة النسيج، كما كان المجتمع ينقسم إلى طبقات، وكان العمل مقدسا إلى درجة أن الامتناع عن ممارسة العمل يؤدي إلى الإعدام لأنه يجب على كل مصري أن يقدم نفسه ولو مرة في السنة أمام السلطات المعنية بمينا مصادر رزقه، فإن لم يثبت نوعية العمل الذي يقوم به ونوعية الإنتاج عليه يعدم فوراً، وهذا ما جعل من المجتمع المصري القديم شبيهاً بحجر النمل أو خلية النحل، فكل فرد فيه يقوم بدوره على أكمل وجه وإلا تعرض للعقاب، علماً أن المصري يختلف عن اليوناني في مجال السياسة<sup>31</sup> من حيث عدم تدخله في المجال السياسي، وتهميشه أمر واقع إذا قورن باليوناني الذي يتمتع بالديمقراطية، وقد كان للمجتمع المصري نوابغ في الطب والفن، أما في مجالي التشريع والقضاء فإن المصري تمتع بقوانين نظمت حياة المجتمع في مختلف المجالات: سواء الاجتماعية أو الاقتصادية حيث كان للمرأة حقوقاً لا يتعدى عليها أحد، وقد كانت الأراضي الزراعية تحظى بالصيانة، وكانت من حق الملوك والأمراء ونخبة المجتمع، يقوم الفلاح بخدمتها أما نظام الري فإنه كان يخضع لقانون صارم، لذلك فإن الدولة هي التي كانت تتولى تنظيمه بمراقبة الفيضان السنوي للنيل، كما تضمن توزيعه توزيعاً عادلاً، وربما هذا الأمر هو الذي اضطر الفرعون إلى إحاطة نفسه بمالة من الألوهية لتدعيم سلطته السياسية ليقمع كل من يحاول معارضة قراراته، وتبعاً لآثار الفيضان فإن الأرض مقسمة إلى مناطق صغيرة.

انطلاقاً من هذا الكلام تعد مصر أول مجتمع بشري عرف هذه الدقة في التنظيم وفي مجال القضاء يجتمع أكثر من ثلاثين قاضياً من أجل إصدار الحكم علماً أن القضاة يحملون رمز الحقيقة في صدورهم، ويميلون به إلى اليمين أو اليسار بحسب الحقيقة ويشارك الملك شخصياً في إدارة شؤون القضاء كل يوم، علماً أن للمصريين ظروف التخفيف أو تشديد العقوبة تبعاً للجرم المرتكب، فإذا اعترف السارق وبلغ عن نفسه فإن العقوبة تخفف إلى أقصى درجاتها كما تشدد كلما أصر الجاني على عدم الاعتراف رغم ثبوت الجريمة عليه بالحجة والبرهان.

<sup>31</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج2، ص 197.

وقد أثيرت نقاشات حول معزى الدين المصري ومعناه ويمكن أن تأخذ نموذجين متناقضين

لشارميون Charemon (الفيلسوف الرواقي) الذي عاش في مصر القديمة، حيث فسره تفسيراً مادياً خالصاً، في حين رأت الأفلاطونية المحدثة وجهة نظر مخالفة تماماً (لشارميون) معتبرة أن معزى الدين المصري روحي محض، ومن ثم جعلت منه مثالية تؤدي إلى الروح المطلق لأن عملية التوالد تتأثر بقلّة تأثير أشعة الشمس في الشتاء وانعدام الفيضان، ظاهرة توحى إلى فترة عصيبة تقتضي التوالد من جديد، أي اشتداد قوة الشمس في فصل الربيع وإمكانية انتظار الفيضان في فصل الصيف.

وهكذا يعيش المصري فترات مستقرة حيناً وفترات مضطربة أحياناً أخرى غير أنه يكون قد استعد لها مسبقاً وهو ما يبرزه التقدم الاقتصادي والاجتماعي والفكري... الذي أحرزه<sup>32</sup>.

### ج- انتقال الروح من مصر إلى اليونان:

إنه رغم التطور المادي والفني الجسد في الآثار الباقية إلى يومنا هذا وعلى الرغم من التنظيم الاجتماعي الدقيق، والتطور الاقتصادي في الزراعة والصناعة، وعلى الرغم من تطور الديانة إلى درجة التوحيد مع (أخناتون) بالإضافة إلى فكرة الإيمان بالبعث وهو ما تدل عليه عملية دفن الأعراس مع الموتى،... فإن هيغل يتحدث عن الروح المصرية بأنها كانت منغلقة على نفسها، هذه الروح التي بقيت فترة من الزمن تكافح لأجل الخروج بعد أن أدركت الكلي، وهنا يبرز هيغل دور اليونان في احتضان الروح الشرقية التي تصبح حرة مرحة بمجرد عبورها البحر.

يضيف هيغل أنه إذا كان كاهنا مصرياً: " يقول إن اليونانيين سيظلون إلى الأبد أطفالاً، فإننا نستطيع أن نقول على العكس من ذلك تماماً أن المصريين كانوا صبيانا أقوىاء لديهم طاقة خلاقة ولكن يعوزهم فهم أنفسهم لكي يصبحوا شباباً"<sup>33</sup>.

<sup>32</sup> - المصدر السابق، ص 199.

<sup>33</sup> - المصدر السابق، ص 214.

إذن فالروح لدى الشرقي منعمسه في الطبيعة - حسب هيغل - ويرى ذلك من خلال النقوش الشهيرة في معبد الإلهة "نيث" في مدينة سايس " أما ما هو كائن، وما قد كان، وما سوف يكون، لم يرفع قناعي أحد قط "34.

وكان الإله أبولو عند اليونان هو " الحكم " ومقولته المشهورة هي: " أيها الإنسان اعرف نفسك " .

إذن حسب هيغل، لقد صدر الأمر بمعرفة الذات لليونانيين لكي يصبح الروح اليوناني يمثل الجانب الإنساني، ولا بد من أن نستغرب من الأسطورة اليونانية التي تروى عن أبي الهول (الرمز المصري الذي يمثل التناقض) حيث طرح لغزا: " ما هو ذلك الشيء الذي يمشي على أربع في الصباح وفي منتصف النهار على اثنين وفي المساء على ثلاثة؟ " .

أبو الهول طرح هذا اللغز ويحييه أوديب: " إنه الإنسان، وبهذه الكيفية تحل المشكلة وتنتقل الروح من الشرق من مدينة طيبا إلى جبال الأولب بمحاذاة أثينا، إذن فمصر هي جسر الانتقال المثالي والداخلي نحو اليونان أما الانتقال الخارجي فقد تم عند احتكاك العالم الفارسي بالعالم اليوناني باعتبار مصر تابعة لإمبراطورية الفرس كما يقول هيغل، لذلك فقد غابت شمس فارس بينما بقيت كلا من الهند والصين على حالهما، وبهذه الكيفية نلاحظ أن هيغل قد استعمل المقياس الغربي لكي يتبين مدى التغيير الذي طرأ على الإمبراطوريات الفارسية والأقاليم المجاورة لها والتغيير السريع الذي طرأ على المنطقة بفضل اعتناقها للإسلام بعد أن تخلصت من الاستعمار اليوناني والروماني والبيزنطي مستفيدة من فلسفة وعلوم وفنون اليونان مكيفة إياها مع المعتقدات الإسلامية، مانحة الرصيد الأكبر لنهضة أوروبا الحديثة في مختلف العلوم والفنون والعمارة الذي تنكر له هيغل أو مر عليه مرور الكرام كما يقال.

خامسا - إفريقيا:

قسم هيغل إفريقيا إلى ثلاثة أقسام الأول هو إفريقيا على الأصالة وهو إقليم يقع جنوبي الصحراء وقد ظلت هذه المنطقة - حسبه - مغلقة مع جميع أنحاء العالم، بمعنى أنها متزوية على ذاتها يقول إنها " أرض الطفولة، التي ترقد فيما وراء نهار التاريخ الواعي لذاته يلفها حجاب الليل الأسود"<sup>35</sup>.

نلاحظ أن هيغل مشبع بفكرة الأنا الأوربي يعتبر كل ما هو خارج أوربا إما دوبي متخلف وإما يقصى من التاريخ لا لشيء سوى لأن الأنا الأوربي يجهله لأنه كنا يبدو يتحدث عن الفترة السابقة للكشوف الجغرافية وسقوط الأندلس وطرده العرب والمسلمين من شبه جزيرة ليبريا ونهضة الأنا الأوربي الفتي والمنتقم ممثلا في إسبانيا والبرتغال وهولندا التي اتجهت إلى الشرق الأقصى والعالم الجديد فاستعمرته ثم تبعت خطى الهاريين من العرب المسلمين واحتلت سواحل شمال إفريقيا ثم احتلت غربها ووسطها. إن التزعة الرومنطقية الأوربية واضحة عند هيغل من خلال وصفه لإفريقيا جنوب الصحراء بأنها ترقد وراء نهر التاريخ وذلك لانعزالها وبدائيتها ثم يعترف بخصوبة أراضيها ووفرة مياهها ولكنه يتحدث عن وحوشها الضارية وثعابينها السامة باعتبارها عاملان لهروب السكان، ثم يقلل من دور أنهارها وبحيراتها في التواصل لعدم صلاحيتها للملاحة ثم يؤكد على أن هذا الجو العالم غير ملائم للأوربيين وهذه نقطة مهمة تسجل ضد هيغل الذي يتصور إفريقيا أرضا خالية يمكن للأوربيين أن يعمروها وإذا حدث وكان هناك سكان يمكن إبادتهم إذا أبدوا مقاومة أو إخضاعهم أو استعبادهم!

### أ- هيغل وزنوج إفريقيا:

ينظر هيغل إلى زنوج إفريقيا نظرة دونية فهو يتحدث عن طبيعة أرضهم الصعبة وعن معاشهم في وسط الحيوانات المتوحشة والثعابين والأفاعي السامة والجبال المرتفعة والمجاري المائية

التي لا تصلح للملاحة أما عن الطرق فإنه من النادر أن يشق الزوج طريقاً وسط هذه الطبيعة الصعبة وفي الوقت ذاته يعترف بجهله إذا ما كانت هناك حركة وتواصل في داخل إفريقيا أم لا وأن ما يعرفه عن هذه القبائل هو " التضاد بين سلوكهم في حروبهم وغزواتهم التي يتحلى فيها أعظم قدر من اللاإنسانية والوحشية والهمجية البغيضة وبين سلوكهم عند زوال غضبهم"<sup>36</sup>.

إن حكم هيغل على شعوب إفريقيا فيه تناقضان أما الأول فيتعلق بأنه يجهل مدى تواصلهم داخليا وأما الثاني فيتعلق باختلاف سلوكهم بين فترتي السلام والحرب وهذا ينسحب على كافة شعوب المعمورة لأن جل الفلاسفة يؤكّدون على أن أخلاق الناس وطباعهم تختلف بين فترات السلم والحرب وهيغل يعيب على سكان إفريقيا وحشيتهم أثناء فترة الحرب كيف لا وقد استقى معلوماته من مصادره الغربية مثل المؤرخ اليوناني المشهور هيرودوت الذي يعتبر الزوج سحرة وبالتالي فالساحر لا تكون لديه فكرة الله ولا الإيمان وهو يعتبر نفسه هو الذي يؤثر على مسار التاريخ العالمي لذلك فهيجل يتهم الزوج بأنهم ليس لهم علم بخلود الروح وهم يأكلون لحم البشر ويعتبرون العملية عادية ويهدف التقليل من شأن الزوج يصفهم هيغل بالشهوانيين أي أنهم لا يستخدمون العقل وإنما يخضعون في تصرفاتهم لشهواتهم كما يشبههم بالحيوانات المفترسة لأنهم عندما يتصارعون من المألوف أن ينتزع المنتصر قلب خصمه ويأكله بعد أن يكون قد قتله ثم يضيف هيغل مستخفا بالزوج نافيا عنهم أية مشاعر أخلاقية لأنه لا يوجد أي تفسير لشجاعتهم وإقدامهم وتصديهم لعدوهم فهذا في نظر هيغل ليس تحررا ونبلا ورفعة وإنما يقومون بذلك لأنهم يفتقرون إلى احترام الجماعة.

### ب- الاستعباد عمل إنساني:

إن هيغل يعتبر استعباد الأوربيين للزوج وبيعهم للأمريكيين عملا إنسانيا راقيا لصالح الزوج، إذ يعتبر عملية استعباد الزوج مساهمة في تحسين وضعيتهم لأن انتقلهم إلى أمريكا كعبيد

هي بمثابة عملية ترفيه بالنسبة لهم إذ ساهم في إدخالهم إلى الحضارة بخلاف بقائهم في وسط الأدغال بين الحيوانات والثعابين<sup>37</sup>.

إن فيلسوف الحرية والديمقراطية الإنسانية يستخف بزواج إفريقيا وتطغى عليه فكرته المعروفة بجدلية " العبد والسيد " فيحاول إسقاطها على الواقع من خلال تبرير استعباد زواج إفريقيا علما أن هذه العملية تعد من أكبر الجرائم التي ارتكبت في حق هذه الشريحة من البشر والتي مارسها الأنا الغربي المتعجرف ضد الآخر سواء كان من الزنوج أو من والهنود الحمر أو غيرهم فيتحول الإنسان من حر طليق في مجتمعه القبلي وطبيعته العذراء إلى شبه حيوان يسخر لخدمة الأنا الغربي فيبياع في الأسواق مثل الأدوات والحيوانات.

إن أغلب مواقف هيغل من الزنوج تحمل في طياتها نظرة استعلائية وعنصرية تهدف إلى الخط من قيمتهم والمساس بكرامته وإنسانيته. حتى شجاعة هذا الإنسان في مواجهة المستعمر الأوربي يحاول هيغل إفراغها من مضمونها الحقيقي، فيرى في إقدامه على الموت برصاص الأوربي ليس دفاعا عن الوطن والأرض والعرض والحرية وإنما نتيجة احتقارهم للحياة!<sup>38</sup>.

يعد هذا الحكم استخفافا كبيرا بالزنوج وتناقضا صارخا يقع فيه هيغل الذي يعتبر عملية مقاومة الاستعمار إقدام على الموت بمحض إرادة الزنجي، حيث أن هيغل لو تمنع قليلا في ذهاب الأوربي إلى بلاد الزنوج واستعمارها واستعباد أهلها لوجد أن مقاومة الزنوج هو رد فعل طبيعي ينم على التمسك بالحرية والوطن والحياة الكريمة الطليقة وليس عملية انتحارية كما يصورها هيغل، للأسف أن نظرة الأنا الغربي إلى الآخر الزنجي أو العربي الإسلامي الذي يقاوم الاحتلال هي نظرة مشوهة، فالعراقي الذي يقاوم الغزو الأمريكي في العراق اليوم والفلسطيني الثائر الذي يتحدى قناصة المعتصب الصهيوني في فلسطين بوصف كل منهما بأنه إرهابي، والعمليات الجهادية التي يقوم بها المقاوم دفاعا أو ردا عن العدوان يبيعها الغرب ويعتبرها عمليات انتحارية لإفراغها من

<sup>37</sup> - المصدر السابق، ص 178.

<sup>38</sup> - المصدر نفسه، ص 177.

مصامينها النبيلة ونشويه أهدافها الحق السامية وبتلك حرب نفسية يستدرك من خلالها العرب ما عجزت آلتة الحربية عن تحقيقه.

يسخر هيغل من الديانة الوثنية المنتشرة في إفريقيا المبنية على السحر والشعوذة، وهذا ما تؤكده مصادره التي تكون غالبا مستقاة من المبشرين أو دعاة الاستعمار الذين طالما روجوا لبعض الخرافات عن الآخر، كوجود ممالك خاصة بالنساء تكثر فيها العذارى (وهي دعوة حماسية للأوروبيين المنحرفين من أجل شد الرحال إلى هذه البلاد) إضافة عن حديثهم عن ملوك يصل عدد نساءهم إلى ثلاثة آلاف وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين (3333) إضافة إلى أن الملك لا يتحرك إلا وبجانبه الجلاد أو قاطع الرؤوس، إن زرع مثل هذه الأفكار هو ما يسهل في مهمة إخضاع هؤلاء الزوج فبجرد أسرهم ينقلبون من الشجاعة وقوة المقاومة إلى الإذعان والاستسلام، غير أن هيغل يؤكد عدم قابلية الزوج للتحضر، وفي المقابل يتناقض مع نفسه حيث يقول: أنهم من جهة يتسمون بالوحشية واللاإنسانية البغيضة ثم يظهر له أنهم أناس طيبون يبدوون نحو الأوروبيين<sup>39</sup>.

وعندما يتعرض هيغل إلى جزيرة العرب باعتبارها أرض صحراوية وسهول مرتفعة يصفها بأنها إمبراطورية التعصب<sup>40</sup> تماما كما يصف الزنجي الذي يرى بأنه يصعب عليه تقبل الحضارة الغربية، فهو في نظره يمثل الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية. ثم يعترف في ذات الوقت بالدور العظيم للإسلام في إدخال الزوج في الحضارة الإسلامية وفي زمن قياسي - مما يدل في نظرنا - على بعد نظر الزوج وإدراكهم لمكونات وحقيقة مبادئ الدين الإسلامي العادلة السامية التي حفظت كرامتهم وفي ذات الوقت عن غفلة هيغل وإحجامه عن الاعتراف بالسبب الحقيقي الذي شد الزوج إلى الإسلام الذي لا يظلم في رحابه أي مخلوق كان على خلاف الحضارة الغربية التي تتشدد بالحرية والمساواة والعدالة كمبادئ لا يتسع مجال تطبيقها خارج حدودها الجغرافية الضيقة، بل يسعى الأنا الغربي إلى تطبيق عكسها تماما إذا ما تعلق الأمر بالآخر.

<sup>39</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 173.

<sup>40</sup> - المصدر نفسه، ص 184.



نلاحظ أن مثل هذه الأحكام العنصرية والتي مصدرها الأنا الأوربي أو الرجل الأبيض، الذي عمل من خلال استعمار الآخر على محاولة تلقينه بطريقة قسرية كل ما هو غربي من قيم ثقافية واجتماعية ودينية واقتصادية... وكلما أبدى مقاومة لهذا الغزو الفكري الموازي للغزو العسكري، وصف بأرذل النعوت: كالدونية، عدم القابلية للحضارة مع عدم الاعتراف بحضارته وثقافته، ووصف خصوصيته بأنها معيقة للتطور والتقدم، وبهذه الكيفية فإن إفريقيا السوداء لا تاريخ لها وإن كان هناك تاريخ فإنه اضمحل. لهذا فإن هيغل يعتبر إنسان إفريقيا بمثابة الطفل الذي يجب والذي يجب عليه أن يدخل تحت حماية الأوربيين لكي يتعلم ويشقف ويتحضر عنهم، مسaire للرأي القائل: بأنه ليس للأفارقة تاريخ ولا ثقافة إلا في أدنى المستويات وأن نصيهم من ذلك لا يرتفع كثيرا عن مستوى الحيوانات، مما كان يدفع الأوربيين إلى معاملتهم كما لو كانوا حيوانات بالفعل، كما قال هويت كروفت<sup>41</sup>. إذن هذه هي نظرة الأنا الأوربي إلى الآخر الإفريقي.

#### سادسا- إفريقيا الأوربية:

أما عن نظرة هيغل إلى شمال إفريقيا فإنها تحمل الكثير من التناقض فهو من جهة يصف هذه المنطقة بالأوربية، حيث يقول: " والقسم الثاني يقع شمالي الصحراء وهو أرض ساحلية... تقع على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلسي، وهو إقليم رائع كانت توجد فيه قرطاجنة فيما مضى وتوجد به الآن مراكش الحديثة، والجزائر وتونس وطرابلس"<sup>42</sup>.

نلاحظ أن هيغل يعجب كثيرا بهذا الإقليم وينوه بمدينة قرطاجنة التي كانت عاصمة الفينيقيين والتي شهدت حضارة مزدهرة، نالت تقدير الغرب وإعجابهم، وقد كانت تلك المدينة منارة في فن العمران ومختلف الفنون والعلوم والتجارة، لكن للأسف أن هيغل لم يتعرض إلى الهجومات الهمجية التي قام بها الرومان ملحقين أذى كبيرا بإنسان هذه المناطق وحضارته ورغم

<sup>41</sup> - المصدر السابق، ص 178.

<sup>42</sup> - المصدر السابق، ص ص 172-173.

استسلام المقاومين فإن قائد الحملة الروماني أمر جنده بقتل كل كائن حي في المدينة مع الحرق والتدمير لكل معالم الثقافة والعمران والحضارة، وهذه الحادثة تذكرنا بموقف الأنا الغربي من الحضارات الشرقية، إن حادثة تحطيم قرطاجنة من طرف الرومان تمثل أهم المحطات التاريخية السوداء التي تبلور موقف الأنا الغربي من الآخر الشرقي وخاصة العربي الإسلامي، وهيغل المعجب بالفينيقين لم يتعرض للغزو الروماني لهذه المدينة وحضارتها العريقة (قرطاجنة) وذلك موقف متحيز وغير موضوعي من فيلسوف عملاق كهيغل في موقفه تجاه الآخر.

ويبرز تناقضه الصارخ من خلال وصفه لسكان إفريقيا بنفس الأوصاف التي أطلقها على سكان جزيرة العرب وسهوب منطقة آسيا، ذات المناطق الرعوية الذين يجمعون في سلوكهم بين الكرم الزائد من جهة وبين السرقة والغش والخداع من جهة ثانية، كما يصفهم بالدونية وعدم القدرة على تغيير أوضاعهم إضافة إلى النعوت التي أطلقها على الأعراب الذين تساعدهم خيولهم السريعة وجمالهم في عمليات السلب والنهب، ومن جهة ثانية يعتبرهم أورييون، ويتضح التناقض أكثر عندما يصدر حكما بهذه الصيغة: " ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من إفريقيا بأوروبا، ولا بد بالفعل أن يرتبط بها، ولأن بذل الفرنسيون جهودا ناجحة في هذا الاتجاه بغزوهم للجزائر"<sup>43</sup>.

ويضيف هيغل إلى تناقضه السابق تناقضا آخر يتمثل في تشبيه هذا الجزء من إفريقيا بآسيا الصغرى والتي يوجد فيها أغلبية اليونان إضافة إلى منطقة تركيا والشام وإيران التي يلحقها هيغل كلها بأوروبا باعتبار أن العنصر الآري الذي يتشكل منه الجرمان قد هاجر من منطقة إيران الحالية نحو أوروبا.

من أغرب سلوكات عملاق الفلسفة الغربية هيغل الذي يعد من بين أكبر الذين دافعوا عن كرامة الإنسان وحقوقه وحرية، هيغل المعجب بمبادئ الثورة الفرنسية، إلا أنه وبمجرد ما علم

بالعزو الفرنسي للجزائر حتى قام بمباركته معتبرا أن العزو والتقتيل ومصادرة الحريات وأموال الأشخاص والجمعيات عملا بطوليا تقوم به فرنسا بهدف إرجاع هذه المنطقة إلى طبيعتها الأوربية وديانتها الصليبية، كيف لا وهو يشير إلى أن هذه المنطقة وهؤلاء السكان البرابرة - كما أطلق عليهم اليونانيين - هؤلاء السكان الذين يشتغلون بالقرصنة، كان من الواجب على فرنسا أن تخضعهم وأن تدخلهم الحضارة الغربية والدين المسيحي واللغة الفرنسية، فهيجل بإصداره لهذا الحكم يكون قد ارتبط بالطبيعة الأوربية التي لا تعترف سوى بمحيطها الضيق والذي عرف فيما بعد (بالمركزية الأوربية) لذلك كان حكمه ذاتيا ينم عن عنصرية دفيئة وكأن العالم يوجد حينما يوجد الوعي الأوربي ويزول ويختفي عندما لا يعيه الأوربي أو يجهله، فالمعرفة بهذه الكيفية تساوي الوجود عندهم<sup>44</sup>. إن القارئ لتاريخ حياة هيغل يدرك حقائق عدة منها:

حب هيغل الشديد للتراث اليوناني شعرا وفلسفة، إضافة إلى تكوينه في معهد (توبينغن) المسيحي، ولا ننسى أن الحملة الفرنسية على الجزائر كانت قد جاءت في سياق أن المركزية الغربية وكنتيجة لبروز الإسلام ووصوله إلى أجزاء في غرب أوروبا الأندلس إضافة إلى فتحه لثاني عاصمة مسيحية (القسطنطينية)، ودكه لحصون (فيينا) لذلك فإن الغرب الناشئ الذي أصبح قويا بفضل استغلال العلوم واستخدام العقل في مختلف مجالات الحياة، وقد تسنى له ذلك في وقت خمود بقية العالم وتحديد العالمين العربي الإسلامي، وهو ما شجعه على الانتقام وفي الوقت ذاته، اعتبارا من أن المناطق التي كانت خاضعة للاستعمارين: الروماني والبيزنطي تابعة له لذلك فقد تمهيا لاسترجاعها، وقد شرع مسخرا لتحقيق ذلك مختلف الوسائل العلمية كالاستشراق والبعثات التبشيرية السرية وتجارة الرقيق، ثم عن طريق العزو الاستعماري الذي باركه هيغل وهذا ما شجع الفكر الأوربي على التوسع في هذا الاتجاه واعتبار شمال إفريقيا امتدادا لأوروبا كما حدث أثناء قيام الإمبراطورية الرومانية التي اعتبرت شمال إفريقيا عمقها الاستراتيجي في مجال التغذية، حيث اعتبرتها مخزنها الأساسي للحبوب، كما أقامت مدنا لضمان راحة جنودها، بعد تفرغهم من أداء الخدمة

العسكريه كتبسه ونيمقاد وجميله شمال شرق الجزائر، وعلى النهج نفسه سارت أوروبا النهضة وذلك منذ القرن السابع عشر، ففي عام 1656 كتب الجغرافي الملكي في فرنسا يصف شمال إفريقيا: " بأنها جزيرة كبيرة جدا تؤلف القسم الثالث أي الجزء الجنوبي من قارتنا"<sup>45</sup> يقصد بها قارة أوروبا.

إذن لقد عملت فرنسا وفقا لهذه المغالطة أو الأكذوبة التي صدقتها مع مرور الزمن، وقد عملت بمختلف الوسائل - بما في ذلك - محاولة إبادة العنصر الجزائري أو استعباده وغرس عقدة الدونية فيه حتى يبقى دائما خادما وتابعا لفرنسا، ورغم قيام الوطنيين بثورة عظيمة هزت كيان الاستعمار الفرنسي لا في شمال إفريقيا فحسب بل في إفريقيا والعالم، ورغم ذلك فإن آثار الاستعمار الثقافي والتبعية في مختلف مجالات الحياة مازالت ماثلة إلى يومنا هذا، وهذا راجع - حسب اعتقادنا - إلى طبيعة الصراع القائم بين الشرق والغرب بين الأنا الأوربي والآخر العربي الإسلامي، ومن هذا المنطلق فإن هيغل عبّر عن حرية وكرامة الإنسان الأوربي مهما الآخر وخاصة العربي الإسلامي الذي لا يهم هيغل في شيء وخاصة الدين الإسلامي الذي دخل مع العرب الفاتحين الناشرين للدين الجديد والمساعدين للشعوب المحلية في التخلص من الاستعمار البيزنطي الذي يعتبره هيغل حقا طبيعيا لأوروبا معتبرا الغزو الفرنسي واجب الوجود تجاه هذا الشعب البربري من أجل إلحاقه بأصوله الرومانية المسيحية، ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن هيغل قد استخدم منطلقا زائفا بمحاولته جعل هذا الوجوب أمرا ضروريا يجتمه المنطق والتاريخ في حين يتغاضى عما قامت به فرنسا الاستعمارية من مجازر وذلك لأنها حققت الوجوب العقلي الذي يؤمن به هيغل.

<sup>45</sup> - أحمد أبو زيد: إفريقيا ومشكلة البحث عن هوية، مجلة عالم الفكر، ص 193.

لكن من المؤكد والواضح أن هيغل قد كانت ناقصه المعلومات الميدانية التي كان يتمتع بها الرحالة العرب في وصفهم للأقاليم والسكان في سلوكهم ومواقفهم ودياناتهم وحتى أمزجتهم ولغاتهم مثلما كان يفعل المسعودي وابن بطوطة والبيروني وغيرهم... .

إن معلومات هيغل عن " إفريقيا على الأصالة "... وهي المناطق الجبلية التي تكاد تكون مجهولة تماما...<sup>46</sup>. إذن لماذا إفريقيا المجهولة تماما؟

لأن الوعي الأوربي يجهلها، وهذا منطبق ضيق مقارنة له بما قام به الرحالة العرب، إذن فإن أحكام هيغل عن إفريقيا، وسطها وجنوبها حكم صادق انطلاقا من المنطق الأوربي الذي ينظر إلى إفريقيا بأنها منطقة لأنه لم تطأها قدم الرجل الأبيض، أما الحكم الخطير الذي أصدره هيغل عن شمال إفريقيا فهو أيضا حكم خاضع للمركزية الأوربية غير أنه يعتبر تمهيدا فكريا لحركة الاستعمار الأوربي الحديث لقارة إفريقيا ثم آسيا، كما حدث للعالم الجديد، كما يعد حكمه تبريرا عقليا ممتازا وتعريفا للاستعمار الاستيطاني: بأن هناك واجب على الإنسان الأوربي القيام به وهو تعمير أقاليم أو أراضي الآخر، بهدف تحضيره ولذلك يجب تقديم هويته القائمة بهدف تغييرها أي إحلال المسيحية والتغريب ونشر اللغات الأوربية كعامل أساسي لدمج هذه الشعوب الهمجية المتوحشة اللالإنسانية! أي منطق هذا يبرر به الأنا الأوربي غزو الآخر واستعمارها.

كما تجب الإشارة إلى تمجيد هيغل للاستعمار أو الغزو الأجنبي والحجة على ذلك إعجابه بنابليون وهو يغزو ألمانيا ورغم عبث أفراد من الجيش الفرنسي ببعض أوراقه الموجودة في مسكنه فإنه لم يعلق على ذلك لسبب بسيط وهو رؤيته لروح العالم ممتطيا صهوة جواده، هذا الحكم أصدره على بلاده فكيف ننتظر منه أن يكون رحيما بالجزائر وهي تتعرض للغزو الفرنسي!

إذا فالفيلسوف الألماني يؤيد دخول القوات الفرنسية أرض الجزائر سنة 1830م والتأييد لم يستمد من المنطلقات السابقة أي من تطور العقل وتحقيق الروح لذاتها وإنما يستنبط من فكرة

مسبقة روجت منذ سيادة اليونان على البحر الأبيض المتوسط وامتداد نفوذهم إلى شمال إفريقيا ثم بروز روما كقوة مهيمنة على البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى الاستعمارين البيزنطي والوندالي مع انتشار المسيحية جزئيا في شمال إفريقيا باعتبارها امتداد طبيعي للشرق الأوسط، لذلك فإن هيغل قد اعتبر هذه المنطقة أوربية ولذلك لم يعترض على الغزو الفرنسي للجزائر وراح يباركه ويشجعه، لأنه يؤمن أن الحرب هي الأداة التي تؤدي إلى التغيير وفي الوقت ذاته تحقيقا لمقولته التي مؤداها أن شمال إفريقيا مجال أوربي يجب اقتطاعه من إفريقيا وإلحاقه بأوربا.

### ب- رأي أنجلز:

وفي هذا السياق يمكن أن نورد رأيا لفيلسوف غربي مغاير لرأي هيغل فيما يخص الغزو الفرنسي للجزائر ألا وهو "فريدريج أنجلز" Friedrich Angles الذي كان يعمل مراسلا لصحيفة انجليزية "دي نورثن ستار" "نجمة الشمال" الناطقة بلسان الطبقة العاملة في بريطانيا آنذاك، في الغزو الفرنسي للجزائر في نظر أنجلز هو استيطان للمعمرين، أو هو مظهر من مظاهر المجرات الأوربية الحديثة كنتيجة لضيق مساحة أوربا ولكثرة المنافسة فيها نظرا لتطور النظام الرأسمالي وقلة الفرص المتاحة حيث تم تدشين أكبر هجرة خارج أوروبا نحو القارة الأمريكية والنموذج الأمثل لهذا الاستعمار في نظر أنجلز هو الولايات المتحدة الأمريكية لذلك فإن الغزو لا يعني أنه واجب الوجود كما ذهب إلى ذلك هيغل وإنما هو استعمار اقتصادي صرف يقوم أساسا على استغلال المواد الأولية الطبيعية والزراعية بدون مقابل أو بثمن بخس وفي الوقت ذاته تصريف المنتجات الصناعية، إذا فهو ناتج أساسا عن تطور النظام الرأسمالي وليس على ضوء الفروق الحضارية أو انطلاقا من مبدأ الرسالة التحضيرية كما يدعي منظرو الاستعمار الفرنسي والدليل على ذلك أن أنجلز يشهد على تفوق المقاومة الجزائرية في عدة مواقع إلا أنه وعلى الرغم من إشادته ولو على طريقة غير مباشرة بالمقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي ولكن هذه الإشادة لم تمنعه من مجاملة القارئ الإنجليزي من باب الانتماء إلى الأنا الأوربي أو الغربي وهذا يتضح في المقال

الثاني عن غزو الجزائر مدكرا القارئ الإنجليزي بأن له جيشا يربط بالهند داعيا إياه إلى تنظيم نفسه مثلما فعل الفرنسيون في الجزائر (أشار إلى تجهيز الجيش الفرنسي ببنادق<sup>47</sup> حديثة بعيدة المدى، وتمتاز بالدقة في التصويب، مع تشكيل فرق عربية تسمى (الزواف) لمحاربة العرب)<sup>48</sup>.

وبهذه الكيفية زادت انتصارات الجيش الفرنسي، وقد تمنى أن أنجلز أن تقوم إنجلترا في الهند بنفس الخطوات التي قامت بها فرنسا في الجزائر، إذا فأنجلز لم يعارض الغزو سواء كان استعمار استيطاني أو غزو عسكري فقط وإنما في نهاية المطاف كان حكمه لصالح الأمر الواقع لكي يعبر عن الأنا الأوربي، إذا فأنجلز يتحدث هنا بصفته أوروبيا خاصة وأنه يتوجه بمقالاته إلى جمهور إنجليزي أمريكي مسيحي لذلك فهو يبحث عن مبررات الغزو عندما يتحدث عن معاناة الأسرى المسيحيين في الجزائر ولكنه لم يذكر معاناة الأسرى المسلمين في السجون الأوربية.

كما نلاحظ أن أنجلز انساق وراء طروحات الصحف الفرنسية خاصة عندما يتعلق الأمر بالمقاومة ومقاومة الأمير عبد القادر للاستعمار والذي اضطرته الظروف الصعبة للاستسلام بشروط وعندما تعرضت الصحف الفرنسية لأسر الأمير وسجنه عندئذ عارضها أنجلز مؤكدا أن الأخلاق الفرنسية لا يمكن أن تخالف وعدا قطعه ابن ملك ويقصد به الدوق ديمال Duc Daumal الذي تعهد للأمير عبد القادر بتحقيق رغبته في اختيار المنفعة إلا أنه سرعان ما تراجع مؤكدا على أهمية الاستسلام لأن الأمير حسب رأيه كان يكافح بلا هدف فاعتبار أن ما قامت به فرنسا في الجزائر والعمل على تحضيرهم عمل ملائم لروح العصر<sup>49</sup>.

وقد عبّر عن رأيه قائلا: " إن رأينا بالإجمال هو أن من حسن التوفيق الكبير أن يكون الزعيم العربي قد أسر، فقد كان صراع البدو بلا أمل، وعلى الرغم من الكيفية التي أدار بها الحرب

<sup>47</sup> - ماركس أنجلز: الماركسية والجزائر، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1978، ص 45.

<sup>48</sup> - المرجع نفسه، ص 46.

<sup>49</sup> - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. ش. و. ن. ت، ط2، 1981، ص 79.

حنود أفظاط من أمثال بيجو نستحق الإدانة الشديدة، فإن فتح الجزائر واقعته مهمة لتقدم الحضارة<sup>50</sup>.

نلاحظ التناقض في خطاب أنجلز عندما يتأسف مما لحق بالجزائر من خسائر في الأرواح كما تأسف أيضا لتقييد الحريات لكنه سرعان ما يتناسى كل هذه الويلات يؤيد كلام هيغل حيث يواصل قائلا لكن السبب في هذا الدمار هو هؤلاء البدو والبرابرة الذين هم شعب لا وظيفة له غير السرقة وهم لا يهدؤون إطلاقا فدائما يقومون بغزو بعضهم البعض حيث يقوم غالبا القرويون ينهب سكان المدن وأسر بعضهم حيث يقومون ببيعهم في الأسواق فيصبحون عبيدا والملفت لانتباه أن جميع شعوب البربر بيدون للناظر من بعيد في غاية العزة والنبل والبهاء<sup>51</sup> لكن بمجرد أن تقترب منهم تكتشف أن الشر يسيطر عليهم وأن دافع الكسب يحركهم مثلهم في ذلك مثل الشعوب الهمجية.

### ج- رأي كارل ماركس بين المبدأ والواقع:

انطلاقا من حكم أنجلز المتناقض حول الغزو الفرنسي للجزائر ورغم إقراره بالممارسات اللاإنسانية المرافقة لسياسة الغزو والاستيطان في الجزائر، إلا أنه لم يعارض رأي هيغل، بل جاء حكمه مطابقا لمفهوم الاستعمار باعتباره عملية تحضيرية يقوم بها الأنا الأوربي المتحضر في مجال الآخر الشرقي المتخلف.

أما كارل ماركس الذي كان صديقا شخصيا ورفيقا فكريا لأنجلز الذي أصبح خليفة لماركس بعد وفاة هذا الأخير، والذين حررا البيان الشيوعي المشهور 1848 وهو التاريخ الذي صادف لجوء الأمير عبد القادر إلى الأراضي المغربية بعد نفاذ المؤونة والذخيرة وتطبيق الغازي

<sup>50</sup> - المرجع نفسه، ص ص 80-81.

<sup>51</sup> - المرجع نفسه، ص 81.



لسياسة الأرض المحروقة وتأليب القبائل ضده والصعق على ملك المغرب لطردة، وإحراق الأذى بمساعدته، مما اضطره إلى مفاوضة العدو والاستسلام بشروط<sup>52</sup>.

إن كارل ماركس الذي كان قد زار الجزائر<sup>53</sup> وكتب رسائل منها إلى رفيقه أنجلز وبعض أفراد عائلته، ومن خلال هذه الرسائل فإن ماركس لم يكن مختلفا كثيرا عن رفيقه أنجلز ولا عن أستاذه هيغل رغم الاختلاف الإيديولوجي الذي يفرق بينهم داخل الأنا الغربي إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالآخر الشرقي خاصة العربي الإسلامي مثلما هو الشأن الجزائري فإنهم يتفقون حول اعتبار نمو الرأسمالية وتقدم الصناعة أديا إلى ظهور الاستعمار لا باعتباره أسلوب غير حضاري يتمثل في الهيمنة والاعتداء على الآخر وسلب ثرواته وتفقيره وتجهيله وخلخلة قيمه وتهدم هويته مثلما وقع للجزائر وإنما فقد انضما إلى رأي أستاذهما هيغل حيث اعتبرا أن الاستعمار وسيلة لتحضير الشعوب، هذا عندما يتعلق الأمر بالآخر إلا أن الأمر يختلف عن ماركس عندما يتعلق الأمر بالأنا الأوربي ففي مسألة إيرلندا مثلا يناهض ماركس ما قامت به المملكة المتحدة ضد إيرلندا وبهذه الطريقة اعترف بالصفة القومية للشعب الإيرلندي وحقه في الانفصال أو الاستقلال، وهذا ما يؤكد حقيقة الأنا الغربي مهما كان توجهه ومهما كانت إيديولوجيته وهو الذي يستعمل مكيايين

<sup>52</sup> - عبد الحميد بن هدوقة: مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، ماي- جوان 1983، ص ص 211-212.

<sup>53</sup> - في ثمانينات القرن التاسع عشر زار ماركس الجزائر، وذلك بأمر من أطبائه الذين نصحوه بشمس الجزائر وهوائها، وقد كتب ماركس أثناء إقامته بالجزائر رسائل إلى صديقه أنجلز وإلى بعض أفراد عائلته، حيث كان المرض يشغل الحيز الأكبر من رسائله، ثم يتطرق إلى حالة الجو أو بالأحرى يتحدث عن سوء الطقس الذي خالف توقعات ماركس وأطبائه حيث كانت الفترة باردة وممطرة وكانت حالة ماركس الصحية تتطلب البعد عن هذا الجو أي أن يكون في بلاد مشمسة وحافة ومع استعمال الدواء يتمثل للشفاء لذلك فقد نصحه الأطباء بالسفر إلى واحة بسكرة أو بوسعادة، لكن كثرة الثورات حالت دون تحقيق ماركس لمتطلبات صحته حيث عرقله هذا الجو غير الملائم وحال دون مواصلة عمله الفكري، فكان يكتبني بمطالعة صحيفة فرنسية محلية كانت تصدر في الجزائر العاصمة واسمها "المعمر الصغير" "Le petit colon" ويتابع المعلومات الوحيدة التي تصله عن الجزائر خارج جريدة المعمرين هي حكايات القاضي فيرم Fèrme الذي كان ينقل إليه معاناة المواطنين الجزائريين من ظلم القضاء الفرنسي المتعسف في حقهم مع الإشارة إلى أن تردي الحالة الصحية لماركس مع تقلبات الطقس وسقوط أمطار غزيرة كما وصف ذلك في رسائله إلى ابنته، حالت دون تجواله في الجزائر العاصمة كما عرقلت الحالة اللأمنية السائدة في الأقاليم البعيدة عن العاصمة تحرك ماركس نحو الجنوب الشرقي. للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب ماركس أنجلز: الماركسية والجزائر، ص ص 80-81.

مختلفين لقضايا متشابهة، فمثلا في هذه القصية التي تخص استعمار إنجلترا لايرلندا والتي أداها ماركس وغيره من مفكري أوربا والكل يؤكد على حق الشعوب في الوجود كما يؤكدون على حقهم في تقرير المصير، أما إذا تعلق الأمر بالآخر غير الأوربي فإن الموقف سيختلف باعتبار أن التحليل سيكون اقتصاديا صرفا يعني حتمية التوسع الاستعماري من أجل إيجاد أسواق لتصريف المنتجات ومواد خام بدون مقابل، أما إذا كانت هناك إدانة فستكون رمزية، مثلما فعل ماركس وصديقه أنجلز حيث أدانا فقط الوسائل الرهيبة المستعملة لنشر الثقافة وتبليغ الرسالة الحضارية.

إلا أن ماركس وبعد إطلاعه على الطرق المستخدمة لترع ملكيات الجزائريين وتحويلها من شكل جماعي (أرض عرش) إلى ملكية فردية في يد الأوربيين، عبّر عن تدمره من هذا الأسلوب وتراجع عن استخدام عبارتي "البربرية" و"الهمجية" على الآخر الجزائري وذلك عند وضعه لملاحظات حول هامش كتاب كوفالينيسكي<sup>54</sup>، عن أشكال الملكية الجماعية للأرض، فالمستعمرون عندما يقومون بتدمير الشكل الجماعي للملكية في الجزائر لم يعودوا "معمرين" وحاملين أنوار وبناء حضارة ورواد تقدم بل يأخذون بعدهم الواقعي كلصوص فهايين "بنات آوى" على حد تعبير ماركس<sup>55</sup>.

وبهذا التهميش ينقلب رأي ماركس رأسا على عقب ضد دعاة المدنية والحضارة الأوربيين الذين ما هم إلا مصادرة ملكيات الجزائريين وتخطيط القانون العرقي للسكان "الذين يصنعون في قرارة أنفسهم عدم قابلية أراضيهم للقسمه وهذا ما يجذبه ماركس الذي يعتبر نظام ملكية أراضي

<sup>54</sup> - كارل ماركس: حول الهند والجزائر، تعريب وتقديم شريف الديشوني، دار ابن خلدون، ط1، بيروت، 1980 ص

العرش من وجهة نظر الرقي الحضاري أكثر تقدما من النظام الرأسمالي وأكثر مواءمة لشكل غير رأسمالي للتطور التاريخي<sup>56</sup>.

هذا حسب مفهوم المادية التاريخية التي تعتبر الفترة السابقة للملكية الفردية بمثابة العصر الذهبي إذا وبفضل هذا الطرح الماركسي المخالف لطرح هيغل تتحول نعوت " المهمجين " والبرابرة التي كانت تعني في قاموس هيغل سكان شمال إفريقيا أو الجزائريين على وجه الخصوص وتصبح شاملة فقط المستعمرين الأوروبيين، الذين عرفلوا<sup>57</sup> سكان إفريقيا وآسيا من التقدم والاستيقاظ وهذا هو المعنى الذي أكده "لينين" lenine فيما بعد في مقال بعنوان أوربا المتأخرة وآسيا المتقدمة.

---

<sup>56</sup> - المرجع نفسه، ص 118.

<sup>57</sup> - المرجع نفسه، ص 9.

# الفصل التاسع

أوروبا الرومان واليونان

والجرمان والعالم الجديد

## أولا - أوروبا:

تختلف أوروبا طبيعيا عن كل من إفريقيا وآسيا ويتميز الطابع الأوربي باختفاء التباين الذي يتمثل في التنوعات الموجودة السابقة في القارتين السالفتي الذكر، أو على الأقل تتميز القارة الأوروبية بخصائص طبيعية أكثر اعتدالا من إفريقيا وآسيا، ففي أوروبا لا توجد أراض مرتفعة تقف في تضاد مباشر مع السهول، ولذلك فإن القطاعات الثلاثة في أوروبا تتطلب أساسا مغيرا للتصنيف بخلاف ما هو سائد في إفريقيا وآسيا.

## أ- القطاع الأول:

هو أوروبا الجنوبية التي تطل على البحر الأبيض المتوسط وإلى شمال البرانس توجد سلسلة جبال تسير عبر فرنسا متجهة نحو الغرب لكي ترتبط بجبال الألب التي تفصل إيطاليا عن فرنسا وألمانيا، ومن ثم اليونان " منارة التاريخ العالمي " كذلك إلى هذا الجزء من أوروبا توجد اليونان التي مثلت قمة مسرح التاريخ العالمي بعد اليونان وذلك خلال فترة طويلة من الزمن، وقد وجد روح العالم وطنه هنا عندما لم يكن وسط أوروبا وشمالها متمدنا، حيث كان على الفطرة.

## ب- القطاع الثاني:

هو قلب أوروبا الذي فتحه الإسكندر الأكبر حين غزا بلاد الغال ولقد كان هذا الفتح عمل يجدر التنويه به بل هو عمل بطولي من جانب القائد اليوناني العظيم والذي عاوده أيضا القائد الروماني حيث كان أخصب من الفتح الأول الذي قام به الإسكندر الأكبر في شماله، حين أخذ على عاتقه واجب حمل رسالة حضرية إلى الشرق حتى يشارك في مستوى الرقي اليوناني، ولهذا يقول هيغل إن إنجاز الإسكندر الأكبر رغم أنه في مضمونه أجمل وأنبى بالنسبة إلى الخيال لكنه سرعان ما تلاشى بوصفه مجرد مثل أعلى لم يقدر الإنسان الشرقي على استيعابه، أما البلاد التي

غزاها القائد الروماني وهي قلب أوروبا ويعني بها تحديدا فرنسا وألمانيا وإنجلترا<sup>1</sup> التي كان اليونان يطلقون عليها اسم البلاد البربرية.

### ج - القطاع الثالث:

وهو يتألف من دول شمال شرق أوروبا كروسيا وبولونيا والممالك السلافية، وقد ظهرت متأخرة في سلسلة الدول التاريخية وهي تكون حلقة الوصل مع آسيا وتحفظ الاتصال معها، ومن خلالها تحقق الانتقال الخارجي للروح من إمبراطورية فارس إلى هذه الدول ومن خلالها إلى العالم الجرمان.

### 1 - الدول التي يجمعها الماء:

إن البحر في نظر هيغل يدعو الإنسان إلى الغزو والفتح والاكتشاف وكذلك إلى التجارة والكسب الشريف وتعمير الأرض وإحيائها هذا بالنسبة لنا الأوروبي أما بالنسبة للدول التي تقع في جنوب البحر الأبيض المتوسط فإن البحر يشجعها على القرصنة والنهب علما أن ركوب البحر من طرف البحار يعتبره مجازفة بالثروة والحياة، والتجار الذين يجوبون البحار هدفهم الحصول على أرباح طائلة وينقلون سلعا من مكان إلى آخر غايتهم في ذلك الكسب ولكن قد يجسرون كل ما يملكون من ثروة بسبب المخاطر التي تنتظرهم في عرض البحر أو عند اصطدامهم بالقبائل المتوحشة في بعض أجزاء الشرق، وهو ما يجعل قيامهم بهذا العمل يعتبر مجازفة تتطلب الشجاعة والنبيل والحكمة علما أن الجرأة في مواجهة مخاطر البحر الطبيعية والبشرية تتطلب قدرا من الحكمة والحذر بل والدهاء كذلك، هيغل هنا يشير صراحة إلى القرصنة التي كانت سائدة في ذلك الوقت في جميع بحار العالم بما في ذلك البحر الأبيض المتوسط، لأنه ينبه من الآخر وإلى إمكانية الالتقاء بالقراصنة باعتبارهم من أكثر العناصر غدرا وخداعا متجاهلا ما كان يقوم به القراصنة الأوروبيين في حق

<sup>1</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 176.

الآخر، محذرا من الخطر الذي يمثله وهو لا يختلف عن الخطر الذي تمثله الطبيعية، فالإنسان يتنقل من أرض صلبة ثابتة ومستقرة إلى البحر فوق قطعة خشبية صناعية هي السفينة وهذه الثقة التي يضعها الإنسان في السفينة تتطلب شجاعة ناذرة بخلاف المرتبطين بالأرض والسهول والوديان في الشرق حيث يرتبط الإنسان هناك بالتربة التي تشده إليها شدا وتجعله خاضعا لمجموعة غير متناهية من التبعات، كالقيام بخدمة الأرض أو تربية الحيوان وانتظار النتائج على مدار العالم وهذا ما وقع للصروح السياسية التي بنتها الإمبراطوريات الآسيوية والتي كانت تفتقر إلى هذا الامتداد الرائع للبحر، فالبحر عندهم هو الحد النهائي للأرض لا الوصول لذلك لم تكن تربطهم به علاقة اللامتناهي الإيجابية والتي تجعل من البحر هاجسا يدعوهم إلى المغامرة وهذا بخلاف ما وقع لقدماء السوريين الذين جابوا العالم القديم وخاضوا مختلف البحار وبنوا إمبراطورية عملاقة كان البحر الأبيض المتوسط مركزها.

نلاحظ أن هيغل يعترف بأن أوروبا لم تكن مهدا لحضارة الإنسان الأول ولكن رغم ذلك فغنه يفضلها على إفريقيا وآسيا مدعيا خلوها من التناقضات الجغرافية وهذا ما أهلها - حسبه - لكي تلعب دورا أساسيا في تطور المبادئ الدينية والسياسية والتي نشأت على غير أرضها أن الديانات السماوية ومبادئ الحضارة والثقافة ولدت ونشأت في آسيا ولأن أرض آسيا تربتها أو مناخها الطبيعي غير صالح لنمو هذه الأفكار والديانات فقد دفعت بكل الرصيد الضخم الذي تمتلكه إلى أوروبا وهنا يظهر تحيز هيغل لأوروبا عندما يصدر هذا الحكم التعسفي وهو أن الدول الآسيوية والإفريقية غير مؤهلة لنمو تلك المبادئ أو الأفكار مشيدا بخصوبة وملائمة أرض أوروبا للغرس رافضا هنا أن يستعمل أسس التصنيف التي عمل بها سابقا في آسيا وإفريقيا مبتكرا أساسا آخر وعاملا مزعوما وهو التدرج من اليونان إلى الرومان إلى الجرمان حتى يكون تقسيمه لأوروبا منسجما ومؤيدا لفكرة التفوق التي رافقت زمنيا نزوع أوروبا الغربية للسيطرة الثقافية والاقتصادية

على الآخر الآسيوي والإفريقي وبالضبط شعوب الوطن العربي الإسلامي والتي تتزامن مع نضوج الرأسمالية ونشوب الاستعمار.

إن هيغل يبدأ باليونان ويعتبرها مركزا للعالم مؤكدا على دور المناخ وأهميته في استقرار الإنسان وإنتاجه الفكري قائلا " إن جو أيونيا Jonia المعتدل قد أسهم في إضفاء الصفاء والرقوة على أشعار هوميروس"<sup>2</sup>.

ثم يستدرك هيغل أن الجو وحده لا يخلق لنا شعراء من طراز هوميروس لأنه في الفترة العثمانية أصبحت هذه المنطقة ضمن الإمبراطورية العثمانية، ولكنها لم تنجب شعراء! نلاحظ أن هيغل في عبارته الأخيرة يشير إلى الإنسان المتميز والأرقى قد تأثر في هذه القضية بالذات بنظرية الكيوف الطبيعية عند أرسطو والتي سنتطرق إليها فيما بعد .

هيغل يعتبر أوروبا موطن الإشعاعات الأولى لكل المبادئ الدينية والسياسية لأنها شهدت حركية وتطور هذه المبادئ ونموها، فالقطاع الأول يمثل أوروبا الجنوبية التي تبرز فيها اليونان كمنارة مضيئة للتاريخ العالمي وجارتها إيطاليا التي كانت تمثل الإمبراطورية العظيمة المسيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط وهكذا شكلتا مسرح التاريخ العالمي لفترة طويلة من الزمن، أما القطاع الثاني من أوروبا فهو قلبها الذي فتحه القيصر حيث غزى بلاد الغال<sup>3</sup> ولقد كان هذا الفتح عملا تحوليا وبطوليا من جانب القائد الروماني الإسكندر الأكبر، حينما أخذ على عاتقه الارتقاء بالشرق إلى المستوى اليوناني.

نلاحظ أن هيغل منذ الفترة اليونانية يعتبر أن للاستعمار عملا إيجابيا مثل: التعمير التحضير والتمدين، ومن خلال ذلك ينظر إلى الآخر الآسيوي على أنه المتخلف الذي لا يتقبل الحضارة

<sup>2</sup> - المصدر السابق، ص 157.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه ص 186.



فيستصغره معتبرا إياه دون المستوى اليوناني وهو في هذه القضية بالذات كان متأثرا بفلسفة أرسطو " الذي يقرر أن الآلهة قد خلقت فصيلتين من الناس:

- فصيلة زودتها بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونان، وقد فطرهما على التقويم الكامل لتكون خليفتهما في الأرض وسيدة على سائر الخلق.
- وفصيلة لم تزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالا مباشرا به وهؤلاء هم البرابرة وقد فطرهما الآلهة على هذه الشاكلة ليكونوا عبيدا مسخرين للفصيلة اليونانية المختارة<sup>4</sup>.

انطلاقا من هذه المقدمة نلاحظ أن أرسطو الفيلسوف الذي ينشد تحقيق العدالة ونشر القيم الإنسانية الفاضلة تتحكم به الأعراف السائدة في عصره فتتأثر أفكاره ويبحث لها عن حجج لإضفاء الشرعية على استعباد الآخر، وبهذه الكيفية تفتح أبواب استغلال اليونانيين لغيرهم على مصراعيها فيتبعون أبشع الطرق في تسخير غير اليوناني فيقومون باحتقارهم وإذلالهم باعتبارهم أدوات عمل وهي ملك للأسياد. مع العلم أن احترام الملكية وعدم التدخل في شؤون صاحبها شريعة مقدسة لدى اليوناني، لذلك فقد لاقى العبيد بالطبع نتيجة الأسر ويلات العذاب على أيدي اليوناني والروماني حيث عوملوا معاملة لا إنسانية وكثيرا ما ألقى بهم أحياء للحيوانات المفترسة عند إظهار عجزهم عن العمل<sup>5</sup>.

نلاحظ أن الفيلسوف اليوناني أرسطو قد بالغ في احتقار العبيد إلى درجة أن حرّمهم من الكرامة الإنسانية معتبرا إياهم عبيدا بالفطرة. وذلك انطلاقا من استدلال فاسد مفاده: أن الناقص المدارك عبد بالطبع " مناقضا مقدمته الأولى " من أن السيطرة نقض للطبيعة حيث أن الواحد عبد والآخر حر، نلاحظ أن أرسطو في هذه النقطة يقع في تناقض صارخ عندما ينظر إلى غاية الإنسان من منظور المجتمع اليوناني بخلفياته واعتباراته العرقية وليس إلى غايته كإنسان ذلك أنه لو حدث

<sup>4</sup> - أرسطو: في السياسة، ص 5.

<sup>5</sup> - عبد الله بوقرن وآخرون: أرسطو وامتدادته الفكرية، دار الهدى، الجزائر، 2001، ص 212.

وكان فاقدا للعقل أو يعاني من إعاقة طارئة فإنه يمكن لتلك الإعاقة أن تزول بعد فترة فتصبح مداركه سليمة فماذا يقع بعد إذ؟

هل يبقى عبدا على حسب طروحات أرسطو؟ أم أنه سيصبح إنسانا كبقية البشر؟ لو نتاح له فرصة التعلم والتكون ربما سيكون أحسن من غيره في تعاطي العلوم والفنون سواء كان هذا الغير يونانيا أو رومانيا ولو حتى جرمانيا كما يدعي هيغل متأثرا بأساتذته اليونان!.

كما سبق وأشرت فإن هيغل يستثني المنطقتين الباردة جدا والحارة جدا من مسار التاريخ العالمي، ولكنه يستعين بمقولة لأرسطو وهي: " حينما تشبع الحاجات الملحة، ينتقل الإنسان إلى طلب الأمور الرفيعة ذات الطابع العام"<sup>6</sup> مؤكدا أن المنطقة المعتدلة هي التي تصلح أن تكون مسرح التاريخ العالمي لكنه عندما يتعرض إلى مصر ورغم الخدمات الجليلة التي قدمتها لليونان فإنه يستثنيها من إفريقيا باعتبارها تمثل مرحلة انتقال الروح من حالتها الشرقية الكامنة إلى المرحلة الغربية المتفتحة كما استبعد إمبراطوريتي الصين والهند باعتبارهما تمثلان الأصل والمنشأ كما استبعد سيبيريا لأنها تقع خارج التاريخ واعتبر منطقة شمال إفريقيا وبلاد فارس بمثابة توابع لأوروبا، أما إفريقيا السوداء فقد قال عنها: " لا نذكرها أبدا لأنها ليست جزءا من تاريخ العالم وليس فيها حركة ولا تطور"<sup>7</sup>.

إن استبعاد هيغل لإفريقيا من مسرح التاريخ واستصغاره لحضارات آسيا باعتبارها تمثل طفولة الإنسانية - في نظره - يطرح تساؤلا مهما: هل يجب تنصير وتغريب كلا من آسيا وإفريقيا لأن أوروبا مسيحية باعتبار أن المسيحية لم تعرف إلا في نطاق محدود جدا في هاتين القارتين قبل ظهورها في أوروبا أو قبل تبنيتها من طرف الإمبراطور الروماني؟ هذا باستثناء مهدها " الشام " وامتداداتها " مصر " علما أن أوروبا لم تتمكن من ولوج النهضة والخروج من حقبة العصور

<sup>6</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ص 158.

<sup>7</sup> - المصدر نفسه، ص 182.

الوسطى المظلمة إلا مساعدة الشرق لكي يظهر مفهوم كلمة أوربي " رغم اختلاف أعراقها فقد استطاعت الكنيسة رغم سلبية المنهج واختلاف النظم السياسية أن توحد أوروبا قاطبة ضد الآخر الغربي الإسلامي الناشئ، فهيمت اللغة اللاتينية والأدب اليوناني القديم مما جعل الأنتلجنسيا الأوروبية تتشبع من هذين الرافدين في جامعات متماثلة، وهذا هو المنبع الذي رضع منه الفيلسوف الألماني العملاق هيغل كما أسلفت الذكر. فقد تشبع بالأدب الإغريقي والديانة المسيحية وقد اقتضى الحال أن تضيفي القداسة على اللغة اللاتينية لأنها لغة الحقيقة الدينية، لغة الإنجيل، لغة اللاهوت، ولغة الكنيسة. كما ساهم الرحالة الذين جابوا الشرق الأوسط والأقصى من تعميق فكرة التمايز والاستعلاء من خلال ما كتبه من ازدراء عن الآخر في مذكراتهم خاصة وأن الرحلات تجاه العالم الجديد قد تزامنت مع الحروب الصليبية مع طرد مسلمي الأندلس ومتابعتهم إلى سواحل المغرب العربي علما أن هذه الكشوفات مكنت الأوروبيين من تغيير الطرق التجارية القديمة واكتشفت عالما " ثريا خاملا " وبنوضح فيما بعد كيف كان للاكتشاف هدفان، أحدهما استثماري مادي غايته نهب الثروات ونقلها إلى أوروبا والآخر كان وراءه رجال الدين الذين كانت غايتهم بث الحيوية الروحية في ذلك الخمول الوثني كما سيأتي فيما بعد إذا لقد أفضى الفتح والاكتشاف إلى شعور جارف بالتفوق والقوة، فالغازي سواء كان مكتشفا أو باحثا عن الذهب أو راهبا وجد نفسه في مواجهة منظومة من القيم مغايرة لمنظومة القيم التي يحملها هو، وهنا وقع التصادم نتيجة لعدم قبول الاختلاف كوجهة نظر فتطغى القوة الأوروبية، وفي هذا السياق يقول هيغل: " إذا اختلطت الأمور يسعى الإنسان المتحضر إلى إعلاء قيمته بالثقافة الروحية، وذلك لأن تغيرات الشكل والسلوك وسائر المظاهر الخارجية لا تكون من نتاج الثقافة الروحية إلا لدى المتحضرين وحدهم"<sup>8</sup> إذا فإن اليونان المدني نسبة إلى مدن اليونان المتحضرة ويقابله الهمجي وأن الإغريقي يقابله البربري وهذه الفكرة وظفها هيغل فيما يخص المسيحي المتحضر الذي لديه رسالة

<sup>8</sup> هيغل: المدخل إلى علم الجمال، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، 1980، ص 69.

يجب تبليغها إلى الآخر وهذا ما ادعى القيام به الاستعمار الأوربي الحديث في البلدان العربية والفرنسي على وجه الخصوص في الجزائر. إن فكرة أوروبا الموحدة، أوروبا الأمة المكونة من أعراق عديدة تواجدت بفضل الدين المسيحي الذي قوى روابط هذه الأمة فقاموس " تريغو " الصادر عام 1771، يقول إن: " أوروبا أصغر قارات العالم، لكن لها على الأجزاء الأخرى مزايا كثيرة"<sup>9</sup>. وهكذا فقد قسّم التمرکز الغربي العالم، إلى قسمين مركز وأطراف استنادا إلى اصطناع أو اختراع خرافة الغرب الأبدي المضاد للشرق انطلاقا من اصطناع المعجزة اليونانية والتي أدت إلى إدعاء المركزية الأوربية واعتبار أن أوروبا هي مركز العالم وأن الأطراف يجب أن تخضع لها رغم أن هذا يتناقض مع مقدمات هيغل التي تؤكد على خلو أوروبا من الحضارات القديمة، كما أكد على خلوها من المبادئ الدينية والثقافية مؤكدا فقط على ورود هذه المبادئ من الحضارات والأماكن الأخرى غير أن تويني وفي هذا السياق قد أكد على أن ما تهدف إليه الحضارة الغربية هو " جمع العالم الإنساني كله في مجتمع كبير واحد، والسيطرة على كل شيء فوق هذه الأرض وفي البحار والأجواء التي ستصل إليها الإنسانية عن طريق الغرب الحديث"<sup>10</sup>.

إذا هذه هي الثقافة التي كانت سائدة في عصر هيغل والتي تشبع بها منذ نعومة أظافره.

### ثانيا - العالم الجديد:

وقد سمي بالجديد لأنه كان مجهولا قبل اكتشافه سواء تعلق الأمر بالأمريكيين أو استراليا. وهيغل يؤكد على حديثه من الناحية الداخلية أي من زاوية تكوينه الطبيعي والسيكولوجي غير أنه يقر بأنه لا يستطيع أن ينفي قدمه الجيولوجي مؤكدا أن للعالم الجديد شرف الانبثاق من البحر أثناء تكوين الكرة الأرضية، يعني أن التكوين الجيولوجي للعالم الجديد كان متزامنا مع العالم القديم وحثته في ذلك هو الجزء الفاصل بين أمريكا الجنوبية وآسيا، ثم يناقض نفسه عندما يدلي

<sup>9</sup> - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص 18.

<sup>10</sup> - أرنولد تويني: الإسلام والغرب والمستقبل، ترجمة نبيل صبحي، الدار العربية، بيروت، 1969، ص 36.

بالملاحظة التالية: انطلاقا من هشاشة ساحل أمريكا الجنوبية المواجه لآسيا، فإن تكوينه عبارة عن رواسب سطحية من التراب موضوعة فوق صخور وهي تحمل طابع التكوين الجديد<sup>11</sup>!

نلاحظ: هيغل قد تدخل في تخصص لا صلة له به (جيولوجيا تكون القارات) وراح يناقض نفسه بنفسه وهو يتحدث مرة عن تكوين رسوبي من جهة ووصفه له بالهشاشة مرة أخرى، ليؤكد مرة ثالثة على أنه جديد التكوين، وهذا أمر خاطئ لأن القديم أيضا لا يخلو على مناطق رسوبية هشة كثيرة.

يخطئ هيغل حين يربط بين هشاشة الطبيعة والتكوين النفسي المتضعع لسكانها، إنه في الحقيقة يقع في مغالطة منطقية لأنه انطلق من مقدمات مستقاة من الطبيعة ليصل إلى نتائج يلصقها الإنسان هدفه منها الخط من شأن السكان الأصليين للعالم الجديد دون أن يتحرى لا الدقة ولا الصدق فيما ذهب إليه، إنه يحاول استدراك الأمر مذكرا بوجود حضارات عظيمة قامت في هذه المناطق ويخص حضارات المكسيك والبيرو<sup>12</sup> غير انه يعود مرة أخرى ويصفها بالكمون ويعتبرها إقليمية منحصرة ولم تحقق تجاوز حدودها وأما تنتهي بمجرد الاقتراب من البحر الذي هو أداة وصل عنده (كما ذكرت) وبالتالي فهي حضارات كانت تندحر بمجرد ملاقاها بالثقافات الأخرى، وفي ذلك تناقض يكشف لنا عن عدم تقدير هيغل للآخر. إن هيغل من جهة يقول بأن العالم الجديد قد سمي بذلك لأنه كان مجهولا لدينا، ثم من جهة أخرى تجده يحمل سكانه مسؤولية العجز في عدم نشر حضارتهم في نواحي المعمورة رغم توفر برزخ "ربنما" الفاصل بين الأمريكيين هيغل يعيب على السكان الأصليين لعدم استغلال ذلك البرزخ كوسيلة تواصل لأنه عبارة عن حاجز، مائي كان من الممكن أن يفيد التواصل، وبالتالي فإن كل قسم من هذين القسمين من الأمريكيتين فقد بقي أصبح متميزا عن الآخر فأمريكا الشمالية تبدو على طول شاطئها سهلا

<sup>11</sup> - هيغل: محاضرات في فن التاريخ، ص 158.

<sup>12</sup> - المصدر نفسه، ص 159.

عريضا تمتد خلفه سلسلة من الجبال كما تتبع من أعالي الجبال أنهار تروي السهول، ثم تحدث عن البحيرات العظمى التي تتميز بها الولايات المتحدة الأمريكية، وأورد بعض الجوانب الخاصة بالمكسيك وتطرق إلى أمريكا الجنوبية حيث تحدث عن طبيعتها المناقضة للطبيعة الأولى حيث يقول: "ولو توغل الإنسان من الشمال متجها إلى الجنوب<sup>13</sup> متجاوزا المستعمرات الإنجليزية لأكتشف مستنقعات ضخمة لم تستطع وتطوير نفسها إلى الدرجة التي تمكنها من أن تكون مجرى صالحا يحولها إلى نهر يصلح للملاحة والري وإنما تتبدد مياهها في مستنقعات تلتهم مساحات واسعة من الأرض".

والاختلاف الأكثر بروزا بين جزئي أمريكا ناتج عن مسألي الدين والسياسية، فأمریکا الشمالية تتميز بديانتها البروتستانتية بينما أمريكا الجنوبية تسودها الكاثوليكية. أما من الناحية السياسية فإن هيغل يفرق بين الاستعمارين الإنجليزي والأمريكي الفرنسي للعالم الجديد، فهو من جهة يمدح المستعمر الإنجليزي باعتباره ذهب لكي يعمر الأرض إلا أن الأسبان<sup>14</sup> والبرتغاليين ذهبوا ليحكموا. لقد ميز هيغل بين القارتين وفقا للمذهب الديني دون أن يتطرق إلى ما ارتكبه الغزاة، سواء كانوا إنجليزا أو إسبانيا أو فرنسيين أو برتغاليين في حق سكان العالم الجديد. كان الجدير به أن يذكر الآثار السلبية للاستعمار التي مازالت شاهدة عليه

يرى هيغل أنه من الناحية السياسية فقد تمتعت أمريكا الشمالية بنظام ديمقراطي مستقل، يتمتع فيه المواطن بالحرية، بينما شهدت أمريكا الجنوبية اضطرابات سياسية وحكمها أباطرة وملوك طغاة غالبا ما يسودها الاضطراب وتعمها الانقلابات العسكرية، ولم تعرف نوعا من الديمقراطية، لذلك فهي مختلفة مقارنة بها.

<sup>13</sup> - المصدر السابق ص 159.

<sup>14</sup> - المصدر نفسه، ص 159.

## أ - موقف هيغل من السكان الأصليين:

نظرا لتأثر هيغل بطروحات تفوق اليونان عرقيا وحضاريا على غيرهم من شعوب الحضارات القديمة لذلك فقد جعل هيغل هذه الفكرة تنسحب على الأنا الأوربي كله قاطبة في مقابل الآخر أجمع مؤكدا كما في كل مرة حين يتحدث عن الآخر عن دونية سكان أمريكا الأصليين: " فهم يتميزون بالوداعة، والمزاح الذي يخلو من أي انفعال ناهيك عن نقص الفاعلية والنشاط مع تميزهم بالإذعان والطاعة للرجل الأبيض والمزيد من الطاعة نحو الرجل الأوربي"<sup>15</sup>.

إن هيغل يسقط قد أطلق على السكان الأصليين من الهنود الحمر والرنكا والأزتكا وهم أصحاب الحضارات القديمة والعريقة جل النعوت السيئة، وغيرهم حتى بأحجامهم الجسمية فوصفهم بالدونية واعتبرهم ناقصي الحيوية، ولا يتمتعون بالاستقلالية والحرية والإرادة وخضوعهم خضوعا تاما للأوربي الذي استغلهم إلى أقصى درجة مع العلم أنهم كثيرا ما تعرضوا للاستتصال والتصفية الجسدية إلى حد الانقراض في بعض المناطق وهيغل يتعرض إلى اقتباس السكان الأصليين لبعض عادات الأوربيين السيئة مثل عادة شرب (البراندي) والتي كانت لها آثار مدمرة على مستهلكي هذه المادة.

لقد استقى هيغل قصة طريفة عن أحد الإنجليز لم يكن ليعرف من السكان الأصليين سوى واحدا غير أنه أفرط في شرب (البراندي) فمات، ويذهب هيغل بعيدا في السخرية والحط من شأن السكان الأصليين إلى درجة اتهامهم بالتقصير في واجباتهم الزوجية وهو الأمر الذي كان يهددهم بالانقراض حسب زعمه مما تطلب تدخل اليسوعيين الذين استطاعوا بعد جهد كبير أن يلزموهم بواجباتهم الزوجية، فاعتمدوا على أجراس تدق ليلا من أجل تنبيههم للقيام بواجباتهم ، تلك الأوامر التي قبلوها رغم كسلهم وأذعنوا لها تحت ضغط الرهبان<sup>16</sup>.

<sup>15</sup> - المصدر السابق ، ص 159.

<sup>16</sup> - المصدر نفسه، ص 159.

نلاحظ أن هيغل يتطرق هنا إلى قضية مهمة جدا وهي التناسل وعلاقتها بالحفاظ على البقاء لدى السكان الأصليين والذين كانت تتم لديهم هذه العملية بطريقة طبيعية حتى جاء الاستعمار الممجد لدى هيغل من طرف البرتغال والأسبان الذي صاحبه حملة واسعة من أجل البحث عن الذهب ومختلف خيرات وغلالات العالم الجديد، ثم استوطنوا الأرض بعد أن قاموا بعدة حملات استتصالية بهدف التخلص من السكان الأصليين وهو الأمر الذي أهمله هيغل عمدا وتطرق بدلا من ذلك إلى علاج أزمة إمكانية اندثار عرق السكان الأصليين.

إن هذه النتيجة التي ركز عليها هيغل دليل واضح على تأثره بالفكر اليوناني العنصري والاستعلائي، وفي الوقت ذاته بالفكر الكنسي الذي يعد بمثابة النور بالنسبة للعالم الجديد.

### ب - نظرية الكيوف الطبيعية عند أرسطو:

لقد اقترنت ولادة الغرب الحديث بظاهرة التأصيل العرقي، أي القول بوجود طبائع محددة ومميزات تنفرد بها الحضارة الغربية الحديثة منذ البداية الأولى، فأرسطو يصف سكان آسيا بالحدادة والتمتع بقدر من الذكاء مما يجعلهم يتفوقون على سكان الشمال أي برابرة أوروبا الوسطى والشمالية الذين يمتازون بالخشونة والقوة العضلية وهم لا يتمتعون بالذكاء والشيء الذي يجعل من اليونان سادة العالم أنهم يجمعون بين القوة العضلية والقوة العقلية مما يمكنهم من احتلال العالم لو توحدوا وهو الأمر الذي جعل هيغل يتبنى الأطروحة نفسها مع قليل من التعديل حيث يعتبر أن العالم القديم هو " مسرح تاريخ العالم " وهو مختلف تماما عن العالم الجديد لأن السكان الأصليين لهذا العالم لم يبلغوا بعد درجة الوعي بالحرية وينبغي أن يستعبدوا هم وعالمهم. ولهذا ينبغي أن يحضر تاريخ العالم في منطقة مركزية معينة وهي البحر الأبيض المتوسط والذي يعتبر قلب العالم القديم ويربط بين أطرافه ويسهل الاتصال بمختلف جهاته، وبدون هذا النحو لا يمكن تصور تاريخ



العالم<sup>17</sup> وقد تضافرت أسباب كثيرة لتعطي نوعا من المصادقية لنظرية الكيوف الطبيعية تجعل من العنصر اليوناني أرقى العناصر وينسحب ذلك أيضا على الغزاة الأسبان وغيرهم من الأوربيين تجاه السكان الأصليين في العالم الجديد خاصة وأن الإنسان الغربي حيثما حل كان يحمل معه انتماء عرقيا ودينيا وثقافيا يضعه في المرتبة الأعلى بالنسبة لأولئك الذين يرحبون به وينتظرون منه أن يخترق سكون انتمائه العرقي والديني والثقافي لكن هيهات يتم ذلك لأن القوة والهيمنة وحب السيطرة والتسلط والتوسع من طرف الجماعات العرقية الأوربية المنتصرة حيث أن ذلك الانتصار يمنحها إحساسا بالتفوق والتمايز والاستعلاء فتصطنع بذلك الحواجز وللجماعات المغلوبة وحدودا فاصلة تحول دون عملية الاندماج أو التمازج وإذا وقع ذلك فسيكون قصريا من الأعلى إلى الأدنى بحيث يجب على المغلوب أن يتقمص عقيدة الغالب على سلب عقيدته الأصلية وكذلك لغة الغالب وثقافته على حساب لغة المغلوب وثقافته.

### ج- مصادر هيغل فيما يخص العالم الجديد:

إن اكتشاف الأمريكيتين هو من أكثر الإنجازات غير المتوقعة في تاريخ الغرب، لأنه كان قد رسخت لديه فكرة وجود عالم قديم يتصارع معه باستمرار.

إن الآخر في العالم القديم كان معلوما نتيجة للتواصل والاحتكاك والتفاعل الحضاري من خلال فتح الأندلس وبعض أجزاء شرق أوروبا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط وحتى عن طريق الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرنين فالنهضة الأوربية التي كان من بين أسبابها المباشرة فتح القائد المسلم " محمد الفاتح " لمدينة القسطنطينية التي كانت عاصمة للشرق المسيحي وقد سمح لعلمائها ورجال دينها ومفكريها الاستفادة من تراثهم. كما لعبت الهجرة إلى إيطاليا دورها في

<sup>17</sup> - عبد الله بوقرن وآخرون: أرسطو، ص 214.

نفذ الغبار عن الغرب، وجعلهم يستيقظون لذلك فقد كانت البوادر الأولى للنهضة الأوربية من إيطاليا.

إن رحلات الاكتشاف التي كان يقوم بها الأوربي سببها الظاهر الرغبة في الثراء والحصول على كميات كبيرة من الذهب، وهذا يتضح من خطاب كولومبس إلى الملك الإسباني حيث بالغ في إغرائه قائلاً: " إن من الضروري الحديث عن الكسب الدنيوي الذي سوف ينجم عن ذلك، والذي جرى التنبؤ به في كتابات كثيرين جدا من الحكماء الجديرين بالثقة والذين بحثوا في التاريخ ورووا كيف أن هذه المناطق بها ثروات عظيمة"<sup>18</sup> لكن هل ذلك هو السبب الحقيقي المرجو فعلا من وراء تلك الاكتشافات.

نلاحظ أن المكتشفين الأوائل كان همهم الأساسي الحصول على الذهب لكن الذين سمعوا عن تلك الاكتشافات والرحلات من المتشبعين بالمسيحية قد استهوتهم الفكرة ورأوا ضرورة الذهاب من أجل خدمة الدين ونشر المسيحية بين السكان الأصليين. فعلى الرغم من حصول المكتشفين على كميات هائلة من الذهب فإنهم لم يكتفوا بذلك بل راحوا يفرضون هيمنتهم على السكان الأصليين وهو ما تؤكد صياغة وثيقة معروفة باسم ريكيريمينتو " Roquerimiento " وهي عبارة عن خطاب وصية موجهة إلى سكان البلاد الأصليين والتي صاغها الحقوقي الملكي: " بلاثيوس روبيوس " ويرجع تاريخها إلى سنة 1514 حيث تمت قراءة الوثيقة على الهنود ويفرض عليهم الأخذ بكافة بنودها، رغم جهلهم للإنسانية وهي تحتوي على تلخيص تاريخ البشرية الذي يبدأ حسبها بظهور يسوع المسيح الذي تتوجه باعتباره أول رئيس للجنس البشري وأن كل الكون يخضع لسلطانه ثم تسرد المسار التاريخي وفقا للتفسير اللاهوتي. الأخيرين بمنح " القارة الأمريكية " لإسبان وجزئيا للبرتغاليين - هنا يشير إلى الخلاف الذي وقع بعد انفصال ملكي إسبانيا والبرتغال عن بعضهما البعض ووقوع خلافات حول المستعمرات عندئذ التجأ إلى تحكيم البابا الذي حكم

بينهما مستعينا بخطوط الطول في الخريطة وهذه الكيفية أصبحت البرازيل من نصيب البرتغال كما استعمرت إسبانيا بقية القارة وهذا ما نلاحظه اليوم في استعمال اللغة البرتغالية بالنسبة للبرازيل واللغة الإسبانية لبقية القارة - ثم لا يبقى فيما بعد إلا التأكيد على موضوع مهم وأساسي وهو، أن يكون الهنود على علم بالموقف فمن المحتمل أن يكونوا جاهلين للطرق المتبعة في تبادل الهدايا بين البابوات والأباطرة والملوك وهو ما يتم إيضاحه من خلال قراءة تلك الوثيقة وشرحها بحضور أحد ضباط الملك وتكون النتيجة كما يلي: إذا ما اقتنع الهنود بمضمون الوثيقة والتزموا بشروطها المحففة فإنه لا يحق لضباط الملك أن يأخذوهم كأسرى لأنهم أبدوا الخضوع والخنوع واستسلموا للأمر الواقع لكن الويل ثم الويل لهم إن هم رفضوا أو أبدوا رغبة في تغيير بعض بنود الوثيقة فعندئذ سيكون مصيرهم الاستعباد والعقاب القاسي لأن الوثيقة تتضمن في إحدى بنودها ما يلي: (فإن لم تفعلوا ذلك أو إذا ما ظلمتم عن سوء نية في اتخاذ قرار فإنني أشهد لكم، إنني بعون الرب سوف أغزوكم غزوا قويا، وسوف أحاربكم من جميع الجهات وبجميع ما في وسعي من أشكال وسوف أخضعكم لطاعة الكنيسة... وسوف أخذكم أنتم ونساءكم وأطفالكم، وسوف أختزلكم إلى مرتبة العبودية وبعدئذ سوف أبيعكم... وسوف أتصرف فيكم حسب أوامر صاحب السمو كما أصادر كل ثرواتكم وأنزل بكم كل الأذى والضرر على نحو ما يليق بالأتباع الذين لا يطيعون سيدهم ولا يريدون بقاءه ويقاومونه ويعترضون قراراته)<sup>19</sup>.

إن المطلع على بنود الوثيقة يتأكد من أن مذابح كثيرة وقعت بسبب صعوبة التفاهم نظرا لأن العملية تتم باللغة الإسبانية التي يجهلها السكان الأصليين باعتبار أن الإمكانيات التراسلية بين الفاتحين والأهالي مازالت محدودة للغاية فلا يفهم الغازي لغة الأهالي كما لا يفهم الأهالي لغة الغازي والغريب أن ضباط الملك الإسباني لا يراعون عامل اللغة فبعد أن يقوموا بالقراءة الشكلية للريكومينتو وعندما يبدي السكان نوعا من اللامبالاة بما تنص عليه الوثيقة عندئذ يطبق عليهم

الضابط نص التحذير الوارد في الوثيقة، إذ يرسل بشرى إلى الملك الإسباني بأنه طبق العقوبة وغالبا ما تكون عبارة عن قطع الأيدي وجدع الأنوف لمائتين منهم عقابا على عصيانهم<sup>20</sup>.

فهذه الأمور كانت تقع يوميا دون خجل ولا تردد وحتى يمثل قمة التزعة الإنسانية الإسبانية ألا وهو " بيتوريا " الحقوقي واللاهوتي والأستاذ بجامعة سالامانكا يصف الهنود بقوله: " على الرغم من أن هؤلاء البرابرة غير مجانين تماما، إلا أنهم غير بعيدين عن الجنون... إنهم غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم مثل المجانين أو حتى الحيوانات المتوحشة، وذلك بالنظر إلى أن غذائهم ليس مستساغا... بدرجة أكثر من غذاء البهائم ويصعب أن يكون خيرا منه"<sup>21</sup>. ويذهب بعيدا إلى الخط من شأنهم إلى درجة أن يعتبرهم أكثر غباء من غباء الأطفال وغباء مجانين البلدان الأخرى حتى أن أدبيات القرن السادس عشر تعتبر الهنود بشرا غير مكتملين كما يعتبرهم البعض أخط من الحيوان بل حتى أخط من الجماد فهم يصفوهم طورا بأكالات لحوم البشر وهم أغبياء وسفهاء كما يصفهم هذا الأب بأنهم ناكرون للجميل وبأنهم غير قادرين على تلقي الدروس ولا يمارسون أي من الفنون ولا أي من الصنائع البشرية ثم يضيف هذا الأب مؤكدا على أن الرب لم يخلق قط جنسا يتجاوزهم في الرذائل والسلوكات الحيوانية ثم يضيف أن الهنود أكثر غباء من الحمير ولا يرغبون في التحسن<sup>22</sup>.

بهذه الكيفية يكشف الأب طوماس أورتيغ عن نرجسية الأنا الأوربي تجاه الآخر بحيث يحتقرهم ويهينهم مفضلا عنهم أغبي الحيوانات ورغم ذلك فإننا نتساءل لمن يحمل هؤلاء الآباء رسالة التنصير والتحضير باعتبار أنه احتزلهم إلى درجة البهائم أو أدنى من ذلك بكثير لأن الكتابات في هذا المعنى لا تعد ولا تحصى وجميعها يدور حول غباوة الهنود الحمر والتشكيك في إنسانيتهم

<sup>20</sup> - المرجع نفسه، ص 250.

<sup>21</sup> - المرجع السابق، ص 250.

<sup>22</sup> - المرجع نفسه، ص 251.

إلى درجة أن أحد الآباء اعتبر أن قتل الهنود تقرب من الرب ويتم من أجل ذلك سرد عدة قصص حارقة للعادة مثل ذلك أن ضرب رأس الهندي بالسيف سوف لن يؤدي إلى قطع رأسه بل إلى تكسير السيف وقد جعلوا عملية القضاء على الهنود قدر محتوم أقره الرب وهذا ما شجع العسكريين الغزاة على الإسراع في قطع رؤوس الهنود ثم يضيف قائلا: " وقاتل الهنود، هو أكبر هبة يقدمها المؤمن إلى الرب " لذلك فإن استخدام البارود ضد الهنود الوثنيين هو بمثابة حرق بحور للرب.

نلاحظ أن هذه الكتابات تمزج بين ما هو ديني وما هو سياسي وهي تذهب بعيدا في الخلط بين اللاهوت والجرائم التي يقوم بها الأنا الأوربي ضد الآخر وحتى فيما يخص جرائم سفك دماء الهنود الحمر وحرقتهم يدخلونها ضمن المقدس الذي يجازي عنه الرب الفاعلين لا لشيء إلا لكون الأهالي رفضوا شريعة الغاب التي فرضت عليهم. هذه هي الكتابات التي اطلع عليها هيغل وتبناها.

#### د - أمريكا أرض المستقبل:

مما سبق يتبين لهيغل أن الأمة الأصيلة في الأمريكيتين قد انتهت أو هي على وشك الاختفاء لذلك فإن سكان أمريكا الفعلين هم الذين قدموا إليها من أوروبا أي أن ما يحدث الآن في زمان هيغل في أمريكا ليس إلا انبثاقا من أوروبا، فأوروبا القارة العجوز المثقلة بالصناعات الحديدية وصناعة الفحم<sup>23</sup> تعتبر أكبر مخزن للبارود في ذلك الوقت، ونظرا لصغر مساحتها وقلة مواردها الطبيعية فقد أرسلت بالفائض من سكانها إلى العالم الجديد وهذا ما وقع في الإمبراطوريات العتيقة يقصد بها " بروسيا " التي أثقلت بنظامها كاهل التجار والصناعيين فبدؤوا يغيرون الاتجاه نحو القرى المجاورة لمدنهم ولذلك ظهرت مدن جديدة موازية للمدن القديمة وهذا ما فعله الإنجليز والأيرلنديين والألمان والفرنسيين الذين هاجروا إلى العالم الجديد خاصة وأنه يتمتع بإمكانيات كبيرة في الفلاحة

والصناعة والعمران فإن أراضيه مازالت بكرا لذلك فإن العالم الجديد سيحتاج أكثر إلى الخيل والحديد وكذلك إلى اليد العاملة المؤهلة أو التي يتم تأهيلها لخدمة هذه المساحات الشاسعة ومادام السكان الأصليين كما يقول هيغل يتميزون بالكسل والضعف فقد استعبد الأوربيون الزوج، وجلبوهم إلى أمريكا بهدف استخدامهم في الأعمال التي ينبغي أن تتم في العالم الجديد وهنا يستدل هيغل قائلاً: "إن الزوج كانوا أكثر تقبلاً للمدنية الأوربية من الهنود بوأن صديقاً أخبرني أنه يعرف بعض الزوج الذين وصلوا إلى مرتبة أطباء وأخبره عن تقبلهم للديانة المسيحية وأن البعض منهم أصبح قساوسة"، وهيغل في موضع آخر يعترف بدور الدين الإسلامي في تهذيب الزوج<sup>24</sup>!

في كلام هيغل اقرأ ضمني بأن من المهاجرين إلى العالم الجديد من هم ذوي خبرة وطموح وقد كانوا في الغالب يبحثون عن بلاد شاسعة وشاغرة حتى يقوموا بتعميرها لذلك فقد تنبأ هيغل لأمريكا بأنها بلاد الأحلام لكل الذين ضجروا من أوروبا التي كانت تعتبر أكبر مخزن للأسلحة التقليدية التاريخي في (أوروبا القديمة) القارة العجوز وفي هذا السياق نجد أن نابليون قال: إن "أوروبا القديمة تشعرني بالسأم"<sup>25</sup>.

مما سبق يتبين لنا أن هيغل يعترف بالمهاجرين الأوربيين وخاصة الإنجليز الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية وأنه عندما يتطرق إلى السكان الأصليين لا يذكرهم إلا بالسوء كما نعتهم بكل الأوصاف الدنيئة وهو لا يتعرض إطلاقاً للمجازر التي تعرضوا لها بل يقر فقط بأن العنصر الأصلي في الأمريكيتين وخاصة أمريكا الشمالية انقرض أو هو في طريق الانقراض دون أن يتحدث عن السبب وراء ذلك وإن دل ذلك على شيء إنما يؤكد النظرة الاستعمارية لأننا الأوربي الذي لا ينظر لآخر باعتباره إنساناً، وإنما يتطرق إليه فقط لقيامه بخدمة السيد الأبيض و هيغل بذلك قد خضع للأفكار السائدة في عصره اتجاه السكان الأصليين للعالم الجديد كما أسلفت ذكره لذلك فإنني

<sup>24</sup> - المصدر السابق، ص ص 174-175.

<sup>25</sup> - المصدر نفسه، ص 165.

أرى أن أمريكا التي تنبأ لها هيغل بأنها سوف تكون أرض المستقبل أرض الحريات والديمقراطية والدولة الليبرالية الحديثة أن حضارتها ملطخة بدماء الهنود الحمر وعرق الزنوج وهذا رغم أنف هيغل.

### ه - ذهبك مقابل إلهي:

سبق وذكرت أن الهدف الأول من الكشف كان ماديا محضا لكنه سرعان ما امتزج بالعنصر الروحي، حيث لم يفرط في الحصول على الثروة وزاده عنصر جديد وهو نشر الدين المسيحي مع الاستيطان والاستحواذ على مستعمرات كبيرة، إذا فقد استعمل كولومبس الجانب الديني لتغطية فهم الحصول على الثروة وبهذه الكيفية سجد الأنا الأوربي الحديث حجج كافية لاستعمار الآخر بهدف روحاني محض ظاهري ولكنه في الحقيقة سيظل يتخذ بهدف تخلص الآخرين من ضلالتهم ويستمر هذا العمل الذي يضمن سيادة الأنا الغربي الذي يعطي الجانب الروحي ذو السمو والقداسة في مقابل عرض دنيوي زائل " الذهب " والثروات. فالعملية في ظاهرها عملية مقايضة تضمن سيادة الأنا الغربي وتبعية الآخر سواء في العالم الجديد أو في آسيا وإفريقيا فالذي يمنح الإيمان يكون دائما في مرتبة أعلى، في مقابل الذي يمنح العناصر الدنيوية وفي نهاية المطاف فإن الراجح الوحيد في هذه العملية هو الأنا الأوربي لأنه يقبض الثروة ويتوسع باسم الدين الذي يستولى على النفوس كأن الذي يتلقى هذا الدين يبقى تابعا باستمرار لسلطة الكنيسة لهذا فقد اصطحب كولومبس معه مبشرين وجند وحتى أنه توصل إلى اصطحاب " مجرمين متطوعين " يحصلون على عفو مقابل تنفيذ مهام في العالم الجديد والقيام بعملية الاستيطان. وفي

هذا السياق وجه البابا " أوربان " الثاني خطابا إلى المجرمين ومرتكبي الخطايا يحثهم فيه إلى الالتحاق بحرب الصليب ضد الهلال مقابل غسل جرائمهم في دماء الأتراك " المسلمين "26.

إذا فالخلط بين نشر المسيحية والحصول على الثروات المادية والمزايا الدينية من سمات عمل الكنيسة في الحروب الصليبية حيث شاعت فكرة الخلاص بقتل الكثير من المسلمين الأتراك وغيرهم، كما طبقت في العالم الجديد عندما اعتبر أن قتل الهندي أو حرقه يدخل ضمن الطقوس المقربة من الله. إذا هذا هو الجو العام الذي جعل هيغل ينظر بازدراء واحتقار إلى سكان العالم الجديد.

### ثالثا - اليونان والرومان و الأمركان:

يتجه تاريخ العالم في نظر هيغل من الشرق إلى الغرب وهذا مسانيرة لطبيعة شروق الشمس وغروبها فإذا كانت الشمس اعتياديا تنبثق من الشرق لتختفي من الغرب فإن شمس الوعي في تصور هيغل شمس تشرق من الشرق لكن بشكل خافت وباهت وتغرب بوضوح وفي أقصى نورها غربا، وفي هذا حرق وقلب لنظام الكون لكن هيغل يعتمد فعل ذلك لينسجم الواقع مع الفكر لأنه يعتبر الشرق بمثابة الطفل الذي يجب لأنه لا يعرف إلا شخصا واحدا حرا، لكن حريته مزيفة لأنه سيصبح عبدا لشهواته ونزواته من جراء تمتعه بالحرية المطلقة أما بقية الشعب فهو خاضع خضوعا أعمى للحاكم ثم يتعرض هيغل في إطار الإمبراطورية الفارسية الكبرى إلى مصر التي يستشيهها من قارة إفريقيا باعتبار حضارتها و إسهاماتها الحضارية العظيمة وكونها تمثل الجسر الذي انتقلت من خلاله الروح من الشرق نحو اليونان والرومان ففي هذين البلدين يجتمع المواطنون في ساحتي أثينا وروما لتدارس الأوضاع السياسية ومناقشة الحكام، لذلك فإن فترة اليونان كانت تمثل من حيث الحرية شباب التاريخ العالمي، أما الرومان التي عرفت حرية بعض المواطنين فإنها تمثل كهولة



الإنسانية ثم ينتقل هيغل إلى العالم الجرمانى الذي يمثل شيخوخة التاريخ العالمى وبالتالى نهاية التاريخ لأن كل المواطنين يتمتعون بالحرية<sup>27</sup> داخل الدولة البروسية، وهكذا فهىغل يعتبر آسيا البداية الأولى للتاريخ العالمى لكنها بداية غير واعية محرومة من الحرية وبالتالى من ممارسة الديمقراطية التى عرفتها المدن اليونانية، وبعده المجتمع الرومانى الذى عرف التمثيل النيابى، إضافة إلى افتخار هيغل بهيمنة الإمبراطورية الرومانية على حوض البحر الأبيض المتوسط الذى يعتبره هيغل بمثابة حوض تواصلى.

ثم يتطرق هيغل إلى العالم الجديد وبالضبط إلى أمريكا التى تنبأ لها بقيادة العالم وهو ما وصلت إليه اليوم فى إطار النظام العالمى الجديد وذلك بعد سقوط الاتحاد السوفياتى كما سيأتى توضيحه فيما بعد.

لقد تنبأ هيغل الولايات المتحدة بما أنها أرض جديدة وخصبة بانها ستكون أرض المستقبل لأنها سوف تكون أرض الأحلام لكل أولئك الذين سئموا من القارة العجوز التى كانت بمثابة المخزن التاريخى للأسلحة<sup>28</sup> وذلك لكثرة ما عرفته من حروب وصراعات داخلية لكنها مع بروز معالم المركزية الغربية وجهت أسلحتها نحو الآخر سواء فى العالم الجديد أو فى قارتي آسيا وإفريقيا، حيث استعمرته واستبعدته وخرج مواطنوها فى هجرات جماعية كبيرة فى كل الاتجاهات العالم وخاصة نحو العالم الجديد، لكن هيغل يستدرك الأمر ويؤكد أن ما وقع بأمريكا ليس إلا استئنافا لما هو أوربى أى أنه ميثاق لكل إنسان أوربى طموح أو حالم أو مغاير دفعه ضيق أوربا وضجر سكانها منها إلى الهجرة نحو العالم الجديد الواعد. بمستقبل زاهر، لكن هل فكر هيغل فى مصير وحالة سكانها الأصليين؟.

<sup>27</sup> - هيغل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، ج1، ص ص 162-171.

<sup>28</sup> - المصدر السابق، ص 165.

أ- المرحلة اليونانية: إذا كانت المرحلة الشرقية عند هيغل لا تتعدى مستوى وملكات وقدرات الطفل الذي يجبو بما تحمله هذه العبارة من معان الارتباط بالغير والذوبان في الأسرة والقبيلة والإمبراطورية، وعدم صلابة الشخصية لتدني مستوى الوعي بالحرية واستخدام العقل وعدم قوة العزيمة والإرادة في مواجهة الحاكم.

فإنه في المرحلة اليونانية السيد هو العكس تماما، حيث يتمتع البعض من اليونانيين بالقدرات العقلية الفائقة<sup>29</sup> وبالتالي ارتفاع المستوى الوعي الفردي، ومن ثم ممارسة الروحية حتى في الأماكن والساحات العامة، علما أن المجتمع اليوناني عبارة عن أسياد، أحرار وعبيد، هذا خلافا للمجتمع الشرقي الذي كان الكل فيه يزرع تحت نيل العبودية، وبناءا عليه نبذ هيغل المجتمعات الشرقية وأعجب بالمجتمع اليوناني، وهذا في اعتقادي يرجع إلى تكوينه النفسي والعقلي الكلاسيكي الذي جعله يضفي على المدينة اليونانية وثقافتها نظارة الروح وشباب التاريخ الإنساني ومن ثم رفع من شان مستويات العقل اليوناني لا في الفلسفة والعلوم فحسب، بل وفي الفن أيضا، حيث رأى بأن عقلية الفنان التشكيلي اليوناني تنفذ إلى لب الحجاره الرخامية وتحولها إلى أعمال فنية تكاد تنطق! والمؤكد أن هذا الاعتزاز بالموروث الثقافي اليوناني لا نجد له لدى الغالبية العظمى من فلاسفة عصر النهضة والأنوار ممن تأثر بهم هيغل، وقد ادعى لشدة إعجابه -أن الروح المطلقة أصبحت هنا عند اليونان تعبر عن ذاتها من خلال هذه التجسيات الفنية التي تبتث في الجوامد معان روحية ودلالات رمزية ذات بصمات إنسانية مما جعل لدى -هيغل- هذه الروح ترتقي وتسمو لتصبح الروح اليونانية روحا أخلاقية ذلك أن المواطن اليوناني استشعر الحرية وعاشها في مدينته الديمقراطية حيث كانت تتكامل سيادة الدولة وحرية مواطنيها بصفة مجردة وهذا تأكيد آخر على إعجاب هيغل وتعصبه للديمقراطية اليونانية، حيث ذهب بعيدا في أطروحاته، فادعى أن آلهة اليونان

ساعدت الشعب اليوناني على الازدهار وعلمته<sup>30</sup> كيف يتحرر ويبدع الديمقراطية ويمارسها، وهكذا يتعاون الفرد مع بقية المواطنين يتطور المجتمع وتحقق مصالح الجميع.

إذن هذا الوعي التحريري هو الذي كان الأرضية الخصبة للروح المطلق، حيث تم تحقيق الحرية ولو جزئيا، وهو ما يظهر في كون القليل من المواطنين فقط أحرار والباقي عبيد، وحتى أحرار بقية الأمم الأخرى استعبدوا باعتبارهم غير يونانيين كما ورد في الفصل الأول<sup>31</sup>. ثم يبرر هيغل قبول معاملة العمال بالرق باعتباره جزءا من نظام المجتمع باعتبار أن مستوى العقل اليوناني احتقر العبيد والآخر بصفة عامة واعتبره البرابرة لذلك تدخلت مقومات حياته مع نظام العبودية السائد - -آنذاك- الأمر الذي عرقل تطور الحرية مما جعلها محدودة تنسحب فقط على المواطن اليوناني الحر وهذا ما جعل الروح تنتقل إلى مرحلة أخرى أي إلى الإمبراطورية الرومانية.

#### ب- المرحلة الرومانية:

إن الانتقال من المرحلة اليونانية السابقة إلى المرحلة الرومانية<sup>32</sup> اللاحقة تم عن طريق الصراع الذي دار بين الحق والباطل ف"كيريون" كان حريصا على تأكيد حقوق الأفراد، وهو لا يكف عن المطالبة بإعطاء كل ذي حق حقه مما جعل الصراع يخدم أكثر، وكان على المدينة أن تجمع قواها لمحاربة هذا الجزء المتمرد الذي يحاول إبراز الجانب الفردي، وهذا يعني أنه يجب على الأفراد والشعوب الانفصال بأنفسهم عن الجوهر الأخلاقي أي الدولة التي كان وجودهم متأصل فيها، وما العالم الروماني إلا نموذج لذلك التمزق والانفصال والذي يسوده الاغتراب، فنحن هنا أمام إرادات مجردة حلت محل الفرد، أما الفرد الأخلاقية المنسجمة مع ذاتها ومع الواقع فقد حل محلها الشخصية القانونية بالإضافة إلى توحيد المدن وجمع كل السلطات في يد الإمبراطور بخلاف

<sup>30</sup> زكريا إبراهيم: عبقریات فلسفية، هيغل أو المثالية المطلقة، ج2، دار مصر للطباعة، ص ص 113-114

<sup>31</sup> الرسالة، الفصل الأول، ص ص 04-06

<sup>32</sup> عبد الفتاح الديدي: نوابغ الفكر الغربي هيغل، دار المعارف بمصر، 1968. ص 53.

الفترة اليونانية التي كانت فيها السلطات موزعة لذلك فإن الدولة لم تعد ذلك البناء الشامخ الخارجي وكأنها تحولت إلى واقع غريب، لا نعرف عنه شيئا. علما أن هيغل يعاتب الإمبراطورية الرومانية لكونها ضمت شعوبا مختلفة، الشيء الذي جعل تكوينها الشعبي غير طبيعي لأنها فقدت عرقها السلالي الموحد لها، ومن هنا فقد ارتبطت بشخص واحد يرمز إليها ويتجسد في شخص الإمبراطور. وبهذه الكيفية أصبحت ماهية الحرية عند الرومان محصورة في الذاتية الخالصة في الإمبراطور ومواطني روما والمدن المجاورة والباقي لا تشملها الحرية، وعلى الرغم من اجتماعهم في الساحات العمومية ومناقشة ممثلي الإمبراطور، فإن نسبة انتشار الحرية في الإمبراطورية الرومانية نسبة ضئيلة جدا، وهذا ما أكد عليه أحد الباحثين المعاصرين حول نسبة الأحرار إلى العبيد في الإمبراطورية الرومانية مبرزا أن نسبة الأحرار في حدود 2% والباقي عبيد<sup>33</sup>

### مآل الروح عند الجرمان :

يتطرق هيغل إلى وصول الروح إلى الجرمان في مرحلة الشيخوخة، وشيخوخة الروح عند هيغل<sup>34</sup> تعني وصولها إلى تمام نموها وبالتالي وصولها إلى مرحلة الكمال. وهذا على النقيض من الشيخوخة الطبيعية التي تعني التعب وقرب النهاية والفناء، ولهذا السبب فهو ينهي التاريخ في أوروبا وبالضبط عند الجرمان وبالتالي وكأنه يهني التاريخ في الحاضر من خلال تقرير هذا!.

### ج-العالم الجرمانى:

المقصود به مجموعة من الأجناس الأوروبية هي ألمانيا والنمسا وسويسرا وهولندا وبلجيكا والدانمارك وإسlanda والسويد والنرويج.

<sup>33</sup> للاستزادة أكثر ينبغي الرجوع إلى الفصل الاول ،ص ص 09-10.

<sup>34</sup> - هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، ص 194.

لقد جاء وصف هذه المناطق في أعمال " بوليوس قيصر " حيث يذكر أنهم استجمعوا قوتهم وأصبحوا مصدر خطر ومتاعب للإمبراطورية الرومانية التي أسقطوها فيما بعد، وغيروا تسميتها إلى الإمبراطورية المقدسة التي طالما اعتر بها هيغل باعتبار أن شعوبها استعانت بالمسيحية التي تمثل المطلق بالنسبة إليه وطورت نفسها وتحضرت بعدما كانت همجية. أما الفترة التي عاش فيها هيغل في الإمبراطورية البروسية فهو كفيلسوف كثيرا ما أعجب بالثورة الفرنسية، وعلى النقيض من ذلك اشتكى من بطء حركية القوانين في المجتمع البروسي وهذا ما انعكس على المواطن الألماني الذي يصف حاله بالذل والخنوع بقدر ما هو في طموحه جامع ومطلق العنان فهو من جهة ضيق النظر وتمسك بأصالته ولكنه يطمح لأن يكون أحسن من أقرانه الأوروبيين، لهذا فهو يتصرف بطريقة أكثر نظامية ونسقية باستثناء الوقت الراهن حيث آلت الأمور إلى المأزق أو الصورانية Normalism أي آل أمر المواطن إلى حالة سطحية تعسفية اعتباطية تسبب تعسف الأمراء<sup>35</sup>.

يرى هيغل أنه بهذه الكيفية أصبح فكرنا عكس الأمم الأوروبية الأخرى استخدالي (انكماشى) نفضل العيش في وقدة العيش والفكر في هذه الطبيعة الميتة في هذه الوحدة الحبيسة للفكر. ولكن رغم كل هذا نبقى منشغلين أولا بالمبدأ الكلي وبالتالي فإننا نثبت بطريقة صارمة المبادئ التي سنعمل على أساسها مهما تأخرنا في العمل. ونتيجة لما آلت إليه وضعيتنا فقد انعكس هذا على المواقف التي نتخذها الشيء الذي نتج عنه تأخر كبير في العمل. ففي أغلب اللحظات التي تتطلب منا اتخاذ القرارات السريعة نبقى في حيرة من أمرنا نتيجة رغبتنا في إتمام العمل بدقة وبهذه الكيفية لا نتمم أي شيء، من هنا يمكن أن نطبق على الألمان مقولة الفرنسيين " الأحسن يقضي على الحسن Le meilleur tue le bien " لأن كل ما يجب القيام به لا بد أن يكون مبررا

بحجج كافية ومقنعة، وكما أنه يمكن أن نجد أفضل الحجج لأي شيء يصبح هذا المبرر صوريا محضا أين يكون المفهوم العام للقانون غير قادر على نموه اللازم.

إذا هذه الصورانية التي عرفها الألمان طيلة قرون جعلت الألمان يكتفون ببعض الحقوق السياسية وحتى ردة فعلهم بقيت منحصرة في بعض الاحتجاجات البسيطة على خلاف الإنجليز والفرنسيين، لكن هيغل يعبر عن خيبة أمله في مواطنيه الذين لم يتحركوا وبالتالي فقد نجسوا أنفسهم ولم يقدموا خدمة لحكومتهم، وفي موقف مناقض يصف الألمان بأنهم يتميزون بالإخلاص والتزاهة وفي العديد من المرات لم يتمكنوا من اختبار أنفسهم فيما يخص الثورة لأنهم متمسكين بالقيم المبنية على الحق العام مبدئين احترامهم للقيصر ثم يضيف أنهم بموقفهم هذا يعبرون عن عدم قدرتهم على فعل أي شيء لشخصهم ولا لدولتهم، على الرغم من هذه الصورة المتسامية التي يملكونها عن أنفسهم من إخلاص ونزاهة. إن هيغل ينتقد وعيهم السياسي بخلاف ما قام به فإنه في محاولة بناء قومية ألمانية على أساس اللغة المشتركة والعقيدة والتاريخ.

إن هيغل لم يفكر في هذا إطلاقا وبقي حبيس عقليته، يبي قصورا ثم يهدمها، فهو من جهة يعجب بغزو نابليون لمدينته لأنه عمل يساير المذهب الهيجلي في حركية التاريخ، ومن جهة ثانية يتهم مواطنيه بتغلب بعض العادات السائدة في زمانه على الشعب الألماني الذي يجري وراء الحصول على المناصب الرسمية والقيام بالأعمال الشريفة اعتقادا منه بأن الوظيفة العمومية والألقاب هي التي تصنع الإنسان وبالتالي فإن الإنسان يقيم انطلاقا من الألقاب ويحصل على الاحترام بناء عليها لذلك يصل هيغل إلى الحكم التالي:

إن وضعية الألمان الحالية توضع في أدنى المراتب بالنسبة لشعوب أوروبا وهي أدنى من وضعية

حتى الإسبان الذين اشتهروا بكثرة الألقاب.

بعد هذا العرض نتبين كيف أن هيغل قد كان يعيش في ألمانيا حالما بتحسن الأوضاع في الوقت الذي عاش غيره الواقعي ظروف جيدة كما هو الحال في فرنسا وإنجلترا. وقد كان في أقصى درجات الموضوعية عندما انتقد وضعية الدويلات الألمانية (داخليا) لكنه ظاهريا وصف الوضعية بالفوضى الدستورية لذلك فقد أعلن في مقال له أنه حان الوقت لتوحيد المقاطعات وبناء دولة سياسية تعتمد دستورا واضحا بحيث يكون طموح هذه الدولة مسaire السياق العام الذي رسمه هيغل بناء على جدليته المعروفة للمسار العالمي للروح، وربما لم يتحقق ذلك إلا بعد وفاته بـ 40 سنة وذلك عندما قام بسمارك Bismarck بتوحيد المقاطعات الألمانية في دولة قوية 1871م.

يمكن أن نعيد تحديد مسار الروح - حسب النسق الهيجلي - على النحو التالي:

1- العالم الشرقي.

2- العالم اليوناني.

3- العالم الروماني.

4- العالم الجرمان.

مع التنبؤ بانتقالها إلى الأمريكان تبعا لتصنيفه لتاريخ العالم. حيث يركز على العالم المسيحي الجرمان ثم غزوات الشعوب البربرية الموجهة ضد الإمبراطورية الرومانية مع الإشارة الخاطفة إلى العالم الإسلامي كملحق للعصور الوسطى الأوروبية بحيث يصفها أيضا بالكمون الحضاري، ثم إمبراطورية شارلمان Charlemagne ثم العصور الحديثة، لكنه يركز دائما على الروح الجرمانية التي يرى فيها روح العالم الجديد والتي من أهدافها الوصول إلى تحقيق المطلق كت تحقيق ذاتي لا متناه للحرية، هذه الأخيرة التي لها صورتها المطلقة ومحتواها في ذاتها والذي يعبر عن مهمة الشعوب الجرمانية التي يرى بأنها سوف تكون ركيزة المبدأ المسيحي بحيث سوف يتحول دور هذه الشعوب

إلى خدمة الروح العالمي الذي فرضت عليه أن يكون في حوزته مفهوم الحرية الحقة التي ليست لها محتوى ديني لكن كنتاج له انطلاقا من الوعي الذاتي.

إن هيغل عندما يتحدث عن الشعوب الجرمانية يفعل ذلك بصيغة الجمع وذلك منذ غزو هذه الشعوب للإمبراطورية الرومانية، حيث انتقلت الروح إلى العالم الجرمانى Le monde germanique وبعثتاق هذا العالم للدين المسيحي مع انتقال الروح إليه من بقايا الإمبراطورية الرومانية وصلت الروح إلى ذروتها في الإمبراطورية المقدسة، وهكذا إلى أن وصلت إلى ألمانيا حيث كل المواطنين أحرار بعدما كان زمن الرومان البعض فقط هم أحرار.

إذا هناك ربط واضح بين مدى انتشار الحرية والروح ولهذا فإن هيغل لم ينشئ من الجرمان أمة تسير حسب مراحلها الثقافية الخاصة بها لتتدخل في الوضع العام للعالم، والمبدأ الذي ترفعه إلى العالمية هو مبدأ الحرية الذي كان هيغل قد تحصّر لانعدامه ولكنه يعود ويؤكد على أن حرية الشعوب الجرمانية قد غمرت باقي العالم انطلاقا من نظرية الفيض الأفلاطونية.

#### د- من هي أمريكا؟:

بعد العالم الجرمانى سوف تؤول الروح إلى أمريكا التي تعتبر اليوم (يونان فلسفية) جديدة! حتى نوضح جيدا نطرح هذا السؤال: من هي أمريكا؟ في مقابل السؤال: من هي اليونان؟ ذلك السؤال الذي ظل يحرك الفلسفة الأوربية من ديكارت إلى كانط وشلنج ثم نيتشه وأخيرا هيدقر وهوسرل.

لقد اعتقد الجيل الأخير من الفلاسفة بأن النجاح الأوربي رهين الاختراع اليوناني المعجزة سواء في الفلسفة أو الفن أو الدين أو باقي مختلف العلوم.

إن الغرض من هذا العرض هو معالجة الطرح التالي: ما هي الدلالة الفلسفية لأمريكا كما يراها الفلاسفة؟ أي كما رآها هيغل وهيدقر وغيرهم من الفلاسفة المعاصرين باعتبارهم أهم من



تصدى للدلالة الفلسفية لأمريكا، كجامعة لشمل الأوربيين من ذوي الطموح الزائد والجموح المنقطع النظير، فأمريكا التي ارتقت منذ هيغل إلى رتبة مقوم من مقومات الروح الذي صار يشكل ويتحكم اليوم في بنية الإنسانية، ولذلك فهي مفهوم بالمعنى الحقيقي للكلمة، إنها روح تأملي كما أكد على ذلك هيغل و(غشتال) تقني كما أكد هيدغر، وشبكة بلا حدود ولا قومية كما أكد نغري وهاردت<sup>36</sup>.

لكن المثير في المسألة حقا هو ارتباط عظمة أمريكا بالحرب، إن الصفة الواضحة لدلالة أمريكا اللغز، أمريكا العظمة، أمريكا الانبثاق الأوربي، هي علاقة مفهومية ماهوية وجيوفلسفية بالحرب، ولهذا آن الأوان لنسأل: ما علاقة أمريكا بالحرب؟

<sup>36</sup> - Hegel: Phénoménologie de l'esprit, Gallimard, Paris, 1993, PP 90-91.

هل تكون أمريكا هي تحقق الكلي لماهية الحرب؟ أم أن الحرب هي التجلي القدري لماهية أمريكا في إطار النظام العالمي الحالي؟

نجد أن المنظر الأمريكي فوكوياما (الذي يمثل الفهم العامي للزمان الأمريكي الحالي مطعما أياه بالجدور اليونانية مرورا بهيغل يقول: بأن الإنسان اللبرالي هو تتويج سعيد لحركة " شوق" الاعتراف من التماوس Thymos الأفلاطوني إلى نزاع الاعتراف الهيجلي إلى العظمة التنشوية)<sup>37</sup>.

إذن إلى أي مدى يمكننا أن نفكر في أمريكا على أنها فكرة فلسفية أو في هيغل وأمريكا الروح التأملية، أو ما هي العلاقة بين أمريكا كجهاز لدولة وأمريكا كآلة حربية، فأمريكا التي دشت انبثاقها بالحرب ضد السكان الأصليين (الهنود الحمر) و بنت حضارتها على استعباد زنج إفريقيا.

إن هيغل يجد تبريرات للحرب التي خاضتها أمريكا ضد السكان الأصليين بوصفها حربا ذات مهمة ماهوية في مسار الروح العالمي.

إنه قد أجابنا بهذه الكيفية عن ماهية الأصل الروحي لأمريكا مقرا أن أصل أمريكا هو الحرب ضد السكان الأصليين في أي مكان ومثلما ما هو واقع اليوم في أفغانستان والعراق، وعن طريق حليفها إسرائيل في فلسطين ولبنان، مع التهديدات المستمرة لسوريا وإيران بالإضافة إلى إثارة مخاوف المسؤولين في شمال إفريقيا وبالخصوص بالجزائر.

إذن فالحرب لم تبق مبدأ لإلغاء التناقض أو نزاع الأضداد كما أكد على ذلك هيرقليطس، وإنما الحرب في نظر أمريكا حدث فريد من نوعه لأن أمريكا قد تأسست على حكم القيمة الحضاري والميتافيزيقي الذي يقضي بتفوق الإنسان الأوربي على الإنسان الهندي والإفريقي، إنها ليست حربا أداتية حول الحكم أو حربا دينية حول " المقدس " إنها حرب من أجل نزع محض

<sup>37</sup> - F. Fukuyama : La fin de l'histoire et le dernier homme, P 15.

للإقليمية التي يتمتع بها الساكن الأصلي فوق أرضه، أو من أجل الهيمنة الاقتصادية على منابع البترول، أو من أجل لإحاطة حول الدول العربية الإسلامية التي ترفض الهيمنة الغربية عموما والأمريكية على وجه الخصوص.

إذا إن كل العمليات التي تقوم بها أمريكا تحاول أن تجد لها مبررا ذا أساس الأخلاقي وهو اجتثاث الشر (كالإرهاب،... وغيرها من الادعاءات)، وحتى يبرر هيغل ما قامت به أمريكا ضد السكان الأصليين بذلك بأنهم مازالوا في حالة طبيعية وغير قادرين على مواكبة روح التطور، لذلك فإن سقوطهم دليل على ضعف حضارتهم وعدم قدرتهم على مواجهة الرجل الأبيض<sup>38</sup>.

إن القضاء على أكثر من سبعة ملايين من الهنود الحمر لا يغير شيئا في النسق الهيجلي المبني على مسار الروح المطلق ومن اللافت للانتباه أن هيغل يسجل هذا الانهيار الحضاري وهذا الانقراض القومي بوصفه حدثا تأمليا في فلسفة التاريخ، وليس مشكلا أخلاقيا مريعا فوق أرض الواقع.

أما عن استعبادها للزواج واستغلالها لهم فهو يرجعه إلى ضعف السكان الأصليين من الناحيتين الجسمية والعقلية ومن أجل ذلك يصطنع تبريرا لتمديد فترة الإقصاء والاستعباد للهنود والزواج على حد سواء فيقول: "مازال هناك وقت طويل قبل أن ينجح الأوروبيون في أن يرسخوا في الهنود الحمر قليلا من حب النفس"<sup>39</sup>. وهو يقترح أن يمارس الآباء اليسوعيون أبوية أخلاقية يومية للهنود الحمر، كما وقع لأمريكا الجنوبية حيث كان القساوسة يدقون الأجراس كل منتصف ليل لتذكيرهم بواجبهم الزوجية لأنه - وكنتيحة لضعفهم العقلي - سوف ينقضون!

<sup>38</sup> - Hegel : Le raison dans l'histoire, ibid, P 232.

<sup>39</sup> - Ibid, P 233.

بهذه الكيفية يحط هيغل من شأن الهنود الحمر وفي الوقت نفسه يعلي من شأن الأنا الأوربي وخاصة في الجانب الديني حيث يرجع الفضل في استمرار العنصر الهندي إلى العمل الذي قام به القساوسة الأوربيون من خلال دقهم للأحراس.

#### رابعا - نهاية التاريخ بين طروحات هيغل وتقرير فوكوياما:

مع نهاية التسعينات كتب فوكوياما مقالا تحت عنوان: " نهاية التاريخ " وذلك كنتيجة لسقوط الشق الثاني من الحضارة الغربية بقيادة الاتحاد السوفياتي الذي حفر قبره بغزوه لأفغانستان، وبهذه الكيفية فقد شرعت الكثير من دول أوروبا الشرقية والتي كانت منضوية تحت راية الاتحاد من التحرر منها والالتحاق بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتبني النظام الرأسمالي وهو ما يعني سيادة المعسكر الغربي بقيادة أمريكا على كل الأصعدة: سياسيا، اقتصاديا، ثقافيا<sup>40</sup>.

وبما أن خلفية الغرب الفلسفية تقوم على أساس أن حركية التاريخ مبنية على الصراع لتحقيق غاية ما، وبما أن أسباب الصراع قد زالت بسقوط الاتحاد السوفياتي، فإن فوكوياما اعتقد أن التاريخ قد سكن ووصل إلى نقطة مطافه.

#### المرجعية الفلسفية لفوكوياما:

لقد ارتكز فرنسيس فوكوياما على أفكار كل من أفلاطون وهيغل وأخذ عنهما مقدمات تبدو للوهلة الأولى أنها مقدمات منطقية ضرورية تمتلك حقيقتها في ذاتها لإخراجها من مجال النقد والتحليل وإكسابها صفة البدهاة وجعلها مرتكزات عقلية لما ذهب إليه فأخذ من الأول فكره (التيماوس) ومن عند الثاني (الديالكتيك)<sup>41</sup>. " التيماوس " وهو الجانب الإرادي في النفس الذي

<sup>40</sup> - مطاع صفدي: نهاية التاريخ بيان التماوسية المظفرة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، 1993 ص 410.

<sup>41</sup> - عبد السلام محمد الطويل: توظيف غير علمي لمصطلح علمي، مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية، المملكة العربية السعودية، ع 277، أكتوبر - نوفمبر 1999، ص 77.

يطمح إلى إثبات الذات وانتزاع اعتراف الآخرين بها، معتقدا أن هيغل قد اعتمد على هذه الفكرة حين قال بالروح أو الوعي، كما أنه اختزل المنهج الجدلي الهيجلي إلى صورة بسيطة، ومن الفكرة الأفلاطونية القشور دون الغوص في اللب، فخلص إلى المبالغة في الدفاع والتفائل بالإمبريالية الرأسمالية الأمريكية، وما خلص إليه من فهمه الساذج لفكر هيغل هو الإساءة إلى سمعة المذهب الهيجلي برمته وإبعاده عن المثل العليا والقيم الإنسانية وتركه مجرد نفايات لا قيمة لها تاريخيا.

إن المنهج الهيجلي الذي شكل الخلفية المرجعية لفوكوياما أساسه الجدل المنظم للشعوب والثقافات في خط تطور العقل والوعي ومسار الروح دون ربطه بالزمان والمكان، وإنما الكل يتم عبر نظرة ذاتية للتاريخ تمجد الغرب عموما والعالم الجرمان المتوج بمسيحية لوثر الثورية (البروتستانتية) وتخصها بغاية التطور بحيث تجعلها في منتهى طريقه الصاعد من بدايته الحتمية الشرق (الذي يمثل في نظره طفولة الإنسانية غير الواعية) لينتهي عند الجرمان حيث يتحقق المطلق بالتزاوج بين الفكرة المسيحية التي ولدت في الشرق وبدأ تطورها عند الرومان ووصلت ذروتها القصوى عند الألمان والروح الشرقية الأصل التي وصلت إلى شيخوختها عندهم.

ومن هذا المنطلق، فالشرق والغرب في فلسفة هيغل الظاهرية يتخذان أبعادا تكاملية لكنهما في الباطن يحويان مضامين عنصرية تحاول دائما أن تجعل من الأنا الأوربي المتفوق حضاريا والمهيمن ثقافيا، بحيث يبقى دائما شرقيا يعاني الدونية والتخلف والاحتقار، لأن هيغل قد جعل لمسار التاريخ شكلا لولبيا يمنع شمس العقل من الظهور ثانية في الشرق.

إذا ففوكوياما يتخذ من الهيجلية بعض الطروحات متكئا على عقدة القوة والترعة العنصرية التي مثلتها الفلسفة الألمانية في مذهبي هيغل ونيتشه، لذلك كانت نهاية التاريخ عنده لا تخرج عن إطار الفكرة الأوربية العامة التي أقصت أي دور للشرق وأعدت صياغة التاريخ انطلاقا من بدايتين (اليونان والرومان من جهة، والنهضة الأوربية الحديثة من جهة ثانية) وإقصاء الشرق

ألغت أي دور للحضارات الشرقية المتقدمة على اليونان نهائياً، ثم ألغت - وفي السياق نفسه - أي دور للحضارة العربية الإسلامية ما قبل النهضة الأوروبية<sup>42</sup>.

وهكذا ربط فوكوياما نهاية التاريخ بالنظام الإمبريالي الأمريكي بمعنى سيادة الثقافة الليبرالية التي انتهى عندها التاريخ! إن الجنس البشري في نظره قافلة من العربات متجهة إلى نفس المدينة والتي هي الغرب، حيث الحرية والديمقراطية ولا خيار لهذه العربات جميعاً غير قلب الصحراء، أما وقد انطلقت منذ بدء الخليقة فقد وضعت في اعتبارها أن تصل إلى غاية معينة وهي " سيادة الحرية والمساواة " إلا أن التمايز الحضاري سرعان ما يظهر كنتيجة لعدم التماثل في الإمكانيات وإدراك الأهداف وهو ما أدى بالقافلة إلى الانقسام إلى ثلاث مجموعات:

**المجموعة الأولى:** وهي التي حددت أهدافها وكذا وجهتها بدقة مما مكنها من الوصول في أقصر وقت ممكن وبذلك فقد حققت مقاصدها بنيل الاعتراف، ومن تم فالتاريخ انتهى بالنسبة لها ولقد حققت مبتغاها بفضل الديمقراطية والليبرالية<sup>43</sup>. التي اعتمدها الولايات المتحدة الأمريكية، وبذلك يتضح مقصد فوكوياما من أن النظام الاقتصادي السائد في أوروبا الغربية بقيادة الولايات المتحدة هو أفضل نظام بلغته الإنسانية.

**أما المجموعة الثانية:** فقد كانت أضعف وأبطأ من سابقتها لذلك فقد تعرضت لهجمات الأوباش الذين هم عبارة عن (هنود حمر أو من العصاة البيض حسب ما يصور في أفلام رعاة البقر الأمريكية). إذن فقد وضح بأن سبب تعثر القافلة الثانية هو هذا الجنس البشري، وكأن عرقلة تقدم البشرية يتمثل في الظروف الطارئة والمفاجئة التي تحل بشعب ما، وقد يكون هذا الظرف الطارئ سياسي أو ديني أو عرقي، فيحول دون وصول القافلة إلى هدفها في الوقت المناسب، ويقصد بالمجموعة الثانية الأنظمة الشمولية في أوروبا ذاتها (الشق الثاني من الغرب حيث تعثرت

<sup>42</sup> - المرجع السابق، ص 73.

<sup>43</sup> - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي العربي، ص ص 81-82.

بسبب الممارسات السياسية غير الديمقراطية، والتي أثرت على مختلف الجوانب الاقتصادية، الثقافية وبقية المجتمع متخلفا...).

**المجموعة الثالثة:** وهي التي تفتقر إلى القدرة على المضي في الرحلة إلى نهايتها المرسومة لذلك قررت التنازل عن فكرة الذهاب إلى المدينة منذ انطلاق الرحلة واختارت الإقامة في الصحراء ولذلك أصبحت تعيش التناقضات والتشنجات العرقية والدينية، وهذه أكيد أنها ليست الدول الغربية وإنما يقصد بها الدول الآسيوية والإفريقية والسائرة في طريق النمو وعلى الخصوص الدول العربية الإسلامية والتي أقصاها فوكوياما من الركب الحضاري والمتمثل في المبدئين: الديمقراطية والحرية في جانب واقتصاد السوق في جانب آخر، خاصة وأن الغرب قد ظفر بالاعتراف بمبادئه السياسية والاقتصادية، الشيء الذي يجعل من الدول الغربية دولا تتمتع بكمال التاريخ أو نهايته ويجعل من الدول الأخرى - التي عجزت عن مواكبة روح العصر - البقاء في مزبلة التاريخ!.

# الفصل العاشر

## الهيغلية في ميزان النقد



يكاد يجمع دارسي الفلسفة في العصر الحديث، أن أغلب فلسفات القرنين 19 و20 ليست سوى صدى لنسق هيغل سواء كان ذلك تأييدا وانسياقا مع المذهب أو تفنيدا وانتقادا لمواضعات هيغل، أو ما بينهما، أي قبول جزء ورفض الجزء الآخر من المذهب.

حقيقة أن ما يميز المذهب الهيغلي هو الغموض والتعقيد الذي يوحى بالتناقض في أغلب الأحيان. ولعل عبارته المشهورة " كل ما هو عقلي واقعي وكل ما هو واقعي عقلي " تلخص كل هذا التناقض والعبارة على بساطتها تشير إلى الكثير من المفاهيم المتناقضة التي يمكن استنباطها مثل: الميثالي، المادي، الكلّي، الجزئي، الفلسفي، العلمي... .

إن هذا الزخم المفاهيمي ذو الدلالات الغامضة التي يشتمل عليها المذهب الهيغلي من أهم الأسباب التي أدت إلى انقسام تلاميذه وأتباعه وشراحه، وهو الأمر الذي لازال يحدث إلى يومنا هذا.

لقد حظيت فلسفة هيغل في بروسيا خلال النصف الأول من القرن 19 بالسيادة والسمو بحيث أحيطت بالرعاية والتدعيم من قبل الدولة ولذلك أطلق بعض النقاد على هذه الفترة " الفلسفة الرسمية " على كل الأصعدة، مدنيا إنتاج هيغل الفكري، وسياسيا وثقافيا إلى حد جعل كيركغارد، يصف سيادة الفكر الهيغلي في عصره قائلا: " إنه إذا تخلى إنسان عن هيغل في هذه المرحلة، فلن يكون حتى في مركز من تعنون له رسالة البريد...<sup>1</sup> .

من كان يعارض فكر هيغل منذ العشرينات من القرن 19 وحتى تاريخ وفاته كان يقاطع ويتعرض لمشاكل قد تصل حد الطرد من العمل وهو ما وقع لأحد الأساتذة الجامعيين حين جاهر في محاضراته بمعارضة فكر هيغل فطرد من منصبه، هذا ما يبرز تحول هيغل إلى فيلسوف، خاصة عند إعادة طبع كتابه " فلسفة الحق " .

<sup>1</sup> - **Kier Kegard** : Concluding unscientific postscript, translated by David. F. Swenson and Walter Lowrie, pricentou university press, 1944, P 318.

## أولا: الهيغلية في ألمانيا:

وعلى الرغم من ذلك فقط حظي إنتاج هيغل برعاية خاصة من بعض أتباعه سواء كان ذلك في حياته أو بعد وفاته على غرار تجمع نقاد برلين الذي تأسس عام 1827 أي قبل وفاته بـ 4 سنوات، وهو مجموعة من التلاميذ والأصدقاء المقربين لهيغل مثل الأخوين برونو باور Bruno Bauer (1809-1882) وإدقار باور Edgar Bauer وماكس شترنر Max Steiner (1806-1856) وموسى هيس (1812-1875) وروج Ruge (1803-1880) ودافيد شتراو David Strauss (1803-1874) فوير باخ Fiurr Backh (1804-1882) وهانز نيرغ وابنه كارل هيغل وغيرهم....

وقد استمر هذا التجمع حتى بعد موت هيغل وعلى نفس المنوال الذي كان عليه، حيث عمل التجمع في حياته ممثلا في هؤلاء على الخصوص على جمع مخطوطاته وإعادة طبعها، لكن المؤكد أنه مثلما تمتعت فلسفة هيغل بهذا القدر من الرعاية والعناية من الرسميين في حياته فقد أوجدت أفكاره المتناقضة - التي تصل حد التضاد - الكثير من النقاد، ويمكن أن نعتبر النصف الثاني من القرن 19 عصر النقد لأن الكل كان يتحدث عن هيغل الذي لم يترك مجالاً لم يخض فيه. إذن فقوة الفكر الهيغلي واتساع مجالاته هو الذي ترك أثرا خاصة في النصف الثاني من القرن 19 علما أن النقد لا يمكن أن يعتبر ضعفا في الفلسفة الهيغلية بقدر ما هو دليل على قوة وخصوبة فكرية أثمرت في وقتها وتوالى تأثيرها بعد موت صاحبها جسديا، وقد اتخذ نقد الفلسفة الهيغلية منطلقات متعددة تعدد المذاهب الفلسفية والفلاسفة.

وهكذا، أصبحت فلسفته تتخذ كحجة لدى الاتجاهات الفكرية المتناقضة، حيث تحاول كل منها أن تتبنى المذهب في حدود حاجتها إليه، وبذلك نجد أن أغلب الدراسات والبحوث على كثرتها راحت تتساءل عن أهمية المذهب الهيغلي بالنسبة للفلسفة الحديثة والمعاصرة وما يتمتع به،

ما قوة تأثيره على الفلسفات اللاحقة؟ إن أبسط دليل على ذلك هو اعتماد فرانسيس فوكوياما (صاحب نهاية التاريخ) على فكر هيغل وبصفة خاصة فلسفة التاريخ الهيغلية.

ما يجب التذكير به أن المجتمع الألماني خلال الثلثين الأخيرين من القرن التاسع عشر قد كان يعاني من التخلف في مختلف المجالات مع تفكك سياسي راجع إلى ضعف طبقة الوسطى الأمر الذي جعل هيغل يستبعد قيام ثورة لتغيير الأوضاع، لذلك فقد كانت دعوته مركزة حول رغبته في الالتفاف حول الإمبراطور بهدف تحقيق الوحدة، لقد كان هيغل يعيش حلم ما عاشه تلميذه كارل ماركس في الواقعين الفرنسي والإنجليزي، وهذا يتبين من خلال دفاع هيغل عن الدولة البروسية، وحتى لا يتناقض مع مصادره المعروفة راح يتصور أن الواقع الألماني هو واقع معقول حيث أعلن عن ذلك بصراحة في محاضراته في عام قيام الحلف المقدس 1815 حيث قال: " نستطيع أن نأمل أنه بالإضافة إلى الدولة التي ابتلعت كل المصالح الأخرى داخل مصلحتها الخاصة قد تتمكن الكنيسة الآن من العودة إلى مركزها الرفيع بالإضافة إلى مملكة العالم التي كانت كل الأفكار والجهود موجهة إليها حتى الآن، قد يتجه الاهتمام إلى مملكة الله أيضا"<sup>2</sup>.

يربط ماركيز بشكل صريح بين سيادة الفلسفة الهيغلية في ألمانيا وعودة الملكية بعد هزيمة نابليون، إذ صارت الفلسفة الهيغلية هي التعبير الرسمي عن إيديولوجية الدولة البروسية. وكم تمنى هيغل قيام ثورة في ألمانيا غير أن الواقع الألماني - سواء فيما يخص الجماهير الشعبية أو الطبقة البرجوازية الضعيفة - تنظيما واقتصاديا حال دون التبكير بها، فالواقع قد كان متخلفا ومفككا وغير منظم، ولذلك تأتي الثورة بعد ذلك من الرصيد الذي خلفه هيغل، وهي ثورة كانت نقدية وقد برزت من بين تلاميذ هيغل وأصدقائه، حيث كان التصور السائد بينهم وقتذاك: أن فلسفة المعلم نهائية وأن مهمتهم تكمن فقط في الجمع والشرح والتبسيط والتوضيح، لأن الفكر الهيغلي متشعب ومتعدد المفاهيم، غير أن دوام الحال من الحال، خاصة وأن الجدل الهيغلي قد بني على

<sup>2</sup> - ماركيز هيربرت: العقل والثورة، هيغل، ص 176.

التعير وعدم الثبات، بل هو شامل لكل أبعاد الحياة، وما من ثبات أو استقرار إلا وهو نسي لذلك فمن قلب المدرسة الهيغلية انبعثت أولى معالم النقد والاختلاف وذلك عام 1835 أي بعد أربع (4) سنوات من وفاته وذلك عندما نشر دافيد أشتراوس " حياة المسيح " Das Leben Jesu ومنذ هذا التاريخ ظهر الخلاف جادا داخل المدرسة الهيغلية بشكل واضح وصريح وهب الجميع لنقد كتاب أشتراوس وبهذه الكيفية ظهر اتجاهين في المدرسة.

### الاتجاه الأول:

ويمكن وصفه باليسار الهيغلي الذي يقف موقفا معارضا لما ذهب إليه هيغل في محاولته في التوفيق بين الفلسفة والدين، خاصة وأنه لطالما اعتبر المسيحية مع الروح تشكلا المطلق؛ علما أن اليسار الهيغلي يتسم بالعقلانية في هذا الجانب شأن كل الفلسفات الحديثة التي تنكر الوحي وكل ما هو مخالف للإنسان أو الطبيعة ويمثل هذا الاتجاه كلا من فوير باخ (1804-1872) وماركس ودافيد شتراوس (1808-1874) وبرونو باور (1809-1882) وغيرهم، وكان هدفهم نقد الدين وتحجيم الأيديولوجية الدينية وإبراز عدم معقوليتها على أرض الواقع، وشتراوس عندما يضم فكرة المسيح التاريخي، ويقول بالفكرة الإنسانية، تراجع للحقيقة الدينية وإقصاء لدورها في الحياة الإنسانية في مقابل تقدم العلوم التجريدية والعقلية وتحلي الحقيقة الإنسانية حتى ولو كانت عقلانية مجردة، فهي خطوة عملاقة لاستبعاد الإيديولوجية الدينية المهيمنة في ذلك الوقت، وهو المطلب الذي كانت تتمسك به البرجوازية والإقطاعية في المجتمع الألماني.

حيث كانت جل النشاطات يهيمن عليها الإقطاع الذي كان هيغل قد دعمه بشكل غير مباشر - كما سبق وذكرت - ومن هنا قام اليسار الهيغلي ينقد النظام البروسي من خلال نقده للفلسفة الهيغلية لما بينهما من روابط حميمة وأول من عمل على كشف هذا الترابط هو " دافيد أشتراوس " في كتابه المذكور آنفا، قائلا إن الحقيقة بالنسبة لنا نحن تلاميذ هيغل هي الفلسفة، هي العقل، هي الوعي الذاتي، بينما الدين هو افتعال خيالي بل وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك

عندما اعتبر الدين المسيحي بمثابة اغتراب الإنسان عن ذاته، لأن مسيحية أوروبا أنكرت كل ما هو طبيعي وحشي وبهذه الكيفية أصبحت مناقضة لواقع الإنسان وطموحات الإنسانية وحتى للحريّة السياسية.

وبهذه الكيفية أصبح النقد مطلباً لكل أنصار هذا الاتجاه، ولتوضيح الأمر أكثر ينبغي العودة إلى هيغل في هذه النقطة بالذات أي العلاقة بين الفلسفة والدين حيث يقول: " إن موضوع الدين هو موضوع الفلسفة، وهو واحد بعينه، هو الحقيقة الأبدية في موضوعيتها، هو الله وليس شيئاً عدا الله"<sup>3</sup>.

إذن من هذه الفقرة يتضح لنا أن هيغل يعتبر الله هو الفكرة المطلقة في تجليها وتكشفها اللامتناهي، ومعنى ذلك أن الله هو موضوع الفلسفة وهو موضوع الدين، وإذا تحول داخل النفس أصبح الفكرة، وإذا تجسد في التاريخ أصبح دولة، ومضمون الدين الوضعي عند هيغل هو عقيدة الكنيسة المسيحية، وبشكل خاص البروتستانتية، وهذا المضمون يشير بشكل جلي إلى ماهية الله والإنسان وماهية العلاقة بينهما، وذلك هو دستور الإمام المسيحي في الكنيسة البروتستانتية التي تعتبر الإنجيل أساساً ضرورياً للعقيدة، غير أن هيغل يخالف هذا الطرح ويعتبر الإنجيل مجرد رموز ويركز فقط على التفسير التأملي للمضمون الرمزي<sup>4</sup>. وعلى النقيض من ذلك فإن اشتراوس لم ير في الأناجيل رموزاً فلسفية بل رأى فيها أساطير خرافية<sup>5</sup> تعبر عن أعماق الرغبات الإنسانية أو توجهات البشر لذلك فإن الدين عنده تخيلات أنتجها البشر عندما وصلوا إلى مرحلة معينة من

<sup>3</sup> - G.W.F : Hegel on art, religion philosophy, introduction lectures to the realm of absolute spirit, Ed and with introduction by J.G. Lenn Gray, Harper torch looks, New York, 1970, P 146.

<sup>4</sup> - حسن حنفي: محاضرات في فلسفة الدين لهيغل، قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر، ج2، دار الفكر العربي ص 182.

<sup>5</sup> - أوغيست كورنو: أصول الفكر الماركسي، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1968 ص 74.

التطور، وبهذه الكيفية فقد دمر اشتراوس العقيدة المسيحية حيث يعتبر حقائقها الأبدية بمثابة أساطير.

كما طبق مفهوم الأسطورة على كل التاريخ الإنجيلي، فإن التغيرات الإنجيلية في نظره لا يمكن أن تثبت الصفة الروحية للأحداث الإنجيلية، معنى هذا أن الوحي أو البعث أو الجوهر الإلهي من المحال أن يكون محددًا بفرد واحد بل أن مجاله كل الإنسانية، لذلك فقد دعى إلى استبدال فكرة المسيح التاريخي بفكرة الإنسانية أو بالمشاركة في الحياة الإنسانية الإلهية. بمعنى الحياة الإنسانية الإلهية " للنوع "، ومتى ندمر المسيح التاريخي نجد جماعة أو رجال الله<sup>6</sup>.

#### أ- برونو باور:

مؤرخ ألماني وهو واحد من أبرز الهيغليين الشباب حيث استعان بالفلسفة الهيغلية على وجه الخصوص في نقده للدين معتمدا على جدليتها متخذًا من تناقضاتها أدوات لنقد تواريخ الأناجيل الأربعة مع التركيز على إنجيل يوحنا.

وعلى نسق اشتراوس يبدأ باور في النقد الراديكالي للدين نافيا الوجود التاريخي للمسيح مركزا على تدمير العقائد الدينية دون البحث عن تبرير مادامت غايته من وراء ذلك إثبات حرية الإنسان وتطوره الاجتماعي، لذلك وجب على الثورة أن تتدافع في النص الديني من أجل زعزعته، لذلك فقد رفض الربط بين العقيدة والفلسفة كما نفى أن يكون هناك رابطة بين المطلق والسوعي الفلسفي أي العقيدة المسيحية والفلسفة، كما توجه بالنقد إلى النظام القائم في دولة بروسيا، حيث تحالف الملوك والأمراء مع رجال الدين إلى درجة أن أصبحت المسيحية معرقة لتطور المجتمع لذلك فإن باور يؤكد أن الدين هو القوة التي تسلب الإنسان ذاته وحرية إذا: فهو القوة التي تقيّد الإنسان وتجعله يعيش حياة الجمود وفقدان الثقة بالنفس، وإن أردنا للمجتمع أن يتغير نحو

<sup>6</sup>- John Eduard Toeus : Hegelianism, Cambridge university press, London, New York, 1980, PP 260-252.

الأفضل<sup>7</sup> فالسبيل إلى ذلك هو التحرر من الوعي الديني الذي انتهى دوره في التاريخ ولذلك يقول في رسالة أرسلها إلى ماركس؛ أن الكارثة التي حلت بالبشرية هي دخول المسيحية إلى العالم غير أن الإنسانية بقيت تعاني إلى أن ظهرت النخبة الواعية بالخطر فبدأت في العمل لتغيير الوضعية القائمة بهدف تحقيق حرية الإنسانية، ولذلك يقسم باور تاريخ العالم إلى قسمين:

القسم الأول: هو اغتراب وضياع الحرية.

والقسم الثاني: هو نهاية كاملة للإنسان الحديث.

### ب- فريديريك أنجلز:

وهو من أعز أصدقاء ماركس - كما أسلفت ذكره - ويعد رفيق دربه وله عدة مؤلفات أشهرها: " فوير باخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية"<sup>8</sup> و" الرد على دوهرينغ " وقد اشترك في أعمال كثيرة مع ماركس، كما ساهم في العمل الصحفي.

### ج- كارل ماركس:

وهو مؤسس الشيوعية الحديثة وقد كان من الهيغليين الشباب حيث انكب على الفكر الهيغلي وخاصة الجدل والمنطق ومفهوم الدولة الرأسمالية، وبعدهما استوعب فكر هيغل وأخذ الزاد الكافي اعتبر الفلسفة الهيغلية بمثابة خاتمة للفلسفة الكلاسيكية.

نلاحظ أن ماركس تناقض مع هيغل فيما يخص تصوره للملك، الإنسان، الإله، وهو عند هيغل التجسيد الحقيقي للفكرة المطلقة<sup>9</sup> وهو تصور ينسحب حسب هيغل على ملك روسيا فريديريك الثالث، ومن هذا المنطلق يرى ماركس أن الملكية الدستورية التي رسم هيغل أبعادها في

<sup>7</sup> - أوغيست كرونو: ماركس وأنجلز، ج3، ص 194.

<sup>8</sup> - فريديريك أنجلز: فوير باخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ترجمة محمد لعربي، دار التقدم للنشر والتوزيع، تونس،

<sup>9</sup> - **Karl Marx** : Critique of political economy, international publishes, New York, 1976, PP 20-21.

فلسفة الحق، لا تلتقي والدولة البروسية في شيء والقول بالتطابق خطأ يكذبه الواقع لأن بروسيا العشرينات من القرن التاسع عشر لم تكن تعتمد على دستور لتسيير شؤونها ولم يكن لديها مجالس منتخبة ولا محاكم شرعية وهذا باعتراف هيغل، كما كانت الرقابة صارمة على حرية التعبير، إلا أن جوهر الملكية الدستورية عند هيغل متمركز حول الملك إلى حد أن تصبح مختلف السلطات الأخرى كذبة قانونية كما يقول ماركس في نقده لفلسفة الحق<sup>10</sup>.

ثم يبرز تناقض هيغل مع نفسه حيث يعترض على فكرة الانتخابات العامة ومشاركة كل الشعب في قضايا الدولة باعتبارها قضاياهم جميعاً<sup>11</sup> إن مثل هذا العمل يؤدي إلى إدخال الديمقراطية في الممارسة اليومية للدولة، إن هذا التصور لا صلة له بالواقع، يتحدث هيغل عن الدولة البروسية أو مقاطعة نيوتنبرغ التي لا يجتمع برلمانها إلا بهدف تحقيق مصلحة الحاكم.

وهنا تتضح حقيقة الديمقراطية الهيغلية وأنها عبارة عن امتياز للطبقة الأرستقراطية الإقطاعية، والذي كرّسه هيغل كحق فطري بالميلاد والنشأة، وبالتالي فإن جمهور الشعب لا مكانة له في دولة الحرية الهيغلية التي كرّست الامتيازات للطبقة الأرستقراطية ولبعض البيروقراطيين، وهذا يتناقض تماماً مع الديمقراطية، إذن فالهوة واسعة بين طروحاته النظرية والممارسات العملية للديمقراطية والحرية، علماً أن المؤسسات التي قامت في أوروبا وعلى الخصوص في فرنسا وإنجلترا قد أكدت على أهمية وعي الشعب لمصالحه ومشاركته في تسيير مؤسساته.

ولكن الحقيقة كما يراها هيغل أن الشعب لا يعرف ما يريد ضمن الحد والإطار الذي تدل فيه كلمة " الشعب " على جزء خاص من أعضاء الدولة إذا فهو غير مؤهل للإرادة المطلقة وللعقل المطلق، وهذه ليست أشياء خاصة بالشعب بل هي موجهة لفئة الفلاسفة والمفكرين، لأنها تجريد محض، ومن المفروض أن مسؤولي الدولة أو ممثلي الشعب من المنتخبين لديهم إمكانية لفهم

<sup>10</sup> - جون لويس: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد الملك، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص 144.

<sup>11</sup> - إمام عبد الفتاح إمام: دراسات هيغلية، ص 107-124.



ما هو خير للشعب وما يضره ومهمتهم تتجلى في التأكيد على الخير ورفض الضرر وهذا يرفضه هيغل!

ثم إن هيغل يقصي المرحلة الشرقية بناء على أن النظام بترياركي أبوي والحاكم إلهي والرئيس هو الكاهن الأعظم والدستور والتشريع يستمدان من الدين، وفي تألق هذا الكل تحتفي الشخصية الفردية دون حقوق، علما أن هيغل - كما أسلفت ذكره - قد أحاط الإمبراطورية البروسية بنفس الهالة التي أعابها على الشرق.

أما المرحلتين: اليونانية والرومانية فقد اعتبرهما بداية التأسيس الحقيقي للحرية والديمقراطية من خلال عدم شمول الحرية لجميع أو كافة أفراد المجتمع. بمعنى أن البعض فقط يتمتع بالحرية والأغلبية هم عبيد، ورغم ذلك فإن هيغل قد مجد هاتين المرحلتين واعتبرهما أساسا للمرحلة الجرمانية حيث تخرج الروح المكبوتة من أقصى سلباتها اللاحدودة وتتخلص من السلبية لتكتسب الإيجابية المطلقة، أي بمبدأ وحدة الطبيعتين: الإلهية والإنسانية، وعندئذ يتم التوافق بين الموضوعية والحرية وهذا الانسجام هو مبدأ الشعوب الجرمانية ومبدأ وجودها العقلي ومعرفتها، أي عقلانية الحق والقانون، وبهذه الكيفية يفقد التناقض بين الروحي والديني حتى تتحقق الدولة العالمية.

ومادامت الدولة البروسية هي ذروة التطور والتقدم الأسمى للروح، ففي تجسد الروح تجسيد للحرية، وذلك إعلان من هيغل لنهاية الجدل والتطور.

بهذه الكيفية يقول ماركس: " يقوم هيغل بخيانة الجدل بحيث يلاحظ جمود حركية المجتمع البروسي، ورغم ذلك يوصل المسار العالمي للتاريخ من الشرق إلى الغرب، وبالضبط إلى الدولة البروسية، إذن إذا كانت بدايته الصين (آسيا) فإن نهايته بروسيا (أوربا) " <sup>12</sup>.

<sup>12</sup> - أوزيرمان وآخرون: موجز في تاريخ الفلسفة، ترجمة توفيق إبراهيم سلوم، دار الفارابي، ص 435.

وفي إعلان هيغل أن كل أمه أو دولة هي مظهر خاص من مظاهر روح العالم الذي وجد عينيته في الدولة البروسية، هنا نجد يعلي من شأن القومية، علما أن روح هذه الأخيرة لا تتحقق إلا في إطار الدولة التي هي تجسيد للروح في مسارها التاريخي وتكريس للحرية.

معنى ذلك، أن الدولة هي الفكرة الإلهية على الأرض، كما أن قوتها هي حقها، ويمكن الحكم عليها من خلال علاقتها بالعملية التاريخية، تاريخ العالم، وهو في الوقت نفسه محكمة العالم التي هي الحكم النهائي في التاريخ، وقبوله للحرب كحل طبيعي للتزايدات الناشئة بين الأمم، يؤكد فكرة الزعيم العسكري التي شكلت الأساس النظري للفكر النازي.

هذه الأفكار وغيرها من تعاليم هيغل هي التي جلبت الكوارث لألمانيا لما كان لها من تأثير في الحركات النازية وذلك مما تحمله من جذور تبدو تبريرات فلسفية لتسلط الدولة وعبادة الزعيم وتقديس الرسالة التاريخية للشعب الألماني، الذي تقمص فكرة نهاية التاريخ عنده كما خطها هيغل.

علما أن النازية تأخذ بالفكرة الهيغلية عن الطبيعة العضوية للدولة، كما يقول غتر<sup>13</sup> في عرضه لفلسفة الحق وتعليقات ماركس عليها، لأن الأمة الألمانية ككيان عضوي يجب أن تساير قوانين تطورها الخاص بها دون أن تحول أية معايير أخلاقية أو دينية في الوصول إلى مبتغاه.

كما وجد أنصار النازية في مبدأ هيغل (كل ما هو عقلي واقعي) تبريرا للدولة البروسية التي اعتبرت أفكار الحزب الاشتراكي النازي معقولة مادامت تكتسي صفة الواقعية من خلال ترديدها من طرف أشبال الحرب (الأطفال الصغار) فما بالك أن يعتنقها الكبار ويعملون من أجل تحقيقها في الواقع.

د- فوير باخ: يعتبر من تلاميذ هيغل الشباب الذين أولوا عناية خاصة لفلسفة أستاذهم مع محاولة جادة لتقويض المثالية الهيغلية بناء على مقولة ماركس، إن القدماء غالبا ما فسروا العالم ونحن

<sup>13</sup> - Howard. P Kaina : Hegel's philosophy of right with Marx's commentary, martiners nuh off the lagne, 1974.

علينا أن نقوم بتعيينه خاصة وأنه نحى منحى ماديا في تفسير حركيه التاريخ على أساس المادية التاريخية، أي أنه خالف وناقض الجدل الهيغلي قائلًا أن هيغل كان يمشي على رأسه وأنه قلب المنطق الهيغلي إلى الوضع الصحيح بحيث يضعه على قدميه.

وفي السياق نفسه قام (فوير باخ) بنقد جذري للدين، وخاصة الشق التوفيقي الذي اعتمده هيغل بين الفلسفة والدين المسيحي الذين بهما يتحقق المطلق عند الجرمان، وانطلاقًا من هذا المبدأ الهيغلي يحمل (فوير باخ) مقولة ليهدم مثالية هيغل مفضلاً الاستعانة بالمادية الفرنسية والإنجليزية، إذ عمل على الرفع من شأن الطبقات الكادحة مروجاً لفكرة الدين أفيون الشعوب أي بمعنى أن الإقطاعية والأرستقراطية اتحدتا باستعمال الدين لاستغلال الجماهير الشعبية.

وحتى يقوم فوير باخ بزعة المذهب الهيغلي<sup>14</sup> كان عليه أن يقوم بالبرهنة على أن الإنسان لا يؤسس من الخارج كما جاء في رأي الدين لأنه يستحيل في نظره نشأة كيان نوعي للإنسان، من خلال اسناد ذلك لأمر خارج ذات الإنسان لأنه في هذه الحالة سيؤدي إلى ضياع جوهره نظراً للفرق الكبير الموجود بين ما هو لاهوت وما هو ناسوت، فالإنسان عادة ما يرتبط بالحاجات والآراء الشخصية والانفعالات والإحساسات إلا ناحية الروح التي تعتبر جوهرية تعبر عن خصوصية الشخص أو الشعب كما يقول هيغل.

والمؤكد أن فوير باخ بمعارضته اللاهوت المسيحي، وفلسفة هيغل، كفكرتين تربطهما علاقة التلازم إلا أن هيغل كان قد تشبع بالفكر اليوناني أولاً وحتى بالعهد القديم ثم بالمذهب البروتستوني لذلك فقد ربط فوير باخ بين الهيغلية والبروتستانتية اليمينية وعمل على إسقاط الاثنتين.

وبهذا المنهج التحويلي يكون فوير باخ قد ضرب عصفورين بحجر واحد حيث أنكر وجود الله وفي الوقت ذاته قلب الفلسفة التأملية إلى نقيضها، أي تحويل الموضوع إلى محمول والعكس

<sup>14</sup> - فوير باخ: مبادئ فلسفة المستقبل، ترجمة إلياس مرقص، ط1، دار الحقيقة، بيروت، 1975، ص ص 8-9.

صحيح، ومن هذا المنطلق أصحى تأثير فوير باخ على ماركس واضحاً للعيان منهنجا واصطلاحاً في نقده لفلسفة الحق، ولذلك تصدق المقولة " إن المادية الماركسية تبدأ من هذا النقد لهيغل " كما يعترض ماركس متأثراً بالمبدأ الفوير باخي ويقول: " كما أن الدين لا يخلق الإنسان بل الإنسان هو خالق الدين، كذلك ليس الدستور هو خالق الشعب بل الشعب هو خالق الدستور، وبهذه الكيفية يعود الدستور في أساسه الحقيقي إلى الشعب إنه من عمل الشعب "15.

ومبدأ فوير باخ الذي يجعل الإنسان أساس اللاهوت وسره يعتبره ماركس مبدأ ثوري غير أنه ثوري على المستوى النظري فقط وأن المجتمع وروح العصر في حاجة إلى التغيير العملي لذلك فإن ماركس يقول في نقده لفلسفة الحق الهيغلية: إن نقد الدين هو مقدمة لكل نقد... وأساس النقد غير الديني هو أن الإنسان صانع الدين وليس الدين هو الذي يصنع الإنسان<sup>16</sup>.

ثم يضيف ماركس بأن الإنسان الذي يعنيه ليس الإنسان ككائن مجرد بل هو العالم الإنساني مجسداً في الدولة والمجتمع، والدين هو نتاج هذه الدولة وهذا المجتمع أيضاً والدين وعي مقلوب لأن الدولة والمجتمع والأسرة كلها عالم مقلوب.

فالنضال ضد الدين عند ماركس؛ هو بشكل غير مباشر نضال ضد مفهوم الدولة التي أسسها هيغل على الدين لذلك يجب أن يتحوّل من نقد الدين إلى نقد القانون، ومن نقد اللاهوت إلى نقد السياسة، وبالتالي إلى تدمير كل أشكال أو شروط الاستعباد والعبودية.

لقد كان لفوير باخ تقديره الخاص عند ماركس ويمكن لمس ذلك من رسالة ماركس التي بعث بها إليه حيث جاء فيها: " يسعدني أن أجد مناسبة التعبير وأيضاً (اسمح لي بهذه الكلمة) كل الحب الذي أكنه لك أن كتابيك فلسفة الحق، وجوهر الدين يربنان - رغم حجمهما الصغير -

<sup>15</sup> - Karl Marx : Letter to Ludwig feedback, selected writings, edited by David Melellan, P 30.

<sup>16</sup> - Ibid, P 24.

أكثر من مجموع الأدب الألماني المعاصر، لقد أعطيت في هذين الكتابين - لا أدري ما إذا كان ذلك عن قصد - قاعدة فلسفية للاشتراكية<sup>17</sup>.

وهذه القاعدة تنبني على محورين أما الأول فهو المأثرة المادية أي تغليب الإنسان على بيئته ودوره في العملية التاريخية، أما المحور الثاني فهو نزعة فوير باخ الإنسانية والتي هي خلاصة نقده للمسيحية حيث أسس عليها مذهبه الاجتماعي في مبادئ فلسفة المستقبل.

إن فوير باخ يعتبر الدين يسلب إنسانية الإنسان لذلك فهو يمثل - حسبه - أسوأ اغتراب يمكن للإنسان أن يعيشه لأن الدين يفقد الإنسان طبيعته الواقعية ويلحقها بالله وإذا كان من الواجب على الإنسان استعادة ماهيته الحقيقية فما عليه إلا أن يعيد إلى ذاته ما كان قد آل إلى الله عن طريق الاغتراب، لهذا فيسقاط فكرة الدين يعني في نظره إسقاط للاغتراب.

أي إعادة ماهية الإنسان إلى حقيقتها فعندئذ يصبح الوجود الجمعي واقعة أصيلة<sup>18</sup>.

وفي الحياة الجماعية تظل محبة الإنسان للإنسان محل محبة الإنسان لله.

ولكن بورنو بذكر اعتراض ماركس على فوير باخ بحيث على الرغم من سعيه إلى إدماج الإنسان في الطبيعية والمجتمع إلا أنه نادراً ما تجاوز فكرة الإنسانية كمفهوم مطلق، شأنها شأن الروح العالمي عند هيغل.

ورغم تأثير فيور باخ على ماركس إلا أنه تأثر جزئي يبقى اجتهاد في حدود، وعلى النقيض من ذلك فقد كان لهيغل تأثير عظيم على ماركس، خصوصاً في أربعينيات القرن 19.

وهذا ما يتضح من خطاب ماركس لوالده في 10 نوفمبر 1837 حيث يبدي فيه ماركس اقتناعه بالطريقة الهيغلية ولكنه لاحظ فيها الكثير من المزاوغات لذلك فقد بدأ العمل من أجل أن تضع لها حد لأن مبدأ ماركس هو: " إسقاط الستار عن كل المقدسات مع تجاوز المبدأ

<sup>17</sup> - opcit , P 113.

<sup>18</sup> - أوغست كورنو: أصول الفكر الماركسي، ص 132.

التالي الذي ازدهر خاصة مع كانط وفخته، مع اتجاهه إلى البحث عن الأفكار في الواقع وإن كانت الآلهة في زمن هؤلاء قد سكبت السماء على حد تعبير ماركس فإنه يجب عليها الآن أن تعود إلى أرض الواقع، ثم يعترف ماركس من خلال هذه الرسالة أنه اطلع على فكر هيغل بسرعة لذلك عليه إعادة قراءة هذا الفكر بتركيز وانتباه شديدين حتى يكشف طبيعة العقل كضروري وعي، وبالتالي يتمكن من إيقاف مراوغات الجدل الهيغلي ويجلب إلى الشمس حبات اللؤلؤ الخالص، بمعنى أنه يستفيد من الفكر الهيغلي ويأخذ فقط ما يهيمه هو لذلك فرأي ماركس هو أن أهمية هيغل هو توسطه بين كانط وفخته، أي أنه جاء بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون، فأهم ما حققه هيغل في نظر ماركس هو التخلص من تنائية كانط<sup>19</sup>.

وهنا يبدو للوهلة الأولى أنهما يشتركان في الجدل لكن الحقيقة أنهما يتفقان فيه كمنهج، لكن ينبغي التنبيه أن الجدل عند هيغل يرتبط بالروح أو الفكر الذي هو القوة المحركة للتاريخ وكذا الحياة الاجتماعية والسياسية، لكن ماركس يرى في الجدل عكس ما يراه هيغل، أي أنه انعكاس للواقع المادي والاجتماعي في حياة البشر ونشاطهم الإنساني لذلك فإنه يفسر حركية التاريخ بالمادية الجدلية أو التاريخية<sup>20</sup>.

وبعد الجدل يأتي الاغتراب الذي يعتبر من المحاور الرئيسية الهامة في دراسة العلاقة بين ماركس وهيغل حيث يجمع الكثير من النقاد مثل جان هبوليت وإريك فروم مؤكدين على أن فكرة الاغتراب بمثابة النواة بالنسبة للفكر<sup>21</sup> الماركسي علما بأن المنبع الأصلي لهذه الفكرة هو هيغل ويعتمدون على مخطوطات 1844، التحليل الفلسفي للاقتصاد حيث يبين ماركس استنادا إلى تلك المخطوطات قيمة الفكر الهيغلي ويعيب عليه في ذات الوقت لجوءه إلى حل ظاهرة

<sup>19</sup>- **Karl Marx** : Letter to his father, selected writings, edited by David Melellan, P8.

<sup>20</sup>- جان هبوليت: ماركس وهيغل، ترجمة جورج ضدقي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1971، ص 65.

<sup>21</sup>- **Erich Fromm** : Marx's concept of man, Frederick Unger, publishing co, New York, 1963

الاغتراب على مستوى الفكر فقط بينما يتخذ ماركس في ذلك — منهجا معيارا حيث يلجأ إلى الواقع لحل مشكل الاغتراب.

ولنتأمل خلاصة فكر (فوير باخ) عن الدين والفلسفة والإنسان والتي أدت إلى إثارة فضول ماركس وأنجلز مما جعلهما يضعانه كأول فيلسوف في عصرهما تسنى له إدراك الحقيقة لحل مشاكل الإنسان عموما. حيث استطاع إزالة التناقض الذي كان قائما منذ أمد بعيد في الفكر البشري سواء في الدين أو الفن أو الفلسفة، وهذا الأمر أسر ماركس وأنجلز<sup>22</sup>.

علما أن فوير باخ قد كان في بداية عهده على نهج هيغل، ولم يكن يدري بأنه سوف يتخلى عن أستاذه ذات يوم، لكن المقدمات التي انطلق منها بهدف إلغاء التناقض في جانب الدين والسياسة والفن والفلسفة، جعلته يجد نفسه في نهاية المطاف في قطيعة مع هيغل بعدما توصل إلى حقيقة مقنعة وهي أن هيغل لم يصب في أسبقية الفكرة المطلقة على العالم، وفي ترتيب المقولات المنطقية وإسقاطها على مسار التاريخ العالمي، لأن مثل هذا الترتيب يؤدي إلى إلغاء أي دور للإنسان، وتأكيد وجود عناية إلهية تسيّر كل شيء، أي افتراض خالق متعال على الأرض، ويقوم بتسييرها من الخارج، لذلك فقد قام فوير باخ على قلب الأوضاع القائمة عند هيغل أملا في أن يعيدها إلى حالتها الطبيعية؛ فيصبح العالم المادي أي كل ما هو مدرك بواسطة الحواس هو العالم الحقيقي والواقع الوحيد الذي يمكننا أن نرجع إليه الأفكار والمشاعر، وفي السياق نفسه يؤكد هيربرت ماركوز<sup>23</sup> على توافق فوير باخ مع هيغل بالنسبة للعقل والحرية حيث يساند هيغل في قوله أن البشرية قد حققت تقدما كبيرا من حيث النضوج الفكري بعد أن سلكت طريق الوعي الجماعي وارتفعت إلى مستوى تحكيم العقل، ونشر الحرية وتعميمها لدى الناس، ومن هنا كان على هدي فلسفة هيغل وعد من المنتمين لها في هذا المجال وأبرز مثال على ذلك يمكن الإشارة إلى

<sup>22</sup> - أنجلز: فوير باخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص 49.

<sup>23</sup> - ماركوز هيربرت: العقل والثورة، ص 262.

تحويل اللاهوت إلى منطق وقيام فوير باخ إلى تحويل المنطق إلى أنثروبولوجيا، وبهذه الكيفية عمل أيضا على تحرير الإنسان وتطوير فكره.

**مجل القول:** رغم النقد الذي وجه لهيغل من طرف الهيغليين الشباب وتشكيل المذهب (المادي)، يمكن التأكيد أن هناك اختلاف من حيث المسلمات المعتمدة ولكنها قد أدت بأصحابها إلى نتائج واحدة، فإذا كان هيغل قد أقام نظريته الاجتماعية على الروح القومية والعبقرية، فإن ماركس وأتباعه قد أقاموا نظرياتهم وفي الموضوع نفسه على الجانب الاقتصادي أو المادية التاريخية<sup>24</sup>.

إذن فالماركسية وإلى يومنا هذا مازالت تنطلق في تحليلاتها ونقدها وفي تدعيمها لمبادئ ماركس من الفلسفة الهيغلية. ولقد أثبت جورج سنتيانا الأمريكي الجنسية الإسباني الأصل، تواصل الهيغلية - في شكل آخر - لدى الماديين، فقد أعجب كارل ماركس بالحقيقة التي نادى بها ذلك المثالي بل فقد قام بإكمالها بأن نزع عنها بعض التعالي ثم انصرف إلى تجسيدها في الواقع العملي واضعا غايته في تحقيق الحاجات المادية وتجاوز الصعوبات الاجتماعية وإلغاء كل التناقضات في السياسة والملكية والدين والفلسفة والفن وبذلك تتحقق الغاية القصوى من مذهبه<sup>25</sup>.

وهذا ما أكده سيرو Serreau الذي أضاف أن ماركس وأتباعه لم يكتفوا بالمنهج الجدلي الهيغلي فقط بل استخدموا جدلية السيد والعبد وسأله الاغتراب مما دفع جان لكروا إلى القول بأننا لن نخطئ إذا أطلقنا على الماركسية "الهيغلية".

**ثانيا - الهيغلية في فرنسا:** يعترف روز نكرانز كاتب سيرة هيغل بأن فرنسا كانت من بين أهم الأمم المجاورة لألمانيا والتي اهتمت بفكر هيغل، وأشهر المعجبين بفكره من الفرنسيين هو فكتور كوزان الذي أعجب بفكره أيما إعجاب في شبابه والشاهد على ذلك تلك الرسائل التي

<sup>24</sup> - وولش: مدخل إلى فلسفة التاريخ، ص 214.

<sup>25</sup> - جورج سنتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، نشر دار الثقافة الجديدة، بيروت،



تبادلها معه حيث جاء في الرسالة المؤرخه بـ 01 جوان 1826 ما يلي: "يا هيغل أريد أن أتقف نفسي، وأنا بحاجة من أجل تصرفاتي وأيضاً من أجل نشراتي، إلى آراء صارمة، وإني لأنتظرها منك... فانزل قليلاً من عليائك وامدّد إلى يدك... ولتكن قسوة فؤادك علي بمقدار ما سأبيح لنفسي دائماً (إذا عقدت العزم لي أن أكون نافعا لبلادي) بأن أعدل بمقتضى الحاجة (والحال هي على ما هي عليه في هذه البلاد المسكينه)... قرارات أساتذتي بألمانيا يا هيغل قل لي الحقيقة وسأنقل منها إلى بلادي ما أستطيع أن أفهمه منها"<sup>26</sup>.

من خلال هذا النص يتبين لنا كيف أن كوزان يعترف بأنه لم يفهم الشيء الكثير من الموسوعة الفلسفية لهيغل، حيث كان يستمع إلى أحد الأساتذة يحاول شرحها له بمقدار ما تيسر له من الجهد، لذلك عبّر عن ذلك قائلاً: "لقد استعصى عليّ فهم الحقيقة، ولذلك توجهت إليك يا هيغل بهدف أن تيسر لي أمر هذه الحقائق العميقة" علماً أنهم في هذا الزمن كان هيغل قد اشتهر أنه صاحب الخطوط العريضة أو صاحب الأفكار العميقة في الفلسفة والمحصول للتراث اليوناني والمسيحي والألماني.

لذلك كانت توصف أفكاره في فرنسا (بالشبح) لأنها لم تكن مفهومة لديهم، وقد عبّر عن ذلك كوزان بقوله: "إن مفعول الموسوعة فيّ قد تعدى مفعول ظلمات الشاعر دانتي المرئية، حيث لم يكن كل شيء مفهوماً، وما كنت أدركه منها كان يولد فيّ رغبة في أن أطلع على المزيد وأن أفهم مجاهيلها، والواقع أن المذهب الهيغلي لم تتضح معالمه في فرنسا إلا مع نهاية الثلث الأخير من القرن 19 حيث حاول الكثير من النقاد تقديم جزء من فكر هيغل بشكل ما، غير أن جل المحاولات باءت بالفشل حيث تعاون الكثير من النقاد ونشروا عدداً خاصاً حول هيغل في مجلة (العالمين) وذلك في الذكرى الثلاثين لوفاته وقد تأخر ذلك العدد عن الصدور لغاية 15 أوت 1862 التي من المفروض أن تظهر في 1861 لكن دون جدوى" وقد حاول - بعد ذلك -

<sup>26</sup> - إميل بريهمه: تاريخ الفلسفة، ترجمة جورج طرايشي، ج6، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1985، ص 252.

أحد النقاد المعجبين بهيغل وهو: نين، حيث صرح قائلاً بأنه ذهب خصيصاً للريف حيث قضى سنة كاملة متفرغاً لدراسة الموسوعة وظاهريات الروح وخرج بهذه الخلاصة: من بين جميع الفلاسفة الذين تيسر لي الإطلاع عليهم ليس بينهم من فيلسوف صعد إلى أمثال هذه المرتفعات، أو تقترب عبقريته من هذه العبقرية العجيبة عندما تتسلق ذرى المنطق والموسوعة لأول مرة.

فإنما نشعر بنفس الانفعال الذي يعترينا ونحن من على قمة جبل شامخ... وأمام البصر تنبسط آفاق لا متناهية وتمتد قارات كاملة وإنه في نهاية المطاف يتخيل المرء في هذه الوضعية، وأنه بلغ ذروة العلم ومطل العالم، لو لم يقع بصره هناك فوق منضدة على مجلد لفولتير موضوع فوق مجلد لكوندياك، (وهم الفلاسفة الكلاسيكيون في فرنسا خلال القرن 19).

والحقيقة أن تين قد حلم بأن يكون فكر هيغل توفيقياً مع كوندياك وفولتير واستوارت مل، لكي تمتد المثالية الألمانية مع التزعة التجريبية وتمكن من تغطية مختلف الجوانب من الإحساسات البسيطة إلى الظاهريات (ظاهريات الروح) أي ينبغي إعادة بناء العالم من مستخلصات الأشياء يعني المحردات ثم الانتقال بالأفكار أو المعاني وصولاً إلى أقصى تجليات الروح وهكذا. يمكن الإشارة إلى التيارات المعادية لهيغل في فرنسا حيث تبنت الجامعات الفرنسية بعض الحلقات الأكاديمية حيث تم التشهير من خلالها بفكر هيغل من باب أنه فكر إلحادي رجعي، وذهبت هذه الحلقات إلى القول: بأن هيغل قد نزع عن العالم خالقه وعن الخليقة حكمتها، وعن الحياة علتها الإلهية وغايتها الأخلاقية وعلى النفس البشرية خلودها.

إن التيارات الفكرية التي هيمنت في فرنسا نهاية القرن 19 ومطلع الـ 20 كانت معادية للهيغلية بوضوح فمن دي بيران<sup>27</sup> Dipera حيث تجاوز كلا من رينان وتين المعجبين بهيغل - وهي السنة الديكارتية - حيث تطرقا إلى مكان ثانوي في الهيغلية وهو مصدر ميتافيزيقا مرتبط بالفكر الرياضي والذي لم يُخصص له هيغل سوى جزء يسير من اهتمامه ومنه انطلقا لرفض الحقيقة

<sup>27</sup> - Jacques D'houdt : Hegel en son temps, Ed sociales, Paris, 1968, P 237.

الثلاثية للجدلية الهيغلية مسافرين ما كان سائدا في ألمانيا من تأثيرات شوبنهاور وبيتشه اللذين حاولا تجاوز هيغل بالعودة إلى كانط، وهي نزعة جديدة عرفت على الصعيد الأخلاقي بالتقنية الجديدة، لكن مع مطلع القرن 20 ظهر الاهتمام من جديد<sup>28</sup> بالهيغلية مع إعادة بناء نظام المقولات خاصة مع ظهور مذهب الشخصية الذي يستند إلى روحانية هيغل، أي أن الجدلية في هذه الحال تقوم بالانتقال من الشخصية الإنسانية إلى الشخصية الإلهية وبالتالي الوصول إلى المطلق باعتباره خالق وعناية، وهكذا تخرج الجدلية من المحايضة التي لا تنفصل عن هيغل كي تجد منبعها الأول وغايتها الأخيرة في الاستشراق الإلهي.

مما سبق نلاحظ أن فكر هيغل قد تقادفته التيارات الفكرية بين رفض وقبول، وأن التيار الذي كان رافضا له قد يفعل ذلك نتيجة لاستعصاء الفهم عليه لأنه بعد المحاولات المتعددة من طرف المفكرين والشراح لوضعه في متناول فهم القراء لاقى رواجاً واهتماماً منقطع النظير.

### ثالثا - الهيغلية في روسيا:

في أربعينيات القرن 19 شهدت روسيا غزوا هيغليا في الأوساط المثقفة وكان أبرز ممثليها، باخونين، وييلين سكي، وهرتزن، حيث أعجبوا وأشادوا بأفكاره، وقد قام هذا الثلاثي بمحاولة فهم فكر هيغل ونقله - كما هو - إلى الفئات المثقفة الروسية، وبعد فترة من الزمن انقسم الهيغليون الروس إلى تيارين: يسار ثوري؛ عمل على استخراج المبادئ الثورية من المبادئ الهيغلية وقوام هذا الاتجاه نفي ما هو نفي؛ نفي الحاضر لأجل مستقبل لم يتحقق بعد، كل توفيق لم يكن سوى وسيلة لتفادي الصراع وإعاقة جدلية التاريخ، وفي هذا السياق يقول (باخونين) يجب أن نركن إلى الروح الأبدي الذي لا يحطم ولا يلغى إلا لأنه المصدر المبدع لكل حياة، إن هوى التهديم هو في الوقت نفسه هوى الخلق.

<sup>28</sup> - Opcit, PP 239-240.

من هذه المقولة نستخلص أن ما يتم المحافظة عليه من الجدلية الهيغلية هو فكرة النافي أو السالب، لأن مهمة الثوري<sup>29</sup> هي أن يقوم بالهدم ثم يأتي آخرون ليقوموا بمهمة البناء، وبهذه الكيفية جاءت فلسفة هيغل لتدعم أمل باخونين.

أما هرتزن الذي تسنت له أن يدرس الفلسفة الهيغلية فقد رأى أنه وجد فيها تبريرا لإيمانه بالتقدم السياسي والاجتماعي لذلك فقد قال: " إن فلسفة هيغل هي علم الجبر في الثورة فهي تحرر الإنسان بصورة فائقة للعادة ولا تترك شيئا من العالم المسيحي إلا وطهرته من جميع التقاليد البالية"<sup>30</sup>.

ومع هيغل آمن هرتزن بالشعوب المختارة المكلفة دوريا بأن تحمل صيرورة الروح، واعتقد بأن روسيا مدعوة إلى أن تحل محل الشعوب اللاتينية والجرمانية، لكن بعد إخفاق ثورة 1848 تخلى عن الهيغلية وارتبط بالسان سيمونيه.

#### رابعا - الهيغلية في إنجلترا:

من المعروف أن إنجلترا كانت قليلة الاهتمام بالفلسفة لنجاح التجريبية المروجة من طرف دفيد هيوم، لذلك فقد كانت الفلسفة الألمانية مجهولة تماما لدى الإنجليز لغاية منتصف القرن 19 حيث ظهرت ترجمة لبعض أعمال كانط وحتى يتم فهم هذه الأعمال دعت الضرورة في دراسة بقية الفلاسفة الألمان لذلك تمت ترجمة أعمال هيغل حيث انتشرت الهيغلية بجامعة أكسفورد وبهذه الكيفية انتشر المذهب الهيغلي المثالي كنفويض للمادية التجريبية، وأشهر مفكر برز هو غرين (1836-1882) وهو في الحقيقة كانطي أكثر منه هيغلي، وبواسطة هذه الجماعة انتقلت العقيدة الهيغلية الجديدة إلى أمريكا بواسطة<sup>31</sup> Balmer (بالمر) وجوزيارويس Josiaruiss.

<sup>29</sup> - إميل بريهمة: تاريخ الفلسفة، ص ص 253-257.

<sup>30</sup> - فلادمير إيليتش لينين: الدولة والثورة، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ص 95.

<sup>31</sup> - جورج سنتيانا: مولد الفكر، ص ص 156-158.

وقد آلت الهيغلية في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 إلى برادلي (Bradli) (1846-1846)

(1924) وبوزنكويت Bouzankuit، وإن كان الأول معجبا بهيغل فإنه كان يرفض أن يدعى هيغليا أو مثاليا، أما بوزنكويت (1848-1923) فإنه هيغلي أكثر من برادلي لأنه كان ينطلق من مسلمة أن كل عقلاي واقعي وكل واقعي عقلاي ويمر بالتأمل التجريدي للفهم بعد أن كان متوزعا في كثرة من الأرواح الفردية والتي تندمج في الأخير في كل مطلق، وهذا ما يميز بوزنكويت عن الهيغليين الإنجليز الجدد.

### خامسا - الهيغلية في إيطاليا وبقية دول أوروبا الأخرى:

#### أ- في إيطاليا:

إن أول من تولى نشر الهيغلية في إيطاليا أستاذان من نابلي هما سبافنتا (1817-1883) وقير (1813-1885) وقد عرف الأخير بنشاطاته في فرنسا ثم من خلالها قام بنشر المذهب الهيغلي في إيطاليا، وأهم من أعجب بالهيغلية (كروتشيه) وهو فيلسوف التاريخ المعروف وهو ابن أخت سبافنتا الذي استطاع مع بداية القرن 20 بالضبط عام 1907 أن يقف موقفا اصطفايا من هيغل لخصه في كتابه: ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيغل مركزا على الجدلية ومتطرقا إلى أهم اكتشاف عند هيغل في نظره وهو " وحدة الأضداد ".

فالجدل الهيغلي يزيل كل الازدواجيات التي هي في نهاية المطاف ليست سوى أضداد زائفة، مثال ذلك تضاد المظهر والماهية، الظاهر والباطن، الجوهر والعرض، التجلي والقوة، المنتاهي واللامنتاهي، المادة والروح، وعلى هذا الأساس يبين هيغل أن النافي هو محرك الكينونة، إضافة إلى توحيد للعقلاي والواقعي الذي أسهم في توضيح حركية التاريخ.

#### ب- في بقية دول أوروبا: لقد انتشرت الهيغلية إبان القرن 19 في بلجيكا وهولندا بواسطة

بولاند Boulend (1854-1922) وقد ظهرت أولى شروحه حول الهيغلية مع بداية

القرن 20 وفي التاريخ نفسه ظهرت في السويد والنرويج والدانمارك، وفي مختلف

المجالات، المنطق، الفن، التاريخ، الدين... .

وأهم كاتب تطرق إلى الهيغلية في هذه البلدان وانتقدها هو الوجودي غير كغارد الذي اطلع على الهيغلية عن طريق هاينبرغ وقد أعجب في البداية بفكر هيغل ولكنه بعد قليل انفصل عن هيغل وانتقده باعتبار أن هيغل قد أراد أن يحسن مجالا للحرية، كما يؤاخذ على أنه يريد أن يعقلن الدين، وذلك بحجة إثبات طابع المسيحية المطلق، وفي الوقت ذاته يحول أسسها التاريخية إلى مجرد أساطير وهو السبب الذي يبعده عن حقيقتها ويؤدي إلى نفيها، ودائما ضد المذهب أو المنظومة يطالب كيركغرد باستقلال الفرد وبحقوقه الذاتية، إنه يحارب هذه الفكرة الهيغلية الصميمة والتي مؤداها أن الباطن والظاهر لهما نفس المضمون.

وإجمالاً أن كل الفلاسفة مروا بهذه العمارة الفلسفية الشائخة وتشبعوا من أعماقها بجدها الموحد بين الذات والموضوع، بين الملموس والتجريدي، بين الواجب والحق، بين الضرورة والحرية، بين الحياة والمعرفة، بين الهوية والاختلاف، وبين المطابق والنقيض، وبين المادة والصورة، بين الجوهر والعرض، بين العلة والمعلول، بين الوحدة والكثرة، بين الوجود والعدم.

يستوي في ذلك من تبني فكر هيغل وحتى من رفضه ظل يحترمه واقتبس منه ولو فكرة أو مفهوماً، فقد كان عظيماً متربعا على كل القمم الفلسفية المعروفة كماركس، وكيركغرد، وهوسرل، وهايدجر، وكوجايف، وهيبوليت، وباتاي، ولاكان، وفوكو.

كل أصحاب هذه الفلسفات نهلت من فكر هيغل واستفادت سواء من المنطق أو الفينومينولوجيا، أو فلسفة التاريخ أو الفن والدين... الخ<sup>32</sup>.

سادسا: الاستثمار الأيديولوجي لمذهب هيغل في الفترة المعاصرة:

<sup>32</sup> - فتحي المسكيني: المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، ماي 1992، عدد 12، ص 9.

إذا كانت قضية الاعتراف ذات الصلة الوثيقة بتحقيق الحرية عند هيغل والتي بنى عليها أساسا جدلية السيد والعبد حيث انتهى الجدل من خلالها إلى نهاية التاريخ، كما أكد على ذلك إلكسندر كوجايف (وهو أحد المفسرين لهيغل خلال نهاية القرن 20) لأن ما يدعوه هيغل بالدولة الشمولية والمنسجمة يعني بالنسبة لنا الديمقراطية اللبرالية والتي حلت بشكل نهائي مسألة الاعتراف لأن مآسي الإنسان خلال مجرى التاريخ وما عاناه من عقبات كان كله من أجل الاعتراف أما في العالم الحديث فقد وجدته وبذلك وصل إلى تحقيق الرضا التام، غير أن المشكلة تتحول بالنسبة إلينا نحن (الآخر) إلى الاستبداد والاستعمار والإمبريالية للمفهوم الواسع للكلمة لأن الجدل بالنسبة لهذه النقطة بالذات يبقى على السيد سيدا إلى الأبد أما العبد فيبقى كذلك لعدم حصوله على الاعتراف وهي النقطة التي استغلها فوكوياما ليبقى على عربات الآخر تائهة في الصحراء، من منطلق أنها لا تعرف اتجاهها ولم تسلك الطريق اللبرالي الذي رسمه الغرب الرأسمالي وبالتالي فلن تصل إلى ديمقراطيته وحريته.

وقد أثار فوكوياما بتقليده لهيغل في هذه القضية بالذات بعد سقوط الماركسية كنظام اقتصادي - اجتماعي وهو الشق المادي الهيغلي، لذلك فقد رفع فوكوياما راية نهاية التاريخ والإنسان الأخير الذي هو الأمريكي الأبيض الذي سوف يقود العالم من خلال النظام الأحادي الجديد والذي توجه إلى الآخر العربي الإسلامي على الخصوص، حيث قام بغزو عسكري لكل من أفغانستان والعراق بدعوى رعاية الإرهاب الإسلامي بالنسبة للأولى والذي هو في حقيقته صناعة غربية وأمريكية على وجه الخصوص حيث قامت بتجنيد وتسليح الشباب المسلم وبأموال عرب الخليج استطاعت أن تسقط الاتحاد السوفياتي.

في السياق نفسه شجعت العراق من خلال دول الخليج لدرء الخطر الإيراني، وذلك بعد نجاح الثورة الإسلامية في هذا البلد الذي حول المعادلة تجاه الخصم (إسرائيل)، حيث أغلق السفارة الصهيونية في طهران وفتح سفارة لفلسطين وأطلق على الولايات المتحدة لقب الشيطان الأكبر

للتدليل على كونهما دولة إمبريالية تهدف إلى إثارة الفتن وخلق بؤر التوتر لدى الآخر وتحديدًا العربي الإسلامي. بعد أن أنهكت الحرب الدولتين المعتدية العراق والضحية إيران وضعت الحرب أوزارها عندئذ اصطنعت الولايات المتحدة حججا واهية لإضعاف العراق بحرب الخليج الثانية، ثم الحصار الذي دام حوالي عقدا من الزمن ثم غزوه بدعوى امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل التي كان الغرب يزوده بها عندما كان يوجهها ضد الإيرانيين. واستطاعت الولايات المتحدة أن تورط معها بعض حلفائها الغربيين رغم رفض البعض منهم (فرنسا وروسيا وألمانيا) نظرا لتعارض مصالحهم في المنطقة، ورغم عدم موافقة منظمة الأمم المتحدة، فإن أمريكا قد اصطنعت حجة واهية وهي امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل وتهديده لدول الخليج وإسرائيل، لذلك قامت بغزوه مدعية أنها جاءت لتحريره من ديكتاتورية صدام وتنشر الحرية والديمقراطية بين صفوف الشعب العراقي ولكنها بعد فترة قصيرة استطاعت أن تنهي حكم صدام لكنها اصطدمت برفض جزء من الشعب العراقي لفكرة الاستعمار وفي مدخل الألفية الثالثة بدأت المقاومة مما أدى بأمريكا إلى الوصول إلى المأزق، وهذا ما أكده المفكر الأمريكي صامويل هنتغتن صاحب الكتاب المشهور (صراع الحضارات).

حيث دعى إلى نبذ الخلافات ذات الطابع الديني انطلاقا من قاعدة أن الحضارات المنافسة سوف تستلهم قوتها من القيم الدينية كما هو الشأن بالنسبة للصينيين والعرب المسلمين الذين أقصاهم هيغل من كل مساهمة في التاريخ العالمي!

وقد انتقد - هنتغتن في كتابه الجديد الصادر في ماي 2006 تحت عنوان (من نحن؟) - نظرة الغرب وبالخصوص نظرة أمريكا إلى الآخر، بهدف نشر قيمه الليبرالية والديمقراطية تحديدا في العالم العربي الإسلامي حتى ولو تطلب ذلك اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية، وقد أكد هذا المفكر أن هذا العالم لن يتخلى في يوم من الأيام عن تمسكه بتعاليم دينه، كما دعا الغرب إلى عدم



الاحتكاك المسلح بالعرب المسلمين منبها إلى أن هذا النوع من المواجهة سوف يؤدي إلى اتساع الهوة بين العرب والمسلمين من جهة وبين الغرب وأمريكا من جهة ثانية.

علما أن العمل المسلح لا يحقق المآرب الأيديولوجية، وعلى النقيض من ذلك يدفعنا إلى استنزاف الطاقات والقدرات في نفس المعنى عرّج هنتغتن على الاحتلال الأمريكي للعراق مؤكدا على موقفه الراضف للاحتلال حيث قال: " فكننت ولأزال أعتقد بأن هذه الحرب تمر حتما عبر مرحلتين، مرحلة تحرير العراق من حكم صدام وجيشه وضباطه، وهذه كما تنبأت لها انتهت بعد شهر ونصف فقط ثم مرحلة المواجهة مع الشعب العراقي التي ابتدأت مع انتفاضة السنة في الفلوجة وهذه لن تنتهي وسوف تكلف أمريكا الكثير ".<sup>33</sup>

هذا التصريح لهنتغتن يبين لنا وجود مفكرين غربيين يرفضون ممارسة الوصاية الغربية (وصاية الأنا الغربي) على الآخر العربي الإسلامي أو الصين التي يصفها هيغل بالعملاق النائم فقد أورد في كتابه محاضرات في فلسفة التاريخ: " أن الإنجليز هم سادة البلاد الشرقية لأن القدر المحتوم للإمبراطوريات الآسيوية أن تخضع للأوروبيين وسوف تضطر الصين، في يوم من الأيام، أن تستسلم لهذا المصير "<sup>33</sup>.

هو هنا يورد عبارة القدر " المحتوم " وكأن هناك ضرورة تجعل الإمبراطوريات الآسيوية خاضعة للأوروبيين، وهذا في الحقيقة مناقض للموضوعية وللروح العلمية التي يجب على الباحث التحلي بهما، خاصة وأن التاريخ المعاصر قد فند تنبؤات هيغل حيث تطورت الإمبراطوريات الآسيوية وأصبحت في غالبيتها جمهوريات تنتشر فيها الديمقراطية وتسودها الحريات إضافة إلى استثمارها لتراثها الغني واستفادتها من تكنولوجيا الغرب، حيث أصبحت تنافسه في عقر داره. منتجاتها المتنوعة سواء في ميدان السيارات، الإعلام الآلي أو الروبوتيزم، مما جعل من أمريكا التي تمثل جبروت الغرب أن تتناول وتطرق باب الصين من أجل المحاوره والتفاهم السلمي بعد أن

منيت بعدة هزائم عسكريه في الهند الصينيه، ثم هناك اليابان التي استطاعت أن تنهض بعد الحرب العالمية الثانية، وأن تؤكد تفوقها في جميع المجالات إلى حد منافسة التكنولوجيا الغربية، وهذا ما أكد عليه مالك بن نبي فيما يخص هاذين العملاقين (الصين، واليابان) من أنهما وقفنا من الغرب وقفة التلميذ المجتهد الذي استوعب التكنولوجيا الغربية ثم طورها وفقا لخصوصيته، وهذا ما جعل الغرب الحديث يقف حائرا أمام هذه الخرجات التي تقوم بها الدول الشرقية من حين لآخر مثلما يجري العمل الآن في إيران من أجل تطوير قدراتها النووية والتي لا ترضي الغرب طبعاً وخاصة الولايات المتحدة.

بالإضافة إلى إقصاء هيغل لشمال إفريقيا عموماً والجزائر تحديداً من قارته الأصلية إفريقيا، وإحاقه عنوة بأوروبا مع مباركة الغزو الفرنسي للجزائر لا لشيء إلا لكونه يساير طروحات هيغل المذهبية.



5

يتفق النقاد على أن هيغل قد وفق ببراعة عقلية سابقة للتجربة في بناء مسار معين للتاريخ العالمي كما يسميه ، ثم يحوله إلى فلسفي ، بمعنى آخر أن ما قاله لم يكن مستخلصا من أحداث التاريخ ، ولكن على النقيض من ذلك : فقد عبر عن فلسفته العقلية كما عرضها في المنطق، أي أنه طبق المقولات على أحداث التاريخ فالصين هي التي تقع في أقصى الشرق وبالتالي مثلت لديه أول مقولة في المنطق وهي (الجوهر) أي لا ولن تتغير وعلى الرغم من وجود دولة قوية في الصين ووصلت إلى درجة حماية حدودها الخارجية بما عرف بسور الصين العظيم ورغم ذلك فإنه يتهمها بالجمود وما يقال عن الصين ينسحب على شبه الجزيرة الهندية والتي تمثل المقولة الثانية للمنطق ألا وهي (العدم) .

إذن: فالهند ورغم تعدد دياناتها وتواجد الدين الإسلامي بها وهودين تحرري خلص الهنود المسلمين من النظام الاجتماعي الذي كان مبنيا على التعسف الطبقي وحرر المرأة، وأرجع للطبقات المنبوذة (السيخ) كرامتهم الإنسانية، وعلى الرغم من ذلك فإن هيغل لم يتطرق إلى دور الإسلام في إضفاء هذه القيم على المجتمع الهندي ، ثم إنه في تحليله لتاريخ الشرق قد انتقل من فكرة إلى أخرى دون مراعاة لعاملي الزمان والمكان إذن فالقارئ لفلسفة التاريخ الميغلية يدرك بأنه كان يسبح في عالم من الأفكار المجردة ، أما عندما يتطرق للجزء الثاني من العالم الشرقي الذي هو (فارس والهلل الخصب ومصر)، فإنه يدمج الجميع في بوتقة واحدة رغم اختلاف حضارات المنطقة، وتعدد ثقافتها، ونظرا لقرب الموقع الجغرافي من أوروبا كذلك يعتبر وجود الروح في الشرق الأوسط وجودا مجردا لجعله ينتقل من بلاد فارس إلى أوروبا انتقالا خارجيا ، ومن مصر إلى اليونان انتقالا داخليا .

أما عن إنسان الشرق الأقصى فإنه قد أسقط عليه أزدل النعوت وكل المتناقضات في السلوك بين : السرقة، الكذب، والإعتداء عند المقدرة، وعلى النقيض من ذلك الخضوع والمذلة بل والإنبطاح أرضا أمام الأعلى درجة وكأن هذا الشرقي لا شخصية ثابتة له بل ويمثل كل

## الخاتمة

المتناقضات أما عن المرأة فإنه قد وضعها في أسفل الدرجات ، ثم إنه يسخر حتى من العادات التي تعبرها عن وفائها و إخلاصها لزوجها وأسرتها واعتبرها نوعا من العبودية . أما عندما يتعرض للإنسان الشرق أوسطي فإنه يصفه بالمزدوج الشخصية ، من جهة يتمتع بقوة الشخصية والكرم والأخلاق الفاضلة ومن جهة أخرى يتميز بالسلب والنهب وهذا يدل على دناءة هذا الإنسان - حسب هيغل- ويستثني إنسان بعض المناطق كبلاد فارس ومصر ،لقربهما من أوربا واحتضانهما للروح الهيغلية قبل انتقالها إلى العالم الغربي .

نلاحظ : تناقض هيغل مع ذاته فيما يخص إفريقيا الأوروبية حيث من جهة يطعن في سكان هذا الإقليم . ومن جهة ثانية يقر بروعته وانتمائه لأوروبا ،وهذا التناقض لديه يتكرر في الكثير من المواقع ولو طبقنا نفس المقياس الذي اعتمده وبحكم تواجد العرب المسلمين لفترة طويلة في الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط ،اوجب عليه أن يلحق جنوب أوربا اللاتينية بشمال افريقيا والشرق الأوسط ، من منطلق أن المياه أداة تواصل أما فيما يخص تداعي الألقاب الدينية التي حاول إلصاقها بالإنسان الشرقي فإن الأستاذ" هشام شرابي " في كتابه " النقد الحضاري لواقع المجتمع العربي" يستند إلى عالم النفس السويسري الذي يؤكد على نوعين من الخضوع : (بيار باجيه PIRRE PIAGEH)

أولاً: الطاعة الإرادية :أي طاعة الآبناء لآبائهم بشكل إرادي والصغار للكبار بصفة عامة، ويقوم هذا النوع على الإحترام المتبادل المستمد من القيم الأخلاقية الحرة للمجتمع.

ثانياً: أما النوع الثاني من الطاعة الإرادية ففيها يقوم خضوع الشخص على الخوف من العقوبة والتسلط، هذا الأخير هو المنبوذ حتى في الشرق بينما الأول يعتبر من أساسيات التعامل في المجتمعات الشرقية بحيث تتحول سلطة الوالدين بالنسبة للطفل - عندما يكبر - من سلطة خارجية "مماثلة الأوامر" إلى سلطة داخلية مندمجة مع النفس في هذه المرحلة يتقبل الطفل ما يؤمر به من طرف الذين يعتبرهم أعلى منه دون مناقشة، بينما يرفض أوامر أقرانه أو الأدنى منه أو حتى الكبار

الدين لا علاقة لهم به وفي ذلك تعبير عن نوع من الإلتزام الذي لا يتعارض مع الحرية المكفولة ضمن قيم وأطر المجتمع، وهذا ما يدحض طروحات هيغل.

و ما يؤخذ عليه هيغل في هذه النقطة تعصبه وانحيازه للأنا الغربي حيث نجد عناصر الحضارة عندما يتعلق الأمر بالأنا الغربي أما إذا تطرق إلى الفكر الشرقي فيصفه بالأسطوري بينما نجده يستبعد الأساطير والخرافات من التاريخ وعلى العكس عندما يتعرض للأساطير اليونانية فإنه يضيف عليها صفة العلمية، حيث يتم تأسيس نظريات في العلوم الإنسانية والاجتماعية على أساطير خرافية وهذا أمر يسيء كثيرا إلى موضوعية هيغل ومصادقته فالأكيد والثابت أن أساطين الفكر اليوناني قد تتلمذوا بمصر على يد مصريين.

ثم يجب التذكير بمساهمات الشرقيين المدونة في مختلف مجالات الحياة ، فقد عاصر كونفوشيوس الصيني سقراط اليوناني وترك تراثا مكتوبا لم يترك مثله سقراط، والحكم نفسه ينطبق على ما تركه حمورابي في مجال حقوق المرأة والمواطن ، إضافة إلى الدرجة العلمية المرموقة التي بلغت الحضارة المصرية والتي استفاد منها اليونانيون كثيرا ، ثم لوعرجنا على الجزيرة العربية وهيغل يؤسس حركية التاريخ على مسار الروح فكيف له أن يمر مرور الكرام على مكة المكرمة والمدينة المنورة في سياق تعرضه للتقسيم الجغرافي للعالم دون أن يتعرض للإسلام الذي جاء في "بيئة طبيعية قاحلة" لا سهول وديانية فيها ولازراعة مزدهرة ورغم ذلك استطاعت هذه المناطق بمناخها الحار القاسي في وقت قصير لم يتجاوز 40 سنة أن تشيد أول حكومة مستمدة من الروح - على حد تعبير مالك بن نبي - وهو الأمر الذي أثار استغراب "أرلوند تويني" وغيره من المفكرين ممن أشادوا بفضل الفكرة الدينية وعلى الخصوص الديانة الإسلامية في خلق المعجزات وبت الحياة في الطبيعة الجامدة، غير أن هيغل المتشبع بالترعة العرقية ركز في تصنيفه للعناصر المساعدة على تجلي الروح عن الفلسفة والفن والدين الوثني في اليونان وعندما وصل إلى الجرمان أضاف الديانة المسيحية باعتبارها تمثل المطلق.

إن الثقافات غير الأوروبية التي تمثل الآخر إلا من باب السخرية بالآخر أو الحط من شأنه عندئذ يضرب أمثلة عن توحشه وخموله أو جموده على غرار صفة (العبد) في جدلية (العبد والسيد) أما الشخص اليوناني أو الروماني أو الجرمانى فإنه السيد الذي يمثل الأمة الجديرة بالإحترام وحمل رسالة تحضير الآخر، فهيغل من هذا المنطلق يكيّل بمكيالين مختلفين إذ عندما يتحدث عن مسار الروح وبداية الحضارة يعترف من جهة أن البداية من الشرق حيث تشرق الشمس، ولكنه اعتبر أن الشرق مثل طفولة الإنسانية، ولكي يقابل إنجازات هذا الشرق أنهى التاريخ في الغرب حسب المقولات المنطقية، فالشرق الأبدي يقابله الغرب النهائي لهذا فالتاريخ عنده ينتهي عند الجرمان أصحاب الرسالة الحضارية فيما بعد.

ولكي يعلي من شأن الإستعمار الغربي نجده يؤسس لذلك بالحط من شأن الهنود الحمر سكان العالم الجديد فيوصلهم إلى أدنى درجات الإحتقار حيث يصفهم بأنهم أدنى من الحيوانات وحتى يرفع من شأن المسيحية يرجع الفضل في بقائهم على قيد الحياة إلى الآباء اليسوعيين الذين تولوا أمرهم بالتربية والتوجيه من خلال وضعهم (أي اليسوعيين) لأجراس تدق منتصف الليل لتذكّهم (أي الهنود الحمر) بالواجبات الزوجية حتى يتناسلوا ولا ينقرضوا غير أنه لم يتعرض إلى حملات الإبادة التي شنّها عليهم الرجل الغربي الأبيض سواء كان إنجليزيا أو إسبانيا أو فرنسيا... إلخ و في الوقت ذاته كان يسخر من الزوج الإفريقيين و اعتبر استعبادهم في العالم الجديد خيرا من بقائهم عبيدا في الطبيعة الإفريقية المتوحشة، ثم عندما يتعرض إلى أوروبا فإنه يفضلها على باقي القارات، و يحملها أكثر مما ينبغي أن توصف به معتبرا إياها السيدة و حاملة لواء العالمية، منذ اليونان، فالرومان و حتى الجرمان . بينما لاحظنا أن الغزوات التي قام بها الأنا الأوروبي في العالم الجديد أو الغزوات الإستعمارية التي قام بها في حق الآخر الشرقي ، كان الدافع الأساسي للغزو هو ضيق أفق القارة العجوز التي أصبحت بمثابة الكابوس مما أدى بنابليون إلى القول بأن جو أوروبا وظروفها الاجتماعية والسياسية تجعلني أحس بالألم والسأم، وهذا الأفق هو الذي دفع بهيغل إلى تشجيع استعمار الآخر تحت غطاء الرسالة التحضيرية للآخر.

و لو تساءلنا عنن يجررك الراررخ ؟ لأجاب هــغل أنه الروح لكننه سـشـررط وجرود العقل والحرية كعقبات يصطنعها لكي تتمكن الروح من الإنبثاق و التعبير عن كـنـونـتها عندما تـفـيـض معبرة عن نفسها في مستوى معين يكون شعب ما قد بلغه، ولكن هذا الشعب يصطنع هــغل كل العراقيل له لكي لا يكون غير اليونان ليـجرعه الأحرر بانـتـقال الروح التي كانت كامنة في الشرق أي وجرودا بالقوة حيث تصبـح عند اليونان موجودة بالفعل.

ثم يـطـرـق للعـظـماء والحرر فيعتبرهم جميعا أدوات مهمة في يد القدر والعناية الإلهية ليس لشيء إلا لكي يـحـط من معنويات الآخر الشرقي فنجده يتحدث عن واجب الوجود فيما يخص خضوع هذا الأخير للأنا الغربي بدعوى انعدام الحرية لدى الآخر وتوفرها لدى الأنا، فهــغل ومن خلال جدلية السيد والعبد يشترط (الإعتراف)، أي أنه يضع الزنجي أو الآخر بصفة عامة في مأزق الإستعباد ثم يضع شرطا للتحرر يتمثل في ضرورة أن يفتك العبد حرته بنفسه لكنه يعود ويصطنع له عقبة أو يضع له شرطا مثل الإعتراف من طرف السيد ومن المعروف بأن السيد لا يمكنه أن يتنازل عن سيادته ويعترف بجرية العبد .

ورغم هذا الجانب المظلم في فلسفة هــغل فإنها تتمتع بالكثير من الإيجابيات في فلسفة التاريخ الهــغـلـية، حيث أهما عميقة ومنتشعبة و إذا كانت الدراسات والشروح حولها قد بدأت في حياته ، ونظرا لتعقيدها وصعوبتها فقد أدت بعد وفاته إلى انقسامات كثيرة في صفوف هؤلاء الدارسين والشراح (يستحيل أن يشملهم بحث متواضع كهذا) وهذا ما زاد فلسفة هــغل غنى وتوسعا ولذلك فإن محاولتي تبقى مجهودا متواضعا يضاف إلى البحوث المنجزة حول هذا العملاق من خلال محاولتي قراءة الجزء الخاص بفلسفة التاريخ ونظرة هــغل إلى الآخر بصفة عامة والعربي الإسلامي بصفة خاصة.



# الفهارس

أولاً: فهرس الآيات :

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
21	24	المائدة	"فاذهب أنت وربك..."
25	30	البقرة	"إني جاعل في الأرض خليفة.."
25	61	هود	"هو أنشأكم..."
26	140	آل عمران	"وتلك الأيام نداؤها بين الناس..."
27	141-137	آل عمران	"قد خلت من قبلكم..."
28	24	النمل	"وجدتها وقومها..."
107	115	البقرة	"ولله المشرق والمغرب..."
107	171	البقرة	"مثل الذين كفروا..."
107	144	آل عمران	"وما محمد إلا رسول.."
107	02	البقرة	"ذلك الكتاب لا ريب فيه..."
107	07	البقرة	"وعلى أبصارهم غشاوة"
190	11-9	إبراهيم	"ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم..."
191	53	الأنفال	"ذلك بأن الله لم يكن مغيرا..."
191	11	الرعد	"إن الله لا يغير ما يقوم..."
249	01	عبس	"عبس وتولى أن جاءه الأعمى.."
281	179	البقرة	"ولكم في القصص حياة..."
313	285	البقرة	"آمن الرسول.."
314	55	يوسف	"قال اجعلني على خزائن الأرض..."
314	59	يوسف	"وجاء إخوة يوسف فعرفهم.."

ثانيا: فهرس الأعلام

رقم الصفحة الوارد بها	الاسم
135	ابن بطوطة
135	ابن حزم
-62-61-59-57-54-53-52-50-49-35-34-33-31-24 -154-151-139-138-135-130-126-124-123-69 288-245-034-200-155	ابن خلدون
313-312-64-28-27	ابراهيم
135-67	ابن مسكوبة
25	ابن عربي
192- 15	ابن سينا
323	أبولو
288	أحمد أمين
127-123	أحمد خان
322	أخناتون
64-46-45-25-22	آدم
97	آدم سميث
141	إديسون
97	آدم فيرجسون
318	أراتوستيتر
-194-174-80-57-54-42-34-19-18-14-12-8-4-2 -317-289-273-243-223-221-209-208-200-196 351-345-344-343	أرسطو
27	آزر
394	أستورات
312	إسماعيل

240	أسليخيسوس
-317-289-274-232-196-174-125-92-80-54-34-4	أفلاطون
371	
232-289	أفلوطين
303	إكسانوف
343-340-271-232-205-175-163-141-69-6-5	الإسكندر المقدوني
335-334-126-125-58	الأمير عبد القادر
359	البابا أوربان
24	البلاذري
293-292-291-290-289-288-200-135-29-24	البيروني
15	الجرجاني
123	الحسن الوزان
137	الحسين
24	الدينوري
-281-249-213-182-135-108-107-102-101-64-30	الرسول
282	
127	السلطان عبد الحميد
127	السلطان عبد العزيز
127	السلطان محمود
123	الشوكاني
24	الطبري
53-25	الغزالي
307	الفردوسي
121	اللوردبيرون
245-207-200-135-67	المسعودي
-236-233-154-95-92-63-48-47-46-45-30-23-22	المسيح

353-240-239	
200-67	المقدسي
135	الورتلاني
324	إمادوني
8	أمريكو فاسبوتشي
73-72	أماسيس
209-115	إمام عبد الفتاح إمام
-106-104-103-98-96-95-93-87-86-85-83-82 -167-158-157-151-141-120-115-113-110-109 388-387-367-226-224-210-207-196	إمانويل كانط
388-382-336-335-33	أنجلز
199-143	أنكساغوراس
33	أنقلاير
319-318	أنويس
318	أوزاريش
304	أهرمان
306-305-304-303	أهورامزدا
130-54-34-19	أوغست كونت
54	أوغست موللرة
-72-63-49-48-47-46-45-44-43-42-35-34-23 237-189-159-156-153-152-151	أوغسطين
389	إيري
6	إيكسينوقون
104	إيشدروف
100	بابا الفاتيكان

221	بارمنيدس
147-141	باستور
34	باكل
121-119-118-117-114-113-99	بتھوفن
109	بجيتس
366	بسمارك
289	بطليموس
353	بلاثيوس رويوس
23	بليخانوف
124	بن جمين كونتان
119	بوخنر
121	بودلير
232	بوذا
47	بولس
125	بيجو
104	بيرون
79	تارجو
347	تريفو
267-259	تشي هوانج تي
102	توماس هايڊ
346-233-50-33	تويجي آرلوند
69	تيمور لانك
72	تيودورس
190	ثمود
182	ثوريو
246	جاستون باشلار

186	جاك مارتان
156-151-72-65-64-63-62-35	جاك بوسويه
289-125	جالينوس
104-103	جلوك
81	جاليلي جاليلو
128-127	جمال الدين الأفغاني
227	جوبلو
93	جونتار
35	جون بودن
102	جورج سيل
157-148-78-35	جون لوك
93-24	جيون ايدوارد
17	جيل دولوز
97	جيمس استيوارت
108	حافظ الشيرازي
60	حام
241	حسن حنفي
125-124	حمدان بن عثمان آل خوجة
126	خير الدين التونسي
157-148-100	دفيد هيوم
100-74-16	ديدرو
108	دي ساسي
367-81-59-56-55-38-15-13	ديكارت
125	دي مال
80	ديمقريطس

5	دېمېستينوس
97	رابنهولد
71	رامبه
123	رشيد رضا
106	روبسي
109	روبرت بزير
114	روزنكرانتش
135	روزنطال
212-199-157-101-92-78-77-76-74-19	روسو جان جاك
120-105	روسيي
68	ريتشاليو
102	ريلاندو سيل ريلاند
307-305-304-303	زرادشت
60	سام
288	سخاو
232	سغريد هونكة
30	سفين الثوري
292-236-162-125-92-81-43-18-17	سقراط
119	سوزانا
91-87	سوفليكس
270	سو كوريل
205	سيزار
366-114-64	شارلمان
118	شتراوس



112-87	شكسبير
121-105	شللي
367-210-149-120-118-116-113-112	شلنج
284-122-118-112-99-34	شلسجل
392-120-119-104	شوبنهاور
263	شو كليغ
111-110-109-106 - 105-103-97-96-94-93-91-82	شولتر
5	شيراز دوسا
42-17	شيشرون
-113-112-110-106-105-103-97-96- 94-93-91 117-114	شيرلر
33	شينقلز
135	صاعد الأندلسي
397-396-166	صدام حسين
396	صامويل
232-230	طاليس
293	طه حسين
356	طوماس أورتيغ
190	عاد
136-124	علي سعد الله
136	علي بن أبي طالب
54	عمر فروخ
285	عمر بن الخطاب
140	عمرو بن العاص
237-132	غارودي
186-185-183-182-181-180	غاندي

368-234-232-196-121-119-118	غشتال
35	غوبرو
114-109-108-107-105-103-100-99-97-96-94-92	غوته
119	فاجتر
-117-111-110-109-106-105-99-97-96-95-82-38 210-118	فخته
81-59-58-19	فرانسیس نیکون
99	فرانز هایدن
120-119-118-116-114-111-99-98	فرايزر
119	فردی
62-30-21	فرعون
104	فریدریک الأكبر
93	فریدریک شتیجر
93	ویلیام
121	فلهم
395-373-372-371-370-368	فوکویاما فرنسیس
103	فوس
-88-79-78-74-73-72-71-70-69-68-38-35-34-33 159-158-151-141-121-101-100	فولتیر
121	فولجائج فون
259	فوھی
389-388-387-386-385-379-37-33	فویر باخ
13	فیثاغورت
268-80	فیثاغورس
-62-61-60-59-58-57-56-55-54-35-34-33-32-3 159-156-151-72	فیکو جیوفانی

5	فيليب المقدوني
64	قسطنطين
93	قوفل
17	قيتارى
365-364-175-163-141-135-134-69	قيصر يوليوس
178-174	كارل بوبر
119-105-98	كارل فردرك شنيجر
69	كارمويل
83	كبلر
362	كيريون
116-113	كروج
99-91	كريستيانا
115-101-98	كريستيان شارلوت
367-359-358-353-9-8	كلميس
227-19	كورنو
99	كوليرج
159-131-81-79	كوندرسيه
268-263-232-207-170	كونفو شيوس
121	كيتش وديستوفسكي
145-119	كير كجورد
104	لودفيج اولاند
119	لودفيج جورج
99	لودفيج تيك
122-121-120-118-116-106-101-97-91	لودفيج هيغل
105	لويس السادس عشر
268	ليينيتز

103-102-101-99-36-35	ليسنج
182	ليون تولستوي
80	مارتن لوتر
258	ماركو بولو
115	ماركوس هرتر
91	ماريا ماجدلينا فروم
119-105-98	ماري فون توشر
-261-194-193-192-191-190-189-188-187-58 -398 -397	مالك بن نبي
115	مبلغاز هيدا
353-141-63	محمد الفاتح
123	محمد عبده
123	محمد السنوسي بن علي
122	عبد الوهاب
125	محي الدين
127	مدحت باشا
107	مراتشي
105-104-99	موتزارت
68	موريس
103- 99	موسى مندلسون
157-156-151-93-78-77-68-67-66-65-35-34	مونتيسكيو
232-64-62-30-21	موسى
178	مبيكون
107	مبحرلين
35-33	ميكيا فيلي
87	ميليتون

178	ميهاسوس
227	ميور
-120-119-117-116-114-113-112-109-106-99-91 -205-175-166-165-164-163-141-124-122-121 365-357	نابليون
368	نغزي
190-64-60-45	نوح
112-99	نوفاليس
117-115	نيتام
367-166-119	نيتشه
147-141-71-69	نيوتن
99	وردروت
144-95-87	وولش
45	هايل
368	هاردت
177	هانز كوهن
368-367-13	هايدجر
206	هايم
110	هاينو (بلازك)
166-297	هتلر
-151-132-115-113-107-89-87-86-35-34-16-7 210-207-159	هردر يوهان قرتفرايد
189	هرمان دي كاسلج
78-59	هوبز نين
215-213	هودفنج
367-13	هوسرل

119-110-109-99-96-94-93-91	هولدرين
-343-255-245-240-87-18-4	هوميروس
119	هييل
121-174-166	هيرقليطس
6	هيرودور
171	هيزيود
-95-94-93-91-89-71-64-54-35-34-33-12-11-4 -108-107-106-104-103-102-100-99-98-97-96 -118-117-116-115-114-113-112-111-110-109 -131-130-128-126-124-123-122-121-120-119 -141-140-139-138-137-136-135-134-133-132 -151-150-149-148-147-146-145-144-143-142 -163-162-161-159-158-157-156-154-153-152 -173-2-173-171-170-169-168-167-166-165-164 -199-197-196-184-179-178-177-176-175-174 -209-208-207-206-205-204-203-202-201-200 -235-234-233-232-230-227-226-222-221-220 -245-244-243-242-241-240-239-238-237-236 -259-256-255-254-253-252-249-248-247-246 -272-271-270-269-268-267-265-263-261-260 -28-284-283-281-280-278-277-275-274-273 -344-343-342-341-340-297-296 -295-294-286 -357 -356-352-351-350-349-348-347-346-345 -367-366-365-364-363-362-361-360-359-358 -388-384-379-378-377-376-371-370-369-368 398-397-396-395-393	هيغل
178	هيلير

60	يافت
105-104	ياكوبي
136	يحي بو عزيز
21	يعقوب
115	يوحنا ضرش طيرت
114	يوسف أنطوان
121	يوهان
395	يوسف

## ثالثاً: قائمة المصادر والمراجع

### 1- المصادر باللغة العربية:

- 1- القرآن الكريم
- 2- الكتاب المقدس، العهد القديم، الإنجيل العهد الجديد، الترجمة العربية المشتركة، تصدرها دور الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ط2، جمعية الكتاب المقدس، لبنان. 2001
- 3- هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام جزأين: الجزء الأول: العقل في التاريخ الجزء الثاني: العالم الشرقي. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986.، دار التنوير، بيروت، لبنان، 1986.
- 4- هيجل: مبادئ فلسفة الحق، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دمشق، 1974.
- 5- هيجل: المدخل إلى علم الجمال، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1980.
- 6- هيجل: فينومولوجيا الفكر، ترجمة وتعليق مصطفى صفوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980
- 7- هيجل: أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981.
- 8- هيجل: موسوعة العلوم الفلسفية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، 1983.
- 9- هيجل: علم ظهور العقل، ترجمة مصطفى صفوان، دار الطليعة، بيروت، 2001.
- 10- هيجل ظاهرات الروح، ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.

### 2- المراجع باللغة العربية:

- 1- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، معهد البحوث والدراسات العربية، ط2، القاهرة، 1977.
- 2- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.



- 3- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت (دط) 1994..
- 4- أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954.
- 5- أرسطو: السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، القاهرة، 1960.
- 6- أميرة حلمي مطر: الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس، دار المعارف، مصر، 1986.
- 7- الجابري: العصبية والدولة دار الطليعة بيروت، ط3. 1982.
- 8- ألبان قرقوري وايدقري: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي.
- 9- البيروني: ما للهند من مقولة مراجعة عبد الحلیم محمود وعبد المنعم يوسف المكتبة المصرية.
- 10- القديس أوغسطين: اعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ط3. دار النشر بيروت. 1986.
- 11- أرلوند توينبي: الإسلام والغرب والمستقبل، ترجمة نبيل صبحي، الدار العربية، 1969.
- 12- أوغسطين انسلم: توما الأكويني، نماذج من الفلسفة المسيحية، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، 1983.
- 13- إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلي عند هيغل، دار المعارف، مصر، 1969.
- 14- إمام عبد الفتاح إمام: دراسات هيغلية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984.
- 15- إمام عبد الفتاح إمام: دراسات في الفلسفة السياسية عند هيغل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الكويت، 1993.
- 16- إميل بريهمة: تاريخ الفلسفة، ترجمة جورج طرايشي، ط1، دار الطليعة بيروت، 1985.
- 17- أوغيست كورنو: أصل الفكر الماركسي، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، منشورات دار الأدب بيروت. 1968.
- 18- أ - ف توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحلیم سليم، دار المعارف المصرية. 1994.
- 19- أوزرمان وآخرون: موجز في تاريخ الفلسفة، ت: توفيق إبراهيم سلوم، دار الفارابي.
- 20- إيزي إبرلين: الحرية وحياتها، الناشر شيليكو، لندن.
- 21- برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة، ترجمة فتحي الشنيطي. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 22- جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة.

- 23- جورج بليخانوف : محاضرات في فلسفة التاريخ ترجمة جورج ترابلشي ترايشماد دار الطليعة بيروت 1973..
- 24- جورج سنتيانا : مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى ، ترجمة : لجنة من الأساتذة الجامعيين ، نشر دار الثقافة الجديدة .
- 25- جان هيبوليت : ماركس و هيغل ترجمة : جورج صدقي ، منشورات وزارة الثقافة دمشق 1971.
- 26- جون لويس : مدخل إلى الفلسفة ، ترجمة أنور عبد الملك دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت 1978..
- 27- جيل دولوز و قيتاري : ماهي الفلسفة ترجمة جورج، نشر سعد عويدات بيروت 1991.
- 28- حمدان خوجة : المرأة، تحقيق وترجمة محمد العربي الزبيري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1982.
- 29- حسن محمد الكلاي : فلسفة التقدم دراسة في اتجاهات التقدم و القوى الفعالة في التاريخ مركز الإسكندرية للكتاب . 1977
- 30- حسين مروة : التزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي . 1985
- 31- حسن حنفي : في الفكر الغربي المعاصر. المؤسسة الجامعية بيروت . 1990
- 32- حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب ، الدار الفنية ، القاهرة .. 1981
- 33- حسن حنفي : محاضرات في فلسفة الدين لهيغل دار الفكر العربي .
- 34 - خالد شهاب : فلاسفة غيروا العالم ، أرسطوميكيا فيلي ومونتيسكيو دار النهضة .
- 35 - روجي غارودي : فكر هيغل ترجمة إلياس مرقص ، دار الحقيقة بيروت .
- 36 - روجي غارودي : حوار الحضارات ، ترجمة عادل العوا منشورات عويدات ، بيروت . 1982
- 37- روجي غارودي : النظرية المادية في المعرفة، ترجمة: ابراهيم قريط. دار دمشق سوريا.
- 38 - روني سيرو : هيغل والهيغلية ، ترجمة أدونيس العكره، دار الطليعة بيروت . 1993
- 39 - ريمون روية : نقد المجتمع المعاصر ، ترجمة عادل العوا منشورات عويدات بيروت . 1978
- 40 - راغاهافان : تقديم الهند، ترجمة عبد الحق بن شجاعه علي . دار الطبع أميراستا نيودلهي .

- 41 - زكرياء ابراهيم : فضل الحضارة العربية الإسلامية على العالم . دار الفكر بيروت .
- 42 - زكي نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة . لجنة التأليف والترجمة والنشر . ج 1 . 1967 .
- 43- سليمان الخطيب : أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، دار الطليعة بيروت .
- 44- سيدي هوك : البطل في التاريخ ، ترجمة مروان الجابري بيروت .
- 45- طوماس كارليل : في الأبطال وعبادة البطولة ترجمة : تيسير شيخ الأرض . دمشق .
- 46- عبد الله السيد ولد أباه : منظومة القيم من مقتضيات الكونية وحق الاختلاف
- 47- عبد الله ابراهيم : المركزية الغربية المركز الثقافي العربي بيروت . 1997 .
- 48- عبد الرزاق قسوم : فلسفة التاريخ من منظور إسلامي . دار الكلمة للنشر والتوزيع (ط1) 2005 .
- 50- عبد الله العروي : ثقافتنا في ضوء التاريخ ، المركز الثقافي العربي ط4 1997 .
- 51- عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة . تحقيق وتقديم علي عبد الواحد وافي ، مطبعة بولاق . مصر .
- 52- عائشة عبد الرحمن : القرآن الكريم وقضايا الإنسان ، دار المعارف القاهرة .
- 53- عفت الشرقاوي : فلسفة الحضارة ، دار النهضة لبنان . 1981 .
- 54- علي زعيور : الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة و الإصلاح ، المكتب العالمي للطباعة .
- 55- عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي ، دار الشهاب للطباعة والنشر الجزائر 1984 .
- 56- عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين، بيروت .
- 57- عبد الفتاح الديدي : نوابغ الفكر الغربي في القرن العشرين ، هيغل دار المعارف . 1968 .
- 58- عماد حاتم : أساطير اليونان ، دار الشرق العربي بيروت . ط2 / 1994 .
- 59- عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، دار الطليعة بيروت .. 1971 .
- 60- عبد الله بوقرن و آخرون : أرسطو وامتداداته الفكرية ، دار الهدى الجزائر .
- 61- غاندي : قصة تجاربي مع الحقيقة . ترجمة منير البعلبكي دار العلم للملايين بيروت (ط5) . 1981 .
- 62- غاندي : قصة اللاعن في جنوب افريقيا . ترجمة منير البعلبكي . دار العلم للملايين بيروت .
- 63- فولتير رسائل فلسفية . ت: عادل زعيتر . دمشق .
- 64- فريديريك أنجلز : فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ترجمة محمد العربي .

- 65- فويرباخ : مبادئ فلسفة المستقبل، ترجمة إلياس مرقص ط1 دار الحقيقة بيروت..1975
- 66- فلاديمير أيليتش : لينين الدولة والثورة، ترجمة إلياس شاهين دار التقدم موسكو
- 67- فيلهوهارلي وآخرون : صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تعريب الطاهر لبيب . مركز دراسات الوحدة العربية . 2002.
- 68- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، والإنسان الأخير ترجمة : مطاع صفدي مركز الإنماء القومي العربي .
- 69- فؤاد كلين ل. باور : الفكر الأوروبي الحديث ترجمة أحمد حمدي محمود. هيئة الإتصال والتغيير .
- 70- قاستون بوتول : الحرب والمجتمع . ترجمة عباس الشربيني .مراجعة وتقديم : محمد علي محمد. ط1 دار النهضة . 1973
- 71- قريقوري وايدقري : التاريخ وكيف يفسرونه ، من كونفوشيوس إلى توينبي ترجمة : عبد العزيز توفيق أجاويد . الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1972.
- 72- كانط إيمانويل : نظرة إلى التاريخ العام بالمعنى العالمي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي . دار النهضة العربية القاهرة . 1970.
- 73- كانط إيمانويل : مشروع السلام الدائم ، ترجمة عثمان أمين. الهيئة المصرية العامة . 2000.
- 74- كامل محمد عويضة : الأعلام من الفلاسفة . هيغل دار الكتب العلمية بيروت.. 1993
- 75- ليود سبنسر أندرزجي كروز : هيغل ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة 2002..
- 76- مالك بن نبي : شروط النهضة. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر - بيروت
- 77- مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر ط5 ، 1986.
- 78- مالك بن نبي : تأملات ، دار الفكر ، بيروت ط5، 1991.
- 79- محمد عماره : أبو الأعلى المودودي و الصحوة الإسلامية، دار الشرق القاهرة 1991 .
- 80- ماركس أنجلز : الماركسية والجزائر، ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت 1987 .
- 81- ماركس : حول الهند والجزائر ، تعريب وتقديم ، شريف الديشوني. دار ابن خلدون . 1980.

- 82- ماركيز هربرت: العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكرياء الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. مصر 1970.
- 83- مونتيסקيو : روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر ، دار النهضة ،
- 84- محمود حمدي زقزوق الإسلام في مرآة الفكر الغربي ، دار الفكر العربي (ط4) 1994.
- 85- محمد مهدي شمس الدين : حركة التاريخ عند الإمام علي بن أبي طالب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1985.
- 86- محمود الخضري : لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين . دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة 1992.
- 87- محمد شمس الدين السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دار الكتاب العربي بيروت .
- 88- محمد عابد الجابري : التراث والحداثة : دراسات ومناقشات المركز الثقافي العربي بيروت 1991.
- 89- نور الدين حاطوم : تاريخ الحركات القومية . دمشق .
- 90- ولتر ستيس : فلسفة هيغل ، الدار القومية. دمشق.
- 91- وولش : مدخل إلى فلسفة التاريخ ترجمة أحمد حمدي محمود. مؤسسة سجل العرب القاهرة..1962
- 92- زكريا إبراهيم : عبقریات فلسفية هيغل أو المثالية المطلقة ج2 دار مصر للطباعة.
- 93- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار القلم بيروت لبنان.
- 94- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط. دار المعارف مصر ط2 1982.

### رابعاً - المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

#### 3-المصادر :

- 1- **Hegel** : La raison dans l'histoire : trad. K. Paraisonnoi, coll.10.18, Paris, 1985.
- 2- **Hegel** : Lecture on the philosophies of history, eng, transl, by sibree.
- 3- **Hegel** : Leçons sur l'histoire de la philosophie.
- 4- **Hegel** : phénoménologie de l'esprit, Gallimard, Paris, 1993.
- 5- **G.W.F** : Hegel on art, religion philosophy, introduction lectures to the realm of absolute spirit, Ed and with introduction by J.G. Lenn Gray, Harper torch looks, New York, 1970.
- 6- **Hegel** : Principes de la philosophie du droit, trad. France, Ed Gallimard, 1967.
- 7- **Hegel** : Esthétique, premier volume, trad S. Jank Elévitch, Ed Flammarion, 1979

#### 4-المراجع :

- 1 – **Alexandre Kogève** : Introduction à la lecture de Hegel, en guise d'introduction, ed, tel, gallir mard.
- 2- Dictionnaire des auteurs, ed : robert laffont, T1 Grand Bretagn , 1980
- 3- **Erich Fromm** : Marx's concept of man, Frederick Unger, publishing co, New York, 1963
- Francise . Fukuyama** : La fin de l'histoire et le dernier homme,
- 4- Grand la Rousse : librairie la rousse, tome troisième.
- 5- **Husserl Edmond**: La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendentale, ed gallir mard.
- 6- **Husserl** : Méditation cartésiennes vrin, 1969
- 7- **Howard. P Kaina** : Hegel's philosophy of right with Marx's commentary, martiners nuh off the lagne, 1974
- 8- **Herber** : idées sur la philosophie de l'histoire de l'humanité, tra-par Edger Quinet, T1, F.G, Levraut, paris, 1827
- 9- **John Eduard Toeus** : Hegelianism, Cambridge university press, London, New York, 1980.
- 10- J.Herber : idées sur la philosophie de l'histoire de l'humanité, tra-par Edger Quinet, T1, F.G, Levraut, paris, 1827

- 11- **Karl Marx** : Critique of political economy, international publishes, New York, 1976
- 12- **Karl Marx** : Letter to Ludwig feedback, selected writings, edited by David Melellan
- 13- **Kant** : Critique de la raison pratique in : œuvres philosophiques des prolégomènes aux écrits de 1771, Gallimard, Paris, 1985
- 14- **Kant** : Leçons de métaphysique présentation traduction et notes par Monique Castillo préface de Michel Meyer, Paris, librairie générale française, coll le livre de poche, 1993
- 15- **Kier Kegerd** : Concluding unscientific postscript, translated by David. F. Swenson and Walter lowrie, pricentou university press, 1944.-
- 16- **K.R. Popper** : « the open society and its enemies » voli routledge began , paul, London 1968
- 17- Rousseau, du contrat social livre 1, Id, champs flamation , Paris, 1922.
- 18- **Martin Heidegger** : Hegel et les grecs, Gallimard, 1968.
- 19- T.G.Bergin et M.T jisch : the new Scienza nouva tramal, by: the new science of giambattista vico
- 20- Vera Parameto : augustin, le message d'une vie, traduit par Noel Bugnard le centurion
- 21- Vocabulaire technique et critique de la philosophie Lalande.

### خامسا:الدوريات

الدورية	الكاتب	عنوان المقال	العدد	السنة	الهيئة
الفكر العربي المعاصر	ألكسندر كوجايف جدلية العبد والسيد	1999	115-114		مركز الإنماء القومي الكويت
	احمد أبو زيد إفريقيا ومشكلة البحث عن الهوية		04يناير ، فبراير، مارس	1988	
	مطاغ صفدي نهاية التاريخ، بيان الطيماسية المظفرة		06	1993	
الثقافة	عبد الحمدي بن هدوقة .الحرب اللامتكافأة		جوان	1983	وزارة الثقافة، الجزائر
إسلامية المعرفة	عز الدين عبد المولى، في الرؤيا الغربية للحدثة		04	90	المركز الإسلامي العالمي
الفيصل	عبد السلام محمد الطويل ، توظيف غير علمي لمصطلح علمي		277 أكتوبر ، نوفمبر	1999	المملكة العربية السعودية
الهلال	جمال حمدان ، إستراتيجية الاستعمار التحريري		205 أبريل	1968	جمهورية مصر العربية
جريدة العالم السياسي	الفكر الاجتماعي عند مالك بن نبي		17	1995	
محنة الفكر العربي	أبابا نيت ، قبس من فلسفة غاندي		10-09		بيروت
المجلة التونسية للدراستات الفلسفية	فتححي المسكيني ، الهيغلية المتجددة		12	ماي 1992	تونس



## سادسا: الدراسات الأكاديمية:

- 1- رشيد قوقام: فلسفة التاريخ عند هيغل ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر .السنة الجامعية 1998-1999.
- 2-علي سعد الله: نظرية الدولة في فكر ابن خلدون وهيغل، رسالة دكتوراه مخطوطة بعنوان "نظرية الدولة في فكر ابن خلدون وهيغل وأثر الفكر الخلدوني في الفكر الأوروبي" ، السنة الجامعية 2004-2005 ، جامعة منتوري، قسنطينة .
- 3-عبد الله بوقرن: الهوية في الفكر الجزائري الحديث، رسالة ماجستير مخطوطة ، جامعة منتوري، قسنطينة، . جويلية 1999.

## سابعاً: المعاجم والموسوعات:

- 1- -جميل صليبا: المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج2، 1979.
- 2-روزنطال : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2،بيروت، لبنان، 1980.
- 3-روني إيلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأعاجم، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992.
- 4-عبد الرجمان بدوي : الموسوعة الفلسفية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، ج1، 1984.
- 5-عبد الكريم بوالصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرون، منشورات مخبر الدراسات الفلسفية والتاريخية جامعة منتوري، قسنطينة ، 2004.
- 6-عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مذبولي ، القاهرة، 2000.
- 7-عبد الواهب الكيالي : موسوعة الفلسفة ندار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1986.
- 8-ميخائيل أنود: معجم مصطلحات هيغل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2002.

## فهرس المواضيع:

الصفحة	العنوان
أ- ز	المقدمة
01	الفصل الأول: التعريف بمصطلحات العنوان
	أولا : الآخر نبذة تاريخية حول تطور مفهوم الآخر

## التاريخ الأصلي

مثلما فعل قدماء

اليونان هيروdot

توكيديدز

عند الرومان نجد شروح

قيصر ومذكراته أثناء غزوه

لبلاد الغال Gaul

في العصور الوسطى

مذكرات الرهبان

كتابة التاريخ في العصور

الحديثة الكاردنال الفرنسي

جون فرانسوا دي

ريتز J.F.De Rotz

## التاريخ النظري

قريب من الأصلي كثيرا ما

يسقط الباحث مصطلحات

عصره على الماضي

التاريخ العملي أو

البرجماتي

التاريخ النقدي

التاريخ الجزئي

تحدث عن جزء من

تاريخ الإنسانية

## التاريخ الفلسفي

الوعي الفكري أو الحرية وقد

شهدها اليونان والرومان

جزئيا وبلغت ذروتها عند

الأمم الجرمانية

العقل يسيطر على العالم

تاريخ العالم مسارا عقليا مند

اليونان مرورا بالرومان

وصولاً إلى الجرمان

الروح إنتقلت من الشرق من

بلاد فارس ومصر إلى اليونان

والرومان ووصلت إلى حدودها

القصوى عند الجرمان

مناهج كتابة التاريخ عند هيغل